محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموازين الخلقية

فهرس

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

تم الفهرس

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
الشريعة	الشريفة	١٤	٣
المستشرفين	المستشرقين	١٧	٤
وكانت	وكان	٤	٥
ينتحل	يتلمس	١٠	٦
تفصل	تفصيل	٤	٧
غَشَاوة	غِشَاوة	١٢	١٣
الفطرية	النظرية	١٤	١٦
تقدوا	تقدروا	١٤	١٧
رَدَاءةُ	رَدَاءةَ	٢٣	١٨
سوءُ	سوءَ	٢٣	١٨
الحقه	الحقيقة	٢١	٢٦
ينطبع	وينطبع	١٢	٣٠
المخترعان	المخترعين	١٢	٣٧
مها	مهما	٥	٣٩
اسديه	لمسديه	٧	٤١
ودعها	أودعها	١٥	٤٨
يخلتفان	يختلفان	٩	٥٥
اللهَ	اللهُ	٤	٦٢
أبلها	أبله	٢٢	٦٤
وحسن	وأحسن	١٨	٦٦
مناخها	جوها	٢	٦٨
تشيد	تشييد	٢٣	٧٠

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
غَشاوه	غِشاوة	٢٠	٧٣
أخذ	أخذوا	١٩	٧٤
فيلها	فيها	١١	٧٦
إن شب	إن تهمله شب	١١	٧٧
حسه	حثه	١١	٨١
جوستاف پون	جوستاف لوبون	٥	٨٣
وجبت	وحببت	١٤	٨٧
بيله	سبيله	١٥	٨٧
رحلٍ	رجلٌ	١	٨٨
شئتَ	شئتُ	٢	٨٨
تلك	وتلك	١	٩٢
الشبان	الشباب	٢١	٩٦
فبين	فبين	١٠	١١٨
الحياءَ	الحياءِ	٨	١٢٨
الكبر	الكبَر	٣	١٣٣
بتربيته	بتربيته	٢٤	١٣٥
تؤمل	تؤمن	٢٠	١٣٦
يستعيذه	يستعيده	٢٢	١٤٠
مهما	مهم	٢٢	١٤٢
لق	علق	٢٢	١٤٢
لقائه	لقاءه	١٧	١٤٤
سهل	فسهل	١	١٤٨
المذموم	المذمومة	٨	١٥٩
على العنعود	عن العنقود	١٣	١٦٤
أثيرا	تأثيرا	٢٣	١٦٧
يفتل	يفلت	١	١٨١

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
بما	ممن	٩	١٨٥
لونى	لولى	١٤	١٨٨
التاسع	الثامن	١٦	٢٢٨
تعط	تعطى	٤	٢٣٠
الناس بخير الخ	مثل لاحديث	١٦	٢٣٩
التقدر	التقدير	٦	٢٤٤
يَنْتَفِع	يُنْتَفَعُ	١٠	٢٦٢
المنبَت	المنبِت	٧	٢٦٣
خيارا	خيرا	١٩	٢٧٠
وحتى	ومتى	٩	٢٧١
وخارج	خارج	٢٢	٢٧٢
إليها	إليه	٢٤	٢٧٣
اليش	العيش	١٤	٢٩١
مايفيدوالدين	مايفيدأن	٣	٢٩٣
النبيء	النّبىء	٩	٢٩٤
واحد	واحدة	٢٠	٢٩٤
تكوّن	تكوّن	١	٢٩٩
لعمل	العمل	٢	٣٠١
نجحت	نجمت	١٥	٣٠٢
مفارقة	مقارفة	٢٣	٣١١
عن اقتراف	اقتراف	١٨	٣١٣
ممايتفق	ممالايتفق	١٠	٣٢٠
وتمحيس	وتمحيص	١٨	٣٢٤
من أعظم الأديان	أعظم الأديان	١	٣٣٣ ، ٣٣٤
وقتلَه	وقتلُه	٥	٣٣٩
من	عن	٥	٣٤٢

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
أو	أن	١١	٣٤٢
مايعنيك	مايغنيك	١٥	٣٥٦
هال	هان	٨	٣٥٧
مه	منه	١٣	٣٦٤
لوكنت أنا أنت... لم أكن أنا أنت	لوكنت أنا إياك... لم أكن أنا إياك	١	٣٧٦
وألاَّ برء	وأن لا برء	١٨	٣٧٩
النفس	النعش	١٩	٣٨٤
تحتكه	تحنِّكه	٢١	٣٩٨
جزأ	جزءا	٩	٣٩٩
بلى	بل	٢١	٣٩٩
يطلب	يطلبه	١٨	٤٠٠
وعشرين	أوعشرين	٦	٤١٥
لِكَيْ لا تأسوا	لِكَيْلاَ تأسوا	١	٤٢١
لإشراب	لإشرابهم	٢٣	٤٢١
وَلْيَأْخذُا	ولْيَأْخذُوا	٩	٤٢٧
الرضا !! بالحال ؟	الرضا بالحال ؟ !!	٢	٤٤٠

انتهى

الخلق الكامل

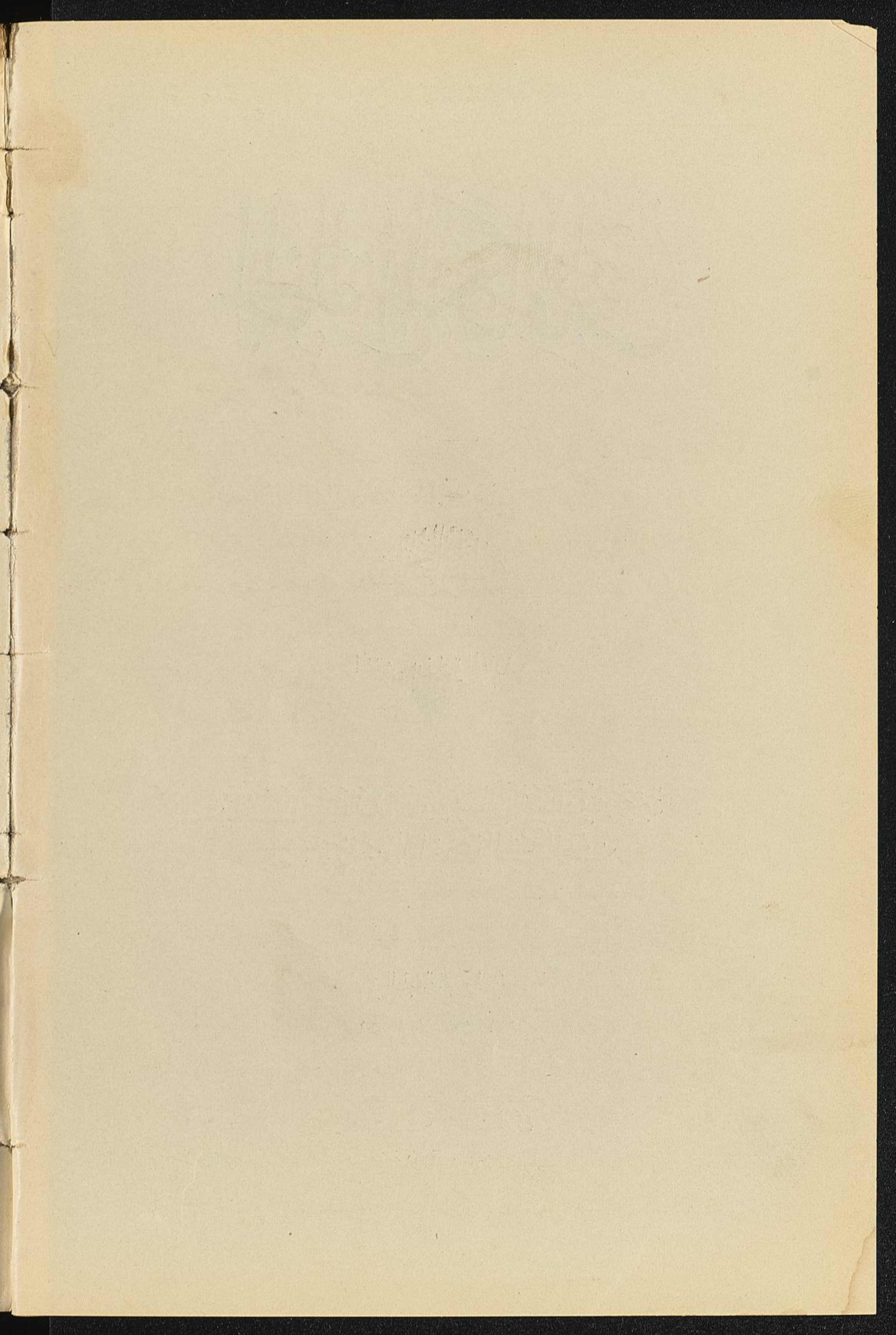
تأليف

محمد أحمد جاد المولى
بك
المفتش بوزارة المعارف

يطلب من المكتبة التازية بشارع الصنادقية بمصر
لصاحبها عبد الواحد محمد التازى

(الطبعة الأولى)
١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

مطبعة حجازى
تليفون رقم ٥٥٤٨٠



تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

منزلة علم الاخلاق

الحمد لله الكريم الخلاق ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق (وبعد) فان علم الأخلاق من أشرف العلوم ان لم يكن أشرفها ، إذ أن قيمة المرء فى الحقيقة تقدر بأخلاقه وأعماله ، لا بجسمه ، ولا بعلمه ، ولا بماله ، ففى الحديث الشريف « إنَّ اللهَ لاَ يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وَأموَالِكمْ وَإنَّمَا يَنظُرُ إلى قلوبكمْ وَأعمَالِكمْ » .

ومن كلام علىّ (قِيمَةُ كلِّ امرِىءٍ مَايحسِنهُ)

« وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا »

ارتباطه بالدين

من تأمل مقاصد الأوامر ، والنواهى الدينية ، وتغلغل فى أسرارها ، عرف أنها ترمى إلى غرض واحد ، هو طهارة النفس ، وكمالها الانسانى ، الذى تسعد به فى الدنيا والآخرة ، أنظر قوله تعالى « وَالعَصْرِ إنَّ الإنسَانَ لَفِى خسْرٍ . إلاَّ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبرِ » تجد أن فلاح الانسان منوط بسلامة عقيدته ، وصلاح أعماله ، ومتانة أخلاقه . وقال صلى الله عليه وسلم (إنَّمَا بعثتُ لِأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخلَاقِ) فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثته الشريفة ، وأثار الاهتمام بالأخلاق بقوله : (أثقَلَ مَا يوضَعَ فِى المِيزَانِ الخلق الحَسَن) وقال الحكماء (إن اعتدالَ الأخلاقِ فى الانسان قد يكون السبب وحده فى سعادته) .

الحاجة إليه

من البدهى أنه كلما انتشرت الأمراض ، اشتدت الحاجة إلى علم الطب لمقاومتها ، وإنقاذ الناس من فتكها ، وكذلك كلما انتشرت المفاسد ، ازدادت الحاجة إلى علم الأخلاق ، ومضاعفةِ العناية بتهذيب النفوس وصقلها ، فهو طبها وواصف أدوائها .

ولئن كان الانسان فى حاجة الى العلوم ، فهو إلى الأخلاق أحوج ، لأن ما يصيبه من الظلم ، وما يفشو بين أفراده من الاجرام ، منشؤه نقص الأخلاق ، أكثر من أن يكون منشؤه نقص العلم ؛ فان العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء . أما علم الأخلاق فظهير الفضيلة ، وخصيم الرذيلة .

الفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلى بالواجب . ولا يكون المرء فاضلا لمجرد أنه يعلم ما يجب عمله ، بل الفضل فى أن يعمل ما يجب عمله ، ويترك ما يجب تركه . فكأى من عالم موسر يمر بذى الحاجة فيعرض عنه مع علمه بفضل مساعدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف . وكم من جاهل سليم القلب تحمله سلامة قلبه على قضاء حاجته .

لست أحاول أن أبخس العلم حقه ، ولكنى أريد ألا تتجه رغبتنا الى محاربة الجهل فقط ، فالمتعلم السيء الخلق أضر من الجاهل .

ولقد كان يسرنا أن تكون الأخلاق شنشنة المتعلمين . ولكن كثيراً ما نرى غير هذا . قال أحد المستشرقين (إن غير المتعلمين فى مصر أزكى أخلاقاً من المتعلمين) وليس لهذا من سبب سوى أنهم لم يأخذوا قسطاً من العلم الصحيح ، ولم يتزودوا من الأخلاق الفاضلة ؛ لأن القوى الموهوبة إن لم يأخذ بزمامها قائد الأخلاق الفاضلة كانت آلات الشرور ؛ فمن كان ذا جاه وكرمت أخلاقه استخدم جاهه فى مساعدة الضعفاء ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وإذا ساءت أخلاق ذى الجاه ، توصل به الى الشر ، كذلك من أُعطى المال ، إن كان حسن الأخلاق ، بذله فى صنوف الخير ، وإن كان شريرا ابتاع به شرا ؛ والكاتب إذا لم يكن أميناً كانت معرفته الكتابة وسيلة

تمكنه من تزوير العقود والوثائق وإيقاع الناس فى المشاكل ، والحداد إذا لم يكن أميناً اشترك مع اللصوص ، وصنع لهم المفاتيح التى تساعدهم على السرقة ، والفتاة المتعلمة إن لم تكن كريمة الأخلاق ، فانها لا تجنى من تعلمها سوى الخلاعة ، والخروج على الأخلاق والآداب المرعية ، وكانت ضررها أكبر اذا تولت مهنة التعليم . والمدره إذا لم يكن صادقاً أضل القاضى ، وضيَّع الحقوق ، وساعد على أكل أموال الناس بالباطل ، وهلم جرا .

أمثلة من نقائصنا الخلقية

١ من النقص الخلق أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله ، فرحا بقدرته على النطق ، جاهلا أنه خير للولد أن يكون أبكم من أن يكون سبَّابا .

٢ ومن النقص الخلق احتقار الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة وكثير ممن قطعوا بعض مراحل التعليم يترفعون عن مزاولة هذه الحرف

٣ ومن النقص الخلق لطم الخدود والعويل على الشبان الذين يجندون لخدمة بلادهم والدفاع عنها .

٤ ومن النقص الخلق احتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة ، والتعلق بالعادات الغربية وإن كانت سيئة .

٥ ومن النقص الخلق الانغماس فى الترف ومحاكاة الفقير الغنى .

٦ ومن النقص الخلق تطلع الشبان إلى الزوجات الغنيات وإن كن وضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات إلى الأزواج الأغنياء وإن كانوا فاسدى الأخلاق .

٧ ومن النقص الخلق أن نرى نصرة العدالة ضعيفة ، فالرجل يشهد الزور ويحلف اليمين الغموس إرضاء لنفسه ، أو صديقه ويعتبر ذلك دينا له يسترد عند الحاجة ، والمدره يعرف أن موكله ظالم مجرم ومع ذلك يدافع

عنه ويعتبر ذلك مهارة . وكذلك من يعرف حقيقة الأمر ويكتم الشهادة ويتوارى عن الأنظار .

٨ ومن النقص الخلقي أن نرى القراء يقبلون على الروايات الهزلية الممقوتة ويضربون صفحاً عن الكتب القيمة .

٩ ومن النقص الخلقي أن نرى موظف الحكومة يأخذ راتبه من مال الأمة ليخدمها . ولكنه ينسى واجبه ويترفع عن خدمة أفرادها ، وكثيراً مايهتم بشئونه الخاصة ويهمل واجبه فيعطل مصالح الناس ، بل قد يتخطى هذا الى استخدام مركزه الحكومي في قضاء مآربه المعيبة .

١٠ ومن النقص الخلقي تكدر الموظف عند انتقاله الى جهة نائية لا لسبب غير أنها نائية ، وينتحل الأعذار ، ويوسط الكبراء لالغاء النقل ، مع أنه يرى الأجانب يضربون في الأرض ، ويتجشمون الصعاب .

١١ ومن النقص الخلقي الامتعاض من سماع الحق ومقت قائله ، والاطمئنان الى أهل الباطل والنفاق والرياء .

١٢ ومن النقص الخلقي ازدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهترين ، وتكريم الزنادقة والملحدين .

هذه بعض عيوبنا الخلقية ، ولكننا كما نرى معاول اضمحلال وانحلال ولا دخل للعلم فيها ، بل القسم الأكبر منها يتفشى الطبقات المتعلمة .

وقد أخذنا أنفسنا بأن نجمع في كتابنا هذا من الآراء الخلقية بين ما ارتضاه

فلاسفة الغرب في بحوثهم ، وذهب اليه حكماء الشرق في مؤلفاتهم ، مستضيئين في ذلك بنبراس كتاب الله تعالى ، ومسترشدين بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وما كان لنا أن نحيد عن ذلك في أحدث كتاب يبحث في فلسفة الخلق ، ويصف أقوم الطرق إلى تكوينه وتزكيته .

لأن فلاسفة الغرب - وان كان يرجع إليهم فضل السبق في بحث أمهات الفضائل - لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لها حدا فاصلا بين ما يحقق الفضيلة ،

ومالا يحققها : فانهم لم يذكروا متعلق العفة ، ولا عن أى شىء تكون ، ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه المرء وقع فى الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح ، وكذلك الشجاعة .

وأما الدين الاسلامى فقد بين ذلك غاية البيان ، وفصله أحسن تفصل فى غير موضع من القرآن الكريم . وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر آية من القرآن الكريم جمعت قواعد الأخلاق ، وحددتها أدق تحديد ، قال تعالى :ـ « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ » فهذه الأنواع الأربعة التى حرمها القران الكريم تحريما مطلقا لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ، ولا فى حال من الأحوال ، ولا كذلك الميتة والدم ولحم الخنزير مثلا : فانها تحرم فى حال وتباح فى حال ، وأما تلك الأربعة فهى محرمة دائما : فالفواحش مرتبطة بالشهوة ، واعتدال قوة الشهوة فى اجتناب هذه الفواحش ، والبغى بغير الحق مرتبط بالغضب ، واعتدال القوة الغضبية فى اجتناب البغى .

والشرك بالله ظلم عظيم ، بل هو الظلم على الاطلاق وهو مناف للعدل والعلم ، وقوله تعالى : (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا) متضمن تحريم أصل الظلم فى حق الله ، وذلك يستدعى إيجاب العدل فى حقه ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، فان النفس لها القوتان : ــ العلمية والعملية ، وعمل الانسان اختيارى تابع لارادته وكل إرادة لها مراد ، وهو إما مراد لذاته ، وإما مراد لغيره ينتهى الى المراد لذاته . والقوة العملية تستدعى أن يكون للنفس مقصد تكمل بتحققه ، فان كان ذلك المقصد مضمحلا فانياً ؛ زالت الارادة بزواله ولم يكن للنفس مقصد غيره ، ففاتها أعظم سعادتها وفلاحها .

ولذلك وجب أن يكون مقصد النفس الذى تكمل بتحققه والاحتفاظ به وإيثاره ؛ باقياً لا يفنى ولا يزول ، وليس ذلك الا الله وحده .

ذلك ما ينطوى عليه قوله تعالى : (وَأَنْ تشرِكوا باللهِ مَالمْ ينزِّلْ بِهِ سلْطَانًا)
أوردنا هذا لبيان أن فلاسفة الغرب لم يوفقوا الى فهم ذلك عند الكلام
على كمال النفس ، وانما جعلوا كمالها فى اعتدال قوتى الشهوة والغضب ،
ومعلوم أن الشهوة جلب ما ينفع البدن ويبقى النوع ، والغضب دفع ما يضر
البدن ، وليس فى ذلك تحديد للمطلوب ، ولا بيان للمقدار المحبوب ، بل هو وقوف
بالأخلاق عند حد العلم بها زعماً منهم أن مجرد العلم بها كاف فى كمال النفس .
وذلك خطأ من وجوه كثيرة : —

١ منها أن ماذكروه فى كمال القوة العملية إنما غايته إصلاح البدن الذى هو
أداة النفس ، ولم يذكروا كمال النفس الارادى والعمل بالمحبة والخوف والرجاء .

٢ ومنها أن كمال النفس فى العلم والارادة ، لا فى مجرد العلم ، فان مجرد العلم
ليس بكمال للنفس مالم تكن مريدة محبة لمن لا سعادة لها إلا بارادته ومحبته .

٣ ومنها أن كمال النفس ورقيها الروحى المستفاد من الرسل صلوات الله
وسلامه عليهم ، ليس ذا أثر ظاهر عندهم .

٤ ومنها أنهم أخطأهم التوفيق فى بحوثهم الالٰهية لعجزهم عن تحديد
الفضائل تحديدا يحول بينهم ويأخذ بحجزتهم عن التورط فى الزيغ ، وتنكب
جادة ، الحق

من أجل هذا توخينا ألا نورد إلا المستحسن من آرائهم ، والمرضى
من مذاهبهم ، ليكون ذلك أعم فائدة وأوفر عائدة .

وإن لى فى العماد الأصفهانى لأسوة إذ يقول : (إنى رأيت أنه لا يكتب
الانسان كتاباً فى يومه إلا قال فى غده : لو غـيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو
زِيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان
أجمل ، وهذا من أعظم العِبَر . وهو دليل على استيلاء النقص على البشر) والله
سبحانه المسئول والمرغوب اليه والمأمول أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه
وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، إنه
قريب مجيب ، آمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

الفلسفة الخلقية

تعريفها

هى علم يبحث عن السنن الخلقيـة التى يجرى عليها العالم ويتخذها معياراً توزن به أعمال البشر وأقوالهم وأحوالهم فى معاشهم ومعادهم ، ويبين لهم كيف يجب أن يعيشوا لا كيف يعيشون ، ولهذا أسماه بعضهم علم ما يجب وعَنَوْا بذلك القواعد التى يجب أن يسير الانسان على مقتضاها ليتم لنفسه ماهى جديرة به من الكمال والرفعة ، وتبلغ ماهى حرية به من الخير ؛ وكذلك يبحث فى نزعات بنى الانسان ونزغاته ، وما اعتادوه من الأعمـال والأقوال ويكشف الغطاء عن حقيقتى الخير والشر ، والغاية التى يعد الدنو منها قربا من الأول والبعد منها قربا من الآخر . ولما كان مبحث الخير هو الغاية التى ينشدها الخلقى غلا بعضهم فعرف علم الأخلاق بأنه علم الخير والارشاد إليه .

موضوع الفلسفة الخلقية

موضوعها : أعمـال بنى الانسان الاختيارية الصادرة عن قصد وروية . فخرجت الأعمـال التى لا سلطان للارادة عليها كالتنفس وماشابهه ، وهناك أعمال شبيهة بالأعمال الاختيارية والأعمال الاضطرارية فيلتبس أمرها على غير الناقد البصير ، ولذلك وجب أن نكشف الغطاء عنها ، لنبين فى أيهما تدرج والمثل خير موضح : من الناس من اعتاد أن يهب من نومه وهو حالم فيأتى من الاعمال خـيرها وشرها ، فربما أنقذ طفلا كاد يهوى من النافذة ، أو أحرق منزلا . أفنحكم على عمله خلقيا بأنه خـير فى الحال الاولى وشر فى الحال الثانية ؟ ومنهم من ابتلى بالسهو والنسيان ، فتفوته أعمال كان حقا عليه أن يعملها : فربما علم أن جماعة يأتمرون بتدمير مصنع ، أو نسف قطار فيهما خلق كثير انتقاما من رب المصنع ، أو حاكم غاشم فى القطار ، ثم نسى كعادته

أن ينبه على درء البلية ، أفتلق عليه التبعة ، ويحكم عليه بأنه شريك خلقيا للجناة فى جريمتهم ؟ ومنهم من ابتلى بحدة الخلق ، وسرعة الغضب بحيث لا يستطيع الصبر على سماع كلمة تؤلمه ، أو اشارة تؤذيه إذا أكثر من الاختلاف إلى الأندية وغشيان المجالس ؛ تلقى عليه التبعة ، ويؤاخذ على بوادره ، وإن كانت خارجة من إرادته ؟

الحق أن أعمالهم جميعاً فى الامثلة الثلاثة مؤاخذون عليها خلقيا ، لأن قواعد الاخلاق توجب أن يحتاط المرء لدرء شر الحالات التى يكون فيها مسلوب الارادة ، فالنائم والساهى فى المثالين الاولين عليهما تبعة إهمال اتخاذ الحيطة والحذر . والغضب فى المثال الثالث لا يبرىء صاحبه من اللوم والمؤاخذة ، لان له مندوحة عن الخصام والتنازع ، بانكفافه عن التردد إلى المجالس التى هى عادة مثار المراء ومباءة الخصام

قال الفخر فى تفسير قوله تعالى : «رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» ما ملخصه ان العقل يحكم بالعفو عن الناسى لانه لا يجوز تكليف مالا يطاق وقد جاء السمع مؤيدا لذلك ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأ وَالنِّسْيَان وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) فاذا كان النسيان فى محل العفو قطعا ، عقلا وشرعا ، فما معنى طلب العفو عنه ، فى الدعاء ؟ ويجاب عن ذلك بأن النسيان منه مايعذر صاحبه فيه ومنه مالا يعذر ، ألا ترى أن من رأى دما فى ثوبه فأخر إزالته إلى أن نسى فصلى وهو على ثوبه عد مقصرا ؟ إذ كانت تلزمه المبادرة إلى إزالته ، وأما إذا لم يره فى ثوبه فانه يعذر فيه ، ومن رمى صيدا فى موضع فأصاب إنسانا ، فقد يكون بحيث لا يعلم الرامى أنه يصيب ذلك الصيد أو غيره ، فاذا رمى ولم يتحرز كان ملوما ، أما اذا لم تكن أمارات الغلط ظاهرة ثم رمى وأصاب إنسانا ، كان هاهنا معذورا وصفوة القول ، ان الناس يؤاخذون فى ترك التحفظ قصدا وعمدا . ولقد ألمع الغزالى رضوان الله عليه الى ذلك فى إحيائه إذ يقول : قد ينظر الانسان إلى وجه حسن فيميل

إليه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة ، لتأكد ميله حتى يخرج من أمر اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، وكان حقا عليه أن يفطم نفسه ابتداء ، ويزجر ميله دفعا لبلوغه حالا يصبح فيها مسلوب الارادة ، وماذلك بمنجيه من اللوم والتبعة .

فجدير بالعاقل ألا يغفل عن محاسبة نفسه ، ومراقبة حركاتها وسكناتها وما عساه أن يتأصل فيها من العادات الذميمة ، ويحذرها مغبة الاهمال ، حتى لا تسهل عليها مقارفة العمل السيء فتصبح عادة لازمة . والتقى من كان أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح .

أعلم الاخلاق نظرى أم عملى ؟

ذهب بعض الفلاسفة الخلقيين وهم النفعيون(١) الى أن علم الاخلاق عملى ، وزعموا أنه يمكن تحديد غاية معينة يجب أن يسعى اليها الناس جميعا هى فى عرفهم : أن ينال جل الناس أكبر قسط من الهناءة ، وأنه يجب على الخلقيين أن يبتكروا خير الوسائل لبلوغ هذا المقصد ، كما يجب على الاطباء أن ينقبوا عن أمثل الطرق الى توفير أسباب الصحة وتحصيلها . وذهب الجمهور الى أنه نظرى وعنَوا بذلك أنه يصور المثل الخلقى الذى يجب أن يحتذى ، والقواعد التى يجب العمل بها لمحاولة بلوغ هذا المثل ، وإنّ تناولَه البحث أحياناً فيما لدى الناس من المواضعات والعادات ، استحساناً واستهجاناً ، وفيما طرأ عليها من التبدل والتغير ، افتئات منه على علم الاجتماع الباحث فى تكوين الجماعات ، وتدرج حياتها ، والذى هو من العلوم الواقعة الباحثة فى الامور الثابتة ، فهم يرون أن مَثَل علم الاخلاق ، كمثل علم الجمال ، فعلم الجمال لا يبحث الا فى تصوير المثل الكامل للجمال ، وليس منه البحث فى وسائل تحصيله ، وكذلك علم الاخلاق لا ينقب فى رأى الجمهور إلا عن إماطة اللثام عن طبيعة المثل

(١) سيجىء الكلام عليهم فيما بعد

الكامل ، لما يجب أن يكون عليه الناس فى أحوالهم وأعمالهم .

أمَنْ يدرس الفلسفة الخلقية يصير ذا خلق ؟

قال الشيخ الاكبر سيدى محي الدين فى كتابه فلسفة الأخلاق أهم مزايا دراسة الاخلاق ما يأتى : —

(١) إنها تبين ما الخلق وما علته وما أنواعه وما المرضىُّ منه المغبوط صاحبه المتخلق به ، وما المشنوء الممقوت فاعله المتسم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة تسمو الى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص .

(٢) وتدل على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير للمرتاض به ديدناً وعادة وسجية ، يهتدى به من نشأ على الاخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادات الردية وأنس بها .

(٣) وتصف الانسان الكامل المهذب الأخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقتَه التى يصل بها الى الكمال ، وما يحفظ عليه الكمال ليشتاق إلى سَمْته من تشوق الى الرتبة العليا ، ويحن إلى احتذائه من استشرف إلى الغاية القصوى .

(٤) تنبيه من كانت له عيوب قد التبست عليه وهو مع ذلك يظهر له أنه فى غاية الكمال فان من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة تيقظ لما فيه من ذلك وأنف واجتهد فى اطراحه .

(٥) إذا تصفح الأخلاق المحمودة من كان متصفاً بأكثرها فاقدا لبعضها انبرى للتخلق بما هو فاقد له وتاقت نفسه إلى الاحاطة بجميعها .

٦ وتحث المهذب الأخلاق ، الجامع المحاسن على الاستمرار على سيرته ، والاصرار على طريقته ، إذا مر بسمعه ذكر الخلائق الجميلة والمناقب النفيسة ورأى أن تلك هى عاداته وسجاياه

(٧) دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها، وتقديرها حق قدرها، دون أن يخضع فى حكمه إلى إلف أو عادة، أو يتأثر بحكم الزمان والمكان.

(٨) وبها تقوى الارادة على عمل الخير، وسلوك السنن القويم، وتنشط العزيمة للمضى فى سبيل الفضيلة، واتخاذها نبراساً فى أعمالها.

رأينا: والحق أن مثل الخلق فى تلقينه قواعد العلم، وتوضيح مباحثه، كمثل الطبيب، يتعرف الداء، ويصف الدواء، فالطبيب لايستطيع أن يستأصل جرثومة المرض اذا أهمل المريض نصيحته وإرشاده، وكذلك ملقن الفلسفة الخلقية ومبين مزاياها، ليس فى مقدوره أن يجعل من يأخذون عنه، أو يقرءون كتابه أخياراً صلحاء، اذا هم خالفوا قواعد علمه، وانصرفوا عن الجرى على سنته ومذهبه «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاه، وَأَضَلَّه اللهُ عَلَى عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ»

أجل إن المواعظ الحسنة، وقواعد التهذيب البينة، قد تبعث العزائم فى بعض الأحايين على القيام بصالح الأعمال، وجلائل الفعال، فالموعظة كما يقول محمد بن تمام: جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الجدار، إن استمسك نفع، وان وقع أثَّر، من أجل ذلك استدعى الرشيد منصور بن عمار ليعظه، فقال له: عظنى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك؟ قال: لا، قال: إن أردت ألا تسىء الى من تحب فافعل، ودخل مالك بن أنس وابن طاوس على أبى جعفر المنصور وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ اليهما بالجلوس، فجلسا، فأطرق زمناً طويلا، ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس وقال له: حدثنى عن أبيك، قال: سمعت أبى يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ

القِيامَةِ رَجُلٌ أشْرَكَهُ اللهُ فِي مُلْكِهِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجَوْرَ فِي حُكْمِهِ) فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ، فضممت ثيابى مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس ، ثم قال : يابن طاوس : ناولنى هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ، قال : أخاف أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال : قوما عنى ، فقال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى . قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

وقال أبو بكر الطر طوشى : دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا ، وأكرمنى اكراماً جزيلا ، وأمرنى بدخول مجلسه والجلوس فيه ، فقلت : أيها الملك ، ان الله تعالى قد أحلك محلا عاليا شامخاً ، وأنزلك منزلا شريفاً باذخا ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وانما هو بالفعال والاحسان قال الله تعالى : « اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك ، إنما صار اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ماصار اليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فان الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير ، قال الله تعالى « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال تعالى « وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد آتى سليمان بن داود عليهما السلام ملك الدنيا بحذافيرها ، فسخر له الانس والجن ، والشياطين ، والطير والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . فوالله ماعدها نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها

بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ، ومكرا به ، فقال « هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغث الملهوف ، أعانك الله على نصر المظلوم ، وجعلك كهفاً للملهوف .

وكذلك العلم اذا تغلغل فى النفوس أورثها البأس والاقدام وكساها حلة العظمة واليقين ، بيد أن المتخلقين بما يعلمون ، هم الأقلون قديماً وحديثاً ، ومن أجل ذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه (انما زهد الناس فى طلب العلم ، لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم) وها نحن أولاء نرى الناس يتلون الكتب السماوية ويسمعون الحكم الخلقية ، وهم خلو من حلية التقوى وطابع الهدى لا تثنيهم يد المراقبة ولا تكفهم خيفة المحاسبة ، فهم لدعائم الاخلاق مضيعون ، ولدواعى الفساد والهوى مطيعون ، جاء فى التوراة « الرَّجُلُ الحَكِيمُ فِى عِزٍّ » وجاء فى الكتاب المقدس « كما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا » وجاء فيه أيضا « وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ » وورد فى القرآن الكريم « إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » « وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » « وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وجاء فى الحديث الشريف (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) فهل أقيمت مع هذا شريعة الانصاف ، وهدمت دعائم الاستعباد . أليس الناس يكره بعضهم بعضا ، ويتربص به الدوائر ؟ أليس سيف البغى مصلتا ، وشيطان العدوان والحرب مستيقظا ؟ حقا لقد صدق صاحب كليلة ودمنة ، إذ يقول على لسان برزويه : إنا قد نرى الزمان مدبرا بكل مكان ، حتى كأن أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزا فقده مفقودا ، وموجودا ما كان ضائرا وجوده ، وكأن الخير أصبح ذابلا ، والشر ناضرا ، وكأن الفهم قد زالت سبله ، وكأن الحق ولى كسيرا ، وأقبل الباطل تابعه ، وكأن اتباع الهوى ، وإضاعة الحكم ، أصبح بالحكام موكلا وأصبح المظلوم بالحيف مقرا ، والظالم بنفسه مستطيلا ،

وكأن الحرص أصبح فاغرا فاه من كل جهة ، يتلقف ماقرب منه وما بعد ، وكأن الرضا أصبح مجهولا ، وكأن الاشرار يقصدون السماء صعودا ، وكأن الأخيار يريدون بطن الارض نزولا ، فأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف الى أسفل درك ، وأصبحت الدناءة مُمَكَّنة ، وأصبح السلطان متنقلا عن أهل الفضل ، إلى أهل النقص ، وكأن الدنيا جذلة مسرورة ، تقول قد غيبت الخيرات ، وأظهرت السيئات .

نسبة الفلسفة الخلقية الى سائر العلوم

تمهيد

الفلسفة الخلقية : ضرب من ضروب الفلسفة العامة ، ونحن وان كنا لانقصد بسط القول فى تبيان مناحيها فى هذا المقام ، لانجد بدا من إجمال الكلام فى الرابطة بينها وبين العلوم فنقول :

الفلسفة « هى دراسة حقائق العلوم دراسة كلية » ومن أجل ذلك كانت ذات وجوه وألوان شتى : لأنه ان كان المقام مقام تعرف حقائق الكائنات وتَقَصِّى حكمة تكوينها ، سمى فى عرف الفلاسفة « الحكمة الفطرية » وان كان المقام مقام دراسة القوى العقلية ، وأحوالها وأسباب أحوالها ، وكيفية وصول المعلومات اليها سمى « علم النفس » الى غير ذلك مما لايسعه المقام

تفصيل بعد اجمال

نسبة الفلسفة الخلقية الى العلوم الطبيعية

ان دراسة العلوم الطبيعية تكسب صاحبها ملكة الحكم على عواقب ما يشاهده من اعمال الناس وسيرهم ، وان كانت لا تفيده معرفة الأصول

الخفية التى انبعثت عنها هذه الأعمال والسير . أضف إلى ذلك أن العلوم الطبعية تمكن الخلق من تعرف البيئة ، ومبلغ أثرها فى حياة الانسان وعقله وتصوراته ، وما تجلبه إليه من الخير أو الضير ، ومن أجل ذلك قد اقتضت حكمة الحكيم أن يذرأ الانسان فى بيئة تحفه الكائنات من حيوان وجماد فيجد من نفسه باعثاً الى استخدامها تحصيلا لحاجاته ، وقضاء لمآربه . ولقد جاءت الأديان بما يُنبئ على وثوق الرابطة بين الفلسفة الخلقية والعلوم الطبيعية ، فقد قال الحواريون لعيسى بن مريم عليهما السلام « هل على الأرض اليوم مثلك » ؟ فقال : نعم « من كان منطقه ذِكْراً ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، فانه مثلى » وجاء فى القرآن الكريم « إنّ فى السَّمٰوات والأرْضِ لآياتٍ لِلمُؤْمنينَ ، وفى خَلْقِكمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يوقنونَ واخْتِلافِ الليْلِ وَالنَّهارِ وَمَا أنزَلَ الله مِنَ السَّماء مِنْ رِزْقٍ فأحيْا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقلونَ » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « تفَكَّروا فى خَلْقِ الله ، وَلاَ تَتفَكرُوا فى اللهِ فانَّكمْ لنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ » إلى غير ذلك من الأدلة على أن إدمان الفكر فى السنن الكونية ، يفضى الى حال خلقية لا يسع صاحبها معها إلا أن يعمل ، ولا قيمة للاخلاق إلا بالعمل

﴿نسبتها الى علم حياة الحيوان﴾

ذهب القائلون بالنشوء والارتقاء الى أن الميزان الذى يوزن به حميد السلوك وذميمه ، هو ما يبدو من نزوع صاحبه الى النهوض بشئون الحياة نحو التقدم والارتقاء ، أو النزول بها الى الدرك الأسفل من التأخر والانحطاط ، وهذا القول شبيه بما يراه علماء حياة الحيوان فى طبقاته فمن كان نزاعا بفطرته الى مجاوزة مرتبته عدوه صنفاً مترقيا ، ومن مال الى ما هو أدون منه عدوه طبقة سافلة ، لقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« وَمَا منْ دَابَّةٍ فى الأرضِ . وَلاَطائرٍ يَطيرُ بِجَناحَيْـهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكم مَا فَرَّطْنَا فى الْـكِتَاب منْ شَيْءٍ » وقوله تعالى « أفَلا يَنْظرونَ إلى الإبِلِ كَيفَ خُلِقَتْ، وَإلىٰ السَّماءِ كَيفَ رُفِعَتْ ، وَإلى الجِبَالِ كيفَ نُصِبَتْ ، وَإلى الأرْضِ كيْفَ سُطِحَتْ » ولا مرية فى أن الغرض من ذكر هـذه الآيات هو الحث على البحث عن حكمة وجود الحيوان ، وما آتاه الله من النظام والتدبير ، أضف الى ذلك أن فى دراسة حياة الحيوان عوناً كبيراً على تفهم الخلال التى يراها الخلق فى طوائف الحيوان وهى بالانسان أحجى وأجدر

﴿ نسبتها الى علم النفس ﴾

لا غنًى للخلق عن دراسة صنوف الرغبات والميول والارادات وطائفة من الغرائز ، فلهذه الأشياء شأن كبير فى تكوين الخلق كما سيأتى ، إذ عنها تنشأ العادة ، والعادة فى الغالب أساس الخلق ، أضف الى ذلك أن علماء النفس لا يجدون محيصاً من تتبع العوامل ذات الأثر فى تـكوين الخلق ، كالبيئة والجماعة وما إليهما .

ألم تر الى قطان المنطقة المعتدلة الشمالية مثلا كيف أوتوا نصيباً حسناً من الرزانة ، وسعة الصدر ، والصبر على العمل ؟ والى أهل المنطقة الحارة كيف عرفوا من قديم الأحقاب بالنزق والطيش ، والخلود الى الراحة ، والميل الى الـكسل ، كما سنبينه فيما بعد ؟

وكذلك الخلقيون يسلـكون نهج علماء النفس ويرون رأيهم

دع عنك ما للأسرة والمدرسة والمعاشرة من التأثير فى الخلق ، فالأولاد فى البيت والمدرسة ظل المربى وأثره : فان كان مثلا حسناً يعمل بما يقول متبعاً آداب الدين ، وسنن الشرع كسب من يربيهم تربية طيبة ، وسلوكا جميلا وأخلاقاً فاضلة ، وكان لهم نموذجاً للخير ، ومثالا للآداب ، ومرآة للفضيلة ، وإن كان المثل السوء ، أعدى من يربيهم ، رداءةُ السلوك وسوءُ المذهب ، فكما تـكون الآباء تنشأ الأبناء ، فلا يستخرج من الحديد الذهب ، ولا يجنى من من الشوك العنب . وأما المعاشرة والمخالة فأثرها عظيم : هل سمعت قول

النبى صلى الله عليه وسلم « المَرْءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ » وقول على كرم الله وجهه « الصَّاحِبُ مناسِبٌ » ، وقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « ما مِنْ شَيْءٍ أدَلَّ عَلى شَيْءٍ وَلاَ الدُّخَانِ على النَّارِ مِنَ الصَّاحِبِ عَلى الصَّاحِبِ » وقول عدى بن زيد :

«عن المرء لاتسل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقول عبد الله بن المعتز : « إخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضه بعضا » بيد أن أول مايهم علماء النفس هو دراسة عقول الأفراد ، وما يعرض لها من من الاطوار والاحوال ، ولا يتصدون لدراستها من الوجهة الاجتماعية كالخلقيين إلا استطرادا ، وبقدر ماتدعو إليه الحاجة ، فهم إن ذكروا اللغة مثلا فانما يذكرونها لما بينها وبين الفكر من الصلة والرابطة ، إذ يرون أنها المعين الذى تستمد منه القوى العقلية مادتها ، فيزداد الفكر اتساعا والرأى سدادا ، والخيال رقة ، والنهية تهذيبا ، وانه لولاها لدفنت الحقائق ، وانمحت المواهب . هم يرون رأى الخلقيين فى أنها رمز رقى المجتمع وانحطاطه ، فان كانت مهذبة ذات أصول وضوابط ، مملوءة خزائنها من الأثواب ما يكسو ضروب المعانى المتجددة ، رأيت عقول أهلها فى رتبة سامية ، وشاهدت من رقيهم الفكرى مايملأ قلبك روعة وجلالا ، وإلا ألفيت أناسا هم بالحيوان الأعجم أشبه ، والى أخلاقه أقرب .

﴿نسبتها الى علمى المنطق والجمال﴾

بين هذه العلوم الثلاثة سُهمة رحم وتشابه كبير ، لأن لكل منهما قواعد كلية وغاية واحدة : هى تحرير ميزانها وتصوير مثلها الكاملة : فغاية المنطق اثبات الحق على الوجه الاكمل ، وغاية علمى الجمال والاخلاق تبيان معيارى الجمال ومحاسن الأعمال ، أضف إلى ذلك أن فريقا من فلاسفة اليونان وتبعهم كثير من جلة العلماء من بعدهم ، زعموا أن الجميل والطيب كلمتان مترادفتان ، فسوغوا لأنفسهم أن ينعتوا النفس الطيبة بالجمال ، كما وصفوا به التمثال الذى كمل حسنه

وأجيدت صنعته ، ومن هؤلاء الغزالى فى كتابه « إحياء العلوم » إذ يقول فى باب حقيقة المحبة وأسبابها مانصه : « فاعلم أن الحسن والجمال يكونان فى غير المحسات : إذيقال هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة . وإنما الأخلاق الجميلة يرادبها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى ، والكرم والمروءة ، وسائر خلال الخير ، وشىء من هذه الصفات لايدرك بالحواس الخمس ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة »

لقد أخذ بعض المتأخيرين فى زمننا هذا على المتقدمين جعلهم الجميل والطيب شيئين مترادفين فقال : « إن طيبة النفس ليست أثرا من آثار الصنعة الفنية وإنما هى وليدة المجاهدة والمراقبة ، وحمل النفس على المكاره ، وصبرها على الأهوال والشدائد ، ونتيجة حرب طاحنة ، ظهرت فيها الارادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، على الميول والشهوات ، فجعلتها تحت سلطانها وهيمنتها ، تصرفها أنى شاءت ، وليس فى ذلك أثر للصناعة الفنية .

(نسبتها إلى الفلسفة الاجتماعية)

لاجرم أن دراسة سلوك الانسان وأعماله تقتضى دراسة حياة الجماعة التى يعيش بينها ، فليس فى مقدور أحد أن يحكم حكما صحيحا على امرىء منفصمة روابطه من جماعة بنى الانسان ، ومن أجل ذلك قال أرسطو « الإِنْسَان حَيَوَانٌ سِيَاسِىٌّ » على أننا لانستطيع دراسة مافى المرء من الفضائل والرذائل دون أن نجيل النظر فى الأمة التى ينسب إليها ، وفى مالها من المواضعات والعادات التى تؤثر فى أخلاقه رقيا وانحطاطا ، وهذا هو الذى حدا بأرسطو إلى اعتداد علم الأخلاق قسما من اقسام السياسة ، واتخاذ حال الفرد الخلقية أساسا لما يؤخذ به من ضروب السياسة والحكم ، وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم « كما تَكُونُوا يوَلَّى عَلَيْكُمْ »

(نسبتها إلى علم تدبير المال)

ليست الثروة كما يقول بعض الغلاة من علماء تدبير المال غاية فى ذاتها ، وانما هى ذريعة إلى تجميل حال بنى الانسان ، واشتراك ذوى الاقلال والاكثار فى

الاستمتاع بخير الدنيا ونعيمها ، فيقل بينهم التحاسد ، وينتفى عنهم تباغض العدم ، وتكثر المواساة والتواصل ، وتنبسط النفوس ، فتتفرغ للذود عن حريتها ، وتنهض للضرب فى الارض ، وشق عباب البحار ، وامتطاء متن الهواء تقتنص شوارد العلم ، وتتلقن ضروب الصناعة والتجارة، فتتسع آمالهم، ويتممون من العمران ماقصرت أعمال السلف عن استيعابه ويرمون ما أحدثوه من شعث، وهكذا تكون أحوال أممهم على الأعصار ملتئمة، وأمورها على ممر الدهور منتظمة ، ومن تمَّ له ذلك فأحر به أن يحيا حياة أساسها الفضيلة ، وثمرها رغد العيش فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة

(نسبتها إلى السياسة)

السياسة عند جمهور الخلقيين هى تدبير شئون المجتمع وفقا لقوانين تسن، وأنظمه توضع ، لبيان مابين الحاكم والمحكوم من الروابط والعلاقات ، وما على كل منهما من الواجبات ، وماله من الحقوق ، فأما القوانين فقوامها الأمر والنهى . وإذ أنها لاتأمر إلا بما ينفع الواحد والجماعة ولاتنهى إلا عما يضرهما ، فالقانون الوضعى داخل فى حدود القانون الخلقى ، والأخلاق والسياسة فى هذا متضافرتان ، على أن درجة حسن السلوك واستهجانه محدودة فى رأى الخلقيين الغربيين بما تواضعت الجماعة على حسنه أو قبحه ، ودرجت عليه أحقابا من الدهور ، ثم صار بعد قانونا مكتوبا واجب الطاعة والامتثال، وهذا يفسر معنى قولهم : إن الواجب القانونى متأخر عن الواجب الخلقى ومبنى عليه ، ومن أجل ذلك قرر هؤلاء الخلقيون وجوب الطاعة للقوانين الوضعية ، وإن اشتملت على مايثقل على النفوس احتماله ، أوكان الواضع لها مستبدا ، معللين ذلك بأن سلامة الحكومة ، وعمارة البلدان ورفاهيتها لاتتم إلا بانتظام الشمل ، واجتماع الكلمة ، ونبذ الشقاق والتنازع ، وهذا لايتم إلا بالخنوع لقانون تتألف برهبته الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة ، وتنكف بسطوته الأيدى الغالبة ، وتنقمع من خوفه النفوس

المتعادية ، لأن فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه، مالا ينفكون عنه إلا بمانع قوى ، ورادع ملى . لقد أدرك الامام على كرم الله وجهه سر اجتماع الأهواء ، وانتظام الشمل وعرف أنه أس نظام العمران، إذ خطب جماعته يستحثهم على الجهاد فقال « والله لأظن أن هؤلاء القوم سَيُدالون منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم إمامكم فى الحق . وطاعتهم إمامهم فى الباطل ، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم ، وخيانتكم، وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم ، فلو ائتمنت أحدكم على قَعْب لخشيت أن يذهب بعلاقته » يريد الامام بهذا أنه متى تم لقوم اجتماع كلمتهم ، وأداؤهم الامانة لبلادهم ؛ كان النصر حليفهم ، والعزة ظهيرهم ، فالحق ضعيف بتفرق أنصاره ، والباطل قوى بتكاتُف أعوانه .

مما تقدم يتبين أن بين الأخلاق والسياسة رابطة فى النشوء والتدرج وهناك علاقة ثانية هى - كما يقول النفعيون - إن واجب الخلق أن يضع القواعد التى ينبغى أن يسير عليها الآحاد فى أعمالهم وسلوكهم بوازع النهية ، والرادع النفسى الذى يهيمن على النفوس فيصرفها عن شهواتها ويراقبها فى خلواتها ، وينصحها فى ملماتها ، ثم يبين منها مالابد لانفاذه وإمضائه ، من الالتجاء إلى القانون الوضعى فى حمل الناس على اتباعه والعمل به . فمن الأمور التى يتصدى لها القانون - وهى بقانون الأخلاق أحجى وأجدر - كف الأذى عن الناس واجتناب إغضابهم إلا دفعا لهضيمة أو خسيفة ، وحظر التعرض لهم فيما اقتنوه من الأموال بكدهم وجدهم ، أو ورثوه عن آبائهم وأسلافهم ، أو أعطوه منحة وتفضلا . والوفاء بالعقود التى أبرمت طوعا واختيارا ، إلا ما كان الوفاء به ضارا بقوم آخرين ، أو كان ضرره أكثر من نفعه للموفى به ، أو قام البرهان القاطع على أن الفريق الآخر المتعاقد مزمع عدم الوفاء بما يلزمه إياه العقد ، وإطعام الأولاد وتربيتهم ، والاحسان إلى الفقراء واليتامى والمساكين .

ومن الأمور التى لامناص فيها من الاستعانة بالقانون السياسى - إذ هيبته

أشد زجرا وأقوى ردعا - السرقة والقتل والبغي وشهادة الزور وأكل الأموال بالباطل، وانتحال المخترعات الفنية، والافتئات على أنصبة الورثة، وخيانة الوطن، وما شابه ذلك مما يعجز عن الفصل فيه قانون الأخلاق، وتمس الحاجة فيه إلى قوة تقيم الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها، ولا تقصير عنها، وتبنى صروح العدل، فيأوى إليها كل مظلوم، ويلتجىء إليها كل مضطهد، حيث يرون عدلا شاملا، به تعمر البلاد، وتنمو الأموال، إذ ليس من شىء أسرع فى خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه لا يقف على حد، ولا ينتهى إلى غاية، وحسبك برهانا قول المصطفى عليه الصلاة والسلام «بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ» وقوله «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَهُ اللهُ فِي سُلْطَانِهِ فَجَارَ فِي حُكْمِهِ» وقول عيسى ابن مريم عليهما السلام إذ قام خطيبا فى بنى إسرائيل: «يابنى اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالما، فيبطل فضلكم. يا بنى إسرائيل الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلفتم فيه فردوه إلى الله تعالى» وقول بعض الحكماء «المُلْكُ يَبْقَى عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يَبْقَى عَلَى الظُّلْمِ»

وصفوة القول إنه يجب فى كل مجتمع إنسانى أن يتخذ القانون السياسى ظهيرا فى الشئون المحفوفة بالمخاطر، حتى يحيط بالناس أمن عام تطمئن إليه نفوسهم، وتتيسر فيه همهم، ويسكن فيه بريئهم، ويأنس به ضعيفهم، فليس لخائف - كما يقولون - راحة، ولا لحاذر طمأنينة، ولقد جاء عن عثمان رضى الله عنه ما يؤيد هذه القاعدة إذ قال: «إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن» وأما فى غير الأمور المحفوفة بالمخاطر فيكفى بقانون الأخلاق زاجرا، وبسلطانه على النفوس رقيبا، وما أحسن قول بعضهم: «القانون السياسى هيكل نظام الجماعة والقانون الخلقى لحمه ودمه»

الخلق

يجدر بنا أن نسرد آراء المتقدمين والمتأخرين من علماء الأخلاق فى الخلق ليكون المطلع عليما بمختلف الآراء فى مبحث زلت فيه الأقدام، وتضاربت الفهوم.

قال ابن مسكويه فى كتابه «تهذيب الأخلاق» : الخلق حال للنفس تحملها على أداء أعمالها دون فكر وروية، وهذه الحال إما طبعية من أصل المزاج : كالغضب لأوهى الأسباب، والفزع من ضعيف الأصوات، والحزن على تافه الأشياء؛ وإما مستفادة بالعادة والتدرب، حتى صارت ملكة وخلقا كشجاعة البدو وبأسهم المستفادين من تفردهم عن المجتمع، ومساكنتهم الوحوش والضوارى. اه بتصرف

وقال الغزالى فى كتابه «إحياء العلوم» الخلق هو عبارة عن هيئة فى النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، وإنما قلنا هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال مثلا على الندور لحاجة عارضة لا يقال : خلقه السخاء، واشترطنا صدورها من غير روية، لأن من تكلف بذل المال، أو السكوت عند الغضب مثلا لا يقال : خلقه السخاء والحلم، ثم قال بعد كلام طويل، وليس الخلق عبارة عن الفعل إذ رُبَّ امرئ خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال وإمّا لمانع آخر وقد يكون خلقه البخل، وهو يبذل رياء ونفاقا

وليس الخلق القوة، لأن نسبة القوة إلى الاعطاء والامساك واحدة، ولأن كل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الاعطاء والامساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء، وليس الخلق المعرِفةُ، لأنها تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد. اه

وقال المحدَثون من الفرنجة : الخلق صفة نفسية مكنونة راسخة تصدر عنها الأفعال دون قصد وتكلف، وهى إما جِبلّيّة فى نفس صاحبها، وهى الناشئة

عن الغرائز : كمن يولد وخلقه الكرم والبأس ، أو مستفادة من تدريب الارادة في عمل ما ، وهي الناشئة عن العادة : كمن اعتاد التحلم حتى صار حليما ، والبذل حتى أمسى كريما ، أو مكتسبة مما يحيط بالمرء : كالمشاهد الطبعية ، والمجتمع . فان صدرت الأفعال من امرئ قصدا وتكلفا فليس ذا خلق ، وإنما هو متخلق كأن يفعل المكرمات ابتغاء الشهرة ، وحسن الأحدوثة ، أو يتصنع الحلم والتواضع لينال الحمد والثناء ، وهذا هو سر قوله تعالى « يأيها الذينَ آمنُوا لاَ تُبْطِلُوا صدَقَاتِكمْ بالمنِّ وَالأذَى كالذِي يُنفْق مَالَه رئَاءَ النَّاس وَلاَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْم الآخِر فمثَلهُ كمَثَل صفْوَانٍ عَليهِ تُرابٌ فأَصَابَهُ وَابلٌ فترَكهُ صَلْداً لا يَقْدِرونَ عَلى شيءٍ مِمَّا كَسَبوا »

لأن حكمة الشارع في الحث على الانفاق سرا وعلانية في غير ما آية ، ليست سدّ حاجات ذوي القربى والفقراء والمساكين فقط ، بل ارتياض النفس أيضا وابتلاءها وإعدادَها للإنفاق مما تحب ، حتى يتم لها خلق الإعطاء والبذل ، وفي هذا يقول الله تعالى : « لَنْ تنَالوا البرَّ حتى تُنفِقوا ممّا تحِبُّونَ »

نزعات النفس

اختلفت آراء الباحثين قديما وحديثا في حال النفس : فمنهم من رأى أنها مفطورة على الخير ، ومنهم من رأى أنها مفطورة على الشر ، ومنهم من رأى قبولها للأمرين ، ومنهم من رأى خلوها منهما .

رأي سقراط : (١) فمن الذين ذهبوا إلى أنها مفطورة على الخير سقراط إذ كان يقول : إن نفس الطفل خباء الكمال لا تظهره إلا بالمناقشة والتحاور

(١) سقراط : حكيم إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكان جنديا بالجيش الأثيني ممتازا بالاقدام ، ثم وجه همته الي السياسة فكان فيها علما من الأعلام ، ثم ابتدع طريقة في إصلاح شئون الشعب جذبت إليه النفوس ، وأحلته المكانة السامية التي جعلت معاصريه من العلماء يحقدون عليه ، و يصمونه بالزندقة و إفساد عقول النشء لذلك حكم عليه بالاعدام ونفذ فيه بعد ذلك بشهور سنة ٣٩٩ قبل الميلاد

رأى فلوطين وأبو العلاء : وممن رأى أنها مفطورة على الشر فلوطين (١) وجاء من بعده أبو العلاء المعرى (٢) فأذَّنَ فى شعره بأن الانسان شرير بطبعه ، وأن الفساد غريزة فيه

رأى اليسوعيين واليَنسيِّين : ثم تلاه من الفرنجة فريقان كبيران اشتهرا فى القرن الثامن عشر وهما «اليسوعيون» و«الينسيون» ، إذ بَنَيَا آراءهم على عقيدة أن الانسان جبل على الشر ، ولا يحوله عنه الا صارم العقاب ، وإرهاف الحد ، وغَالَوْا فى ذلك كل المغالاة ،

رأى رسو (٣): ولهذا لم يطق « رسو » تقبل غلوهم ، بل وجه اليهم سهام مطاعنه ، ومازال يشن عليهم الغارة حتى ألف له عصبة من المفكرين ناوأتهم ورصدت لهم فى كل مرصد .

---

(١) فلوطين : فيلسوف مصرى ، ومن أسرة يونانية ، اعتمد فى نظرياته على فلسفة افلاطون . وتوفى سنة ٢٦٢ قبل الميلاد

(٢) أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولد ومات بالمعرة كان نادرة فى الحفظ والذكاء ، وعمي فى صغره ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، وما يخرج من كل ذي روح توفي سنة ٤٤٩ هـ عن نحو ٨٦ سنة ، وله شعر على روى وآخر التزم فيه رويين وضمنه أغلب رأيه في العالم ونظامه .

(٣) هو الكاتب الروائي والفيلسوف الفرنسى (جان جاك روسو) ولد بمدينة جنيف سنة ١٧١٢ وهو صاحب نظرية العقد الاجتماعى أى أن الناس قبل أن يستظلوا بحكومة كانوا فوضي ، ثم اجتمعوا وتعاقدوا على أن يتنازل كل منهم عن جزء من حريته ، ويهبوا فردا أو أفرادا منهم السلطة لتولي شئونهم . ومذهبه إعادة الناس إلى الحالة الطبيعية ، زاعما أنهم بخروجهم عنها خرجوا عن دائرة السعادة الحقة . وآراؤه فى التعليم نظرية لا عملية وقد انتقد مبادىء اليسوعيين ، واختط نظاما جديدا ألف فيه كتابه : أميل وتوفى سنة ١٧٧٨

ابن مسكويه(١) وجالينوس(٢) : ولقد أجمل ابن مسكويه آراء المتقدمين فى هذا المبحث فقال : والحق أن الانسان يولد مطبوعا على قبول الخلق ، إذ نراه ينتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعا ؛ واما بطيئا ، لأن القول بعدم قبول الخلق يؤدى الى ابطال قوتى التمييز والعقل ، والى رفض السياسات كلها ، وترك الناس جميعا مهملين ، والى ترك الاحداث والصبيان على مايكونون عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة . ثم قال : ولم يخلق الناس أشرارا بالطبع كما ذهب اليه بعض المتقدمين ولا أخيارا بالطبع كما ذهب اليه الرّواقيون ، لأن الناس كما قال « جالينوس » ان كانوا أشرارا بالطبع وينتقلون إلى الخير بالتعليم ، فاما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم أو من أنفسهم ، فان كانوا تعلموه من غيرهم فمعلموهم أخيار بالطبع ، وحينئذ فليسوا كلهم أشرارا بالطبع ، وإن كانوا تعلموه من أنفسهم ، فاما أن تكون فيهم قوة نزاعة الى الخير فقط ، فهم اذن أخيار بالطبع ، واما أن يكون فيهم مع القوة التى تنزع الى الخير قوة أخرى تنزع الى الشر ، غير أن قوة الخير غالبة قاهرة ، فهم أخيار بالطبع أيضا . وان كانوا أخيارا بالطبع كمذهب الرواقيين ، وينتقلون الى الشر بالتعليم ، فهم بين أمرين : فاما أن يكونوا تعلموا الشر من أنفسهم أو من

(١) هو الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو فاضل فى العلوم الحكمية خبير بصناعة الطب، جيد فى أصولها وفروعها . وكان - فيما ذكره - بعض المؤرخين خازنا للملك عضد الدولة بن بويه أثيرا عنده ، وله مؤلفات جمة منها كتاب تهذيب الاخلاق والفوز الأصغر بناهما على أصول الفلاسفة الالهيين ، وانتصر فيهما للدين. وله فى الطب كتاب الاشربة ، وله مشاركة حسنة فى العلوم الأدبية وعلوم الاوائل واجتمع بالرئيس ابن سينا وتوفى سنة ٤٢١ ﻫ

(٢) جالينوس : حكيم فيلسوف طبعى يونانى من أهل مدينة (فرغاموس) ببلاد اليونان وكان امام الأطباء فى عصره ، ورأس الطبعيين فى وقته .
قال المسعودى : لا أعلم بعد أرسطو أعلم بالطبعيات من بقراط وجالينوس ، وعاش بعد المسيح بنحو مائتى سنة

غيرهم فان كانوا تعلموه من غيرهم فمعلموهم أشرار بالطبع ، وحينئذ فليس الناس كلهم أخيارا بالطبع ، وان كانوا تعلموه من أنفسهم . فحالهم لا تعدو اثنتين : فاما أن يكون فيهم قوة تجنح الى الشر فقط ، فهم اذن أشرار بالطبع، واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تجنح الى الشر قوة تنزع الى الخير غير أن قوة الشر غالبة قاهرة ، فهم اذن أشرار بالطبع . اه بتصرف قليل

وقال فى موطن آخر لقد دل الاستقراء على أن من الناس من هو خَيِّرٌ فاضل من مبدأ تكوينه ترى فيه النجابة طفلا ، وتتفرس فيه الفلاحة ناشئاً، رزق الحياء وكرم الشيم ، وحُبِّبَ اليه مجالسة الاخيار ، ومؤانسة الفضلاء .

رأى أرسطو (١) فى الخير الفاضل : ويرى «أرسطو» أن هذا الصنف قد منح العناية الالهية العظمى ، فسعادته الهية بحتة ليس فيها أدنى نصيب من الكسب والتحصيل ، وعلم الأخلاق لا يعنى فى بحوثه الا بما كان ثمرة العمل والسعى والمجاهدة والكدح

ومنهم من يكون فى مبدأ تكوينه مستعدا للخير والشر كسائر الأحداث إلا أنه يسعى ويجتهد ، ويطلب الحق اذا رأى اختلاف الناس فيه ، ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء فيصير علمه صحيحا ، وعمله صوابا ، ولا مرية فى أن هذا الصنف من الناس هم الذين يقدر الخلقيون أعمالهم حق قدرها ، وَيَسِمُونَهُمْ بالعدل والفضيلة جزاء سعيهم وكدحهم ، وإقرارا بكبير همتهم وعظيم شجاعتهم ، أما من ولد بالطبع خَيِّراً فاضلا ، فذلك بمحبة الله إياه ، وعنايته به ، وليس من شأن الخلقيين أن يصدروا حكمهم فى أمره ، فالقدرة الصمدانية قد كفلته جنينا ، وتعهدته وليدا وطفلا يافعا ، وشيخا كبيرا

(١) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) أرسطو كان تلميذا لافلاطون مدة عشرين سنة ، وكان يسميه العقل ، وإليه انتهت فلسفة اليونان ، وهو خاتمة حكمائهم ، وسيد علمائهم علم الاسكندر المقدونى ، وأسس مذهبا يسمى مذهب المشائين ويلقب بالمعلم الاول ، لانه أول من جمع المنطق ورتبه .

رأى صاحب سلوك الممالك : وقال صاحب سلوك الممالك وهو شهاب الدين ابن أحمد بن أبى الربيع . أما مراتب الناس فى قبول هذا الأدب الذى سميناه خلقاً فانها كثيرة ، وهى تشاهد وتعاين فيهم وبخاصة الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر ، كما يفعل الرجل التام الذى انتهى فى نشوه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يُستَقبَح منه فيخفيه ، بضروب من الحيل ، والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان ، واستعدادهم لقبول الأدب ، ونفورهم منه ، وما يظهر فى بعضهم من القِحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل ، والرحمة والقسوة والحسد ، وضد هذا مما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الخلق ، وتعلم من أن الناس ليسوا على مرتبة واحدة ، وأن فيهم المواتى والممتنع ، والسهل السلس والفظ العسر ، والخير والشرير ، والمتوسط بين هذه الأطراف فى مراتب لا تحصى كثرة . وإذا أُهملت الطباع ولم تُرَض بالتأديب والتقويم ، نشأ كل إنسان على سوم طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولة وتبع ما وافقه بالطبع . اه بتصرف

رأى الغزالى فى امكان تغيير الخلق : وقال الغزالى : يزعم بعض الناس أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، ويستدلون بأمرين : أحدهما أن الخُلُق صورة الباطن ، كما أن الخَلْق صورة الظاهر وإذْ أن الخلقة الظاهرة لا يمكن تغييرها كالدميم لا يستطاع أن يصير جميلا ، فكذلك القبيح باطناً لا يستطاع أن يكون ذا خلق حسن ، وثانيهما أنهم ضربوا مثلا فقالوا : إن حسن الخلق فى قمع الشهوة والغضب ، وقد شاهدنا من جاهد طوال عمره فى قمعهما ، فأبت عليه فطرته ، ومزاجه إلا بقاءهما ونحن نرى أن هذه مغالطة ، وإنكار للواقع ، لأن أحداً لم يشترط لحسن الخلق محو الشهوة والغضب فهذا محال ، ولأن الواقع يشهد أن البازى ينقل من الاستيحاش إلى الانس ، والفرس من الجماحة إلى السلاسة والانقياد ، والآدمى أولى ، بيد أن الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئته ، ولاختلافهما سببان :

« أحدهما » قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود ، فان قوى الشهوة والغضب والتكبر مجبول عليها الانسان ، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوةُ الشهوة ، لأنها أقدم وجودا

« ثانيهما » أن الخلق يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا مرضيا .

كل مولود يولد على الفطرة : ورأينا أن كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى بالاعتياد والألفة قد تكتسب الرذائل ، وكما أن البدن فى الابتداء لايخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وتكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . اه بتصرف

رأى ابن خلدون : وقال ابن خلدون إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى ، كانت متهيئة لقبول مايرد عليها ، وينطبع فيها : من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلودٍ يولَدُ على الفِطْرَةِ ، فأبَوَاه يهَوِّدانِه أو ينَصِّرانِهِ أو يمَجِّسانِهِ » وبقدر ماثبت لها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير اذا سبقت إلى نفسه عادات الخير وحصلت لها ملكته ، بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر ، إذا سبقت اليه أيضا عاداته . اه

رأى الامام على فى تغيير الخلق : وإلى تغير الخلق أشار الامام على كرم الله وجهه بقوله : أعجب مافى الانسان قلبه وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع ، أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعد بالرضا نسى التحفظ (الاحتراز والتيقظ) وإن ناله الفزع شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرة (الغفلة) ، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن أصابته فاقة مسه الجزع ، وإن نهكه الجوع قعد به الضعف ، وان أفرط

به الشبع لظته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد

خلاصة أراء المتقدمين : يستخلص مما نقلناه فى مبحث حال النفس واستعدادها عن ابن مسكويه وعن شهاب الدين صاحب سلوك الممالك وعن الغزالى فى كتابه إحياء العلوم ، وابن خلدون فى مقدمته ؛ أنهم يجنحون إلى أن الانسان قابل للخير والشر معا وهذا هو الرأى الصواب ، ولا حاجة معه إلى إقامة البرهان ، فالوجدان يحسه ، والطبع يألفه ، والذوق يحكم به ، والعقل يتقبله ، وقد أيده النقل ، إذ جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى (ألمْ نجعَلْ له عينَين ، ولِسَانًا وَشفتَين وهدَينَاه النَّجدَيْن ؟ » طريقى الخير والشر ، وقوله تعالى (ونفسٍ ومَا سوَّاهَا ، فألهَمَهَا فجورَهَا وتقوَاهَا ، قَدْ أفلَحَ مَنْ زكَّاهَا ، وقَدْ خَابَ مَنْ دسَّاهَا) (إنا هدَينَاه السَّبِيلَ إمَّا شَاكِرًا وإما كفورًا) بيد أنه وإن كان قابلا للخير والشر فهو إلى الخير أقرب كما قال ابن خلدون فى موضع آخر فى مقدمته « إن الملك طبعى للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع ، ولأنه أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته ، وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاءه من قبل الحيوانية التى هى فيه ؛ وأما من حيث هو إنسان ، فهو إلى الخير وخلاله أقرب » ولقد تبع ابن خلدون فى هذا الرأى جمهور حكماء العرب الذين يقولون إن الانسان جزء من العالم والعالم فيه خير وشر فلو وازنت خيره بشره ، ومنافعه بمضاره ؛ لوجدت الخير أرجح ، والنافع أكثر . وهم فى ذلك يستدلون بالمشاهد والواقع ، ويؤيدون استدلالهم بما لاح لهم فى قوله تعالى يخاطب الملائكة . (إنِّى جَاعِلٌ فى الارضِ خَلِيفَةً قَالوا أتجعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا ويَسفِكُ الدِّمَاءَ ونحْنُ نسبِّح بِحَمْدِكَ ونقدِّس لكَ قَالَ إنِّى أعْلَم مَا لاَ تعْلمونَ) أى انى أعلم أن هذا النوع يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير

ومما يناسب ما أوضحناه فى الخلاصة ماذهب إليه صاحب المواقف والاستاذ الامام فيما يلى

(١) رأى شارح المواقف : ذكر شارح المواقف نقلا عن بعض الحكماء أن الموجود إما خير محض : كالعقول والأفلاك ، وإمّا الخير غالب فيه كما فى هذا العالم وتلك هى حكمته سبحانه وتعالى (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هدَاهَا) جل شأنه وعز سلطانه

(٢) رأى الشيخ محمد عبده : وقال الأستاذ الامام المغفور له الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى (لهامَا كَسَبَتْ وَعليهَا مَا اكْتَسَبَتْ) لاشك فى أن الميل إلى الخير مما أودع طبع الانسان ، وأن الخير كل مافيه نفع نفسك ونفع الناس ، وجماع ذلك أن تحب لأخيك ماتحب لنفسك ، كما جاء فى الحديث الشريف (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبّ لِنَفْسِهِ) والانسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته ، ويميل إلى عبادة الله تعالى ، لأن شكر المنعم مغروس فى الطبع ، ويظهر أثره فى كل إنسان ، وأقله البشاشة والارتياح للمنعم ، ولا يحتاج الانسان إلى تكلف فى فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح اليه ، ويراه بعين الرضا ، وأما الشر فانه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا مقتضى فطرتها ومهما كان الانسان شريرا فانه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت فى نظر الناس ، وصاحبه مهين عندهم ، فان الطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من الناس فيتعلمه ، وإذا رأى إعجاب الناس بكلام من يصف شيئاً يزيد فيه ويبالغ كاذباً ، استحب الكذب وافتراه لينال الحظوة عند الناس ، ويحظى باعجابهم وهو مع ذلك لا ينفك يشعر بقبحه ، حتى إذا نبز أمامه أحد بلقب الكاذب أو الكذاب أحس مهانة نفسه وخزيه ، وهكذا شأن الانسان عند اقتراف كل شر يشعر فى نفسه بقبحه ، ويجد من أعماق سريرته هاتفاً يقول له : لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا فى النادر ، ومن النادر أن يصير الانسان شرا محضاً أى أنه قلما يألف أحد الشر ، ويتطبع به حتى

يكون طبعاً له ، لا تشعر نفسه بقبحه عند الشروع فيـه ، ولا فى أثنائه ، ولا بعد الفراغ منـه ، وقل أن تجد واحدا فى (المليون) يفعل الشر وهو لا يشعر بأنه شر قبيح فى نفسه ، والذين ذهبوا الى أن الانسان شرير بالطبع ، قد أرادوا من الطبع ما يرون عليه غالب الناس ، ولم يراعوا فيه معنى الغريزة ومناشئ العـمل من الفطرة : ذلك بأن الانسان ينشأ بين منازعات الكون وفواعل الطبيعة وأحيائها ، ومغالبة أبناء جنسه على المنافع والمرافق ، وقد يدفعه هذا الجهاد إلى الأثرة ، وتوفير الخير لنفسه خاصة ، ويلجئه الظلم إلى الظلم ، فيفعـله متعلماً إياه تعلماً ، متكلفاً له تكلفاً ، وفى نفسه ذلك الهاتف الفطرى ، يقول له : لا تفعل ، وهو النبراس الالهى الذى لا ينطفئ . فاذا رجع الانسان إلى أصل فطرته لا يرى إلا الخير ولا يميل إلا إليه . وإذا تأمل الشر الذى يعرض له لم يخف عليه أنه ليس من أصل الفطرة ، وإنما هو من الطوارئ التى تعرض لا سيما من ينشأ بين قوم فسدت فطرتهم . وأشد ما يضر الانسان فى ذلك نظره إلى حال غيره ، ولذلك أُمرنا فى الحديث أن ننظر فى شئون الدنيا إلى من دوننا ، وهذا الأمر خاص بالأفراد بعضهم مع بعض ، فانّ نظر الواحد إلى من دونه يجعله راضياً بما أوتيه من النعم ، بعيدا عن الحسد الذى هو منبع الشرور . وأما الأمم فينبغى أن تنظر الواحدة إلى حال من فوقها لأجل مباراتها ومساماتها ، هذا هو صفوة قول المغفور له الامام .

ولقد أضاف إلى ذلك الاستاذ السيد رشيد رضا ما نصه : والمسألة تحتاج إلى زيادة فى البسط لكثرة اشتباه الناس فيها ، ولشد ما عارضَنَا فى تقريرها الطلاب فى الدرس والباحثون فى المحاضرات ، ولئن سألتهم ما الشر الفطرى فى البشر ؟ ليقولن : حب الشهوات والغضب ، وما ينشأ عنهما من الأعمال والأخلاق ، ولو لا هاتان الغريزتان ما جلب أحد لنفسه ولا لغيره نفعاً ، وما دفع ضرا ، وما ظهر من أعمال الانسان ما نرى من أسرار الطبيعة

ومحاسن الخليقة ، بل لولاهما لبادت الأفراد وانقرض النوع ، وفى الفطرة والدين المرشد إلى كمالهـا ما يكفى لاقامة الميزان القسط فيهما غالباً ، حتى لا يغلب فى الأمة تفريط ولا إفراط ، ويكون الخير أصلا عاماً والشر عرضاً مفارقاً . والأصل الذى لا ينازع فيه أحد أن الانسان قد جبل على ألا يعمل عملا إلا إذا اعتقد أنه نافع ، وأن فعله خير له من تركه ، وذلك شأنه في الترك أيضاً ، وأن هداياته الأربع : الحس والوجدان والعقل والدين ، كافية لأن يعتقد أن كل خير نافع وكل شر ضار ، فاذا قصر فى الاهتداء بهذه الهدايات فوقع فى الشر ، كان وقوعه فيه أثرا لتنكب طريق الفطرة لا للسير على جادتها ، وأكثر أعمال الناس نافعة لهم غير ضارة غيرهم ، اهـ

ينابيع الخلق

إن نظرة فى تعريف الخلق (على رأى المحدثين من الفرنجة) الذى أسلفنا ذكره تدل على أن مكونات الخلق ثلاثة :

الغرائز مع العواطف ، والانفعالات والاحساسات ، فالعادة ، فالبيئة

﴿ الغرائز مع العواطف والانفعالات ، والاحساسات ﴾

(١) الغرائز : ـ

هى قوى فطرية أودعها الله جسم الانسان فتسوقه بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على بقائه ، وبقاء سلالته ، فهى نزعات الفطرة . ومردها إلى ثلاث

الأولى : النزعة إلى طلب الطعام والشراب : وهى أمر حيوانى ، يستدعيه نمو الانسان وبقاؤه إلى أجل . ولا سلطان للعقل على هذه النزعة يحول بتاتا بينها وبين مطلوبها ، وإن روى التاريخ أن أناسا امتنعوا عن تناول الطعام حتى الموت فلم يكن سبب ذلك العقل ، وإنما هى نزعة أخرى فطرية قهرت نزعة الطعام والشراب

الثانية : النزعة الجنسية : ومن مظاهرها الحرص على بقاء النوع ، واتخاذ وسائل شتى لاستهواء قرين يتم به وجود النسل ، وليس للعقل أيضا سلطان عليها يحرمها بتاتا قضاء لباناتها . وما أثر من امتناع أناس عن استخدامها فمرده إلى نزعة أخرى تغلبت عليها

الثالثة : النزعة الذاتية : وهى قوة كامنة فى الأعصاب والعضلات ، منبثة فى جميع المشاعر نزاعة إلى الحركة والعمل ، ومن شاهد الأطفال وهم لا يكادون يملون الحركة ، أدرك أن العقل ليس هو الآمر بالحركة ، وإنما هو ينظمها على حسب ما يرى ، فهى خاصة من خواص الحياة ، يشارك الانسان فيها غيره من الأحياء ، وفقدانها نذير الفناء

ولما كانت النزعة الأولى تسوق الانسان إلى طلب الرزق مستظهرة بالنزعة الذاتية ، وكان الانسان لا يقف عند تحصيل رزق اليوم ، بل يسعى إلى التأنق فى المأكل والمشرب ، ويحاول الظهور بأحسن مظهر فى المجتمع الذى يخالطه ، وكانت النزعة الثانية لا تقف عند حد طلب القرين ، بل تسوقه إلى ما هو أبعد من ذلك مدى ، نشأ عن هذه النزعات ثلاثة ميول : هى الرغبات والمطامع والخلال النفسية الذاتية

«١» الرغبات

أما الرغبات فنزعات فى قلوب الناس تدفعهم إلى نيل أمور فيها منفعة يغتبطون بها : كالشهرة والثروة والبراعة فى العلم أو الفن . ولها أطوار ثلاثة

التمنى : وهو تشوف للحصول على الرغبة مع شعور بالقصور عن دركها كمن تمنى أن يكون ملكا وليس لديه سبب من أسباب الملك

ثم الأمل : وهو شعور بأن فى النفس شيئا من الثقة ببذل مرغوبها مبتغاها ومن أجل ذلك كان من مظاهره الجد والمثابرة

ثم الطموح : وهو نمو الأمل وازدياد الثقة بالنفس فى الظفر بالرغبة . ومن

أجل ذلك كان من مظاهره اندفاع المرء فى العمل ، والجزم بالوصول إلى رغبته
فان حصل المرء على هذه الرغبة تجدد سعيه وعمله ، وانتقل من حال إلى أخرى .
وإن لم ينل المرغوب عاد إلى حاله الأولى ، سالكا طريقا آخر مرة بعد
أخرى ، مادام الرجاء يتردد فى قلبه ، وإلا استولى عليه اليأس وحيل بينه وبين
مايصبو إليه .

«ب» المطامع

وأما المطامع فنزعات فى النفوس تدفع أصحابها إلى أن يحاولوا بمختلف
الوسائل تعزيز قوتهم الذاتية بما يستطيعون الحصول عليه ، من قوى المجتمع
الذى يعيشون فيه ، مستعينين بما أوتوا من الذكاء والدهاء ، أو القوى الذاتية
الممتازة . وينشأ الطمع فى النفس عن الوثوق بقوة الشخصية ،واتساع ميدان
المجتمع الانسانى وأحواله ، فأقوى الناس شخصية أقدرهم على استزادة قواه
من البيئة التى يعيش فيها ، وأضعفهم أكثرهم تعرضا لذهاب شيء من قواه
والمطامع أربعة اقسام :

الأول الثروة : وهى قوة عظمى ينالها الانسان تارة بكده وكدحه ،
وأخرى باستغلال عمل غيره ، وثالثة بهاتين الناحيتين . ومن مظاهرها حب
المال ، والشوق إلى الحصول عليه بمختلف الوسائل : من الحذق والذكاء
والدهاء ، واغتنام الفرص فى ميدان الحياة ، والاستيلاء على كثير من الأمانى
للتمتع بلذاتها

الثانى الوجاهة : وهى أن يكون الانسان ذا منزلة سامية بين جماعته ، ينال
بها احترام هذه الجماعة ، والتفافها حوله . وللوصول إلى هذه المنزلة خصائص
يجب أن تتوافر فى المرء : كالذكاء والدهاء ، أو الغنى ، أو الحسب ، أو البطولة
والعبقرية ، وما إلى ذلك مما يفضل به على غيره

ومن مظاهرها القبض على أعنة الجماعة ، واستخدامها وفق مشيئته ، وجمعها

تحت إمرته ، فلا يلبث أن يكون له القسط الأوفر من الانتفاع بها ، نافذ الكلمة مهيب الجانب . ومن أجل ذلك لا يألو جهدا فى العمل على إسعادها ورفاهيتها ، والذود عن مصالحها

الثالث السلطة : وهى قوة شرعية مستمدة من قوة الجماعة. ويؤيدها الدستور، أو القانون أو العرف ، على الأقل ، وهى أرفع شأنا من الوجاهة ، ينالها المرء غالبا بمواهبه وكفايته ، وأحيانا يصل إليها بوجاهته ، أو بماله . ومن مظاهرها استخدامها كثيرا فيما يجلب له الخير ويسعده ، واتخاذها وسيلة للوصول إلى ما ينشده من مختلف الأمانى ، فحسبها أنها قوة تبعث فى الانسان الجد والسعى إليها

الرابع الشهرة : وهى أن يعرف المرء بين قومه أو غيرهم بمزية تجعله ممن يشار إليهم بالبنان ، يصل إليها باستخدام مواهبه مستشعرا الثبات والمثابرة . ومن مظاهرها أن يتذرع بها صاحبها إلى تحقيق المُبْتَغَى. وتتجلى هذه الشهرة فى القواد الحربيين والسياسيين ، والكاشفين والمخترعين وأهل الفنون الجميلة ، وما يمت إليها من مختلف الحرف التى لها صلة بالجمال . مما تقدم يتبين جليا أن نمو الطموح بدء هذه الأخلاق الفرعية ، وأنها أقوى شأنا من الرغبات .

«حـ» الخلال النفسية الذاتية

هى صفات تصدر عن الوازع الداخلى ذات مغبة لا تتجاوز صاحبها سواء أكانت محمودة ، أم غير محمودة وتنحصر هذه الصفات فى ثلاث :

الأولى القناعة : وهى الاكتفاء باليسير من الخير ، يتصف بها من الناس قليل الطمع ، قصير الطموح . ومن مظاهرها أن يشعر القانع بالغبطة والسرور ، وأن يكون بمنأى عن المجازفة ، وألا يطمع إلى نيل بعيد الأمانى ، وأن يبذل المجهود فى الوصول إلى الضرورى

الثانية الاعتدال : وهى ألا يقف المرء عند حد اليسير من الخير ، بل يطمح إلى إدراك ما تصبو إليه نفسه ، وتستطيع الحصول عليه ، دون إفراط أو تفريط

ومن مظاهرها التمادى فى طلب الخير ، والاستزادة منه مادام قادرا على نيله والاكتفاء بما نال ، متى بلغ حد العجز ، واجتناب المجازفة والمخاطرة ، وبذل المجهود قدر الطاقة

الثالثة الشراهة : وهى صفة تدفع المرء إلى مجاوزة حد الاعتدال ، وتكليف النفس مالا تطيق . ومن مظاهرها أن يجاهد الانسان ويكدح طول العمر ، غير راض بمختلف الأحوال ، وأن يكثر من المخاطرة ، وألا يغتبط بما يناله ويصل إليه من متاع الحياة الدنيا .

(ب) العواطف

العاطفة هى قوة جاذبية داخلية تثيرها العوامل الخارجية ، وتتدرج فى النمو والارتقاء ، تابعة فى ذلك إرشاد العقل ووحيه ، فلا تلبث أن تعد من القوى العقلية أو تكاد ، والعواطف الرئيسة خمس

الأولى عاطفة الوالدين : وهى الحنو المشرب بالحب ، فعطف الوالد على ولده يرجع إلى عاملين : أحدهما مايراه الوالد فى ولده من صورة جوهره ، وثانيهما مايتمثل فى الولد من استمرار هذا الجوهر . ولذلك قد تنمحى هذه العاطفة ، أو تستحيل إلى شفقة ، فاعراض ، فنفور ، فحقد ، إذا ما عرف أن هذا الولد أجنبى منه . ومن هذا يتبين جليا أنها عزيزة مفهوم سببها عند بنى الانسان ، مجهولة السبب عند العجماوات . ومن مظاهرها عكوف الأم على حضانة ولدها ، وتعهده منذ نعومة أظفاره ، وكدح الأب فى ميدان الحياة حرصا على نمو الأسرة وتكوينها .

الثانية عاطفة الأسرة : وهى نوعان بنوية وأخوية : فالبنوية ثمرات الحنو الأبوى ، أضف إلى ذلك أن الولد متى أدرك الحياة وقيمتها ، رقيت فيه هذه العاطفة ، واشتد ميله إلى والديه ، والأخوية تنشأ عن المحاكاة ، لأن الولد حينما يشاهد أبويه يعطفان على أخيه أو أخته ، يندفع بفطرته إلى محاكاتهما فى العطف على الاخوة والأخوات

هذا وكما يكون التعاطف بين الاخوة يكون بين أبناء الأعمام والخالات ، بل بين جميع أفراد الأسرة بعامل التجاذب الفطرى ، سنة الله فى خلقه (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)

الثالثة : العاطفة الوطنية : ـ وهى عطف الفرد على مجموع قومه ، وشعوره بأنه عضو فى هذا الجسد الممثل فى المجموع . ومها رقيت هذه العاطفة ، فلن تبلغ شأو عاطفة الوالدين فى القوة

ومن مظاهرها شعور المرء بأنه مدين بكيانه وسعادته لرفعة وطنه ، وعلو شأنه ، وبأنه يجب أن يفتديه بنفسه إذا دعا الداعى

الرابعة : العاطفة الاجتماعية : ـ وهى عطف الانسان على مجموع آحاد المجتمع دون تفرقة جنسية . ومن مظاهرها أن يذعن الانسان إلى معاونة المجتمع ، ويخضع لقوانينه وشرائعه وأنظمته . ومما تقدم يتبين جليا أن العاطفة الوطنية بين فرد وآخر من أمته ، والعاطفة الاجتماعة بين فرد وآخر من المجتمع من أمته أو من غيرها

الخامسة عاطفة الشفقة : وهى أوسع شمولا من العاطفة الوطنية ، والعاطفة الاجتماعية ، فلا تتقيد بقرابة ولا وطن ولا مجتمع ، لصدورها عن الانسانية المطلقة . ومن مظاهرها أن يتألم الانسان لألم غيره ، فلا يلبث أن يكون عونا له على ما نزل به من المكروه

الرابطة بين العواطف والغرائز . وعلى الجملة فالعواطف أخلاق تشارك الميول الغرزية فى صدورها عن الدافع الداخلى ، غير أن تحركها مقرون بالمؤثر الخارجى . هذا ويتفرع من العواطف الرئيسة عواطف بعضها مقصور على نفس المرء ، والبعض الآخر يجاوزه إلى غيره :

(ا) العواطف المقصورة

تنحصر هذه العواطف فى أربع :

الأولى الشمم : وهو خلق نفسى يعنى به المرء لنفسه ، غير أنه يود من غيره الاعتراف له به . ومن مظاهره أن يربأ بنفسه عن الدنايا ، وأن يكون بمنأى عن ارتكاب الآثام ، وألا يأتمر بمن هم دونه فى المنزلة . هذا والتغالى فى هذه العاطفة يحدث فى النفس خلق الكبرياء الذى ينشأ عنه احتقار غيره

الثانية احترام النفس : وهو اتخاذ المرء الشمم وسيلة للاحتفاظ بالمنزلة التى وضع نفسه فيها . ومن مظاهره أن يصون المرء مقامه ودرجته فى ميدان الحياة ، وأن يكون مهيب الجانب لا يتسنى لغيره أن ينال منه

الثالثة الغرور : وهو مجاوزة المرء حد الشمم ، وميله إلى وضع نفسه فى منزلة فوق منزلته ، ولذلك لا يقره الآخرون على هذه المنزلة ، ولا ينال من هذا الادعاء سوى الاستهجان .

الرابعة الضعة : وهى وضع المرء نفسه فى منزلة دون المنزلة التى يجب أن يكون فيها . ومن مظاهرها التزلف والذبذبة ، وما إلى ذلك من الصفات التى لا تتفق واحترام النفس . هذا وتعظيم المرء غيره ، مع حرصه على منزلته ، يسمى تواضعا ، فالتواضع غير الضعة

(ب) العواطف المتجاوزة

تنحصر فى ثلاث :

الأولى الكرم : وهو أن تفيض نفس المرء خيرا حبا للانسانية . ومن مظاهره النجدة ، والاغاثة ، ولين الجانب ، وما إلى ذلك من الأعمال الخيرية

الثانية البخل : وهو الاحجام عن فعل الخير مع القدرة . ومن مظاهره الاعراض عن مد يد المساعدة ، وعدم تحقيق رغبة ذى الحاجة

الثالثة الطمع : وهو رغبة المرء فى هضم حقوق غيره الشرعية ، والاستئثار بما لا حق له فيه . ومن مظاهره انتهاز الفرص للاستيلاء على حقوق الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة ،

أثر العاطفة : ولاختلاف جبلات الناس وطباعهم اختلف أثر العاطفة فيهم وظهر فى أحوال ثلاث

الاولى الشكر : وهو مقابلة الجميل بمثله أو بأعظم منه ، إن كان الشاكر قادرا ، والاعتراف بالجميل إن كان عاجزا عن المكافأة بالمثل ، (إنما يعرف الفضل من الناس ذووه) ويصدر الشكر عن الجبلة الطيبة الصالحة . ومن مظاهره أن يعرف الشاكر بالصدق والأمانة والأخلاص وحسن الظن وسلامة الطوية .

الثانية الكنود : وهو جحود النعمة ، وعدم الاعتراف بالخير لمسديه ، فهو لا يصدر إلا عن جبلة رديئة

الثالثة الخيانة : وهى مقابلة الحسنة بالسيئة ، والخير بالشر . ومن هذا يتبين جليا أنها لاتقف عند حد نكران الجميل ، بل تتعداه الى ماهو أشد مغبة . ومن مظاهرها انتهاز الفرص للايقاع بذوى الجبلات الطيبة الذين طهرت نفوسهم ، وخلصت نياتهم .

هذا وكثيرا مايكون أحد هذه الطباع ملازما للشخص طوال حياته ، وقد ينتقل البعض من خلة إلى أخرى بالتربية والأحوال الاجتماعية.

«حـ» الانفعالات النفسيه

(١) المنفرات الرءيسة

هى ماتصدر عن أمر خارجى ينفر منه الخلق ، أو يخالف ميل النفس ورغبتها . وتشارك العواطف فى صدورها عن أمر خارجى ، وتخالفها فى أنها دافعة لاجاذبة ، كما تخالف الغرائز فيما تصدر عنه ، لأن هذه تصدر عن أمر داخلى ولذلك يصح أن نسميها عواطف سلبية وتنحصر فى ثلاث :

الأولى الكراهة : وهى أثر ماخالف الرغبة ، أونافى الذوق ، من الأمور التى لايرتاح اليها فى مختلف الأحوال . ومن مظاهرها الاعراض عن المكروه

الثانية الغضب : وهو أثر ما يصل إلى المرء من الضرر والاساءة سواء أكان مباشرا أم غير مباشر . ومن مظاهره حمل الغاضب على دفع مالحقه من الأذى والشر بما أوتى من قوة غير منتظر حكم العقل وتدبيره

الثالثة الخوف : وهو أثر ما يهدد المرء من الحوادث الفجائية التى ترتاع منها النفوس ، وترتعد لها الفرائص . ومن مظاهره الميل إلى الهرب إن استطاع المرء الى ذلك سبيلا ، فان لم يستطع عمد إلى اتقاء الخطر بالحيلة ، فان لم يستطع نشط إلى الدفاع غير منتظر فى كل ذلك حكم العقل وتدبيره .

مما تقدم يتبين جليا أن وظيفة الانفعالات النفسية الوقاية من الخطر والأذى ، وأن وظيفة الغرائز الحرص على البقاء الفردى والسلالى ، وأن وظيفة العواطف الحرص على الكيان الاجتماعى

(٢) الانفعالات الفرعية ، أورد الفعل

أوضحنا فى النوافر الرئيسة أنها تدفع المرء الى الفعل قبل أن يتولى العقل الأمر ، ويشرع فى التدبير ، فاذا انبرى العقل للتدبر فى حالى الخوف والغضب نشأ عن ذلك ما يسمى الانفعالات الفرعية أورد الفعل ، ولذلك أساليب مختلفة :

أولها الحَنَقُ وهو تحفز المرء لرد الشر بالمثل . ومن مظاهره اشتراك العقل معه فى تدبر رد الفعل ، وسكون الغضب وذهاب الحقد ، إذا ما عجز عن التعجيل برد الفعل

ثانيها الحقد : وهو بقاء الغضب محتدما مع الكظم . ومن مظاهره إصرار الحاقد على رد الفعل ، والانتقام متى سنحت له الفرصة

ثالثها الحذر : وهو تنبه الانفعال لما ينذر بالخطر أو الأذى قبل وقوعه . ومن مظاهره أن يعمل المرء على تأويل أعمال غيره بغير ظواهرها ، وأن يبالغ فى سوء الظن ، حتى يصل إلى درجة الغدر الذى يحمله على التعجيل بأذى غيره ، قبل التثبت من احتمال مجىء الأذى منه . وقد يؤدى فرط الحذر

إلى تورط المرء فى المحذور ، غير أن الحذر قد يكون عونا على النجاة من الأذى والخطر إذا ما كان مصحوبا ببعد النظر خاليا من سوء الظن

(٣) مقومات الانفعالات

وهناك أخلاق فطرية ثانوية أخرى وظيفتها تقويم الانفعالات النفسية ورد الفعل بحال بين الشدة والضعف ، تابعة فى ذلك وحى العقل وإرشاده ، وهى :

أولا : الشجاعة ، وهى الاقدام على العمل حيث يجب ــ وفق ما تحتمل القدرة ومن مظاهر هذا الخلق أن يستطيع المرء أن يروض الضارى من العجماوات ، وأن يلقى الرعب فى قلب خصمه ، وأن يحمله على مهابته .

ثانيا التهور : وهو تطرف فى الشجاعة وغرور بالمقدرة . ومن مظاهر هذا الخلق الوقوع فى الخطر فى الغالب الكثير

ثالثا الجبن : وهو الاحجام عن اتقاء ماينزل به من الخطر ، أو دفع مايناله من الأذى مع القدرة على ذلك . ومن مظاهره الالتجاء تارة إلى الحيلة ، وأخرى إلى الاستعانة بالكذب والرياء والمواربة ، وما إلى ذلك من الصفات الذميمة .

وماورد من الفضائل والرذائل فى الانفعالات ، فقد جاء لضرب المثل فى هذا البحث النفسى ، وسيأتى الكلام عليها مفصلا فى مواضعه

(ى) الاحساسات

الاحساسات من الحالات الانفعالية تشبه العواطف فى الانجذاب وتخالفها فى أنها ناشئة عن أمور عليا ، وهى شعور المرء بما هو فوق تصوراته ، وغريب عن اختباره وتجاربه من مختلف الأمور والحوادث ، ولهذا الشعور ثلاث حالات :

الاولى : التعجب وهو انفعال نفسى من سر مجهول يحمل المرء على استقصاء السبب ، ولذلك لايفارقه العجب إلا إذا فهم السبب . هذا وتختلف الدهشة عن التعجب بأنها تحدث لمفاجأة أمر غير متوقع ، وإن كان مفهوم

السبب : كرؤية من نشأ فى البادية البحر الخضم لأول مرة ، وكمشاهدة ابن السهل الشاهق من الجبال لأول مرة أيضا .

الثانية الاستحسان : وهو انفعال ينشأ عن الجميل مما نشاهد أو نسمع أو نشم ، فلا يلبث أن يصل إلى الأجهزة العصبية فتهتز اهتزازا متساوقا ينتقل الى المراكز الدماغية التى تهتز مثله اهتزازا نظاميا . وعلى النقيض من ذلك الاستهجان الذى يحدث فى الأجهزة العصبية أثرا تمجه النفس ، وتنفر منه

الثالثة الاجلال : وهو رد الانفعال بالأمر العظيم كالقوة والشجاعة . ومن مظاهره الشعور بوجوب عبادة الخالق ، وإجلال الزعماء ، وأولياء الأمور ، وما إلى ذلك مما هو جدير بالتبجيل والتكريم ، ثم المحبةُ الناشئة عن تفرع الاحساسات الفارطة - وبخاصة الاستحسان - إلى إحساسات تحرك بعض العواطف فلا يَلبث أن يفوق الفرع الأصل .

ولهذه المحبة ثلاث درجات :

الأولى الميل : وهو رغبة المرء فى التمتع بما يستحسنه من الجمال ، مااستطاع إلى ذلك سبيلا . ومن مظاهره طلب الامور التى لاتكلف النفس نصبا

الثانية الود : وهو اشتداد الميل نحو الجميل ونيله . ومن مظاهره اندفاع المرء إلى طلب الجميل ، ومواصلة بذل الجهد للوصول إليه

مما تقدم يتبين جليا أن الميل والود يشتركان فى الرغبة فى نيل الجميل ، غير أن الأول يقتصر على الأمور التى لا تكلف النفس عناء ، والثانى لا يقف بالمرء عند هذا الحد

الثالثة الحب : وهو شعور راق فى المرء يدفعه إلى توخى المثل الأعلى من الجمال ، ويرتفع بالعاطفة إلى أسمى درجات الخيال ، وفيه يتمثل جل الأخلاق الكريمة . ومن مظاهر هذا الشعور أنه العامل الكبير فى تصرفات الانسان وأن جل مساعى الانسان وأعماله صادرة عن حبه .

وقصارى القول فى طوائف الأخلاق الأربع الرئيسة وفروعها أن الغرائز تدفع الانسان بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على البقاء ، والعواطف تربطه بما يتفق ومزاجه من مختلف الأشياء ، والانفعالات تجعله بمعزل عن الأمور التى تخالف مزاجه ، والاحساسات تسمو بروحه إلى أرفع درجة فى الجمال والصلاح.
هذا ولما كانت أفعال الانسان لا تصدر عن مؤثر واحد ، لأن مبتغى المال يصل إلى مبتغاه بدافع الود والطموح والبخل والطمع ، والمدافع عن نفسه يقهر عدوه بدافع الغضب والشجاعة ؛ قيل : إن الانسان مجموعة أخلاق

الرغبة والخلق

الرغبة هى انبعاث النفس نحو مايلوح أنه ملائم لها وهى خاصة بالانسان ، ويقابلها عند الحيوان الحاجة ، وهى الداعية العمياء التى تدفعه إلى مساوقة الفطرة ، وتحصيل مابه ينمو الجسم ، ويستكمل قواه ، دون أن يدرك بوجه ّما منشأها وعلتها . ومظهرها فى الحيوان على اختلاف أجناسه وطبقاته السرور والألم ، فالحاجة إلى الطُّعم وقت اشتداد الجوع مدعاة إلى الالم ، وإسعاف تلك الداعية سبيل السرور والابتهاج ، ومعنى هذا أن أخص دلائل هذه « الحاجة » عند الحيوان وإن تباينت أجناسه وتعددت مراتبه ؛ هو السرور أو الألم

أما الانسان فرغبته مظهر خلقه ، ومعيار نفسه : ذلك بأن الانسان فى حاليه البدوية والحضرية يجد للجوع ألما فيطلب سده ؛ بيد أن له فى كل منهما قصدا يطلبه ، وغرضا يرمى إليه : فالبدوى يطلبه لسد نهمه وشرهه وملء بطنه ، وتقوية جسمه وعضله ؛ والحضرى يقصده ليقيم به أودصلبه ، ويستعينه على نماء عقله ، وإعداد جسمه لاحتمال مطالب نفسه ، ومعاونتها على اقتحام المخاطر وركوب متن الأهوال

وإذا كانَتِ النفوسُ كِبارا ... تَعِبت فى مرادِها الأجسام

على أن رغبتهما فى الشئون المعنوية مختلفة كذلك : فالحضرى يرغب فى

الهدى(١) والتقوى، ومؤازرة الفضيلة وإقامة دعائم الحق، ونشر ألوية الانصاف والبدوى البعيد عن تزكية الدين الخالى من حلية العلم، وجمال الأدب؛ همه شن الغارة على جاره، وأخذ مافى أيدى الناس، مغرما أونهبا، وتحصيل الأرزاق بحد السيف وتحت ظلال الرماح، إلى غير ذلك من قبيح العادات وسوء الملكات.

يستخلص مما تقدم أن رغبات الانسان تضرب بسهم فى تكوين أخلاقه، ومن أجل ذلك يجدر بنا تفهم الرابطة بين الرغبة والخلق وإليك البيان:

ارتباط الرغبة بالخلق: لقد أوتيت كل نفس رغبات هى الآخذة بزمام عقله، المالكة لشعوره وحسه، وهى مختلفة على حسب اختلاف صاحبها صحة ومرضا، سعة وضيقا، يسرا وعسرا، هناءة وبؤسا. ولذلك قال الخلقيون: إن فى نفس الانسان عشائر من الرغبات كل عشيرة مؤلفة من وحدات، بينها وشيجة قربى وسهْمَةَ رحم متضافرة متوازرة، لا تفارق واحدة صواحباتها مادامت النفس فى حال طبعية، فاذا ماعراها حادث فجائى: كنعى عزيز، أو تذكر وعيد، أو وخز ضمير، أو داعية شرف أو عرض؛ حصل اضطراب فى نظام الوحدات واختلط بعضها ببعض

تعارض الرغبات: لقد أسلفنا أن فى النفس عشائر من الرغبات مؤلفة من وحدات متضافرة، وشأنها شأن عشائر بنى الانسان قد يقع بينها التخاصم والتطاحن: فان همت واحدة من عشيرة من عشائر الرغبة بدفع صاحبها إلى العمل على تحصيل غرض ما؛ انبرت واحدة من عشيرة أخرى لمبارزتها، وقصد الانتصار عليها، مستصرخة ببنات

(١) بدهي أن الخلقي لايعنى فى مباحثه إلا بالقواعد العامة، فان كانت هناك طائفة من أهل البدو أقرب إلى الفضيلة والتقوى من طائفة من أهل الحضر الذين تعلموا الدين ودرسوا الأخلاق، فذلك مما لايقدح فى عموم القاعدة

عشيرتها ، مدلية إليهن بحق العصبية ، ووجوب مظاهرة القريب على البعيد تلك سنة الله فى خلقه (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) .

ولنضرب مثلا : قد يخلو السياسى بنفسه فتجول فى صدره رغبات مختلفة تتجالد وتتكافح ، فبينا هو مسوق برغبة عمل الخير لوطنه ، متشوف إلى سلوك سبيل يفضى به الى قضاء لبانته ، وتحقيق غرضه ، إذا هو بجيش من رغبات أخرى يهجم على قلبه ، فتنبرى من بينها رغبة المجد لنفسه ، والهناءة لأسرته وفصيلته ، ونيل الرفعة لعاضديه وعصبته ، مشيرة عليه بايثار نفسه ، محسنة له أن من كسب المجد لنفسه ، وأحرز لها نباهة الذكر ، وأورث أسرته الجاه الرفيع ، والصوت البعيد ، فقد أدى الواجب الاعظم وسقط عنه كل تكليف آخر .

وبينا تجول فى خاطره رغبة حمل أمته على إذكاء نار الحرب على جارتها ، وشن الغارة على بلادها لانتزاع ملكها ، وثل عرش مجدها ، إذا برغبة حب السلم تدور بخلده حقنا للدماء ، واجتنابا لاصلات سيف البغى ، وحبا فى نشر السلام والوئام

هذا مثل من تشاحن الرغبات وتطاحنها ، فلأيها صاحبها يخضع ؟ وإلى أيها يجنح ؟ فان كان ممن رست قواعد خلقه ، وتوطدت دعائمه ، وقويت مرائره ، جمع عشائر هذه الرغبة المتجالدة ، ورد أمرها إلى « الواجب » فهو الحاكم الذى لا يحيد قيد شبر عن سنن الحق وصراط العدل ، فما ناصره الواجب منها وقضى له ، فهو الحق الذى يجب أن يتبع ، وماقضى عليه فجدير به أن يستأصل ويمحق .

مما تقدم يتبين مبلغ الرابطة بين الرغبة والخلق ، وأن ذا الخلق القويم هو الذى يناوىء الرغبة الفاسدة ، ويدرك أنها مطية الفتنة ، وسبيل المحنة ، وأن طاعتها داء وعصيانها دواء ، وأن الجرى وراءها يصرف النفس عن أن ترتكب الافضل من خلائقها ، والاجمل من طرائقها . ألم تر إلى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه (اقْدَعوا هَذِهِ النفوسَ عَنْ شَهَوَاتِها فَإنها طَلاَّعَةٌ تَنْزِع إلى شَرّ

غاية ، إنَّ هذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ)

ذو الخلق القويم هو الذى يتخذ الواجب وزيره ومشيره ومعيار قوله وعمله ، والواجب من شأنه أن يستعين العقل ، فيوقظه إلى سطوة الرغبات وسلطانها ، ويبصره حيلها وخداعها ، ويحذره أن يتورط فى شراكها ويقع فى نخوخها ، فلا تلبث أن تصير بالعقل مدحورة ، وبحكمته مقهورة . فالعقل وزير ناصح ، والرغبة وكيل فاضح ، لاشك فى أن الرغبة التى قضى عليها الواجب ولم ينصرها ، لهى أخت الهوى ، ولقد قال على رضى الله عنه (الْهَوَى عَمًى) ووصفه بعض البلغاء فقال (الهوى مطية الفتنة ، والدنيا دار المحنة ، فاترك الهوى تسلم ، وأعرض عن الدنيا تغنم ، ولايغرنك هواك بطيب الملاهى ، ولاتفتنك دنياك بحسن العوارى ، فمدة اللهو تنقطع ، وعارية الدهر ترتجع ، ويبقى عليك ماترتكبه من المحارم ، وتكتسبه من المآثم)

وقال على بن عبد الله الجعفرى : سمعتنى امرأة فى الطواف وأنا أنشد

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى * فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان : فذر أيهما وخذ الاخرى

الارادة والعمل : الارادة هى القوة التى ودعها الله الانسان ، وأسلمها زمام عقله ، فبها تعقد العزيمة على إمضاء عمل عاجل أو آجل ، فان كان آجلا ولم تحل دونه الحوائل الخفية ، تم انفاذه على الفور ، وإن كان آجلا بقى فى النفس مكنونا حتى يجىء حينه ، وربما طال عليه الامد فتعذر انفاذه ، إذقد تسخو النفس بالعزيمة على أمر ، وصاحبها متأثر بأحوال ومقتضيات ، غير محيط بعواقب الامور حميدها وذميمها ، منطوية نفسه على أمور مخبوءة فى غياهب ثنياتها ، حتى إذا جاء زمن الامضاء والانفاذ ، وحقت الحقائق نجمت أحوال جديدة ، وانكشفت الامور المكنونة ، فانحلت عزيمة النفس ، وثقل عليها العمل ، فتغيرت عن عزمها ، وخذلت صاحبها . ولنضرب مثلا :

يعقد السياسى العزيمة على أنه اذا تولى رياسة الحكومة مثلا التزم الاستقامة

فيها ، والانقياد للحق فى مجاريها ، وأقام أركان العدل واجتنب الميل والمحاباة والتشيع والمماراة ، واستأصل جذور الظلم والظالمين ، وخضد شوكة المرتشين والراشين والرائشين، واتخذ ظهيرا له أشياع الحق ، وأنصار العدل وأهل الدين والخلق ، وحماة الفضيلة والادب ؛ حتى اذا تولى صادف عزيمته الضعف والوهن ، واستحوذ عليه الهوى ، فصرفه عن الرشد ، وزين له قبيح عمله ، فأضله عن سواء السبيل ، فركن الى شيعة الباطل ، وأعداء الحق ، واستمد رأيه من أتباع الغى وبطانة السوء .

من أجل ذلك قال علماء الاخلاق : (عقد العزيمة لا يستلزم حتما إنفاذ العمل) فطالما هبت ريح العزائم على النفس فأنعشتها ، وأفعمتها بجم المقاصد ، ثم ما لبثت أن سكنت ، وهدأت ، كأنها كانت حلماً لصاحبها ، وإلى ذلك أشار على رضى الله عنه إذ يقول : « ما أنقضَ النوم لعزائم اليوم » فكم خطط هدرت بالخاطر ثم قرت ، وكم عزائم صالت ثم انهزمت أمام تبدل الأحوال مذعورة من اشتباه العقبى ، وغموض المآل .

يتبين مما تقدم أن الارادة غير العمل ، وان القول بأنهما شيء واحد باطل . حقاً قد تتصف الارادة بالقوة فيقترن بها العمل ، ولذلك يخيل لغير المدقق أنها والعمل أمر واحد ، والحق أن لا اشتباه ، لأن اتصافها بالقوة لم يغير من حقيقتها ، بل جعلها وسيلة قربى للعمل مفضية اليه ، وقوتها : إما فطرية ، وإما كسبية مستفادة . فان كانت فطرية فصاحبها يوسم غالباً بأنه غليظ الكبد قاسى القلب ، رابط الجأش ، لا يخشى ركوب متن الأهوال ، واقتحام المصاعب والمخاطر . وإن كانت كسبية فأصحابها من ذوى الفكر الواسع ، الذين خبروا الأمور وسبروها ، وتعرفوا ما يهم منها وما لا يهم ، فالى المهم وجهوا الهمم ، وله شحذوا العزائم . ألا ترى قوة الارادة متجلية فى قول عمر رضى الله عنه : « لأن أقدمَ فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه » إذ معنى هذا أنه وجد من نفسه العزم

الجازم على أنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل ، ومثل عمر من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر ، لفداه بنفسه ، وآثر حياته على حياته .

حقاً لقد أراد عمر رضى الله عنه أن يجعل نفسه قدوة صالحة ، ومثلا كاملا ، وعبرة نافعة ، لمن رمت الشكوك بنوازعها عزيمة اعتقادهم ، واعتركت الظنون على معاقد يقينهم ، وقدحت قادحة الاحن فيما بينهم ، ثم عدت على عزائمهم خدائع الشهوات ، وطمست بصائرهم بلادة الغفلات ، وتولاهم غل التحاسد ، وشعبتهم مصارف الريب ، واقتسمتهم أخياف الهمم .

يستخلص مما تقدم أن الارادة القوية سر النجاح ، ورائد الظفر ، وحياة الشعوب والأمم ، ولا شىء أدل على متانة الخلق ، واستحصاف قواعده ، من إرادة قوية تحبب الى صاحبها الاستماتة والاستبسال فى الدعوة الى مكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، والتعصب لخلال الحمد : من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمام ، والطاعة للبر ، والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل ، والكف عن البغى ، والانصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد فى الأرض .

وكل أمة يكثر فى أبنائها ذوو الارادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، لا تلبث أن تنشر النعمة عليها جناح كرامتها ، وتُسيل لها جداول نعيمها ، ويمنحها الله سلطاناً قاهراً وعزا غالباً ، يثبت ملكها ، ويؤيد دولتها ، ويجعل منها حكاماً على العالمين ، وملوكا فى أطراف الأرضين ، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم .

إلى درجة صدق الارادة والوفاء بالعزم يشير قوله تعالى فى كتابه الكريم « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عليهِ فِمِنهمْ مَنْ قَضَى نَحْبه وَمِنْهمْ يَنْتَظِر وَمَا بَدَّلوا تَبدِيلا » فلقد روى أن أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ليرين الله ما أصنع ، فلما أتى العام شهد واقعة « أُحد » فاستقبله سعد بن معاذ فقال : « يا أبا عمرو إلى أين ؟ » فقال : « واها لريح الجنة ، انى أجد ريحها دون « أُحُد » !! فقاتل حتى قتل فوجد فى جسمه بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : « ماعرفت أخى الا بثيابه » وكذلك تفعل قوة الارادة بأهلها ، وكذلك يكون اليقين .

لما كانت الارادة بهذه المنزلة قال جمهور الخلقيين : « إن الخلق صورة الارادة »

ان الخلق صورة الارادة : ومرادهم أن للنفس أحوالا شتى ، وخلقها هو الحال التى تتغلب عليها وتصرفها : فمن رسخ فى نفسه مثلا ، وتغلب عليها حال تقديس الواجب ، فاتخذه المردّ الأعلى ، والمرجع الأسمى ، الآمر الزاجر ، الناهى القاهر ، فهو صاحب الارادة الصادقة ، والخلق الحسن . ومن تغلب عليه حب جمع المال ، ومنعه أهله ، فهو البخيل الشحيح . ومن تغلب عليه الانفراد بالرأى ، والاعراض عن النصيحة والمشورة ، فهو العنيد المستبد . ومن كان قلَّباً حولا ليس له حال متغلبة عليه ، فهو المتعطل من الخلق ، العارى من الارادة الماضية ، والعزيمة الصادقة ، اذا عاشر الأسخياء ، شاكلهم وحاكاهم ، فجادوا أعطى ، وإذا عاشر البخلاء ، تقيل أثرهم ، فمنعوا أكدى ، إذا حببت اليه النجدة والاغاثة سارع وأبلى ، واذا زين له الكيد والوقيعة بالناس انقاد ولبى ، ذلكم الامّعة .

يتبين مما تقدم أن الخلق المكون جدير بالعناية والبحث ، ولذلك يقمن بنا أن نبحث فى مظاهره : وهى الأعمال التى يأتيها صاحبها عادة وإلفاً . وتلك الأعمال هى ما اصطلح الخلقيون على تسميتها بالسلوك

مباحث نفسية لابد منها

١ ـــ الحال والملابسات :

يصل الفعل ، إلى الغاية بمرافقة الارادة أو الرغبة فاذا تغيرت الرغبة تغير

الفعل ، وقد تتغير الغاية أيضاً . ولما كان تغير الرغبة مقروناً بتغير الحال التى تنشأ فيها مست الحاجة إلى البحث فى الحال .

(١) ماهية الحال :

الحال هى ملابسات الشيء المطيفة به ، فكل رغبة مرتبطة بالحال التى تنشأ فيها . فاذا تغيرت الحال لسبب ما ضعفت الرغبة أو تغيرت ، وكذلك الحال تتعدل أو تتبدل تلبية للطوارىء التى تؤثر فى محركات الفعل وبواعثه ، ومسايرة لاختلاف الرغبات والغايات : فهبك تساوم شخصاً على أمر فيه منفعة لكليكما ، وترغب فى الاتفاق معه على شروط العقد ، وبينا أنت تناقشه ويناقشك ، إذ بدر منه ماأغضبك فعدلت عن الاتفاق ، فلما استأت من المناقشة تغيرت من حال الموادة إلى الحال المغاضبة ، وتغيرت الرغبة والغاية أيضا

وهبك آنست فى مناقشته إياك ليناً يطمعك فى منفعة أخرىء ، تفوق المنفعة التى ترمى إليها ، فلينه هذا غير حال المساومة كما غير الرغبة .

مثال آخر : رغب تلميذ فى الطب ، فاشتغل بالدرس لتحقيق هذه الرغبة وفى اثناء اشتغاله مات أبوه ، أو أفلس فلم يستطع الانفاق ، فعدل عن الدرس ، ونزل إلى مضمار العمل والاسترزاق . فالحال فى الأولى تغيرت بتغير حال الأب ، فتغيرت معه رغبة الابن وغايته وعمله . ومن هذا يتبين أن الأحوال ليست فى قبضة الانسان ، بل هى كالرياح تجرى بمالاتشتهى السفن . ولذلك تتغير أحوال الانسان من وقت إلى آخر ، ولحصر هذا التغير فى أحوال رءيسة نذكر ماياتى :

(٢) تغيرات الأحوال الرءيسة :

أولا ـ قديكون سبب تغير الأحوال فى المحركات الباعثة للفعل : كما لو كنت تطالع رواية ، فهاجت حادثة الرواية عاطفة الحب فيك ، فاندفعت أفكارك فى الخيالات الغرامية ، وقد يلوح لك أن تنظم قصيدة فى الموضوع ، فتترك الرواية وتشرع فى النظم .

ثانيا — قد يكون السبب تصويب الرأى إذ يعرض للانسان ما يغير حكمه، فيعدل عن مجرى فعله ويوجهه فى ناحية أخرى : كما لو كان يضارب فى السوق، وفهم أن المضاربة تؤدى إلى الخسران والافلاس، فيعدل عنها إلى التجارة المشروعة بلا مضاربة.

ثالثا — قد يكون السبب طارئا خارجيا يطرأ على عملك فيغير مجراه، أو يقطع السبيل عليه، كما لو كنت تصطاد طيورا، فصادفت غزلانا، فتجنح عن صيد الطيور إلى صيد الغزلان،

رابعاً — قد يكون السبب تغير الحال الصحية، فبينا تشتغل إذ أصبت بمرض فتجنح إلى السرير للاستشفاء، وقد يكون المرض عضالا يحول بينك وبين العودة إلى هذا العمل، فتضطر أن تزاول عملا آخر، أو أن تسافر للاستشفاء.

خامسا — قد يكون السبب الأحوال التى تقضى على الانسان بتغيير مجرى الحياة، فهو اليوم تلميذ، وغدا مستخدم، وبعد الغد تاجر أو صانع، والآن مسرور، وبعد برهة كئيب، والآن فى عزلة، وبعد برهة بين جماعة، وهلم جرا من الأحوال التى تجعله فى شأن جديد، يغير رغباته، وغاياته، ومجارى أفعاله

سادسا — وأخيرا تختلف الأحوال باختلاف الأشخاص، فقد يتفق اثنان فى الرغبة، ويختلفان فى الغاية : كلاهما يقدم مالا لمشروع خيرى. أحدهما بدافع الشفقة، والآخر بدافع الشهرة، فالباعثان مختلفان، وقد يقترع نائبان فى مجلس نواب على مشروع : أحدهما يقصد به الخير العام، والآخر يرمى إلى نيل منفعة له من هذا المشروع : فالخير العام غاية النائب الأول، وغاية النائب الاخر توخى المنفعة لنفسه.

هذا وقد تتعدد أحوال الانسان ورغباته المختلفة فى وقت واحد، فلا تلبث أن تتضارب أو تتباين، وأن توشك أفعاله أن تتعدد فى وقت واحد : ذلك أن السياسى يمكن أن يجد نفسه فى ثلاثة أحوال معا، وهو يفاوض سياسيا آخر فى دولة أخرى : إحداها الرغبة فى السلم العام، وثانيتها الرغبة فى مصلحة بلاده، وثالثتها الرغبة فى إرضاء ضميره، ولا يعدم التضارب فى هذه

الأحوال ، فاذا أصر على مصلحة بلاده ، فقد يعرض السلم للخطر ، أو لا يرضى ضميره ، لأن المصلحة الوطنية المبتغاة ليست حقا مثلا ، وإذا لان محافظة على السلم ، فقد يضيع حق وطنه ، ويخالف ضميره إذا كان حق وطنه ثابتا حقا . فمثل الرغبات الثلاث مثل قوات متضاربة ، وأقواها توجه الفعل وجهتها .
فالانسان يجد نفسه فى مختلف الأوقات والساعات مقودا برغبات مختلفة يغلب عليها التضارب أو التباين ، فهو يريد الاحسان إلى الفقراء ، ويحجم لقلة المال ، ويريد التوجه لسماع محاضرة ، فيحول بينه وبين إنفاذ إرادته اضطراره إلى ملازمة عمله ؛ ويريد الهجرة فى طلب العلم غير أنه ذو أسرة لامعين لها سواه ، فيبقى إلى جانبها ، وما إلى ذلك من الرغبات المختلفة فى الأحوال المختلفة .

الشخصية : متغيرة ، ومطلقة

لما كانت الدواعى المحركة للفعل متغيرة بتغير الأحوال ، ولما كانت الرغبة التى تندب الارادة إلى الاقتران بالعمل أو الترك متغيرة أيضا ، كانت الشخصية (التى هى مظهر اتحاد الدواعى المحركة مع التعقل المرشد فى إجراء الفعل) - متغيرة : فأنت الآن مسالم ، وبعد هنيهة مخاصم . وأنت الان عادل ، وبعد هنيهة ظالم ، وأنت الان فيك أثرة ، ثم فيك إيثار ، ومسرور ثم مكتئب ، ورزين ثم أهوج .

أما الشخصية المطلقة التى يتصف بها المرء ويعرفها له معارفه ، فهى أثر تفاعل الشخصيات المتغيرة ، مع ما يغلب عليه من السجايا : فيوصف بالكرم ، لكثرة إحسانه ، وإن أمسك فى بعض الأحيان . ويوصف بالشمم وعزة النفس ، وإن تزلف أو تصاغر فى بعض الأحيان .

ولاجمال الأساليب التى يجرى فيها الفعل بقوة المحركات وحكم الارادة نذكر لك بيان أحوال الغاية :

الغاية

تنوع الغايات

١ — الرغبة والغاية :

الرغبة ترمى إلى غاية ، فلكل فعل تفعله غاية تتجه اليها الرغبة ؛ لذلك كان تطلب الغاية يستدعى اصطحابها ، لأنها ترافق الفعل الى أن يبلغ الغاية ، ومن أجل ذلك يتبين جليا أن الرغبة تتضمن أمرين : أحدهما الباعث الذى يدعو الى الفعل ويرافقه الى الغاية ، والآخر الغرض الذى ترمى اليه الرغبة . ويتضح ذلك الفرق بين الأمرين اذا كان اثنان يرميان الى غرض واحد ، ولكنهما يختلفان باعثا كلاهما يبتغى انقاذ غريق : فأما أحدهما وهو أبوه فيبتغى إنقاذه للبنوة ، وأما الآخر وهو غريب عنه فيبتغى انقاذه للانسانية ، ولهذا اختلف الباعث واتحد الغرض . هذا وتختلف البواعث باختلاف الأحوال :

٢ — وأهم هذه الأحوال ما يلى :

أولا ـ يختلف الباعثان من حيث البعد والقرب ، فيكون أحدهما بعيد المرمى ، والآخر قريبه : هب اثنين ينقذان غريقا : أحدهما للانسانية ، والآخر لأن له عنده دينا يريد استيفاءه . ففى الحال الأولى ينتهى مرمى الباعث بالانقاذ ، وفى الأخرى لا ينتهى إلا باستيفاء الدين .

ثانيا ـ أن يكون أحد الباعثين من الداخل والآخر من الخارج : كما لو صنع الواحد جميلا لارضاء ضميره . والآخر صنعه للشهرة ، أو الثواب ، أو المكافأة .

ثالثا ـ أن يكون أحد الباعثين مباشرا ، والآخر غير مباشر ، كما لو رام فوضويان قتل حاكم ، يتحين أحدهما فرصة لقتله وحده ، فى حين أن

الآخر ينسف قطارا ، لأن الحاكم فيه . يقتل كل من فى القطار مع أنهم ليسوا مقصودين ليصل الى غايته

رابعا ـ أن يكون الباعث كامنا مستورا : كما لو خدم المرء وطنه خدمة جليلة قاصدا خير أمته ، مستبطنا نيل الفخر لنفسه ، فقصده الفخر كامن مستور وإن لم يكن مرماه الأول . وفى كثير من الأحوال يتعذر الفرق بين هذين الباعثين

خامسا ـ أن يكون أحد الباعثين حزبيا ، والآخر نفعيا : كما لو رام حزبان ـ أو شخصان من حزبين ـ أن يغيرا الحكومة . فأحد الحزبين أو الشخصين يصوت ضدها ، لأنها تخالف مبدأه ، وثانيهما لأنها تضر بمصالحه أو مصالح حزبه

على أن هذه الأحوال الخمس غير مستوعبة لجميع ضروب البواعث وأحوالها ، إلا أنها جمعت أهمها .

٣ ـ تسلسل الغايات وتعددها :

قد تكون الغاية واحدة : كما لو أكلت لتسد الجوع . فالغاية هنا واحدة ، والفعل مباشر . لكن إذا طبخت ، فنضج الطبخ هو الغاية المباشرة ، والأكل من الطبخ هو الغاية الأخرى . فالغاية الأولى صارت وسيلة للأخرى . فالغايات يتشعب بعضها عن بعض : فأنت تتاجر وتربح ، ثم تنفق بعض الربح فى قضاء الحاجات ، والبعض الآخر تضمه إلى رأس المال ، لكى توسع المتجر ، فاتساع متجرك غاية قائمة بنفسها ، ثم ترمى باتساع المتجر إلى جمع المال لكى تسعد أسرتك ، فاسعادها غاية أخرى . وهكذا دواليك الغاية الواحدة وسيلة للأخرى .

٤ ـ السرور والغاية :

اختلف الباحثون فى ماهية الغاية فكانوا فريقين : فريق يقول : إن الغاية سرور النفس ، وإشباع شهوتها ، وترقية شعورها ، وفريق آخر يقول : بل هى

النفع المقصود والسرور يرافق القصد إلى الغاية . فمن ذلك لعب النرد مثلا أو أية مسابقة ، فاللاعب حين يشرع فى اللعب ، لايضمن الفوز ، بيد أنه يلتذ باللعب حين تحتدم المسابقة ، ومتى فرغ من اللعب لايكون سرور الفوز عظيما ، كسرور اللعب نفسه ، فما السرور إلا استمرار اللعب طمعا فى الفوز ، وأملا فى السبق . ومن ذلك أيضا أن كثيرين يجمعون المال ، ويدخرونه ولا يتمتعون به ، فهم يسعون إلى المال نفسه ، وليس السرور فى المال المدخر ، وإنما السرور فى جمعه والكدح فى تحصيله ، فالسرور هنا سبق الغاية ، والغاية جاءت متأخرة .

ومن ذلك يتبين جليا أن السرور ليس غاية بل هو يرافق القصد إليها ، ومتى بلغ المرء غايته انتهى سروره ، وشرع يرمى إلى غاية أخرى لذلك بكى الاسكندر الأكبر حين انتهى من الفتح ، ولم يبق أمامه من البلاد مايحتاج إلى تعبئة وحروب ، فكان سروره فى الحرب للفتح ، فلما تم له ماسعى إليه ، انتهت لذته .

ومما تقدم يتبين أن الفريقين مختلفان فى تحديد الغاية . فالأول يعد الغاية اللذة سوء أكانت اللذة فى أثناء الفعل أم فى نهايته . والغايات مسلسلة كما أوضحت سالفا : فاذا كنت تبنى بيتا ، فلا تلبث أن تشعر بلذة حين تنتهى من وضع الأساس ، لأنك وصلت إلى درجة من الغايات التى تتوسل بها إلى الغاية القصوى ، وهى سكنى البيت ، أو التمتع بأجرته . فمقاصد الانسان سلسلة لاتنقطع والسلسلة تشمل حلقات ، كل حلقة قائمة بنفسها وفيها لذة ، فاللذة هى الغاية سواء أكانت الغاية نهائية ، أم مرحلة من المراحل

والفريق الثانى يعد الغاية ثمرة الفعل ، فمتى أثمر الفعل كان ثمره غاية . وأما السرور فيحدث فى أثناء الفعل ـ أى أن السرور يرافق القصد إلى الغاية ـ هذا ، وسنزيد هذا الموضوع إيضاحا عند بحث موازين الأعمال الخلقية .

٥ ـ الغاية القصوى :

مما تقدم يتبين أن لكل من الفريقين وجهة ، والفرق بينهما قليل ، وللتوصل

إلى الحقيقة يجب أن نتعرف الغاية التى يتجه إليها الفعل ، ويرمى إليها القصد ، وهذا يستدعى العودة إلى المحرك للفعل ، لأنه سبب وجود الغاية ، فنبحثه بحثا أوعب مما فعلنا من قبل . ذلك أنه مر بك أن الأخلاق والسجايا التى تحرك الفعل ، منها غرائز بحتة كالشهوات والانفعالات . وأن الغرائز وظيفتها الحرص على بقاء الفرد والنوع ، فالقصد من الأفعال الحرص على الحياة والبقاء : فحين تأكل لدفع الجوع تفعل ذلك بغريزة الميل المعدى ، حرصا على الحياة والبقاء ، وحين تهرب تفعل ذلك بدافع غريزة الخوف ، محافظة على الحياة والبقاء ، وحين تغضب تقاتل حرصا على الحياة ، وهلم جرا . ومن ذلك يتبين جليا أن للغاية دخلا فى تحريك الفعل وشركة ، لأنها غرض الغريزة .

حـ - الداعى أو الباعث

ظهر لك مما تقدم أن الغاية المرغوبة يرافق السرور وسائلها ، وأنها محركة للفعل أو من جملة محركاته : فالشهرة مثلا غاية ، ومحرك للفعل المتجه إلى هذه الغاية . ولايضاح أمر التمييز بين المحرك من قِبَل الطبع ، والغاية التى تتراءى لنا محركا أيضا للفعل المتجه إليها ، نوجه ذهن القارىء إلى مبدأ أعم من المحرك وهو الداعى أو الباعث للفعل : فالداعى قد يكون محركا من قِبَلِ الطبع أو غاية مرغوبة ، أو تعقلا أيضا ، أو حالا طارئة ، أو قد يكون كل ذلك أو بعضه ،

١ - الطبع بوصفه محركا للفعل وحده أو بمعاونة الغاية :

المحرك من قِبَلِ الطبع الذى يستقل وحده فى ندب المرء للفعل هو الدافع الغرزى البحت ، ولاسيما إذا كان رءيسا : كالشهوات الغريزية والانفعالات ، فهذه تحرك المرء للفعل من غير أن ينظر إلى الغاية : فهو يغضب ويقاتل ، ويخاف ويفر ، ويجوع ويتلهف على الطعام قبل أن يفكر فى الغاية ، سواء أكانت سارة أم مؤلمة . فالغاية - على هذا الاعتبار - لاتساهم فى تحريك الفعل ، وأما الطباع المتفرعة فلأنها أقل سرعة فى عملها ، تقيم فى الذهن صورة الغاية المرغوبة ، وهذه الصورة تشترك معها فى تحريك الفعل : فحب المال

والشهرة ، والشفقة ، والميل إلى الاحسان ، وما إلى ذلك ؛ يقيم فى الذهن صورة السرور بالحصول على الأمر المرغوب فيه ، فتكون الغاية المرغوبة عونا قويا فى تحريك الفعل .

٢ ـ التعقل بوصفه محركا:

المحرك من طريق التعقل هو إيثار الوسيلة المحمودة التى يجب أن تجرى فيها حركة العقل إلى الغاية المرغوبة ، وهى التى تضبط الشعور وتجعله فى قبضة التعقل : فقد تتحرك شفقة المرء عند رؤيته فقيرا ، وتدفعه إلى الاحسان إليه غير أن تعقل الغاية قد يقمع الشفقة ، لئلا يتعود الفقير الشحاذة . فهنا كان التعقل باعثا على قبض اليد عن الاحسان وتوبيخ الشحاذ هذا ، وقد يستقل التعقل وحده بتحريك الفعل فيحرك الخلق ، ويقيم له غايه مرغوبة عن نفسه وحينئذ يكون عمله عقليا بحتا كالخصم يواسى خصمه فى كرب نزل به

٣ ـ الحال بوصفها محركا:

قد تعرض للمرء حال تسند اليه فيها الرياسة فلا يلبث أن تثير هذه الحال فى نفسه حب الزعامة ، وقد كانت نفسه قبلا غير طامعة فيها ولا طامحة إليها ، أو قد تعرض له حال ينال فيها شيئا من المال ، أو يحسن صورة ، أو يتصدق مرة ، أو يناله شىء من التبجيل ، فيثير ذلك فى نفسه حب الثراء ، والفن ، والاحسان ، والوجاهة ، فتكون الحال فى الأصل ، هى علة تحريك الفعل .

العادة

لما كانت العادة ينبوعا عظيما من ينابيع الأخلاق حق علينا أن نقول كلمة فى مبلغ أثرها فى رفع الانسان إلى درجات الكمال ، أو التدلى به إلى دركات الانحطاط .

قال ابن خلدون فى مقدمته : إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر ، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه : فالذى

ألفه فى الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تَنزَّل منزلة الطبيعة والجبلة ، واعتبر ذلك فى الآدميين تجده كثيرا صحيحا . وقال فى مقام آخر : إن أهل الحضر لما ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال ، أصبحوا عيالا على غيرهم ، بيد أن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وانتباذهم عن الأسوار ، ووثوقهم بأنفسهم ، قد صاروا مدلين بيأسهم ، وصار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ اه من أجل ذلك قال علماء التربية : إن العادة طبع ثان ، وأثبتوا بكل ما فى قوتهم من حجة ودليل ، أن تلقين الطفل الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، ألفاظاً منسلخة عن مدلولاتها ، ومعانى مجردة عن منازعها فى عالم الحس ، سنة لا تورث إلا عقما ، ولا تثمر إلا خيبة وندماً ، بل لا بد من إشراب النفوس تلك المعانى ، وتكوينها على العمل بالفضائل المقدم ذكرها ، حتى تحل منها محل الروح من البدن ، وتجرى فيها مجرى الدم من الشرايين ، ويصبح الصدق مثلا طبيعة راسخة فى النفس ، والعفة سمة من سمات الشخص ، ويتم للنفس عند مختلف الحوادث حال مبنية على عَمدِ الاعتقاد الراسخ ، واليقين الذى لا يتزعزع . فكما أن البحر بمائه ، والشجر بثمره ، والدار بساكنها ، كذلك المرء بآدابه وأخلاقه ، فاذا غاضت مياه النهر ، وذوى ثمر الشجر ، وخلت الدار من ساكنها ، فقد حل بالعالم الهلاك . واذا أقفرت النفوس من جميل العادات وسنى الخلال ، فقل على الدنيا العفاء ، وعلى العلم والعرفان السلام

وليس بنافع بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً

ذرائع تكوين العادة

ليس الانسان آلة صماء يتلقى العادة من غير أن يكون للارادة نصيب فى تمكينها وتثبيتها ، بل كل عادة تتخذ أو تهجر للارادة فيها قسط عظيم ،

وحسبنا أن نقتصر هنا على الذريعة الآتية : وهى تتلخص فى التأليف تدريجا بين البنية وما ينافرها : كالسموم واختلاف الأقاليم مثلا : فالبنية بحكم استعداد تركيبها ومزاجها لا تلبث أن تتعود السم فلا يضرها ، وتحتمل حر الاقليم وبرده إلى أقصى درجاتهما . ولقد ثبت علمياً أن أشد ضروب السموم تُتَحَسَى أولا مقادير صغيرة ، حتى اذا اعتادها الجسم وألفها ، تقبل منها أقدارا كبيرة . ولقد أُثر عن بقراط فى شأن العادة قوله :

« مباشرة ما اعتدته ولو كان ضارا فى ذاته أقل أذى مما لم تعتده وإن كان نافعاً فى ذاته » ، وكما أن العادة لا تتم إلا تدريجاً ، كذلك الاقلاع عنها لا يستطاع الا تدريجاً . وهذا هو السر فى أن القرآن الكريم حرم الخمر على ثلاث مراتب ، فقد ورد فى الخمر ثلاث آيات : الاولى قوله تعالى : « يَسألونَكَ عَنِ الخمْرِ والمَيْسِرِ قلْ فِيهِمَا إثْمٌ كبيرٌ وَمنَافِعُ للنّاسِ ، وإثْمُهما أكبر مِنْ نَفْعِهِما » فكان من المسلمين شارب وتارك ، إلى أن شرب رجل فدخل فى الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى « يأيُّهَا الذينَ آمنوا لا تقرَبوا الصلاةَ وَأنتمْ سكارَى حتى تَعلَموا مَا تقولونَ » فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها ، حتى قيل إن واحدا من وجوههم شربها ، فكان منه أن شج رأس واحد من إخوانه ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الاسود بن يعفر وهو :

أيوعدنى ابن كبشة أن سيَحْيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت عنى وينشرنى إذا بليت عظامى ؟
ألا من مبلغ الرحمن عنى بأنى تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعنى شرابى وقل لله يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج مغضباً ، فلما لقى الشارب ضربه بشىء كان فى يده ، وعلى إثر ذلك نزل قوله تعالى « يأيُّها الذينَ آمنوا إنما الخمر والمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عملِ الشيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ». فقال عمر رضى الله عنه: انتهينا! انتهينا!

يعلمنا الله جل جلاله بهذه الآيات الثلاث قاعدة من أسمى قواعد علم النفس، ولقد جاءت التجارب فيما بعد مؤيدة لها، ودالة على أنه لا يجوز أن تهجر العادة دفعة واحدة، ولو كانت ضارة كالخمر الذى حرمه القرآن على ثلاث مراتب، إذ لو هجرها معتادوها جملة واحدة، لكان هذا هو السم القاتل، لأن الخمر - كما يقول الأطباء - ينفذ أثرها إلى أعماق المراكز العصبية، فتورثها حدة عنيفة، فاذا ماترك شربها فجأة، حدث اختلال واضطراب فى النظام العصبى بالانتقال جملة واحدة من حال الحدة القصوى، إلى حال السكون التام، فتختل الموازنة الحيوية، دون أن يتأهب الجسم لهذا الاختلال.

من أجل ذلك يجب أن تكون طريقة هجر العادة والاقلاع عنها مماثلة لطريقة تكوينها واعتناقها. ولولا خشية الاطالة والافتئات على مباحث علم النفس لضربنا المثل الكثيرة لبيان الذرائع المختلفة لاعتناق العادة وهجرها.

الغريزة والعادة

الغرائز أصل من أصول العادة، وقاعدة من قواعدها الركينة: ذلك بأن المرء قد تدفعه جبلته وغريزته إلى أن يفرك بيده جبهته عند التفكر فى أمر مّا، ثم لا يلبث أن يعود إلى فرك جبهته ثانية وثالثة كلما ساورته فكرة، أو تهمم أمرا دون تروّ وانتباه؛ فيصبح هذا الفعل الغرزى عادة لا تتخلف، إلى غير ذلك من المثل مما يدل على أن الجبلة تدفع بصاحبها إلى عمل ما، حتى إذا تكرر وتواتر نجمت العادة، وصارت هى الحاكمة الغالبة. ولا يختلطن الأمر على المطلع، فيظن الغريزة والعادة شيئا واحدا، إذ هما وإن اتفقتا فى أن كلتيهما تسوق أبدا إلى أعمال آلية قهرية، غير مسبوقة بتروّ وتدبر مع إحكام تام؛ فان الغريزة هى الدافع الفطرى الأول إلى اقتراف العمل، والعادة هى الدافع الثانى إلى تكراره.

على أن العادة قد تكون اختيارية كسبية غير مستندة إلى غريزة ما: وذلك كمن يختلف إلى متنزه ابتغاء استراحة الجسم، واستراضة النفس، فما يعتم أن تقوى فيه نزعة التردد عليه، فيجد نفسه مسوقا إلى التوجه إليه ما سنحت له الفرصة. وهذا الضرب من العادة شبيه بالغريزة فى الغاية، مباين لها فى الوسيلة.

وقد سبق أن أوجزنا الكلام فى الغرائز، لأن التنقيب عن حقائقها وأقسامها يستدعى بحثا مطولا ليس من شأن الخلق أن يستوعبه - وهو شأن الباحثين فى علم النفس - غير أن الخلق لا يسعه إغفال ذكر الغرائز، لأن الخلق مكون من أصل داخلى هو الغرائز، وأصل خارجى، ويندرج تحته البيئة بأقسامها، والعادة والتربية والتعليم. والاصل الداخلى هو جُمَّاع الصفات النفسية القابلة للتحول والنمو والذبول، على حسب مايوافقها أو يشاكسها من الأحوال، ومن هذه الصفات مايرثه المرء من أبويه وأسلافه، وتلك صفات خاصة، ومنها مايرثه من نوعه وتلك صفات عامة: فمن الأولى صفات الشجاعة، والاقدام، والبأس، وكرم الضيافة فى أبناء العرب الذين نشأت آباؤهم متبذين الأسوار، مساكنين الوحوش والضوارى؛ يبذلون قراهم، ويؤثرون على أنفسهم ضيفانهم. ومن الأخرى الحذر، والمدافعة عن النفس، واتخاذ الحيطة لما عساه أن يحل بها، إلى غير ذلك من الصفات التى اكتسبها الانسان فى بداوته من ضروب الحوادث حتى أصبحت له خلقا، وتنزلت عنده منزلة الجبلة، فورثها ابناؤه، غرائزَ فيهم تدفعهم إلى العمل قهرا واقتسارا.

يستخلص مما تقدم أننا نؤيد رأى القائلين: إن الغرائز تورث، وإذ أننا فرقنا فيما سلف بين العادة والغريزة، فواجب أن نضيف إلى الفوارق بينهما المقدم ذكرها (أن العادات لا تورث): ذلك بأن رعاة الأغنام يبترون أذنابها من أحقاب متطاولة. وما رأينا نِتَاجَهَا قد ولد دون ذنب وأن نساء أهل الصين يلبسن منذ أجيال أحذية ضيقة من الحديد، لتصغر أقدامهن، وماتم لهن ذلك وقد توالت عليهن الادهار والاحقاب، وأن المسلمين وقبلهم

اليهود يختنون أبناءهم ، ومارأينا من وُلِدَ منهم مختونا إلا شاذا من شواذ الخلقة ، ولقد يعترض على منع وراثة العادة بما هو معروف مسلم به من أن كريم المحتد ، عريق النسب ، يجيء بأبناء كرام النفس . وأن الجياد تورث ذراريها سرعة العدو . وأن كلاب الصيد تأتى بنسل ممتاز فى الصيد والقنص ، وجواب هذا أن الموروث فى الأحوال الثلاثة هى العناضر المكونة للعادة - أعنى الغرائز كما قدمنا - ، بدليل أن نتاج الجياد لو ترك دون تمرين وترويض ، لفقد ميزته ، وقصر عن أصله . وكذلك القول فى الباقى .

وصفوة القول أنه لاجدال فى أن الأبناء يرثون من والديهم أو أسلافهم الخصائص الآتية :

الأولى ، الخصائص الجسدية : كطول القامة وقصرها ، وبياض اللون وزغربته ، وزرقة العيون وسوادها ؛ وسباطة الشعر وتجعيده ، وجهارة الصوت وضعفة . بيد أن تشابه الأبناء بوالديهم أو أسلافهم ليس له نظام خاص يرجع إليه .

الثانية : الخصائص العقليـة : لقد رأى بعض الخلقيين أن الأبنان يرثون من آبائهم صفات عقلية ، قائلين : إن كبار المفكرين يرزقون بأولاد أولى عقول كبيرة ، والحق أن هـذه قاعدة غير مضطردة ، فقد دلت التجارب ، وشـهد التاريخ أن بعض المجانين وضعفاء العقول قـد يرزق أولادا ذوى نظر ثاقب ، ورأى سديد ، وقد يرزق البله أولادا هم غاية فى حدة الذكاء وتوقد الذهن (١) وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

الثالثة : الخصائص الخلقية : لقد دل البحث على أن الاولاد يشبهون

(١) ورأينا أن أحدا لا يستطيع تعيين الجهة التى تأثر بها المولود ، فقد يكون الاب ذا عقل كبير ، والام ضعيفة التفكير ، وقد يكون الاب أبلها والأم ألمعية ، وقد يجيء الولد متأثرا من ناحية أبيه أو أمه ، وقد يتفق الوالدان ذكاء أو بلاهة ولا يأتى الولد مشابها لهما ، بل يرث من أصول أبيه أو أمه ، وقد يعطي مواهب غير موروثة

آباءهم فى كثير من الميول والصفات الخلقية حسنها وقبيحها ، فترى أبناء الأسر التى ألفت الكرم والبذل كرماء أسخياء ، العطاء سجيتهم ، والايثار ديدينهم ، وترى أولاد الأسر المشهورة بالاقدام والشجاعة ذوى بأس شديد ، يخوضون غمار الموت ، ويقتحمون المخاطر ، غير هيَّابين ولا وجلين ، وترى أولاد الأسر التى نشأت فى النفاق ، ورضعت ثُدِيَّ الكذب والرياء ، ذوى حيل وخداع ، المينُ خلتهم ، والبهتان صفتهم ، يتلوّنون ألواناً ، إذا وعدوا أخلفوا ، وإذا حدّثوا كذبوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا .

وقد نشاهد فى الانسان صفات خلقية لابد أن يكون ورثها من نوعه ، فمنها صفات الحقد ، وحب الدفاع عن النفس ، والتحفز لاتقاء الحوادث ، إذا سار فى طريق مظلم رأيته يتلفت عن كل جانب ، يتوجس للنَّبَآت (١) والهيعات ، ومنها تقطيب حاجبيه ، والكشر عن أنيابه إذا أخذته ثورة الغضب للانتقام ، أو للذود عن نفس أو عرض أو مال . ومن هذه الصفات الخلقية النوعية ، أن الانسان فى أول أمره قد تعلم باختباره الطويل أنه إذا سلك طريقاً مخوفاً مثلا أخذ حذره ، فتحفز للقاء عدوه من الوحوش الضوارى ، وبتقادم العهد استحالت الخلال التى كان يفعلها السلف طوعا واختيارا ، إلى حركة قسرية يفعلها الخلف دون تنبه وشعور . وذلك لأن كل خلية من الدماغ مثلا قد أتقنت فى غضون الأزمنة الغابرة وظيفتها حتى صارت قادرة على إنجازها دون مشورة العقل ، وعلى ممر الدهور والأحقاب نشأ فى الذهن أداة فرعية ، تنزلت منزلة الجبلة ، وامتزجت بطبيعة الانسان فورثها الخلف عن السلف غريزة وجبلة ، لا عادة ومألوفا .

البيئة

البيئة مايحيط بالانسان من مؤثرات حسية ومعنوية ، وإليك مايقول ابن

(١) النبآت : جمع نبأة : الصوت ، والهيعات : جمع هيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . وقد هاع يهيع هيوعا إذا جبن

خلدون فى شأنها : إن سكان الأقاليم المعتدلة هم أعدل البشر ألواناً وأجساما وأخلاقاً وأديانا ، ومن أجل ذلك اختصهم الله بالنبوات ، لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى (كُنْتُمْ خيرَ أُمّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاس) . وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله . وسكان الأقاليم غير المعتدلة يبعدون عن الانسانية بمقدار قربهم من الحيوان الأعجم فى أمزجتهم وأخلاقهم ، فلا يعرفون نبوة ، ولا يدينون بشريعة ، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال . وها نحن أولاء نرى أهل السودان متَّصفين على العموم بالخفة والطيش ، وَلِعين بالرقص على كل توقيع ونغم ، وليس لذلك من سبب إلا أنهم لما سكنوا الاقليم الحار دهوراً طويلة استولى الحر على أمزجتهم ، وفى أصل تكوينهم ، فأصبحت نفوسهم تكاد تكون أبدا منتشية فرحاً وسرورا ، بحكمة انتشار الروح الحيوانى فيهم وسريانه فى أعماق جسومهم ، وكانوا بذلك أقرب إلى الطيش من كل أمة أخرى . ثم قال فى مقام آخر عند بيان تأثير حال المعيشة فى العقول والأنفس ما ملخصه : إن أهل الأقاليم المخصبة العيش ، الكثيرة الزرع والضرع ، والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة فى أذهانهم ، والخشونة فى أجسامهم ، وإنّ المقلين المقتصرين على الألبان ، وخفيف الأغذية ؛ أحسن حالا فى جسومهم وأخلاقهم من المنغمسين فى بحار الترف والبذخ : فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وحسن ، وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب فى المعارف والادراكات ، أضف إلى ذلك أن المتجافين عن اللذات فى البادية والحاضرة أُحسن دينا وإقبالا على العبادة ، وأقوم أخلاقا وأمتن مذهباً من أهل الترف والرُّفَهْنِية الذين قست قلوبهم وطمست بصائرهم بما أكثروا من الطعام والشراب . ولقد دلت التجارب على أن أهل الخصب والترف يسرع إليهم الهلاك أكثر من المتقشفين فى فى غذائهم إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات . اه بتصرف

يشير ابن خلدون إلى أن أهل الترف والبذخ نكبة على بنى الانسان فى

السراء والضراء . ولقد أعرب من قبله الامام عليّ عن رأيه فيهم إذ يقول : (وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مئونة فى الرخاء ، وأقل معونة له فى البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف ، وأقل شكرا عند الاعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء ، العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم) .

هذا ابن خلدون وقد عاش فى القرن الثامن الهجرى قد جاء فى كلامه تصريحاً وتلميحا بما أماط اللثام عن البيئة وصنوفها ، وتأثيرها فى جسوم بنى الانسان وعقولهم وأخلاقهم ، ولذا يجمل بنا أن نقول كلمة فى رأى الغربيين فيها :

البيئة الطبعية : الأرض وطن الانسان ومهده ، وكل ماحوت من بحار وأنهار وأودية وجبال وحيوان ونبات ، مؤثر فى جسمه وعقله وحاله وخلقه . وقد تضمنت الآية الآتية عناصر هذه البيئة (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ، وَالجِبَالَ أَوْتَادًا ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ، وجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا ، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجا ، وأنزَلْنَا مِنَ المعصِرَاتِ ماءً ثَجّاجًا ، لِنخرِجَ بِهِ حَبا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً)

هذه الأرض عليها أقوام أهل صناعة وتجارة وحضارة وإمارة أكبّوا على العلوم فحصلوها ، وسعوا إلى الحضارة فبلغوها ، ثم شحذوا سيوف عقولهم فكشفوا كنوز الأرض ومعادنها ، وأعماق البحار وأغوارها ، وبذلك سخِّرَتْ لهم السنن الكونية ، فأحالوا الماء هواء ، وقلبوا الليل نهارا ، واستطاعوا أن يتناجوا والبلد طروح ، والدار متراخية

وعليها أقوام لاتزال تهيم فى بيداء الوحشية والجهل ، أحوالهم فطرية ، وعقولهم همجية ، كأن الزمان عليهم وجد ، ونوائب الحدثان عليهم تألبت ،

فقلوبهم قاسية ، وأخلاقهم فاسدة ، فهل لذلك من سبب ؟ إن من أهم الأسباب حال الأقطار الطبعية ومناخها ، ولنضرب لذلك مثلا : لقد لبث أهل الولايات المتحدة زهاء ثلاثة قرون يقطنون الأصقاع التي إلى الشرق من نهر « مسيسبي » لا يبرحونها الى غيرها ، ولما طال عليهم الأمد ، وعيل صبرهم من الدأب على قطع الغابات ، لاعداد مكانها للزراعة ؛ نفر فريق منهم للضرب في الأرض ، فكشفوا السهل الكبير ، فألفوه خصبا وافر المياه ، فأثاروا الأرض وزرعوها ، وتعهدوها بالسقي والتنمية ، فكثرت أرزاقهم ، ونما عددهم ، واختطوا الأمصار والمدن وبلغوا من الرقي والحضارة مابذوا به أهل أوربة . على أن نظرة في أحوال الأمم البحرية تبين ما أفادتهم مجاورة البحار من خلق المكافحة ، والمغالبة والمثابرة والمصابرة : فالملاحون لكثرة مايعانون من منازلة الخطوب ، نما في قلوبهم حب الحياة التي يدرءون عنها في كل يوم نوائب جمة ، وكوارث متنوعة ، حتى إذا اشتدت بهم الريح في يوم عاصف ، واضطرب البحر وتلاطمت أمواجه ، هبوا لمقابلة الفواعل الكونية ودرء المخاطر المفنية ، وبذلك قويت قلوبهم ومضت عزائمهم

ولقد ثبت علميا أن إغفال استخدام أعضاء الجسم يوهن القلوب ، فتمتلىء بالمخاوف ، ويفسد العقول ، فتكتظ بالوساوس ، وأشباح المخاطر . فمما يلاقيه سكان شطوط البحار الزلازل الأرضية ، فكثيرا ما ترتج الأرض ، ويتولاها الاضطراب ، ويشتد صخب البحر ولجبه ، فتتكسر أناجر السفن ، وتتقطع سلاسلها ، وعند ذلك يعم الفزع ويبرز الناس من بيوتهم ، حتى الطيور من وكناتها ، والسباع من عرائنها ، والنمل من قراها ، ولطالما ارتجت الأرض فدمرت بلاداً كانت بالأمس عامرة ، لا يجد الباحث عنها في عرصاتها إلا أطلالا بالية ، ورسوماً دارسة ، ذلك إلى عقول طاشت ، وأموال ضاعت ، وأبناء فقدت ، كل هذه الشدائد كونت أخلاقهم فجعلتهم في عامة أوقاتهم على حذر وانتباه ، لا يذوقون النوم إلا غررا ، متأهبين دوما لمقابلة الحوادث ، ومكافحة النوائب .

وما تأثير البيئة الطبيعية فى الأخلاق بأقل منه فى العقول ، والتاريخ بينة ناطقة بأن الأودية الخصبة الغنية بالأشجار والنبات كانت ولا تزال نبعاً يفيض على عقول ساكنيها ، رقيق الخيال ، ولطيف الوجدان (الشعر والنثر فى الأندلس وبغداد) ألم تسمع الكاتب الشهير « واشنجتون إرفنج(١) الذى استهوى الألباب ببدائع طرفه ، وخلب الأفئدة بدقائق وصفه ، إذ يقول : إن كان فى طبعى لطف ودماثة ، فلأنى نشأت على ضفاف بحر « إتش » (٢) إذ كنت وأنا حدث أعتقد أن بهذا النهر روحاً يقوم به ، وأنه قد طوى على الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، لا يعرف المصانعة والمماذقة والخداع ، خلصت نيته ، وطهر قلبه ، واستقام مجراه ، وعلته السكينة ، وخيمت عليه السعادة ، فاستمد عقلى منه ، واستنار خيالى بنوره .

(البيئة الاجتماعية)

ليس ذلك مقصورا على التربية المنزلية ، بل قد يكون ذلك التأثير للجو والمعاشرين ، فان للأجواء من التأثير ما لا ينكره المطلع على خصائصها ، ألا ترى البلاد الزائدة الخصب إذا قلت فيها المزاحمة وجد أهلها من ذلك ما يكفيهم مئونة الحياة على قليل أتعابهم ، فيركنون إلى الراحة والبطالة ، قانعين بما سهل لديهم من وسائل المعيشة ، فيعتادون الكسل ، ويقل فيهم خلق المثابرة على العمل ، ويؤثرون الراحة على المشقة . ويقرب من هؤلاء من وكلوا أمور نفقاتهم إلى الخدم ، وكلفوهم القيام باستدرار الأرزاق : انظر إلى أهل السودان لا تجد فى أخلاقهم زمن إكثارهم من الأرقاء والخدم ، المداومة على الأعمال واحتمال المشاق فى سبيل الرزق ، وإلى أهل الحجاز فى فرضهم على عبيدهم العمل ، وإعطائهم الأجر ، فان ذلك حبب إليهم الراحة ، وعدم الادمان على

(١) هو أديب قصصى أمريكى ولد سنة (١٧٨٠) ومات سنة (١٨٥٩ م)
(٢) هو خليج متسع على السواحل الشمالية من القسم الانجليزى من أمريكا

الأعمال الجالبة لخيرات الأرزاق ، مع ما يساعد على هـذا من الحرارة فى بلاد السودان وماشا كلها ، فان شدتها تورث فى الانسان خمودا فى القوة الفكرية والبدنية ، حتى لا يستطيع المثابرة على كثرة استعمالها ، اللهم إلا إذا زاحم أولئك أقوام ذوو غيرة وعمل ، فان مخالطتهم إياهم تولد فيهم غيرة ونشاطاً ، لما جبلت عليـه النفوس من حب استباق المنافع والخيرات ، ولا نذهب بك بعيداً ، بل نوجه نظرك إلى نفسك وقومك قبل وفود أبناء الأمم الأخرى إلى ديارهم ؛ تجد أنهم كانوا لا يثابرون على الأعمال ولا يتسابقون فى الوصول إلى ما يجلب الثراء ، فكنت ترى الزارع لا يشتغل إلا أياما قليلة فى تهيئة أرضه للزرع ، وإلقاء البذر ، ثم يتركه وشأنه بدون سماد وتنقية من الحشائش الغريبة حتى إذا جاء وقت حصاده نقله إلى البيدر ، واشتغل بدراسته وتذريته ، وقضى الكثير من أوقاته فى ملازمته منزله ما بين نوم ولعب ومسامرة ، قانعا بما يكفيه من تلك الأرزاق التى حصل عليها بقليل من العمل . وكذلك التاجر كان لا يسعى ويكد فى جلب عروض تجارته من المصانع التى بالأماكن البعيدة ولو كانت رخيصة الأثمان ، ولا يفكر فى اتخاذ طريق للوصول إلى الجيد الربيح منها ، مفضلا الاكتفاء بالقليل من الراحة من عناء الأسفار ، وشتات الأفكار ، عن الكثير المستصحب لذلك ، ولكن لما زاحمه الغرباء فى طريق الكسب وموارد الرزق ، ووجد من نشاطهم ما يعوقه عن الوصول إلى مرافق الحياة ، أخذ فى الحركة والمثابرة أكثر من حالته الأولى ، وإن كان لا يزال فى ذلك قليل الكد ، قصير الفكر ، لو نسبناه لمزاحمه ، فان تغير الحال أفهمنا أن المخالطة تؤدى إلى تغيير فى الخلق : فلو خالطنا أقل منا كدا وأحط فكرا ما نما فينا خلق المزاحمة والمثابرة . غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك المخالطة أظهرت فينا حب التأنق فى المآكل والمشارب والقصور والرياش ، فأصبحنا مع كدنا وعملنا القليل نبذل ما زاد عن الكسب والربح على تشييد تلك القصور الباذخة ، والملابس المنوعة ، والألوان المختلفة ، ويا ليتنا وقفنا عند ذلك ، بل

تجاوزناه إلى الاكثار من معاقرة الخمور ، والمباراة فى ميادين القمار ، والمضاربات المجتاحة للثروة ؛ فذهبت أموالنا ، وضاعت أرباحنا . خالطنا قوم أشد منا معرفة فى طرق الثراء والاقتصاد ، وأقدر تفننا فى وسائلهما ، ذوو جد ونشاط رسخ فيهم خلق المثابرة ، فأكسبونا منه قليلا ، وأقبلنا إقبال الهيم على مالديهم من الزخارف ، ومن وسائل الثروة التى نحن فيها عيال عليهم ، كالمضاربة وماشا كلها فربحنا قليلا من الأولى وخسرنا أضعاف ذلك من الثانية، ولوكان لدينا سياج من العقل الراجح ، والرأى الركين ما كسبنا إلا مابه صلاحنا وفلاحنا .

إذا نشأ المرء بين أسرة مهذبة سرت أخلاقها إليه من حلم وأناة وشجاعة وقوة إرادة، وغير ذلك من الفضائل ، فاذا عاش كبيرا بين قوم أخيار بررة لا يعرفون النقيصة ، ولا يألفون سوى الفضيلة ؛ أصبح كاملا فاضلا ، خيرا لنفسه ، خيرا لأسرته ، خيرا لأصدقائه وقومه ؛ فانه لا يجد لديهم مدحا إلا للفضيلة، ولا ذما إلا للرذيلة ، فيعتاد ذلك ، وتتأصل فيه الفضائل ، ويجانب الرذائل . وعلى العكس من ذلك التربية الفاسدة ومعاشرة الأشرار ، ذوى الدعارة والفجور ، فانه بمصاحبتهم لا يبتعد عن الرذيلة المنطوية فى أقوالهم وأفعالهم ومدائحهم ، وغالب أحاديثهم ، فيمرن عليها ، والمرء إذا اعتاد شيئاً لا تردعه مذامه ، ولا تنفر قلبه قبائحه ، بل ربما تخيلها محاسن . أليس الشرف الانسانى يمنع صاحبه من ارتكاب الرذيلة ، فتراه يتباعد عنها استحياء وخشية من سوء الأحدوثة ، فاذا وجد قرناءه لا يتحاشونها ، سهل عليه أن يغشاها مرة أخرى، فلا يجد فيها غضاضة على حسن سمعته ، وثلما لشرفه ؛ وهذا مايحملنا على القول بأن الشرف الانسانى كالزجاج إذ كسر تعسر جبره

المرء يتخلق بخلق أحبابه وأصدقائه ، ومن يعتقد فيهم الكمال والفضل فان المفضول مولع بالتخلق بأخلاق الفاضل ، وهذا أمر سائر فى عامة الناس ، كما نص عليه العلامة ابن خلدون ، ولذا ورد مامعناه « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » وعلى هذا فاذا رأيت قوما يقلدون أخلاق أمة

أخرى وعاداتها، ويألفون مألوفاتها؛ فاحكم بأن عظمتها ملأت قلوب أبنائهم حتى إذا حاربوها لا يقدمون على ذلك إلا وقلوبهم بين جناحى طائر، لماملأها من تجلة تلك الأمة وإكبارها، فلا يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم مغلوبين مخذولين.

يؤيد هذا ماورد (إذا شابه الزىّ الزىّ فقد شابه القلب القلب فاقتفى أثره فيما يستقبحه وما يستحسنه. ومن ثم حظر بعض الدول القوية على الجند تقليد غيرهم من جند الدول الأخرى

العلم وأثره

إن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا، ولا نظام للدين إلا بانتظام الدنيا، ولا يستقيم نظام الدنيا إلا بتفهم عالم المخلوقات، بالبحث عن طبائع الموجودات وخواصها، وذرائع استخدام ما لاغنى عنه، فى بقاء الانسان أو كماله، ثم استقراء شئون الاجتماع وما يتبع ذلك من سنن التعاون على أسباب المعيشة وضبطها وطرق إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، وإرشادها الى مافيه رفعتها فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة. ومن هذا يتبين أن الانسان لا تتم له حكمة خلقه، وتسخير هذا الكون له إلا بالعلم والتربية، فبهما سعادة الدنيا، وهما طريق الفوز فى الأخرى. قال تعالى وهو أحكم القائلين: «هوَ الَّذى بَعَثَ الْأُمِّيِّنَ رَسولاً مِنهمْ يتْلوا علَيْهِمْ آياتِهِ وَيزَكّيهِمْ وَيعَلّمهم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإنْ كَانوا منْ قَبْلُ لفى ضَلَالٍ مبينٍ) فالقرآن حوى المقصدين: التعليم، وهو مثقف العقول ومروضها. والتربية، وهى مقومة الأخلاق ومطهرتها

العلم هو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، أهله سادة قادة، آثارهم متبعة، وأفعالهم مرموقة، أولئك سرج الأزمنة، وأئمة الخير.

وكفى العلم رفعة قوله تعالى فى محكم كتابه العزيز: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنوا مِنكُمْ والَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ) وقوله جلت حكمته: (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعلمونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعلمونَ) وقوله عز شأنه: (وقالَ الَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ وَيلكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً) وقول النبى صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الحِكْمَةَ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَتَرْفَعُ المَمْلوكَ حَتَّى يدْرِكَ مَدَارِكَ الملوكِ» وقوله عليه الصلاة والسلام: «أقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبوَّةِ أهْلُ العِلْمِ وَالجِهَادِ» أما أهل العلم فدلوا الناس على ماجاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بسيوفهم على ماجاءت به الرسل، وجاهدوا أنفسهم على اتباع ماجاءت به الرسل. ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فرأى مجلسين: أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه، والثانى يعلمون الناس فقال: «أمَّا هؤُلاَءِ فَيسألونَ اللهَ تَعَالَى فانْ شَاءَ أعطَاهمْ وَإنْ شَاءَ مَنَعَهمْ، وَأمَّا هؤلاَءِ فَيعَلِّمونَ النَّاسَ، وَإنَّمَا بعِثت معَلِّماً» ثم عدل إليهم وجلس معهم. وقال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ مَابَعَثَنى الله بهِ مِنَ الهُدى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصَابَ أرْضًا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ، والعشبَ الكثيرَ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء، فنفعَ الله بها عزَّ وجل الناسَ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفةٌ قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً»، الأولى لمن تعلم واستفاد وأفاد، والثانية لمن تعلم وأفاد غيره ولم يفد نفسه، (أتَأمرونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنفسَكمْ) والثالثة للمحروم المطرود (خَتَمَ اللهُ عَلَى قلوبِهِمْ وَعلى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أبْصارِهِمْ غشَاوَةٌ ولهمْ عذَابٌ عظيمٌ)

العلم الذى نعنيه ليس استظهار المسائل، واستيعاب فروعها، بل هو تحصيل ملكة فى الاحاطة بمبادىء العلوم، والوقوف على مسائلها، واستنباط فروعها من أصولها، وإذا لم تحصل هذه الملكة، فلا أثر له فى تكوين القوى العقلية: ذلك بأن العلم صناعة، وكل صناعة منظمة يرجع إلى النفس منها أثر يكسبها

رجاحة فى العقل . وإضاءة فى الفكر ، ووفرة فى الكيس ، يجعل صاحبه أدنى إلى كمال الذهن ؛ وتفهم حقائق الأمور ، والأخذ بالأحسن من الأعمال والعادات والمعاملات ، مما يزيد فى بناء الأخلاق ، ويمكن دعائمها ، وهذا هو سر التذرع بتربية العقول وترويضها إلى بلوغ كمال الأخلاق . ألم تر (كما يقول ابن خلدون) إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضرى متحليا بالذكاء ، ممتلئا من الكيس ، حتى ان البدوى ليظنه قد فاته فى حقيقة إنسانيته وعقله ، وليس كذلك ، بل إن الحضرى قد جادت ملكاته فى الصناعة والآداب والعادات ، حتى ظن كل من قصر عن بلوغ تلك المرتبة أن ذلك ناشئ عن كمال فى عقل الحضرى ، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته ، وهذا خطأ : فكأين من بدوى هو فى أعلى رتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرته ، بيد أن الحضرى يفوقه بما كسبه من رونق الصناعة وطلاء التعليم . انتهى بتصرف

هذا الضرب من التعليم هو الذى يوقظ الشعور الغرزى ، وينمى العقول ويروضها على طويل التفكير ، والنظر فى كتاب الكائنات ، ونظام المخلوقات حتى تقوى ملكة الترقب ، ويتحقق سر قوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

ولقد جنى الغربيون ثمرة هذا النمط من التعليم فتفهموا به أسرار الصنعة الالهية فى الكون ، وأخذا ينتهجون نهجها ، فدأبوا على محاكاتها ، والجرى على سننها ، وبذلك ارتقت صناعاتهم ، واتسعت متاجرهم بما سخر لهم من الأرض ومعادنها ، والبحار ومسالكها ، والرياح ومهابها ، ومن ذلك أنهم يمموا وكنات الطيور ، فرأوا ضروبا كثيرة ، وأجناساً مختلفة القدو التقطيع والألوان ، ثم راقبوا عن كثب الحمامة وهى فى مَحْضَنَتِها ، والقطا وهى فى أُفْحوصِهَا ، والبازى وهو فى مِيقَعَتِهِ ، ثم نظروا فى خلق الطير عامة نظرة استقصاء وتتبع ، فتفهموا أقسام ريش الجناح : من القوادم

والمناكب والأباهر والخوافى ، ثم فطنوا الى تكوين منقارها ودوابرها وقطونها ، فأماطوا اللثام عن علاقة هذا التصوير البديع بطيران الطير وعكوفها ، فشاهدوا منها القوى والضعيف، والسريع والخفيف ، والبطىء والثقيل ، وكلها لاتعدمها الصرامة ، وذكاء الفؤاد والشهومة ، ثم صنعوا على مثلها سفائن هى كالطير إذا نشرت (١) ثم إذا أسفت (٢) أو كفتت (٣) ، أودومت (٤) فى السماء ، أواصطفت (٥) ، أوحامت (٦) على شيء . لقدنقلوا الى هذه السفائن هيئة العقاب إذا خاتت (٧) ثم إذا كنعت (٨) ألم تر كيف تدف (٩) دفيف الطائر فهى كالحمامة فى زوفها (١٠) والعقاب فى وحاتها (١١) تخترق جو السماء ، فلا اضطراب ولا اختلاط ، وتنفذ فى طبقات الجو صعدا،وربماحال السحاب دونها ، فتوارت عن الأبصار.

نعم إن الله سبحانه وتعالى قد يخص بألطافه الخفية من يشاء من عباده ، فيفيض عليه من خزائن مواهبه ، رزانة عقل ، وزيادة معرفة ، تخرجه عن حد الاكتساب،يصير بها راجحا على ذوى التجارب والآداب . أولئكم الانبياء صلوات الله عليهم الذين أدركتهم العناية الأزلية ،فأشرقت على بواطنهم أنوارهاالكونية ، وشملتهم الهداية الربانية ، فاتصفت بالفطنةوالذكاءقلوبهم، وأسفرت عن وجه الاصابةظنونهم ، وحسبنا دليلا آثارهم وأعمالهم وسيرهم وأخبارهم،وتلك مرتبة دونها خرط القتاد ، فلا ينبغى لعاقل أن يطمع فى بلوغها بالكسب والعمل والمثابرة . بيد أن هناك مرتبةهى من متناول العقول التجريبية الكسبية يبلغهامن بيضت الحوادث سواد لمتهم ، وأخلقت التجارب

---

(١) نشرت : أسرعت فى هويها (٢) دنت من الارض وكل قريب مسف (٣) تقلبت فى طيرانها ظهرا لبطن (٤) جعلت تدور (٥) صفت أجنحتها دون حركة (٦) استدارت عليه (٧) انقضت (٨) ضمت جناحيها للانقضاض (٩) دف الطير حرك جناحيه ورجليه فى الارض (١٠) زوفها أن تنشر جناحيها وذنبها وتسحبه على الارض (١١) وحاة العقاب هو صوت انقضاضها

لباس جدتهم ، وتلك هى التى يطمع فيها المتمسكون بأهداب العلم ، الدائبون على دراسته ، العاكفون على العمل به . وآية هذه المرتبة أن يكون صاحبها بحيث لايرى شرفا إلا شرف العقل ، ولاغنى إلا غنى النفس ، يقول إذا فكر ، ويعمل إذا تدبر ، رأيه فى إمداد ، وعقله فى إرشاد ، عند العقلاء موسوم بالعقل ، مرموق بعين الفضل

(التربية من الطفولة)

نريد بها هنا تنمية الفضيلة النفسية والجسمية تدريجا حتى تصل بالمربى إلى حد الكمال فيهما

ذكرنا فيما سبق طرفا مما يراه بعضهم من أن الطفل يولد خاليا من مدركات النفس الناطقة التى تكلمنا عليها ، والآن نفصل القول تفصيلا :

استعداد الفطرة لما يلقى فيلها :

ليس لدى الطفل الا المدركات الحسية التى تناسب القوة الشهوية والغضبية فهو فى هذه الحال بمنزلة الحيوان ، يهوى المحسات إذا تخيل فيها نفعا ، وينفر منها إذا تخيل ضررا فقوته العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلة لما يرسم فيها من حسن أو قبيح ؛ فهو أمانة فى يد أبويه أو من وكلت إليه تربيتهم (فعليه أن يحفظه من موارد التلف) فان نقش فيها المعلومات الحقة المفيدة ، وطبعه على الأخلاق الفاضلة ، وجنبه الأباطيل والرذائل ، وعوده خير الأعمال ؛ أثابه الله على حفظ تلك الأمانة ، والعمل الصالح الذى كان به كمال ذلك الطفل ، ذلك الكمال الذى أفاده ، وأفاد ذلك المربى وأسرته ومعاشريه بل أمته وبنى الانسان ، وإلا كان ضارا لنفسه بعدوله عن حفظ ما اؤتمن عليه ، ضارا لتلك الأمانة ، ولأسرتها ولأمتها ، يرشد إلى هذا قوله عليه السلام « كُلُّ مَوْلُودٍ يولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فأبَوَاه يهَوِّدَانِهِ أوْ يُمَجِّسَانِهِ » والمرء كما هو مسئول عن إصلاح نفسه وإفسادها مسئول عن إصلاح نفس من وكلت إليه تربيته وإفسادها .

واجب الأم :

ينبغى للأم أو من يقوم مقامها أن تتعهد الطفل فى نظافة جسمه وملبسه ومأكله ، فلا تتركه لحظة غير نظيف فان ذلك مجلبة للضرر ،

الطفل لايصون نفسه عن وضع أصابعه على عينه وداخل فمه ، وأسرع شىء إلى اتلاف الأعين قذارتها ورماصها ووسخ ملامسها، إن وسخ الثياب والجسم يوجب تراكم الذباب الناقل لجراثيم الامراض، وتراكم الأوساخ يضعف التنفس الجلدى ، وكل هذا من وسائل ضعف الصحة . فعليها ألا تدعه فى الأماكن القذرة ، ولا تكثر له من الرضاع ، بل تنظمه تنظيما يطابق الصحة، ولاتهمل فى ذلك خشية عويله وصياحه،فانه إذا رأى ذلك مجلباً لما يرومه أكثر منه كما قال :

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

على أن كثرة الصراخ أيام الطفولة الاولى أحسن للصوت ، وأوصل الى إصلاح طرق التنفس ، وقد عرفت ذلك العرب قديما ، وذكر فى نصائحها وألا تنيمه حزينا باكيا ، فقد ورد عن القدماء من الامة العربية (أن النوكى تنيم ولدها باكياً ، والحاذقة تغنى له حتى ينقلب أسفه سرورا ، ثم تنيمه على هذه الحال)

مايجب أن تكون عليه الام : يجب أن تتعلم الام نظام منزلها ، وتربية أولادها ، وهى رهينة خدرها ، أليفة عفافها، فانا لانطلب منها شيئا فوق القيام بذلك ، وتكليفها أن تكون كالرجل فى كل أعماله شطط - لو تعلمون وبيل .

للمرأة اعمال كثيرة ، فان القيام بالنظامات المنزلية على تنوعها ، لايدع لها الا وقتا يسيرا للراحة ، فياحبذا لو وصلنا بها إلى هذه الغاية . وعلى الرجل القيام بما هو خارج المنزل ، فيكفى زوجته همه ، وعليها ما هو داخله فتكفيه مئونته (قسمة عادلة وحكم حسن).

تأمل مايلى :

اختلف على بن أبى طالب كرم الله وجه ، وفاطمة رضى الله عنها عنها فى ذلك فناط رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بقضاء ماهو خارج منزله ، وفاطمة بما هو داخله . وأسد الأحكام وأنفعها حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل حكم يأتى على خلاف ذلك ليس منشؤه إلا ما استهوى العقول من رفعة قوم ، واتساع سلطان ملكهم ، فنسب المقلدون ذلك إلى كل مالديهم من الأخلاق والعادات ، ولم يفطنوا إلى أن فى بعضها قبحا ، يألم منه القوم ، ألمنا من بعض مالدينا من العادات ، فحاكوهم فى الضار وحده لعجزهم عن التميز بين الغث والسمين ، وجهلهم بأسباب الرقى الممكين .

الرقى الحق ثمرة الاتحاد والتعاون على المنافع العامة العائدة على الأفراد بمنافعهم الخاصة ، والمثابرة على الأعمال العظيمة ، والتنقير وراء ما يفيد اختراعه قوة ومالا ، وجاها وملكا .

لوتم لنا الوصول بنسائنا ورجالنا إلى ماقلنا ، فقام الرجال بما وكل اليهم من الأعمال الخارجية حق القيام ، وثابروا على العظيم النافع منها ، وتخلقوا بفاضل الأخلاق ، وتعاونوا على المنافع العامة ، وولجوا اليها من بابها الممكن ، ولبسوا لكل حال لبوسا فى ذلك السبيل ، وقامت النساء بقسطهن الذى بيناه ، لتوقعنا خيرا ، ولتوسمنا للأمة رقيا وفلاحا .

فعلينا أن نلج فى الوصول الى هذا الطريق القويم ، ولا يقنطنا منه تباين الأفكار ، واختلاف الآراء ، وصعوبة المسلك ، مع تقاعد الهمم ، متمسكين بشريعة القادر الرحيم : (وَهوَ الَّذِى ينزِّل الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطوا وَيَنْشر رَحْمَتَه وَهوَ الوَلِىُّ الحَمِيدُ)

أثر جهل الأم : ماأكثر جرم الامهات الجاهلات على أبنائهن فى التربية العقلية والجسمية ، فكم من جواهر نفوس ذهبت نفاستها ، وتأصل فيها الظلام بعد صلاحها للانارة ، ودنست بعد نقائها بباطل المعلومات ، وكاذب الأقاويل !!

وكم من صحة بدلت سقما استعقب فناء ، بجهلهن طروء الامراض القتالة ، فلا تفطن اليها حتى تعرض طفلها على الطبيب قبل أن يستحكم الداء ولا يجدى الدواء

(انظر الى مرض الخناق المسمى (بالدفتريا) فان جهل الامهات إياه أودى بالاولاد وهم رياضنا صغارا ، ورجال مستقبل بلادنا كبارا ، فأصبحوا رهائن القبور ، ومضامين اللحود

التربية العقلية

يجب أن يعلم الطفل من المعلومات النافعة شيئاً فشيئاً على المقدار الذى يصل اليه عقله ، كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئاً أعلى من مداركه ، ولا يلقى إليه شيء من المعلومات الباطلة ، والأقاصيص الكاذبة ، فان ذلك مجلبة فساد الاخلاق ، وباطل الآمال : فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء قراءة الأقاصيص والروايات المملوءة بالأباطيل فانها تؤصل فيه الأمانى الكاذبة ، فوق ماتجلبه من الخوف والكذب ، واتباع هوى النفس ، وليس ذلك بمقصود فى مبحثنا هذا لأنه من مباحث علم النفس

التربية الخلقية : ولنذهب بك إلى القول فى طريق إنماء القوة الحكمية والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة فيه ، وهو خلو من هذه أو من أضدادها، فانه أسهل وأنسب بطريقنا ، وأنفذ للوصول إلى الكمال المطلوب :

١ - وجوب التبكير فى غرس الفضيلة : إذ إلقاء بذر فى مغرس خال ، لا يحوج إلى عناء ، كالعناء الذى ينشأ عن إلقائه فى أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر ، فانه يستدعى قبل الالقاء تعباً عظيما فى تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن إنبات البذر نباتا طيبا ، يثمر ثمرا حسنا

٢ - أثر القدوة : يجب أن يعود الطفل الصدق فى كل أقواله، ومن أقوم السبل

إلى ذلك نشأته بين أسرة لاتقول إلاّ حقا ، فلا يرغب ترغيبا كاذبا ممن هو بينهم لأنهم بذلك يجرونه إلى الكذب ، وإذا درج عليه مرة ، درج أخرى وهكذا حتى يكون خلقا راسخا يصعب علاجه ،

فالطفل قابل لما يودع فى نفسه من حسن أو قبيح ألا يرى أنه ينبت على مثال كافله ومربيه ، وأخلاق مربيه تصل إلى قرارة نفسه من حيث لايشعر ، فانه يراه أعظم منه لكونه قائما بشأنه ، صاحب أمره ونهيه، فيحاكيه محاكاة المفضول للفاضل . ولذا ترى الأبناء يتشبهون بآبائهم فى حركاتهم وسكناتهم ، فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق ، والتمسك بالتقوى جهد الاستطاعة، ومن ثم حظرت الشريعة أن يعهد فى تعليمهم الى معلم فاسق

إذ افقهت ذلك علمت أن المربيات لأبنائنا سبب فى جهالتهم ، وفساد أخلاقهم، وسقامة أجسامهم ، فيجب أن تكون الأمهات على جانب عظيم من العفة والديانةوالتقوى ، عارفات بالفضائل ووسائل الصحة التى قدمناهاو ببعض المعلومات المثمرة التى يناسب تعليمها الأطفال ، حتى تحسن لدينا تربية أبنائنا

٣ - التشجيع على الفضيلة : ويحسن بالمربين تشجيع الطفل على الفضيلة بالاحسان إليه إذا قال صدقا ، وترك معاقبته إذا أجرم ، وسئل عما ارتكب فقال حقا ، وأن ينهى عن الكذب ، ويؤمر بالصدق فى كل أقواله ، ويكافأ عليه بما يعده حسنا ، وعن ترك النميمة لكبير الأسرة فيما يحصل داخل المنزل من أحد أفراد أسرته ، ويعالج فى ذلك بالقضاء عليها قبل نموها ، وأن يعود العطف والخير على من معه ، والغضب فى موضعه ، وأن يستحسن منه ماهو حسن ، ويكافأ عليه ، ويستقبح منه ماهو قبيح بالنصح وإظهار الاستياء منه . فان رأى أن النصح كاف فى الردع والزجر فلا يعدل عنه إلى العقوبة لأنها تولد فى القلب هلعا وخوفا يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة فى المقال والأفعال وكذلك يجب أن يربى فيه خلق المثابرة على العمل بحمله على مداومة

المزاولة لما يتعلق به من غسل الوجه والأطراف ، وصون الملابس ، والقيام ببعض الأشياء المنزلية متى استطاع إلى ذلك سبيلا .

فان رأى أن النصح كاف فى الردع والزجر فلا يعدل عنه إلى العقوبة، لأنها تولد فى القلب هلعا وخوفا يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة فى المقال والأفعال

تنشئته على الشجاعة: ويجب ألا يحدث بالأحاديث المفزعة التى تملأ القلب مخافة : كأقاصيص العفاريت وماشاكلها ، بل يعود الشجاعة والاقدام، وذلك بالامساك عن ذكر المخوفات ، وبحمله على الذهاب إلى بعض قاعات المنزل منفردا ، وقضاء حاجته كذلك ، مادام فى أمن عليه من الحشرات والهوام حتى ينمو فيه هذا الخلق ، ولذا كان النشء فى البدو أكثر شجاعة وأعظم إقداما .

التربية الخلقية ويجب حسه على التمسك بأذيال تقوى الله ، فيعود القيام بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته ، حتى إذا جاء طور التكليف ، وجده مألوفا . فلا يصعب على مربيه فى بدء أمره تهذيبه ، وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتربيته حكيما ، عالما بطبائع النفوس ووجوه إصلاحها

التربية الاقتصادية : وعليه أيضا أن ينمى فيه خلق الاقتصاد فيأمره بادخار شىء من النقود التى تعطى له ، وكلما رآه مقتصدا نمى فيه ذلك بزيادة عطائه واستحسان هذا الخلق منه ، وإذا رآه مسرفا متلفا ، قلل من إعطائه أو أمسك وأظهر له الاستياء ، إلى غير ذلك من الأشياء التى تبغض إليه الاسراف ، وتحبب اليه الاقتصاد .

أثر الدين فى الخلق: جاء فى مجلة المنار الجزء السادس من المجلد التاسع عشر ص ٣٤٠) ما ملخصه : إن الكفر بالبعث والجزاء ، واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة ، يجعل هم الكافر محصورا فى الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية : كالجاه والرياسة ، والعلو فى الأرض ولو بالباطل ، وهو

مايسمونه الشرف ، ومن كان كذلك يكون فى اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم كالبقر والقردة والخنازير ، وفى اتباعه لهواه فى لذاته الغضبية ، أضرى وأشد أذى من الوحوش الضارية المفترسة كالذئاب والنمور وفى اتباعه لهواه ولذاته النفسية شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضا ، لايصدهم عن باطل ولاشر يهوَوْنَه ، إلا العجز ، ولايرحبون بفضل بينهم إلا القوة التى جعلوها فوق الحق ، وطالما غشوا أنفسهم وفتنوا غيرهم فى هذا الزمان ، بما كان من تأثير التوازن فى القوى من منع كثير من البغى والعدوان الذى كان يصول به قوى الأمم على ضعيفها ، والحكومات الجائرة على رعيتها ، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية هى التى تفيض روح الكمال على الانسان إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء ، بل ولا بالاله الديان ، واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب ، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم ، وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الانسانية ، والرغبة فى العروج بجميع البشر إلى قمة السعادة المدنية ، وقد جاءت الحرب العظمى ، فقوضت كثيرا من مزاعمهم وأوهامهم ، إذ رأينا فيها أرقى أهل الأرض فى الحضارة والعلوم والفلسفة يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويقوضون صروح مدنيتهم بمدافعهم ، ويستعينون بكل مابلغوه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة والنظام لاهلاك الحرث والنسل ، وتخريب العمران بمنتهى القوة والشدة التى لاتشوبها عاطفة رأفة ولارحمة . ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور منهم يدينون بالمدنية الروحية ، فيؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومافيه من الحساب ، والجزاء بالحق ؛ ما انتهوا فى الطغيان إلى هذا الحد .

حقا إن هذه الشعوب كانت تتقاتل لنصر المذهب والدين فى القرون التى كانت تعمل فيها كل شىء باسم الدين ، ولكنها لم تصل فى التقتيل والتخريب فى ذلك الزمان إلى عشر معشار ماهى عليه الآن ، وإن كانوا يسمون هذا العصر عصر النور ، وتلك العصور بعصور الظلمات . على أن الرؤساء كانوا

يتخذون اسم الدين وتأويل نصوصه، وسيلة لأهوائهم التى ليست من الدين فى شىء كما يعلمه جميع علماء هذا العصر.

وجملة القول: أن الأمم التى سارت على منهج الشريعة الغراء لم تثر حربا إلا دفاعا عن النفس، وتقريرا للحق والعدل والمساواة فى الحقوق بين أصناف الخلق، وحسبهم شاهدا على ذلك الحكيم (جوستاف يون) إذ يقول: ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب.

وها نحن أولاء نرى شبهات المفتونين بالمدنية الماديه قد ضعفت بهذه الحرب الساحقة الماحقة، وقويت بها حجة أهل الدين عليهم، بل تنبه بها الشعور الدينى فى الجم الغفير من الأوربيين، حتى الفرنسيين منهم، بعد أن كانوا قد نبذوه وراء ظهورهم، وآثروا عليه الشهوات البدنية الحقيرة حتى ضاقت بهم المعابد التى كانت مهجورة، قلما تفتح أبوابها، وقلما يلم بها أحد إن فتحت. وذلك شأن المسرفين فى أمرهم من الناس لا يتوجهون إلى خالقهم إلا عند الشدة والبأس. (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وصفوة القول أن تأثير الدين فى الاخلاق أمر ظاهر لا يسع أحداً إنكار سلطانه على القلوب وتأثيره فى النفوس (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) وقد وعد أهله بالخير العميم والفضل الجزيل إذا ائتمروا بأوامره، واجتنبوا نواهيه) وأوعدهم إذا خالفوا ذلك بالسخط المروع والعذاب الأليم، وهو العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وهو القادر على تحقيق ماوعد به المتقين، وأوعد به غيرهم، وهو القاهر

فوق عباده ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، فمن آمن بما جاءت به الرسل وجـد على نفسه رقيبا فى خلواته ، أنه يثيبه إذا أطاعه ويعاقبه إذا عصاه ، فيقبل على المأمورات ، ووجوه الطاعات سرا وجهرا ، ويعرض عن المنهيات فى وحدته ومجتمعاته .

موازنة بين أثر الدين والقوانين الوضعية

القوانين الوضعية على فرض إصابتها الغرض المقصود فيما يناسب سعادة المجتمع لا تزع الناس عن الأخلاق الذميمة والأفعال الضارة إلا ظاهرا ، لأن ما ترتب عليها من أنواع العقوبات لا يتحقق إلا إذا علم من صاحب ذلك الخلق تلك الفعال ، بخلاف ما كان خفيا فى الانفراد ولا يطلع عليه أحد ، أو تواطأ المطلعون على إخفائه ، على أن كثيرا ما يحصل الاغضاء عن العقوبة بوسائل المحبة وماجرى مجراها ، وعلى فرض كل ذلك فمن أين لنا أن المسيطر لا يعوقه عن الحكم بالعقوبة أو تنفيذها عوائق أخرى ؟

علمت مما سبق فى مدح الأخلاق الفاضلة وذم السافلة أن كل ذلك بعض ما انطوت عليه الشريعة الطاهرة فان آى الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة أتت فى بيان ذلك بما لا يفوقه بيان ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه « من لم يؤدبه الشرع فلا أدبه الله » وليس لدينا شىء أحسن فى هذا الباب من أن نحيلك على كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فانك إذا تدبرت ماجاء فيها رأيت العجب العجاب ، وقلت ليس فى الامكان أبدع مما كان . إذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ، وسبب ذلك أن التربية إذا صادفت نفوسا مستعدة غرست فيها فضيلة الانتصار للحق وأشربتها حب الانصاف ، وأرتها أن العدل ميزان الله تعالى فى الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوى ، والمحق من المبطل ، فأصبحت لا تحفل بعظيم ولا كبير ما دامت للعدل ، والعدل لها .

استعداد الأمة العربية للاصلاح الروحى :

من أجل ذلك ما كاد يتصل بالأمة العربية ذلك الاصلاح الروحى المدنى العام حتى ملكت الأقطار ، وأصلتت سيف الحق ، فانتشر العدل ، وزخرت بحور العمران ، وأطلقت العقول من قيودها وأغلالها ، التى ظلت أدهارا ترسف فيها .

وجدير بنا فى هذا المقام أن نسرد طرفا من مزايا الأمة العربية نبين به علة اصطفاء الله لها ، ومبلغ استعداد نفوسها لاحتمال تلك الأمانة العظيمة ، وحسبنا أن ننقل ما كتبه الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا فى كتابه « ذكرى المولد النبوى » وهو بنصه :

(كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوذعية ، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية : كقرى الضيف ، وأغاثة الملهوف ، والنجدة (١) والأباء (٢) وعلو الهمة ، والسخاء والرحمة ، والايثار (٣) ، وحماية اللاجىء ، وحرمة الجار أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة (٤) ، والأنين من ثقل الضرائب (٥) والأتاوى (٦ ورؤساؤها منغمسين فى الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عم الراعى والرعية .

كانت العرب قد بلغت أوج الكمال فى فصاحة اللسان ، وبلاغة المقال وكادت تتحد لغات قبائلها أولهجاتها العربية ، وتتغلب المضرية منها على الحميرية ، بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية ، والأسواق الأدبية ، فاستعدت بذلك للوحدة القومية ، وللتأثر والتأثير بالبراهين العقلية ، والمعانى الخطابية

(١) النجدة : مضاء عزم يبعث صاحبه على المضى فيما يعجز عنه غيره (٢) الاباء : الترفع عن الخسائس (٣) الايثار : تقديمك غيرك على نفسك بما تحتاج اليه مما تملك (٤) الأثرة بالتحريك : تقديم نفسك على غيرك ولو بما هو أولى به منك فهى ضد الايثار ، والباء للسببية (٥) الضرائب : جمع ضريبة وهى مايضرب على العبيد ونحوهم يؤدونه أقساطاً ، ومنها الجزية (٦) الأتاوى : جمع أتاوة وهى الرشوة وتطلق على الخراج ونحوه

والشعرية، وللتعبير عن جميع العلوم الالهية والشرعية، والفنون العقلية والكونية، أيام كانت الأمم تنفصم عرا وحدتها بالتعصبات الدينية والمذهبية، وتتفرق وشائجها (١) بالعداوات الجنسية، وتتمزق دولها بالحروب الأجنبية والأهلية.

فتلك أمهات مزايا الأمة العربية التى أعدها الله تعالى بها للبعثة المحمدية والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد على مدنيتهم العادية، واستعمارهم للبلاد الكلدانية البابلية، والبلاد الفينيقية (السورية)، والمصرية التى تشهد لهم سيادة لغتهم للغات السامية، وبقاياها فى اللغة الهيروغليفية وبعد أن غلبت عليهم الأمية، وخرافات الوثنية، وعصبية الجاهلية.

وأعظم مزاياهم أنهم كانوا أسلم الناس فطرة، على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم فى كل فن وصناعة، والاصلاح الاسلامى مبنى على تقديم إصلاح الأنفس باستقلال العقل والارادة وتهذيب الأخلاق على إصلاح ما فى الأرض من معدن ونبات وحيوان، ولهذا كأن الله تعالى يُعِدُّ هذه الأمة للاصلاح العظيم الذى جاء به محمد عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم)

وإليك مثلا من أثر التربية الاسلامية

مات مسلمة بن سعيد وكان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله وقتئذ: أن استوف لأمير المؤمنين حقه ثم فرق ما بقى بين الغرماء، فلم يحفل هذا العامل بكتابه، بل ضرب للمنصور بسهم كما ضرب لأحد الغرماء، فلما بلغ المنصور ذلك كتب إليه « ملئت الأرض بك عدلا »

حقا إن التربية إذا تغلغلت فى أعماق النفوس أمكنت فيها الايثار وأوهنت فيها الأثرة، وحببت إليها المصلحة العامة، ورغبتها فى المعاونة والمؤازرة، وجعلتها تجد السرور كل السرور فى العمل بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الناس أنفعهم للناس » فتغيث الملهوف، وتسعف المكروب، وتنجد من

(١) الوشيج والوشيجة: اشتباك القرابة وتداخل بعضها فى بعض وأصله شجر الرمح ونحوه مما يشتبك

استنجدها ، وتصرخ من استصرخها ، هى التى تجعل صاحبها يلقى الناس بالبشر والابتهاج ، ويعاملهم بالكرم والصفح ، ويسع الناس جهد استطاعته بأمواله وحسن شيمه ، ويعمل رغبة واغتباطا بقوله صلى الله عليه وسلم « حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره الى الجنة ، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار »

التربية هى التى تقود صاحبها إلى مسالك الخير ، والتنقيب عن وجوه البر والاحسان الصحيحة ، وتبغِّض إليه أفعال أهل العلم السقيم ، الذين لا يعملون إلا رياء للناظرين ، وتصنعا للمخلوقين . ليستعطفوا القلوب النافرة ، ويخدعوا العقول الواهية ، حتى يعدوا من الأخيار العاملين ، وكبار المصلحين والواقع أنهم متشبعون بما لا يملكون ، والمتشبع بما لا يملك كما ورد فى الحديث كلابس ثوب زور .

التربية إذا صادفت تربة صالحة كما قدمنا كستها علو الهمة والاباء ، وكرهت إليها النفاق والرياء ، وجبت اليها القناعة والصيانة ، ومجانبة الريب والشبهات وأنارت منها البصائر فعلمت أن الذود عن الحق ، واحتمال الأذى فى سبيله ، والصبر على مكارهه من أشهى الأمور ، وأوفر اللذات ، وأدركت معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تَزَالُ هٰذِهِ الامَّةُ بِخَيْرٍ تَحْتَ يَدِ اللهِ وَفِي كَنَفِهِ مَالَمْ يُمَالِئْ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا ، وَلَمْ يُزَكِّ صُلَحَاؤُهَا فُجَّارَهَا ، وَلَمْ يُجَارِ أَخْيَارُهَا شِرَارَهَا . فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، رَفَعَ عَنْهُمْ يَدَهُ ، ثُمَّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتَهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَضَرَبَهُمْ بِالْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ ، وَمَلَأَ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا »

وآية كمال التربية ورسوخها أن يكون صاحبها أجرأ ما يكون على استنكار الخبائث والمحظورات ، ومقت سفساف الأمور ، وساقط الشهوات ، للذود عن حياض الجماعة الانسانية ، ومدافعة البلاء العام الذى يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « مَا أَقَرَّ قَوْمٌ الْمُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مُحْتَضَرٍ » وقوله عليه الصلاة والسلام « إِنَّ قَوْمًا رَكِبُوا سَفِينَةً فَاقْتَسَمُوا ، فَأَخَذَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

مَوْضِعًا ، فَنَقَرَ رَجل مِنهمْ مَوْضِعَهُ بفأس ، فقالوا : مَا تَصْنَع ؟ فقَالَ : هوَ مَكانى أصنَع فيهِ مَا شِئْتَ ، فلَمْ يَأخذوا عَلى يدَيهِ فهَلكَ وَهلَكوا » وهكذا مصير من يتركون بين أظهرهم ذوى المبادئ الفاسدة والآراء السقيمة ، والمعتقدات الضالة ، متعللين بأن كل واحد حر فى قوله وعقيدته ، ونسوا أن ذلك وبال عليهم ، وتدمير لكيان قوميتهم ووجودهم ، (لعنَ الذينَ كفَروا مِنْ بَنى إسْرَاءِيلَ على لِسَانِ دَاودَ وعِيسَى بنِ مَرْيَمَ ، ذلكَ بمَا عصَوْا وكَانوا يَعْتَدونَ ، كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عنْ منكرٍ فَعلوه ، لَبِئْسَ مَا كانوا يَفْعَلونَ)

مجمل آراء الغربيين فى التربية وعواملها

أرسل من ثاقب فكرك شعاعا على الكون وما يكنفه ، والعالم وما يسبح فى بحاره ، ويدرج فى مهد أرضه ، تقرأ على ضوئه عبارة تحمل فى جوفها تلك الحقيقة الآتية :

تتأثر الأحياء فى نموها بضروب متنوعه من المؤثرات ، وتجرى فى بناء كيانها وراء عوامل تحيط بها ، وتنفذ إليها آثارها ، فتصورها صورا تلائمها وتجعلها خاضعة لسلطانها :

فالأسماك تتباين أشكالها لتباين عوامل التكوين فى دار مقامها ، والأشجار التى يمت بعضها إلى بعض بسبب من وحدة النوع يخلع عنها لباس تشابهها تشابها تاما اختلاف المؤثرات فى أوطانها ، والحيوان تتميز صبغة الأفراد فى نوعه لتميز خواص البناء فى مستقرها ، وديار نموها .

كلمة التأثير لا تدل على أن هناك مؤثرا فقط ، بل تدعو لزاما إلى وجود ذات أخرى يقع عليها التأثير ويميزها بما يشاء من مميزات النمو وضروب التكوين . تلك الذات لها شخصية مستقلة ، ووجود ظاهر ليس لتلك المؤثرات التى نحن بصددها يد فى إنشائها وتفتح أكمام الحياة عنها ، وبعثها من مرقد فنائها صورة بارزة تتمتع بالحياة وتجرى عليها الليالى والأيام .

فالنهر الذى يشق طريقه فى بطن الأرض ليس للبشر يد فى إيجاده نهرا ينساب انسياب الأفاعى، تصونه قوة اندفاعه وتدفعه هيبة جريانه، وغاية مايصنعه البشر بهذا الخلق العظيم أن يغيروا اتجاهه أو يقفوا جريانه إلى حين أما إقامة صرح وجوده فانها ترجع إلى قوة أخرى ليس للبشر إليها من سبيل.

والبذر الذى يأوى إلى الأرض يخرج نباتا، ويطلع شجرا بقدرة الله الذى بيده كل شىء، ولا يستطيع البستانى أن يتناوله بشىء يؤثر فى نموه، إلا أن يتعهده بالاصلاح، ويرعاه رعاية تقيه الشمس أن تجففه، وتمتص ماء حياته ويجعله فى مأمن من العابثين وعارمى (١) الأطفال أن ينزعوه من مقره.

وهل الطفل إلا كائن حى يجرى عليه مايجرى على الكائنات الحية ويصيبه مايصيبها ؟

من هذا نستطيع أن نفهم قول الاستاذ « فردريك العالم الألمانى :

« المربون والمربيات بستانيو الأطفال وبستانياتهم »

أى إن عملهم مقصور على ذلك التأثير المحدود الذى يشبه فى امتداده إلى مدى غير بعيد تأثير البستانى فى النبات إذا رعاه حق رعايته.

نخلص من فهم تلك الحكمة البالغة إلى فهم معنى التربية والوقوف على حقيقتها، إذا خلعنا عليها ثوب الكلمة الآتية :

« التربية تأثير الكبير فى الصغير قصدا »

ولقد أتى على علماء التربية حين من الدهر كانوا يعتقدون أن المربى بيده كل شىء، وأن المربية قادرة لا يعجزها شىء، لأنه قد ملك عقائدهم أن الطفل يولد صفحة بيضاء يخط المربى فيها مايشاء، وعجينة لينة هينة يصورها كما يريد ويبغى، لا يصده عن ذلك صاد، ولا يحجبه حجاب.

من هذا ماقاله إراسم الروتردامى :

« إن الفطرة (كذا) إذا وهبت لك ابنا فانما تسلمك كتلة فجة، ومن

---

(١) العارم : الشرس

شأنك أن تعطى هذه المادة القابلة للتهيئة والتشكل بكل شىء أحسن صورة تريدها : فأنت إن أهملتها حصلت منها بهيمة ، وإن عنيت بتربيتها حصلت منها ، ـ إن صح القول ـ ملكا كريما »

وما فاه به الحكيم الألمانى « لايبنتز » : « آتونا التربية نغير لكم أخلاق أوربة فى أقل من قرن » غير أن تقدم العلم وتعرف العلماء أعضاء كل مخلوق والوقوف على مميزاته وخواصه ، ومعرفة ماهو أساس نموه وعماد بقائه ، والاعتقاد بأن كل حى يسير فى طريق وجوده ، ويقطع مرحلة حياته على سنن خاصة ، وضروب من النمو مرسومة ، وأنماط من الكيف معينة بقوة قاهرة أزلية ، لايد للغير فى إقامة دعائمها ، وإجراء أنهارها ، وإرسال رياحها .

كل ذلك جعلهم فى منأى عن ركوب متن الشطط فى تعريف التربية وبيان حقيقتها ، إذ قالوا ذلك القول المتقدم « التربية تأثير الكبير فى الصغير قصدا »

نظر الأستاذ بستالتزى إلى الإنسان وقال : أنا إن عرفت الانسان ، وما ركب فيه من ميول وجبل عليه من خواص ، وأودع فيه من ضروب الاستعداد ؛ استطعت حين ذاك أن أربيه ، أى أؤثر فيه تأثيرا يوجه ميوله واستعداده وخواصه إلى حيث يعيش إنسانا كاملا ، ويحيا ملكا كريما .

وجد الانسان ذا غرائز كثيرة فطر عليها ، وصحبته جنينا وطفلا وشابا وكهلا وشيخا كبيرا تظهر جليا فى أفراده ، وتتناولهم على اختلاف أجناسهم وتنوع نحلهم ، وتفرق مواطنهم

تلك الغرائز العامة التى تكمن فى الانسان تتخذ طريقها إلى الوجود ، وسَمْتَها إلى الظهور عند الظروف المناسبة ، والأحوال الملائمة ، التى تنفخ فى صورها فاذا هى لديها حاضرة .

فمثلا : يظهر السرور إذا ظهر باعثه : كرؤية منظر يقيد الخواطر جماله ، ويسترعى النواظر حسن نظامه ، ويبدو الغضب عند الاحساس بالظلم ، ويتحرك حب الاستطلاع عند رؤية شىء خفى مغلق يثير العجب والدهشة ،

إلى غير ذلك مما كان ويكون أساسا لما يتجمل به الانسان من كل أمر عظيم ، ومايمتاز به من خصائص لها أثرها البالغ فى توسيع العرصات الكبرى للحضارة الانسانية . يمكننا أن نفهم الآن أن التربية فى استطاعتها أن تمديدها إلى الطفل لتخرج غرائزه الصالحة من أكمامها ، وتكشف عنها غطاءها، وتحفظها من كل مايعوق نموها ، وتحوطها بشىء من الرعاية حتى يستطيع الطفل بعد نضوج جسمه ، وتسوية خلقه وتهذيب عقله أن يزج بنفسه فى المجال العام لحضارة الانسان ورقيه ، وذلك عمل إيجابى تقوم به التربية

الغرائز الكامنة فى الطفل ليست كلها من ذلك النوع الشريف الذى يتخذ أساسا لكل رفعة وكمال ، بل بجانب تلك الغرائز الشريفة غرائز أخرى لها خستها وحقارتها ، لأنها دعامة كل مبتذل وخسيس يلمح فى الطفل : كالجبن والكذب والكسل ، وغير ذلك من كل رذيلة تفيض بها الأثرة الانسانية.

فالتربية أمام تلك الغرائز الدنية تخضد شوكتها، وتغير وجهتها ، وتحسن استخدامها، فللتربية إذاً عملان :

١ إيجابى : وهو إحياء الغرائز الشريفة ورعايتها حق رعايتها

٢ سلبى : وهو إضعاف سلطان الغرائز الدنية ، وتصريفها فى طريق غير طريقها

وغير خاف أن هذين العملين ضروريان، ولا يغنى أحدهما عن الآخر . وكل منهما شرط فى الثانى، فالشيئان المتساويان لاترجح كفة أحدهما إلا إذا خفت كفة الآخر

لهذا كان لزاما أن يبدأ العملان فى وقت واحد وأن يسيرا جنبا لجنب ، دون أن يتقاعد أحدهما ، أو يتباطأ أو يخلد إلى الأرض ، أو يثاقل ، حتى ينشأ عنهما إنسان كامل .

نرى التربية وهى قائمة بعمليها : الايجابى والسلبى ذات يد غير مبسوطة إلا إلى حد معين ، وذات قوة لاتظهر إلا بقدر معلوم ، إذ يحجبها عن القدرة المطلقة ، والارادة الحرة فى اختيار سبيل غير ذى عوج ؛ حدودٌ كامنة خافية

ومظاهر سافرة واضحة : هذه المظاهر، تلك الحدود تقعد بالتربية عن السير فى طريقها سيرا حرا .

أما الحدود الكامنة فانها تعرف من غرائز الطفل التى خلقت معه، ومصدرها الوراثة .

وأما المظاهر السافرة فانها تتجلى فى بيئة الطفل الكفيلة بتحديدها وتعيينها فمصدرها البيئة يطلع الجنين ويشرق وجهه، فتطلع معه مواهبه الباطنة وتشرق وإياه خواصه الذاتية التى ورثها عن آبائه السالفين .

يولد فتولد معه تلك الغرائز الكامنة، وينمو فتنمو معه دون أن يبدأ المربى أول خلقها، أو يكون له أثر فى نشأتها وتكوينها .

فالطفل إذ ذاك صورة آبائه الصادقة، وتاريخ أجداده الصامت الناطق تهدى سطوره القارئة إلى ماتحلى به أسلافه من مزايا، وماتوطن فى نفوسهم من خواص، ومادرجت عليه عقولهم من ميول، وبرزت فيه هممهم من شئون، وما استقر فيهم من عادات ذات خَلْق سوى أو غير سوى . وما أشبهه فى ذلك بالغصن تعرف به شجرته والأثر يدل على مؤثره، فالطفل صورة مصغرة لحياة سابقة قطعت دهورا، وأفنت أعواما .

على هذا الأساس يرجع تعليل مانراه فى كثير من الأسر من مواهب بارزة، وكفايات نادرة تظهر فى أفرادها حينا بعد حين، وتنتقل بين أبنائها جيلا بعد جيل، وهذه أسرة « باخ » الألمانية من أعضائها ماينيف على الثلاثمائة من ذوى القرائح الموسيقية برز منهم على أقل تقدير اثنان وعشرون سارت بذكرهم الركبان، وذاع صيتهم فى كل مكان، وطبق نبوغهم الآفاق بين سنتى ١٥٥٠ — ١٨٠٠ ومثل ذلك فى أسرات كثيرة ألمانية .

ولا ننسى أن هذا التوارث عام يشمل الخير والشر كليهما: فكما يمر نسيم خلال الخير فى غرائز الطفل الموروثة يدب بينها أيضا عقارب الشر فى غرائز أخرى لاتقل استحكاما فى ارتباطها بنفسه وتعلقها به عن الأولى .

وأظهر مثال لذلك تلك الأسرة الجوكية بولاية نيويورك فقد نبتت من بذرة فاسدة شريرة إذ أن أصلها رجل هولندى من سكان البادية ، لايكاد يفيق من سكره أو يصحو من سبات لهوه ، عاش عيشة وحشية فى برية صخرية ينسب إليها فى خمسة أجيال من تاريخ حياته ٧٠٩ أشخاص :

١٨٠ شخصا يعيشون على ماتجود به الصدقات العامة

٧٦ شخصا باض الاجرام فى نفوسهم وفرخ فكانوا مجرمين

٥٢ ٪ من النساء أى إن أكثر أفرادها نساء منهن ١٤٠ امرأة تقريبا كن يعشن من طرق غير شرعية لايبيحها الدين ولا تقرها الانسانية

لم يصل العلم إلى معرفة ماتجرى عليه سنة التوارث من ضوابط ، وما تسير على ضوئه من قوانين ، وغاية مافى استطاعتنا أن نحفظ لتلك المواهب جلالها ، ونعد لها عدتها باعتبارها قوة هائلة ، ذات سلطان قاهر وحياة بارزة تحدد من موقف المربى أمامها ، فلا يدور بخلده حينئذ أن يحصل من الطفل على ماترمى إليه إرادته ، ويشير إليه رأيه .

ولكن الذى يستطيع الوصول إليه من الطفل مايوحى إليه به استعداد ذلك الطفل ، وتدل عليه غرائزه ، وتولى وجهها شطره خواصه التى ركبت فيه وانتقلت إليه فى طريق طويل من أجيال عمرت آلافا من السنين

نقف أمام الطفل فاذا به لغز مظلم ، وعقدة وثيقة محكمة لايجسر أحد بادىء ذى بدء أن يحلها ، ويعرف ماانحنت عليه من مواهب الطفل التى استقرت فيه ، لأن سماءه لاتطلع فيها غرائز أسرة واحدة بل غرائز أسر كثيرة .

فالطفل له أبوان لكل واحد منهما أبوان ، والأربعة لكل واحد منهم أبوان وهكذا ... وكل أب وأم من أسرة تختلف عن الأسرة الثانية فى خواصها وغرائزها .

فالطفل إذاً مجال تجرى فيه غرائز أسر عديد مختلفة، وصفحة ترقم فيها خواصها المتباينة.

من ذلك يمكننا أن نفهم التباين الذى يقع بين الاخوة الأشقاء والأخوات الشقيقات فى الأخلاق والعادات، وقوة الفكر وحصافة الرأى، إلى غير ذلك مما يرجع تكوينه إلى أسر سابقة، وينسب ظهوره إلى الوراثات المتعاقبة.

أثر البيئة لقد عرفنا أن تأثير المربى فى تلك الغرائز تأثير محدود فهو محكوم لها، خاضع لأمرها، نازل على إرادتها. لهذا كانت التربية أمرا غير ذى بال لو أن العامل الوحيد فى نمو الطفل وتكوينه يرجع إلى الوراثة وحدها، ولكن العالم الفرنسى «لامرك» دلنا بنظريته على أن هناك عاملا آخر لا يقل خطرا عن الأول ذلك هو عامل المخالطة، وهى ما نسميها البيئة.

فكل مخلوق قدر له أن يتأثر نموه بما يخالطه ويشاركه فى الوطن وما حواه. ومن شواهدهم على ذلك ما جاء فى إحدى المجلات إذ قالت: «النبات المعروف بسن الأسد ينبت بين نباتين عاليين من نبات المروج بأوراق قائمة على حين أنه إذا نبت وحده هنالك نامت أوراقه الوردية الشكل على الأرض وبعض أنواع الحسك والنبات المعروف بقدم الديك إذا نبت على الشاطئ الجاف يكون له أوراق ذات فلقتين فقط وإذا نبت فى الماء نبتت له من أحد جانبيه أوراق عائمة عريضة ذات فلقتين تطفو على سطح الماء، وفى جانبه الآخر أوراق دقيقة على شكل خيوط تحت الماء»

على هذه السنة تدرج نفس الطفل وتشق سفينته طريقها فى الحياة لذلك كان لزاما أن تعرف البيئة التى يلقى الطفل بين أناسها، إذ كل شىء فى الحياة يدع فى نفسه أثرا يختلف قوة وضعفا على حسب قوة مصدره

غير أننا لا نستطيع أن ننتقى بيئة خيرة لا يزورها الفساد، ولا تمر بها عواصف الشر، وبخاصة المدن حيث يكثر الازدحام ويطغى سيل الحضارة: فالطفل فى بيئته أمام عوامل لا تحصى، كامنة له فى كل مرصد، مقتنصة إياه

فى كل مكان ، تدخل عينه فتقيدها ، وتنفث فى أسماعه فتملكها ، وتصل إلى قرارة نفسه فتأسرها وتغويها ، وتساور فؤاده مساورة السموم القاتلة ، لا يمتنع عنها بحيلة ، ولا يفر منها بوسيلة ، فهو مضطر إلى أن يختلط بالتلاميذ فى مدرسته وبالناس فى طريقه ، وأن ينظر ما يوضع على الجدران من « اعلانات » وصور ، إلى غير ذلك مما يقحم الطفل وَلجات الشر ، ويحله وَرَطات الفساد ويجعل واجب المربى شاقا غير يسير ينحنى عجزا أمام تلك القوة الهائلة قوة المخالطة « البيئـه »

تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربى : فالوراثة والبيئة اذ ذاك يتنازعان الطفل بقوة خارجة على الجملة عن دائرة المربى ، إلا أننا إذا لحظنا أن المربى نفسه من ضمن البيئة التى لها تلك القوة فانه يستطيع بجانبها أن يفعل شيئا فى نفس الطفل ويؤثر فيها تأثيرا ما ، لذلك كان من الضرورى انتقاء المربين واصطفاؤهم أخيارا بررة صالحين ، لِيَنقُضوا لمؤثرات البيئة الضارة غزلها ، ويميتوا ما عسى أن يظهر من ضروب الاستعداد السيئة أو يوجهوها وجهة صالحة ، وأن تقوم رقابتهم على دعائم من اليقظة الصادقة والاحساس الحى حتى يكونوا فى التأثير أورى قدحا ، وأعلى كعبا ، وأرجح وزنا ، وبذلك يصلحون أبوابا فتُحا الى تهذيبه وأسبابا ذللا إلى كماله

أثر الوالدين : لا نكون بعد هذا متجانفين لغلو إذا قلنا : إن التبعة الكبرى منصبة على الوالدين : لأنهما أكثر الناس اختلاطا بالطفل ، وهو أخشع لهما ، وأعظم استكانة لأمرهما ، واستسلاما لطاعتهما ، يهوى إليهما فؤاده وتسكن لجوارهما نفسه .

فعلى الوالدين والمربين أن يضعوا أمام عينهم أنهم قدوة طيبة ، ومثل مشكور ، يحتذيه أبناؤهم وأن يخلعوا قناع الخسة ، ويدرعوا لباس الكمال الذى يملأ القلوب جلالا ، والعيون جمالا ، وأن يتنازلوا عن كثير مما يشتهون نفيا للرذيلة أن يراها الطفل ، وإبعادا للنقيصة أن يدنو منها .

قال جيته (١) أكتب كتاب الألمان « من جد فى إرشاد غيره إرشادا حسنا فعليه أن يستعد لحرمان نفسه محابها » وقد سبقه إلى ذلك على كرم الله وجهه إذ يقول : « من نصب نفسه إماما للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، فمعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم »

وعلى الوالدين أن يحكما الصلة بينهما وبين الطفل، ويفسحا له الطريق إلى الجلوس أمامهما يحاورانه ويجاذبانه أطراف الحديث، وفى تلك الفترة التى يأنس الطفل إليها ويشغف بها يقص على والدته مثلا ما فاجأه من الحوادث طوال يومه، وما كان له من أثر بالغ فى نفسه ، وإذ ذاك تستطيع الوالدة أن تميز الخبيث من الطيب فتميت الأول وتقضى عليه ، وتحيى الثانى وتبارك فيه .

العوامل المؤثرة فى الطفل : نستخلص من هذا أنه يعمل على تنمية الطفل تنمية صالحة بأيد مترادفة ، تحتازه عن كل أمر يكسر الفقرة ، ويوهى المنة ، ويدنيه إلى البهيمة ، إلى حيث ينشر الخلق القيم عليه جناحه ، ويسيل له جداول نعيمه ، يعمل على ذلك ثلاثة أمور :

---

(١) ولد « يوهان فولفجانج فون جيته » فى مدينة (فرنكفورت على الماين) فى أغسطس سنة ١٧٤٩ وكان أبوه مستشارا ملكيا وأمه عظيمة الاخلاق وكان لها أكبر الأثر فى نفسه ، قال : ورثت من أبى قوامى ، وعزيمة السير فى الحياة ؛ ومن أمى الطبع المرح ، وهوى القصص » وجونه هذا كان أشعر شعراء الألمان ، وأعظم كتابهم ، ومن كبار فلاسفتهم ، وكان لرواياته الكثيرة أبلغ الأثر فى الألمان من أشهرها : آلام فرتر ، وافجنيا ، وليلى ، والشقيقتان ، وفاوست . وله كذلك كثير من القطع الشعرية والغنائية البالغة التأثير . وقد قابله نابليون سنة ١٨٠٨ وأبدى له عظيم إعجابه به ، وقد وصف نفسه بأنه طبيعة عبقرية متجددة الشبان . وفى ٢٢ من مارس سنة ١٨٣٢ توفى جيته بعد أن رفع بجمال فنه ورقى شعره منزلة الآداب الألمانية إلى الجوزاء ، وبعد أن أثر فى عقلية أمته أثراً لا يمحى

١ ـ الوراثة

٢ ـ المخالطة

٣ ـ المربون

تبدأ الثلاثة عملها من حين الولادة بدرجات مختلفات ، فقد ينشط أحدها ويتباطأ غيره ، ولهذا لا يحمل الوالدان الهجينة وحدهما إذا نما الطفل نزاعا إلى الشر كما لا ينسب إلى المربى وحده ما يحمل الطفل من استقامة محترمة ، وسلوك حازم ، لأن للمربى شريكين لهما أثرهما : الوراثة والمخالطة .

مخالطة الاخيار ومجانبة الاشرار

ليس شيء من أخلاق الانسان وعاداته ومعتقداته إلا وهو قابل للتغيير والتبديل ، كما هو مشاهد معلوم ، أما الاخلاق فيقع التغيير فى بعضها ببطء وفى بعضها بسرعة تبعا لقوة المؤثر وضعفه ، وأما العادات وكثير من المعتقدات فصائرة إلى الانسان من مزاولة العمل أو القول مرة بعد أخرى ، وبقاء أثر له فى النفس ، يزداد ثباتا فيها بازدياد تكرره ثم يستقر ، ويصبح عادة لازمة ، واعتقادا راسخاً

وسبب هذا أن الأعصاب فى الانسان تأثرت بذلك العمل وتلك الفكر حتى أخذت شكلا خاصا ، وكلما تكرر ذلك ازداد تأثر الأعصاب حتى يكون لتلك الأعمال فيها مجرى تجرى فيه ، وتتجه إليه وينشأ من هذا أن يألف الانسان الأعمال ، ويجد مباشرتها أمرا سهلا عليه ، حتى لقد يفعلها بدون تفكير ، ولا معاناة مشقة ، ولا نظر إلى ما تفعله يداه أو رجلاه ، وتوافق أوضاعها أو اختلافها ؛ إذ كان الشأن فى هذا كالماء الذى يجرى إلى المنحدرات فيشق لنفسه فيه واديا ينحدر إليه بسهولة ، ويجرى فيه كلما تدفق من نحو سيل أو مطر .

ومما يوضح هذا أن القول يمر بسمعك ، والأمر تشهده وهو يخالف منك

دينك أو عادتك أو اعتقادك فترى من نفسك إنكارا له، وثورة عليه فاذا تكرر ذلك فقد تألفه وتنجذب اليه، وربما تفعله راضيا له، مسرورا به؛ إذ كثيرا ما نرى إنسانا يحاكى آخر فى قول أو فعل، ازدراء به ومقتاله، ثم لا يلبث أن يدرج على ماحاكاه ويصبح من عاداته، ولا سيما إذا وجد ممن يحيطون به من يستحسنون ذلك منه أو يطلبونه إليه للتسلية واللهو.

وإذا وجدت العادة أو الاعتقاد مايعارض الميل الذى من أجله نشأ فانهما يضعفان فى الانسان وقد يزولان، تبعا لقوة المعارضة وضعفها

ومن أهم مايعارض ذلك الميل المخالطة: إذ هى التى تغير فى الانسان كثيرا من أخلاقه وعاداته من حيث يدرى ولا يدرى ومن حيث يريد ولا يريد. وأثرها فينا لا يستطيع إنكاره منكر؛ بل إنك لتجد أثرها فى الجماد والحيوان وهما دون الانسان قبولا للتأثر، فالماء يطيب ريحه، ويعذب فى الفم مذاقه، إذا جاور الأزهار، ويخبث ريحه ويشتد غصصه إذا جاور الجيف، والحصان الشرود إذا قرن بآخر ذلول صار ذلولا سهل القياد

وإن العوامل التى تتخذ فى التربية لتجعل الشرير خيرا، والفاسد صالحا: من وعد ووعيد، وتحذير وترغيب، وثواب وعقاب، قد لا تأتى فى الغالب على ما فى نفس الانسان ولا تنتقل به من حال إلى حال. أما المخالطة فانها لا تحصل بدون أن يكون لها أثر ظاهر فى حال الانسان الخلقية والاعتقادية والفكرية وكل أنواع التربية تعرض وتزول كالمدرسة والبيت الا المخالطة فانها تربية لا تنقضى إلا بالموت، فان حسنت أثمرت ثمرا طيبا، وإن ساءت كانت شرا وبلاء.

اختيار الخلطاء:

عنى الباحثون وعلماء الأخلاق والدين والمثقفون فى كل أمة وعصر بوصف العشراء والخلطاء، وأرسلوا القول فى ذلك شعرا ونثرا، ماشاءت لهم البلاغة ووحى البيان؛ ولم تفرط الشريعة الاسلامية فى شىء من ذلك،

والأحاديث الواردة فيها أكثر من أن تعيها أذن واعية ، أويلم بها قلب حافظ أو راوية .

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « مَثَلُ الجليسِ الصَّالِحِ كمثَلِ الدَّارى إنْ لم يحذِكَ من عطره يعلقك من ريحه ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه » وقوله « مَنْ أرادَ الله بِهِ خيْراً رَزَقَه خَليلاً صَالِحاً ، إن نسِيَ ذَكَرَه ، وَإنْ ذَكَرَ أعانَه »

ذلك لأن للمخالطة أثرا بينا فى تكوين أخلاق الانسان ، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر ، وفيما يناله من سعادة وشقاء ونعمى الحياة وبؤسها ، ولأن الانسان موسوم بسمات من يخالطه ومنسوب اليه فعله قال عبد الله بن مسعود : (مامن شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب) وقال عدى بن زيد

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

لهذا ينبغى للانسان أن يعرف فيمن يختارهم لمخالطته ويصطفيهم لمعاشرته أمورا لابد منها لتستقيم الصحبة وتدوم الألفة :

خلال الخليط :

فمن ذلك أن يكون العشير موفور العقل ، كامل التجربة لأن الأحمق لاتدوم مودته ، ولا تطول عشرته ، وقد يصيب الانسان بضرره أكثر مما يصيبه بخيره ، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان ، قال تعالى : (وَيَوْمَ يَعضُّ الظَّالم على يَدَيْه يقول ياليْتَنِى اتخَذْت مَعَ الرَّسولِ سَبيلاً ، يَاوَيْلَتى ليتَنى لمْ أتَّخِذ فلاَناً خَليلاً لقَدْ أضلني عَنِ الذِّكر بَعْدَ إذْ جاءنى وَكانَ الشَّيطَان للانسَان خَذولا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البذاء لؤمٌ ، وَصحبَةُ الأحمق شؤمٌ » وقال بعض الحكماء « (عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الأحمق) وحكاية الدب وصاحبه فى هذا الباب مشهورة معلومة

ومنها أن يكون ذا دين يقف به على الخير وينهاه عن الشر، لأن تارك الدين عدو نفسه، فكيف يكون صديق غيره، ولهذا قال بعض الحكماء: (اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب، والرأى والأدب، فانه ردء لك عند حاجتك، ويدٌ لكَ عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك)

ومنها أن يكون رضى الأخلاق، حميد الفعال، يؤثر الخير على الشر، ويفعله ويأمر به، فان مخالطة سيء الخلق تكسب العداوة، وتفسد الأخلاق، ولاخير فى مودة تجلب عداوة، وتورث صاحبها مذمة وملامة، وقال بعض العقلاء (مخالطة الأشرار على خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر: من سلم منه ببدنه من التلف لم يسلم بقلبه من الحذر منه)

ومنها أن يكون ذا ميل الى الصحبة، ورغبة فى المعاشرة، فان ذلك أوكد لها، وأمد لأسباب المصافاة، وأدعى إلى الاستفادة.

هل يكثر الانسان من الاخوان والأصحاب؟

سؤال يتردد فى جوانب نفس كل انسان، فاذا ألقيت به على قوم انقسموا فيه ثلاث فرق: فرقة ترى الاكثار، وفرقة ترى الاقلال، وفرقة ترى ألا يكون واحد منهما، ولابد لمن يريد علم هذا أن يقف على رأى المتقدمين من علماء الأخلاق والدين، وممن بلوا الايام، وعركوا الحوادث، فعرفوا خيرها وشرها، فان ذلك أدعى إلى اطمئنان النفس، وأهدى الى سبل الخير

يرى بعض هؤلاء أن الاستكثار من الأصحاب ضرورة تدعو إليها حاجة الانسان إلى المعاضدة والمعاونة وفى هذا قيل: (حلية المرء كثرة إخوانه) وقيل: (المرء قليل بنفسه كثير باخوانه) وفى الأمثال: (يد واحدة لا تصفق)

ويرى فريق آخر أن الاقلال منهم خير من الاكثار، لأنه أخف مئونة وأيسر كلفة وأذهب للبغضة والتنازع الذى يحدث من الكثرة ولهذا قال الاسكندر: (المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوفر من الحجارة، والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر) وقال عمرو بن العاص: (من كثر إخوانه كثر

غرماؤه) وقال إبراهيم بن العباس :(مثل الاخوان كالنار : قليلها متاع ، وكثيرها بوار) وقال ابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ماتراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى فى النطف العذاب

وفريق ثالث يرى الخير فى الوحدة ، والانصراف عن الناس جملة ، فان هذا أصون للدين ، وأحفظ للوقت ، وأضمن لراحة الانسان وسلامته ، وأذهب للعناء الذى يجده الانسان عادة من تكلف مايترضى به كل واحد من إخوانه

وخير الآراء ثانيها ، وهو الأجدر بالتقدمة والأولى بالاتباع ، إذ لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولكن على الانسان أن يتعرف فيمن يختاره لصحبته ماتقدم من الصفات والا يثق به قبل ابتلائه ولاسيما فى هذا الزمان الذى كثر شره ، وقل خيره ، وأتقن الناس فيه التصنع ولباس الرياء ، حتى أنه ليعجز أعقل الناس وأكثرهم دهاء وحزما عن كشف ماانطوت عليه نفوسهم من خبث وسوء نية ، وإن فى الحوادث التى يسوقها الدهر كل يوم عظات بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ،

آثار المخالطة الصالحة :

للمخالطة الصالحة نتائج حسنة ، إذ يستحى الانسان فى الغالب من إظهار عيوبه أمام رفقائه والمتصلين به ، ولاسيما من عرفوا منهم بالترفع عن الدنايا ، وفى هذا مايبعده عن الشر ويدنيه من الخير ، كما يأمن على أخلاقه بمعاشرتهم . ومن آثارها أن يذكره إخوانه بالخير فيفعله ، والشر فيجتنبه ، وأنه يكتسب بصحبتهم شرفا ، ويجد منهم عونا فى الملمات ، وعضدا فى النائبات

فالمخالطة عامل من عوامل التربية : ـ ومن أجل ذلك : يجب على الآباء والمربين أن يعيروا المخالطة عنايتهم كلها ، لأن أثرها فى التربية تنقطع دونه جميع الأسباب ، ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب أن يمنع الأطفال من

مخالطة من ساءت أخلاقهم ، ولو زمنا قليلا ، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم ، ولاسيما التي يغشاها ذوو الدناءة ، والأخلاق السيئة ، وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا فى بلد بعيد ناسا ممن عرفوا بكرم الأخلاق وصحة الآداب ، ليشرفوا عليهم ، وألا يتركوا لهم الحبل على الغارب فى اختيار الأصدقاء والخلان ، فان قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم فى الغالب إلى اختيار من يضرون ولا ينفعون ، ويفسدون ولا يصلحون

وقد أدرك الناس على اختلاف منازلهم ومنازعهم خطر المخالطة ، واتصال عدواها بالدين والأخلاق والعادات والمعتقدات، فانتحى كل فريق ناحية فى أسلوب معيشته، وسلك سبيلا خاصة به، فى تربيته وتعليمه وعاداته وآدابه، وأسلوبه فى مأكله ومشربه وحديثه وملبسه، حتى فى إشاراته وحركاته وسكناته ليمتاز عن سواه. وقد سرى هذا التمييز فى كل شىء تقريبا ، فحيث تلتفت لا تجد إلا ذلك: ففى قطر سكة الحديد ومركبات الكهرباء ومشارب القهوة والفنادق والمطاعم والملاهى ودور التمثيل والمستشفيات والمصاح ومحال التجارة والمدارس التى هى أماكن تهذيب وتعليم ، ترى أماكن للخاصة وأخرى للعامة، حتى لتجد هذا فى أرباب المهن والحرف والصناع : كالخياطين والنجارين والبنائين والمهندسين والأطباء والمداره ممن جعلوا لهم جعلا خاصا صاروا بسببه يختصون بطبقة من الناس دون طبقة .

خلاصة ينابيع الخلق

مما تقدم يتبين أن المؤثرات فى تكوين الخلق ضربان : داخلة وخارجة: وأهم المؤثرات الداخلة مايلى :

١ ـ الغرائز : وهى تبعث على العمل ، وهو يكون العادة، والعادات أمهات الاخلاق

٢ ـ العادات : وهى كثيرا ماتكون قواعد للأخلاق، وإذا عرفنا أن العادة

تتكون من العمل سهل علينا أن نعرف أن منع الناشئ تكرار أى عمل سىء يضمن لنا سلامته من العادات السيئة، ومتى سلم منها سلم من الأخلاق السيئة، ولكن علينا إذا منعنا ناشئا عملا سيئا أن نستبدل به عملا صالحا نشغله به ، ونحمله على مزاولته، حتى تتكون عنده عادة صالحة يقوم عليها خلق صالح (العادة طبع ثان)

٣ ـ الرغبات : وهى ميول النفس، وتعتبر من العوامل الفعالة فى تكوين الخلق ، لأن الرغبات أكبر دافع للعمل أومانع منه، ولذا قال أحد الحكماء: (نبئنى بما يرغب فيه الانسان أنبئك بأخلاقه)

وأهم المؤثرات الخارجة :ـ

الوراثة . المنزل ، المدرسة . الأصدقاء . البيئة

الوراثة

الانسان خاضع لقانون الوراثة كالحيوان والنبات ، وقد أثبت العلماء صحة هذا القانون بتجارب كثيرة لاتخفى على المتأمل

ولا يقتصر تأثير الوراثة على حالات الانسان البدنية، بل يتعدى الى عقله وأخلاقه ، فالانسان يكاد يكون جسما وعقلا نتيجة لازمة لما كان عليه أسلافه

ينشأ الصغير على ما كان والده   إن الأصول عليها ينبت الشجر

نبنى كما كانت اوائلنا   تبنى ونفعل مثل مافعلوا

ولقد كان العرب يؤمنون بتوارث الطبائع والعادات. كان لأبى اخزم الطائى ابن يقال له اخزم كان عاقا، فمات وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدهم أبى أخزم فأدموه ، فقال :

إن بنى ضربونى بالدم   شنشنة أعرفها من أخزم

يعنى ان احفاده لطخوه بالدم وقد أشبهوا أباهم أخزم فى العقوق . وكذلك كانوا يعترفون بالتوارث عن الأم ويظهر ذلك فى قول شاعرهم :

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها   وابن اللئيمة للئام نصير

وقد أشار إلى ذلك النبي الكريم بقوله (تَخَيَّروا لِنطَفِكم فإنَّ العِرْقَ دَسَّاسٌ) وفى الأمثال (الولد سر أبيه)

ويظهر تأثير الوراثة واضحا فى زمن الحمل إذ هو الزمن الذى يوضع فيه أساس القوى الانسانية ، فنابليون الذى طبقت شهرته الحربية الآفاق نقل المؤرخون عن والدته أنها لما كانت حاملا به رافقت زوجها مرارا فى الحروب من غير أن ترتاع ، بل كان يلذ لها منظر الوقائع الحربية فظهر على نابليون فى صغره الميل إلى الحرب

وقد أثبت الأطباء أن انفعالات الحامل: من سرور وخوف وحزن وحب وبغض وغيرها تؤثر فى جنينها، وأوصوا بادخال السرور على الحامل، والعناية بصحتها ، وترويح نفسها بالمناظر الجميلة، والبعد عن كل ما يثير انفعالا سيئا فى نفسها

ونرى العامة يحكمون على أخلاق الناشئين والناشئات بما يحكمون به على آبائهم وأمهاتهم ، وهذا تصديق منهم بتأثير الوراثة فى الأخلاق

من أجل ذلك حرم كثير من الأمم الغربية الاذن بالزواج إلا بعد التأكد من خلو الزوجين من الأمراض المعدية . وفى عام ١٩٢٩ . قررت حكومتنا الاقتداء بهم، وستصدر قانونا بذلك محافظة على النسل، وقد أرسلت وزارة الحقانية المنشور رقم ١ سنة ١٩٢١ إلى المحاكم الشرعية بناء على طلب مصلحة الصحة القاضى بوجوب التشديد فى الحصول من طالبى الزواج ذكورا وإناثا على الاقرار الخاص بسلامتهم من الأمراض السرية، وقد أذاعت جريدة الأهرام الاجراءات التى جرت بين مصلحة الصحة والحقانية فى هذا الشأن بعددها الصادر فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٢٩

وكثير من المتعلمات فطن لقانون الوراثة، وعملن على غرس الأخلاق الحميدة فى نفوس أجنتهن وهم فى طور التكوين بارتياحهن فى أثناء الحمل إلى الفضيلة ونفورهن من الرذيلة ، فجاء أطفالهن على ماشئن أن يكونوا عليه ، وعلى ما اتخذن من الوسائل الموصلة إلى غرضهن .

ومهما كان الانسان خاضعا لقانون الوراثة ومهما كان إيماننا بهذا القانون

فلا يمكننا أن نقف جامدين أمام تأثير التهذيب والصقل . ومهما كانت قابلية النفس البشرية للتأثر بالتهذيب، فليس فى الامكان مقاومة ما استكن فى النفس عن الوراثة والغرائز مقاومة تامة، فقد نرى بعض أبناء الصالحين صالحين كما نرى بعض أبناء الأشرار أخيارا .

المنزل

المنزل أول بيئة يعيش فيها الطفل ، وهو أقبل ما يكون للتهذيب

المنزل هو المدرسة الأولى التى يتأدب الطفل بآدابها ويتعود عاداتها ، ويقف على كثير من أفكارها وآرائها واعتقاداتها . فان كانت الأسرة التى تسكن فى المنزل شريفة تنسم فيه الطفل نسيم الفضيلة ، وإلا انغمس فى حمأة الرذيلة. ولا نشك فى أن البيئة التى عليها مدار تربية الطفل عندنا الآن موبوءة : فالكذب والبذاءة والخرافات متفشية فيها بحال مروعة لا تتفق وتربية الأطفال الذين نعدهم للحياة

والأسرة الشريفة والدنيئة سواء فى تكوين الأخلاق وإن اختلف الأثران ، غير أن الأسرة الدنيئة خير من بعض الوجوه من الاسرة المهملة لأن الدنيئة كثيرا ما تغرس فى نفس الحدث مضاء العزيمة ليصل الى غاية وضيعة . ولكن قد يدركه حسن الطالع ، فيغسل وزره بالتوبة ويضرب فى سبيل الفضيلة ، وحينئذاك يجد ما نبت فى نفسه من قوة العزيمة سلاحا نافعا له فى الوصول إلى محاسن الأعمال . أما من نشأ فى أسرة مهملة فانه يقف أمام مصاعب الحياة مغلول اليدين يذهب مع كل خاطر ، ليس له رأى سديد ولا إرادة حازمة

وغير خاف أن رؤساء المنزل ومعلميه هم الآباء والأمهات ، فاذا كانوا على بينة من المهمة الخطيرة الملقاة على عواتقهم ، قادرين على أن يربوا أولادهم تربية حسنة، أمدوا أمتهم برجال نافعين أصحاء الأجسام كريمى الأخلاق

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

فالناشئون بحكم غريزة المحاكاة مدفوعون إلى محاكاة آبائهم وغيرهم من المحتكين بهم،

وإذا عرف المربون قيمة هذه الغريزة واستثمروها، بأن حفظوا عيون أولادهم من أن تقع إلا على كل جميل وآذانهم من أن تسمع إلا كل قول حميد، وصانوهم، من مخالطة الخدم وغيرهم من ذوى النقائص، ومن غشيان مجالس اللهو والمجون نشئوا نشأة حسنة. قال أحد فلاسفة اليونان: «أعط ابنك عبدك يربيه يكن لك بدل العبد عبدان»

وإذا أراد الوالدان مثلا أن ينميا الاحساسات الطيبة فى نفس الناشئ عرضا عليه مواضع الشفقة على الانسان والحيوان، ووجهاه إلى مواضع الرحمة ومساعدة الضعفاء، واشتركا معه فى أعمال البر، وأبعداه عن كل ما يميت هذا الشعور عنده. وبذلك يمهدان له السبيل إلى أرقى الأخلاق

وإن لم يحسن الآباء تربية أولادهم شبوا على الرذيلة، وضعف الرجاء فى إصلاحهم فان من شب على شىء شاب عليه

ان الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن يلين إذا قومته الخشب

وأكبر جناية يجنيها الآباء على أولادهم سوء تربيتهم قال سبنسر: «لم يهمل الآباء شيئا إهمالهم إنعام الفكر فى تأديب أطفالهم، وتعويدهم حميد الخصال وجميل الفعال، ولعلهم ظنوا الأمر هينا، وحسبوا أنهم قادرون بلا فحص ولا بحث على أن يودعوا طبائع صبيانهم ماشاءوا من المناقب، وجهلوا أن علم تهذيب النفس علم صعب المأخذ، عسر الملتمس، من جهل قواعده خاب فى تأديب غلامه، وبدهى أن من سار إلى الشىء من غير طريقه لا يصل، ومن دخل الظلام بغير سراج فقد ضل.» ويؤخذ من كلام سبنسر أن علم النفس ضرورى للآباء والأمهات، وبدونه لا يهتدون إلى الطريقة المثلى فى تهذيب أبنائهم. ولتكون على بينة من خطأ الآباء فى تربية أولادهم إذا جهلوا علم النفس، أذكر لك حكاية يتبين لك منها كيف يسيرون فى طريقهم على غير هدى:

أراد والد أن يعلم ابنه الصدق وأن يحببه إليه ليشب صادقا فأخذ يذكر له جملة مما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف خاصا بفضيلة الصدق وجزاء الصادقين، وبينما هو يسدى إليه من عبارات النصح والوعظ ماهو

كفيل بتثبيت هذه الفضيلة فى نفسه إذ بقادم دق على الباب، فنهض الولد ليفتح له، فأستمهله الوالد وأطل من النافذة، فرآه زائرا لا يود مقابلته فأمر ابنه أن يقول له: إن والدى ياسيدى غير موجود هنا. فمن الخطأ نسبة الشر إلى الأطفال وتبرىء آبائهم منه، فما الأطفال إلا صورة آبائهم. وما أصدق قول سبنسر فى ذلك: (ولقد نرى الناس ينسبون الهفوات والعيوب الى الأطفال ويخلون الآباء منها، شأنهم مع الحكومة إذ يبرئون الولاة من كل عيب وينسبون إلى الرعية كل نقص، والحقيقة أن سوء معاملة الآباء أصل أكثر ما ينسب إلى عناد الأطفال وتشبثهم)

وإذا انتقل النشء من المنزل إلى المدرسة شيد المدرسون أخلاقهم على الأساس الذى وضع فى المنزل: فان كان وطيدا زادته المدرسة توطيدا، وإن كان واهيا صعب إصلاحه على المدرسة، وهى مهما بذلت من المجهود فى تقويمه فلا بد أن يبقى للتربية المنزلية أثر ظاهر أو خفى فى نفوس النشء، ولذا كان السلف الصالح يمتنع من تعليم الأرذال والوضعاء ما يزيد على قدر حاجتهم، حذرا مما يترتب على قدر الزيادة من الضرر العام، إذ قد يتخذون العلم آلة للشرور.

وبالاجمال، فاننا لا ننتظر من وراء التربية المنزلية نتيجة خلقية سارة إلا إذا كان الآباء والأمهات على خلق عظيم

المدرسة

ليست مهمة المدرسة تلقين المعلومات فحسب، بل هى عامل كبير يلى المنزل فى تكوين الأخلاق، ففيها يقف تيار أسرة الطفل، ويشعر بواجبات لم يشعر بها من قبل، وفيها يجد أفرادا تمتزج بينهم وبينه صلة الصداقة بالمشاركة والمعاونة، وفيها يجد سلطة تحاسبه على زلاته وأعماله بدون محاباة، فيمرن على طاعة أولى الأمر.

مهمة المدرسة إعداد النشء لأن يكونوا رجالا نافعين وأمهات صالحات، ولا غرو فقد عزا بسمارك العظيم انتصار الألمان فى حرب السبعين إلى المدرسة ولا يمكن أن تقوم المدرسة بهذا المهم العظيم إلا إذا كان القائمون بأمرها

ممن تربوا تربية حسنة، عاملين بأوامرهم منتهين عن نواهيهم، قدوة صالحة فى أقوالهم وأفعالهم ، عالمين بأحوال النفوس وغرائزها واستثمارها ، فلا يكفى أن يكونوا من ذوى الأخلاق الكريمة فقط ، بل يجب أن يكونوا قادرين على بث هذه الأخلاق فى نفوس من وكل إليهم أمر تعليمهم

ولاشك أن مانراه من النقص فى المتعلمين لايجبر إلا باصلاح المعلمين ، فالمعلم الذى يملى الحقائق إملاء ولايعنى باشراك تلاميذه معه فى تعليم أنفسهم بأنفسهم (التعليم الذاتى) نرى تلاميذه يخرجون من المدرسة قليلى الثقة بأنفسهم ، فاقدى الهمة ، ضعاف العزائم، مغلقى الحواس، قليلى الملاحظة والخبرة . ولعل ذلك من أكبر أسباب الزهد فى العلم بعد الخروج من المدرسة، والتقاعد وتهيب الاقدام على الأعمال ، وتلك من أضر الاخلاق التى تعوق رقى الأمم . فيجدر بالمعلم أن يحمل تلاميذه على استنباط كل مايمكن من الحقائق ليربى فيهم خلق الاعتماد على النفس، وهو من أنفع الأخلاق وأعونها على النجاح

وإنما رجـــل الدنيا وواحدها ٭ من لايعول فى الدنيا على رجل

والمعلم الذى يرهق تلاميذه بالمعلومات يقضى عليهم بالخمول فيصل بهم إلى عكس المطلوب ، ألم تر أن الحرص على أن يسرع النبات فى النمو بتسميده بكمية فوق حاجته يحرقه السماد ويفسده ، وأن الحرص على سرعة الشفاء بمضاعفة الدواء يؤخر الشفاء . وكذلك حشو الذهن بالمعلومات قبل استعداد النشء لها يفضى إلى الانحطاط العقلى

والمعلم الذى يبخس زملاءه حقهم، ويحط من أقدارهم أو أقدار العلوم التى يدرسونها أمام تلاميذه، يبث فيهم أخلاقا ذميمة . فيجب أن يسود بين القائمين بالتعليم الوفاق والاحترام والتعاون على إنهاض تلاميذهم ، فان أقل خلاف أو تخاذل يقوم بينهم يسرى منهم إلى تلاميذهم ويؤخر تقدم المدرسة العلمى والخلقى .

وإذا عاملت المدرسة تلاميذها بالعدل فانهم يتخلقون به ويقدسونه وتبقى آثاره ظاهرة فيهم وهم كبار .

ومن الطرق المثلى فى تغيير أخلاق الطائفة الفاسدة بالمدرسة ألا نزدريها أو نحط من شأنها : بل علينا أن نغرس فى نفوس هذه الطائفة أخلاقا تناقض أخلاقها، وتتعهدها بالتنمية حتى يموت ما كان فيها من الاخلاق السيئة ، ويحيا ماغرسناه من الاخلاق الحميدة . وإذا لم تُجد طرق الاصلاح عمدنا إلى بتر هذا العضو من جسم المدرسة حتى لا يعدى غيره، ومدرسة الحياة كفيلة باصلاحه أو تحطيمه .

وجملة القول ان وسائل تربية الخلق فى المدرسة ما يأتى :

(١) الدروس الدينية والأدبية (٢) معالجة الأمراض الخلقية ووصف الدواء الناجع لها عند المناسبات وما أكثرها فى اليوم المدرسى

(٣) النظام المدرسى فيجب أن تبين للتلاميذ فائدته على التدريج حتى ينطبع فى نفوسهم فيقوموا به طائعين مختارين

(٤) مشاركة المدرس التلاميذ فى شعورهم ودرس أمزجتهم الخاصة فيظهر الشفقة لسيء الحظ ، والانصاف للضعيف

(٥) تربية العادات الأدبية فى الأطفال كالطاعة، والتبكير، والمواظبة، ومعرفة نتيجة العمل قبل الشروع فيه ، فان تكرار العمل يجعله مألوفا سهل المزاولة فيصبح عادة ثم خلقا

(٦) القدوة الصالحة إذ الطبع يسرق

(٧) الألعاب النظامية فيلاحظهم المدرس فى أثناء قيامهم بها .

(٨) محاربة ميل التلاميذ إلى مخالفة القانون

(٩) الشعور بالواجب فانه يبعث فى نفس صاحبه سرورا من عمل الخير وألما من عمل الشر

(١٠) وضع الثواب والعقاب فى موضعهما بأن يكون الغرض من الثواب التشجيع على الاخلاق الطيبة، والمقصود من العقاب تجنب السيء منها.

وجملة القول إن وسائل تكوين الأخلاق فى المدرسة تكون بغرس الميول

الصالحة فى الذهن وتوجيه النفس اليها، ويجب أن يتعاون البيت والمدرسة على نشأة الطفل وتهذيبه ،

الاصدقاء

لاينبغى اختيار الصديق الابعد اختباره وتجربته ، ويجب أن يكون من بيت طيب منظم، متحليا بكريم الخصال ، متمسكا بجميل الفعال ، له عقل ودين وأدب، لأن الانسان صورة من صديقه يحاكيه فى زيه وأخلاقه وآدابه ، فكم من جبان القلب تعلم الشجاعة والاقدام من معاشرة الشجعان، وكم من بخيل أصبح كريما بمخالطة الكرماء ، وكثير من النابغين له عقل وافر ودين وأدب ، وله همة عالية يحب الرفعة والمعالى ، فمعاشرتهم لها أثرها

ولا تثمر الصداقة إلا إذا كان بين الصديقين شعور متبادل وطباع متقاربة وميول متناسبة . قال حكيم: (نبئنى عمن تصاحب أنبئك من أنت)

وقال الشاعر :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وكثير من النابغين ينسبون نبوغهم إلى أنهم وفقوا إلى اختيار صاحب أو أصحاب أثروا فيهم أثرا صالحا، ونبهوا فيهم قوى كانت خاملة

وللصديق حقوق أهمها :

١ — البحث عن حاجة الصديق وقضائها .

٢ — مشاركته فى السراء والضراء .

٣ — الدفاع عنه حاضرا أوغائبا .

٤ — شكره على حسن صنيعه والتودد إليه بجميل الكلام .

٥ — المحافظة على أسراره وعدم التكبر عليه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وأن يخالقه بخلق حسن .

ولتربية الصداقة وسائل :

١ — المنزل. على الآباء أن يبعثوا الألفة بين الأبناء حتى لا يظلم أحدهم الآخر
٢ — المدرسة. فعلى المدرسين أن يعودوا الطلبة حسن المعاشرة والكرم والمساعدة: لأن المال يولد الألفة ويبعث على المحبة. قال تعالى: (إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لهمُ الرَّحمنُ وُدًّا) أى يتوادون ويتحابون ويحبهم الله. وقال عليه الصلاة والسلام « عليكم بأخوان الصِّدق فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء »

طريقة دين الاسلام

أمثل طريق لتكوين خلق الانسان

سلك الاسلام فى تكوين خلق بنى الانسان مسلكا شملهم من جميع نواحيهم، فاتخذ من الوسائل أوفاها وأقربها، ومن الذرائع أنبلها وأنجعها (إِنَّ هذَا القرآنَ يَهدِى للتِي هِيَ أَقْوَم)
وإليك البيان:

الذريعة الأولى

تأديبه فى مأكله ومشربه

إن من أهم الأمور وآكدها الاعتناء بتربية النشء الصغار، وتعويدهم التخلق بالكمال فى حال نشأتهم، لأن الصبى عند مايولد يكون ساذجا خاليا من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ماينقش عليه، ومائل إلى كل مايمال به إليه، فان عود الخير وعمله نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة، وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأُهمِل إهمال البهائم شقى وهلك، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والمتولى أمره، انظر قوله تعالى: (يَاأيهَا الذِينَ آمنوا قوا أنفُسَكمْ وَأهليكمْ نَاراً)

وإذا كان الأب يصونه عن نار الدنيا فلأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويعلمه مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات . وإذ إن أول مايغلب عليه شره الطعام وجب على المربى أن يؤدبه فيه ، حتى لايكثر من الطعام ، ولايسرف فيه ، فان الله سبحانه يبغض من يفعل ذلك ، وان يقبح عنده كثرة الأكل بتشبيه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، ويذم بين يديه كل من يكثر الأكل من أمثاله ، وألا يطعمه إلا حلالا طيبا طاهرا من ربا أو غصب أو سرقة ، ويبين له الحلال منه وطرق تحصيله ، والحرام ويباعده عنه ، ويبين له المواضع التى أباح الله له الأكل منها من بيوت أقاربه : كأبيه وأمه وأخيه ، وأخته ، وعمه ، وعمته ، وخاله ، وخالته ، أو صديقه . ويبين له آداب الأكل منفردا أو مع غيره ، وقبل الأكل وبعده .

وقد بين الله جل شأنه هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله . فقال تبارك اسمه فى النهى عن كثرة الأكل والشرب ، والاسراف فيهما وبغضه لذلك (كلوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفوا إِنّه لاَيحبُّ المسْرِفينَ) فأرشدنا إلى ماعلمنا من الطب والحكمة ، وهدانا إليه ، مما تصح به أبداننا وتقوى به أجسامنا ، وتطيب به معيشتنا ، وتهنأ به حياتنا من عدم الافراط فى الأكل والشرب والاسراف فيهما ، لأن كثرة الأكل والشرب تفسد المعدة ، وتضعف الجسم ، وبذلك يضعف الفكر ، ويخمد الذهن ، وينحط الادراك . وإذا حجب القلب عن الادراك ، ومنع الذهن عن الحركة فى المعقولات ، خسر صاحبه بابا كبيرا من العبادات ، لأن المقصود من العبادات إنما هو الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، وكثرة الأكل كما علمت مانعة منه . ولهذا قال لقمان لابنه « وإذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخسرت الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » وقد بينت السنة حد السرف المنهى عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ مِنَ السَّرَفِ أنْ تَأكلَ كلَّ مَا اشْتَهَيْتَ » كما بينت القدر اللازم والمقدار الواجب استعماله منهما فقد قال صلى الله

عليه وسلم : « مَاملأ ابنُ آدمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِه . حسبُ ابنِ آدمَ لقيْمَاتٌ يقمن صلبَهُ ، فانْ كانَ فاعلاً لا مَحالةَ ، فثلثٌ لطعامِهِ ، وثلثٌ لشَرابه ، وثلثٌ لنفَسه » هذا وبعد أن نهى جل شأنه عن الاسراف فى الأكل والشرب ، أخذ يتوعد ويهدد من خالف أمر الله فأسرف فيهما ، ولم يقتصر على استعمال القدر الواجب استعماله منهما فقال : « إِنَّه لا يحبُّ المسْرِفينَ » أى يبغضهم ، وناهيك بغضب الله تعالى وعدم رضاه فانه داعية الهلاك ، وسبب كل المصائب ، وأى عاقل يجرؤ على أن يغضب الله تعالى فى مقابلة مرضاة نفسه باتباعها فى شهوة هى سبب هلاكه ، وداعية لأسقامه وآلامه ؟

الذريعة الثانية

تأديبه فى حديثه

إن أعصى الأعضاء على الانسان اللسان فانه لا تعب فى إطلاقه ، ولا مئونة فى تحريكه ، ولذا ترى أغلب الخلق قد تساهل فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذرِ من مصايده وحبائله ، فأوردهم المهالك ، وجرّ بهم إلى المصائب . وما كبَّ الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم . فاللسان خطره عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بِإلجامه بلجام الشرع ، ووقوفِ صاحبه عند الحدود والآداب التى أدبه بها الشرع ، وعلمه إياها فى محادثاته ومخاطباته ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، ويكفُّه عن كل ما يخْشَى غائلته فى عاجله وآجله ، وذلك بأن يعقله إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، ولا يتكلم به إلا بقدر الضرورة والحاجة ، وأن يقتصر فى التكلم به على ما يقيم حجته ،

ويُبلغ حاجته ، وألا يغالب أحدا على كلامه ، وإذا سئل غيره فلا يجيب عنه ، وإذا حدث بحديث فلا ينازعه ، ولا يقتحم عليه فيه ، ولا يريه أنه عالم به ، وأن يكلم كل إنسان بما يليق ، فلا يخاطب السوقة بكلام الملوك ، ولا الملوك بكلام السوقة ، وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، فان مالا داعى له هذيان ، وأن يجتنب فى محادثته ثلاثةَ أشياء ، هى أعظم الأشياء خطرا على الانسان وأبغضها لله ؛ وأقبحها عند الناس ، وهى : الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، وألا يتجاوز فى مدح ، ولا يسرف فى ذم ، لأن السلامة من الكذب فى المدح والذم متعذرة ، وألا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأن يضع الكلام فى موضعه ، لأن لكل مقام مقالا ، وأن يجتنب فى حديثه كل ما يكدر مخاطبه ، وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه ؛ فان ذلك كله مما ندب إليه الشرع ، وسلم به سليم الطبع .

فان لاحظ المتكلم فى حديثه هذه الاعتبارات السابقة ، وألزم نفسه رعايتها فى كل أحواله ، كان ممن كملت أخلاقه ، وعظم قدره ، واستوى عقله ، فان عقل المرء مخبوء تحت لسانه ، بمصداق قول علىّ كرم الله وجهه : (لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه)

تأمل قوله جل شأنه فى الملاطفة فى القول ، والمجاملةِ فى الحديث ، ومجانبةِ الخشونة فيه : « وقلْ لِعبادِى يقولوا التى هِىَ أحسن إن الشيطانَ ينزَغُ بَينَهم ، إن الشّيطانَ كانَ لِلانسانِ عَدوًّا مبيناً » فأرشدنا إلى حسن الأدب فى المحادثة والمخاطبة .

فقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتِهم ومحاوراتِهم ومحادثاتِهم : الكلمةَ الطيبة ، وهى الكلام الحسن الذى لاخشونة فيه ، فانهم إن لم يفعلوا نزغَ الشيطان بينهم ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء ، لأنه العدو المبين للانسان يتربص به الدوائر ، ويترقب له

الفرص فى حصول الشحناء بين بعض أفراده.

فالعاقل من لم يجعل للشيطان حظا من قلبه ، حتى يُمَلِّكه من غرضه ، وينيله أمنيته ، ويحقق له رغبته ، وإلا كان قد أسلم نفسه لعدوه يفعل فيها كيف يشاء ، وهو لعمرى فعلُ غيرِ حكيم .

وقال تعالى فى النهى عن التكلم فيما لا يعنى ، والسؤال عما لا يعود على السائل منه أدنى فائدة ، بل ربما ساءه وأضر به: « يَاأَيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تَسأَلُوا عَنْ أشياءَ إنْ تُبْدَ لكمْ تَسؤْكمْ وَإنْ تسألوا عَنهَا حِينَ يُنزَّلُ القُرآنُ تُبْدَ لكمْ عفَا الله عَنْهَا والله غفورٌ حَليمٌ » فأرشدت الآية الكريمة الى بيان تأديب الله تعالى عبادَه المؤمنين ، وتعليمِهم الأدب معه ومع رسوله صلى الله عليه وسلم وقت التشريع ، إذ نهاهم عن أن يسألوا عن وجوب ما لم يجب أو حرمة ما لم يحرم من التكاليف التى تشتهى نفوسهم الوقوف عليها ، ولم ترد على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو سألوا عنها لكان سؤالهم داعية إلى مشقتهم بتكليفهم ما لا يطيقون ، مما يضعفون عن القيام به فيحل بهم غضب الله ، وهذا ما يفيده قوله صلى الله عليه وسلم لعكاشة بن محصن ، أو سراقة بن مالك ، حين سأله عن وجوب الحج فى كل عام : (ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم . فاتركونى ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » .

فأدب المرء بالنسبة لله سبحانه وتعالى هو أن يسكت عما ترك الله ذكره ، لأنه جل شأنه هو العالم بالمصالح والمحيط علمه بكل شىء ، ولو علم أن فى ذكر هذه الأشياء خيراً كثيرا لذكرها

وقال جل ثناؤه فى الحث على التكلم مع الناس بالحسنى ، واللين والرفق ،

ومجانبة الفظاظة فى القول والغلظة فى الحديث ، آخذا العهود والمواثيق من بنى إسراءيل على ذلك : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » فأفادت الآية الكريمة بيان ماأمر الله به بنى إسراءيل ، وأوجب عليهم أن يؤدوه من الحقوق والآداب نحوه جل شأنه ، ونحو عباده ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك ؛ فأعظم هذه الحقوق وأولاها بالرعاية أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، لأنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الأوقات والحالات ، فهو المستحق أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته

ثم يليه حق الوالدين وهو برهما وحسن معاشرتهما والتواضع لهما والرحمة بهما ، والنزول عند أمرهما فيما لايخالف أمر الله تعالى ، ويوصل إليهما مايحتاجان إليه ولا يؤذيهما ، وإن كانا على غير دينه . ولعناية الله تعالى ببر الوالدين ، وأداء مايجب لهما من الحقوق قرن ذلك بأعظم الأشياء لديه وهو عبادته وحده لاشريك له ، وذلك فى غير موضع من القرآن فمنه قوله تعالى : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » وقوله « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً » إلى غير ذلك من الآيات .

ثم من بعده حق اليتامى وهم الذين مات آباؤهم وهم صغار ؛ وحقهم أن يتولى تربيتهم ، ويحسن تأديبهم ، ويكفل مصالحهم ، ويسعى فى صالحهم ، وبالجملة يجلب لهم كل خير ، ويدفع عنهم كل شر وضير .

ثم من بعده حق المساكين ، وهم الذين لا يجدون مايقوم بكفايتهم . وحقهم أن يقوم بمساعدتهم بماتتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم ، ويكفيهم مئونة ذل السؤال ، ولا يلجئهم إلى تكفف الناس ، ثم بعد أن أمرهم جل شأنه بالاحسان بالفعل على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك أمرهم بالاحسان بالقول مع سائر الناس ، ليجمع بين طرفى الاحسان الفعلى والقولى فقال : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » أى كلموهم كلاما طيبا عند محادثتكم

لهم ، ومخاطبتكم إياهم ولينوا لهم جانبا ، وليكن حديثكم معهم هينا لينا وسطا ليس بالغليظ المرتفع فيمج ، ولا بالمنخفض بحيث يكلف المستمع طلب إعادته ، ويدخل فى ذلك كل حسن من القول ، سواء أكان أمرا بمعروف أم نهيا عن منكر . وقال تعالى فى الحث على خفض الصوت عند المحادثة : (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) وقال تعالى : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فبين حرمة صحبة من لا خلاق لهم من الناس ، ومجانبة المجالسة والمحادثة معهم ، وعدم طاعتهم فى كل مايقولون بقوله : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فهذه سبعة أوصاف كلها مثالب ومعايب ، نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن طاعة المتصفين بها وهو تعليم لنا ، وإرشاد لما يجب أن نتخلق به من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة ، ونتركه من الأخلاق الفاسدة والصفات الكاسدة

ووجه النهى والله أعلم أن الحلاف وهو كثير الحلف سواء فى الحق أوفى الباطل - قلما يتحرى الصدق فى أيمانه ، فهو عرضة على الدوام للكذب والخطأ فيها ، فضلا عماله من الجراءة على الله تعالى وعلى أسمائه ، ومثل هذا تجب مجانبته وتحرم مخالطته ، ولذا جعله جل شأنه فاتحة المثالب ومقدمة المعايب . وإن طاعة المهين وهو حقير الرأى والتدبير - ربما أوردته المهالك وجرت عليه أخبث المسالك ، لأنه يريد أن ينفع فيضر ، فطاعة مثل هذا لا نتيجة لها سوى الضرر .

وإن الهماز وهو العياب الطعان لا تؤمن غوائله فهو اليوم له ، وفى غد عليه فضلا عن أنه بطاعته يعد شريكا له فى هذه المنقصة ، وتلك الرذيلة ، لأنه لا يعيب غيره ولا يطعن عليه إلا لزمانة فى مروءته ، وخسة فى أصله ، ولؤم فى طبعه .

وإن المشاء بالنميم هو النقال للحديث من قوم الى آخرين ليفسد بينهم لاهم له إلا الايقاع بين الناس والافساد بينهم ، وإلقاء بذور الشقاق والخصومات فما بينهم ، وايغار الصدور وتوليد الشرور ، ومثل هذا تجب مخالفته وتحرم

طاعته وتعاف مجالسته، لأن صحبته غَرَر، وطاعته ضرر، ومجالسته خطر، فكثيرا ما هلك وأهلك، وأراق الدماء وسفك، وما حمد أيما سلك.

وإن المناع للخير وهو البخيل الممسك يمنع أحوج مايكون اليه صاحبه، ومثل هذا لاخير فى صحبته وطاعته. وإن المعتدى وهو الظالم لا يؤمن شره، ولا يؤمَّل خيره، فهو أولى بالاجتناب، وأحرى بنبذ طاعته سدا للباب.

وإن الأثيم وهو كثير الاثم والمعصية لم يبال المجاهرة بمعصيته خالقه ولم يَخش من جلاله وعظمته فلا يبالى أن يجاهر صاحبه بأذيته، وينابذه بعداوته، ومثل هذا تنبذ طاعته وتجتنب مخاطبته.

وقال فى النهى عن الكذب فى القول وقت المحادثة: (إنَّ الذينَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفلِحُونَ) فبين قبحَ الكذب وذمَّ فاعله، وذلك بما أخبر الله تعالى به عن الكذابين من عدم الفلاح والنجاح، وكفى بأى صفة ذما أن تكون نتيجتها عدم الفلاح والنجاح.

الذريعة الثالثة

تأديبه فى مجالسته

من خلق الاسلام أن يوسع المرء لجليسه إذا أقبل عليه، ولا يضيق عليه، وأن يلتزم معه الأدب والسكينة والوقار، إذا كان أكبر منه سنا أو علما، وبخاصة إذا كان أباه أو أستاذه، وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه ولا يضع رجلا فوق أخرى بحضرة من هو أكبر منه، إن كان ذلك يغضبه، ولا يبصق ولا يمتخط إلا فى منديل، مواريا وجهه عن جليسه، وإذا تثاءب فلا يصحب التثاؤب بصوت بل يضع يده على فمه، فان مخالفة ذلك مما يستقذره الناس قال الله تعالى مشيرا إلى بعض هذه الآداب: (يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنوا إِذَا قِيلَ لكم تَفَسَّحُوا فِى المَجَالِسِ فافسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لكمْ وإذَا قِيلَ انشُزُوا فانشُزُوا يَرفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنوا مِنكمْ والذِينَ أُوتوا العِلمَ دَرَجاتٍ

والله بما تعملون خبير) فبين ما أدب الله به عباده المؤمنين ، وأمرهم به من حسن المعاملة والمجاملة ورعاية الأدب فى حق بعضهم بعضا : فمن ذلك إذا كان جماعة فى مجلس وقدم عليهم آخر أو جماعة أخرى - فعلى الجالسين أن يوسعوا للقادمين مسرعين فى ذلك سواء أكان المجلس مجلس ذكر أم تعليم أم صلاة جماعة أم جمعة أم غير ذلك من مجالس الخير ، لأن ذلك يكون سببا للتوادّ والتوافق والتحاب ونبذ التباغض والتحاسد، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله: (يَأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسَّحوا فى المجالسِ فافسَحُوا يفسَحِ اللهُ لكم)

وأما القيام منه للقادم فقد جوزه بعض العلماء إذا كان لعظيم لقوله عليه الصلاة والسلام : (قوموا لسيدكم) ، وذلك ليكون أنفذ لحكمه ، وأدعى لتوقيره وتمثل عظمته فى قلوبهم . وفى غير ذلك لايجوز فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لايقومون للنبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم عليهم ، ولم يكن أحد أحب اليهم ، ولا أمكن هيبة فى قلوبهم منه وذلك لما كانوا يعلمون من كراهته لذلك أما القادم نفسه فليس له أن يقيم أحدا من مجلسه ليجلس مكانه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا)

ولما كان الغرض من التوسعة فى المجلس للقادم غرس المودة والمحبة فى قلوب المؤمنين، ولا يكون ذلك إلا حيث كانت التوسعة مصحوبة بشىء من الحفاوة بالقادم والاحتفال بأمره والاعتناء بشأنه . ومن ذلك أن ينهض مسرعا فى التوسعة، فلما كان الغرض من التوسعة ذلك حث جل شأنه على النهوض بسرعة للتوسعة فى المجلس للقادم فقال : (وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) أى وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة فى المجالس للقادمين عليكم فانهضوا وأسرعوا ولا تتثبطوا فانكم إن فعلتم .ذلك يرفع الله الذين آمنوا منكم فى الدنيا والآخرة درجات عظيمة جزاء امتثالهم لأمر الله تعالى فى قيامهم من

بمجالسهم ، وتوسعتهم لاخوانهم ، ويرفع الله الذين أوتوا العلم منهم خاصة درجات أعظم وأرفع، لأنهم إنما يفعلون مايؤمرون به عن بينة وقوة يقين وإنما خص جل شأنه أولى العلم مع دخولهم فى عموم الذين آمنوا ، لأنه لما علم جل شأنه أن أهل العلم بمكانة بها يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاعَ مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك مالهم من الرفعة فى المجالس ، تواضعا لله عز وجل. وفى الآية مما يدل على فضل العلم والعلماء على غيرهم مالا يخفى.

وإن لم تفعلوه بأن كرهتم أن تتأدبوا باداب الله ، واستعظمتم أن توسعوا مجالسكم للقادمين عليكم حسبما أمركم ربكم فان الله بما تعملون خبير ، لاتخفى عليه خافية من أعمالكم من خير أوشر، فيجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا .

ومما جاء فى آداب المجالسة قوله عليه الصلاة والسلام: « اذا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دونَ الآخَرِ ، حتى تَخْتَلِطُوا بالنّاسِ أجْلَ إنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ » والحديث صريح فى أن التسار بين الاثنين دون الآخر منهى عنه ، لأنه يدخل على قلبه الوحشة والريبة فيحزن ويتألم ، ومن هذا القبيل أن يتحدث الاثنان جهرة بلغة يجهلها الثالث ، مع اشتراكهم جميعا فى معرفة لغة أخرى .

الذريعة الرابعة

تأديب جوارحه ومشاعره

قصد الاسلام أن يجعل من الانسان فى ذاته مثلا صالحا، فلا يصدر منه مايوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بالمروءة أو يقلل من قيمته أو يحط من قدره . فلا تلقاه إلا محمود الخصال ، ولا تراه إلا شريف الشمائل جميل الخلال : إن نطق صدق ، وإن وعد وفى وحقق ، وإن ائتمن لم يخن، وإن تمكن من فعل محرم عف وكف ، وإن رأى منكرا غيره ، وإن تكلم غض من صوته ، وإن مشى لم يختل فى مشيته ، وإن رأى كبيرا وقره ، وإن

مر بلغو من القول أو الفعل تجنبه وإن لم يقدر على دفعه . وهكذا من كل خصلة حميدة وصفة جميلة.

من أجل ذلك سلك به فى التأديب الطرق الآتية :

الأولى : غض البصر وحفظ الفرج وعدم التبرج وعدم فعل أى شىء من دواعى الميول الحيوانية أو إثارة الفتنة سواء أكان ذلك للرجال أم للنساء : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

فبين أكمل الآداب التى يجب على الرجال والنساء أن يتخلقوا بها ، ويتحلوا بحلاها ، وهى بالنسبة إلى الرجال أن يغضوا أبصارهم عن النظر إلى مالا يحل النظر اليه : من أجنبية غير محرم لهم ، وأن يحفظوا فروجهم من التعدى على عرض الغير ، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) لأن العين مبدأ الزنا ، والنظر يزرع فى القلب الشهوة التى هى مجلبة لسائر الدنايا ، ومهلكة لصاحبها ، بما تجر إليه من أعظم المصائب ، وأكبر المعايب . ولذا كان حفظ العين من الأمور المهمة الدالة على جلالة قدر صاحبها ونزاهة نفسه ، وبعد همته ، وصلاح شيمته ، وقد حذر صلى الله عليه وسلم الأخذ فى أسبابه ، ونهى عن دواعيه سدا لبابه ، فقال : « إياكم

والجلوس على الطرقات ، قالوا : يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا نقعد فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان أبيتم الا المجالس فأعطوا الطريق حقها ، قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر) هذا ومن اتفق وقوع بصره على ما يحرم نظره اليه من غير قصد فعليه أن يصرف بصره عنه سريعاً ، بتحويل وجهه الى جهة أخرى ، أو إطباق عينيه ، أو إطراقه الى الأرض أو يسترهما بأى ساتر مما يحول دون نظره ، فان ذلك أدعى لعصمته وأحفظ لميوله .

وأما هذه الآداب بالنسبة للنساء فهى أن يغضضن أبصارهن ويمنعنها النظر إلى غير أزواجهن ، ولا يظهرن شيئا من زينتهن للأجانب إلا ماظهر منها ، ولا يمكن إخفاؤه : كالرداء والثياب الظاهرة . وأن يلقين على صدورهن ونحورهن مقانع ليسترنها عن أعين الناظرين ، فلا يرون منها شيئا ، ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن ، أو آبائهن ، أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن المختصات لخدمة أو صحبة بشرط أن يكن مسلمات ، لأن غيرهن لا يتحرجن من وصفهن للرجال وذلك يجر للمفسدة ، أو ماملكت أيمانهن من الاماء . أما الذكور فلا يجوز إبداء الزينة لهم ، لأنهم فحول ليسوا أزواجا ، والميول متحققة فيهم والأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولا حاجة لهم إلى النساء ، أو الأطفال الذين لا يميزون - فهؤلاء لا بأس من ظهور الزينة أمامهم .

أما وجه جواز إظهار زينتهن لآبائهن ، وآباء أزواجهن ، وأبناء أزواجهن وإخوانهن وبنى إخوانهن ، وبنى أخواتهن ، فلأنهم محارم لهن يجوز للمرأة أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج ، بل بالحشمة والوقار ، لقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى السفر للنزول والركوب وغير ذلك .

وأما وجه الجواز بالنسبة لنسائهن المختصات بهن المسلمات ، وماملكت

أيمانهن من الاماء والأجَراء والأتباع الذين لاحاجة لهم إلى النساء والأطفال الذين لايميزون ، فلعدم الضرر من جهتهم إذا أبدين زينتهن لهم .

وقد شدد الشارع الحكيم فى عدم إبداء الزينة للنساء لما يعلم مايترتب على ذلك من المفسدة والمضرة حتى نهى المرأة أن تضرب برجلها الأرض ليعلم ماخفى من زينتها فقال: (وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) ومثل ذلك مالوكان شىء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ماخفى أو تتعطر وتتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها، فانه يدخل تحت هذا النهى أيضا ، وكذامايلبسه أكثر مترفات النساء فى زماننا فوق ثيابهن ويتغطين به إذا خرجن من بيوتهن ، ففيه من أنواع الزينة مايبهر العيون ، ويأخذ بألباب ضعاف العقول ، وقد عمت بذلك البلوى . ومثله مما عمت به البلوى أيضا عدم احتجاب أكثر النساء من أصدقاء أزواجهن وعدم مبالاة أزواجهن بذلك وكثيراً مايأمرونهن به ، فان ذلك ممالم يأذن به الله ورسوله وهو دليل على قلة الغيرة وضعف المروءة .

الثانية : عرض عليه طائفة من أحسن الآداب وأجمل الأخلاق الذاتية حاكيا عن لقمان عليه السلام يوصى ابنه: (يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) فبين أهم مكارم الأخلاق ، وأعظم صفات الكمال على الأطلاق ولا غرو فقد وصى بها أب حكيم قد ذكره الله بأحسن الذكر ، وآتاه الحكمة والاصابةَ فى الرأى والفكر ، لابن هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ، فهو جدير بأن يمنحه أفضل مايعرف ، وذلك من إقام الصلاة والاتيان بها مستوفية الشروط والأركان ، فى أوقاتها المعينة لها ، من غير إبداء ملل ولا ضجر ، ولاتقاعد ولاتكاسل ، مع تمثيل عظمة الله تعالى فى قلبه ، ومراقبته جل

شأنه فى كل قول وفعل منها حتى يلازم الأدب قلبه ، وتتبعه فى ذلك سائر جوارحه ، فانه إن أتى بها كذلك نهته عن فعل الفحشاء والمنكر وذلك غاية الأدب ، ونهاية مكارم الأخلاق . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من لقمان عليه السلام لابنه - من باب تذليل النفس وتهذيبها ، وإقبالها على الطاعات ونبذها للمنكرات بلطف . وهذا شأن المعلم الحكيم : فان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تستنكف نفسه وتكره أن يراه الناس حيث نهاهم ، فلا يصدر منه مايوجب الذم واللوم ، ولا مايكون سببا فى عدم سماع كلامه وبلوغ مرامه ، فيفعل المليح ويجتنب القبيح إلى مايترتب على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من إرشاد الخلق إلى مافيه صلاح حالهم ، واستقامة أحوالهم ، وانتظام شئونهم ، وتقويم مااعوج من أخلاقهم .

ولما علم لقمان عليه السلام بما أتاح الله له من الحكمة أن الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر لابد أن يقابل من المأمورين والمنهيين من الناس بأذى كثير ، لأنه إنما يأمرهم بمفارقة ماعليه أهواؤهم ، وألفته نفوسهم وتعلقت به رغائبهم ، ومفارقة ذلك أصعب شىء على النفس ؛ لما علم لقمان ذلك أمر ابنه بالصبر على أذاهم وتحمل الآلام والمشقات التى تحصل له فى أثناء ذلك ، وبين له أن الصبر عليه من عزم الأمور فقال له : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

ولما كان الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر يجب أن يكون متصفا بأحسن صفات الكمال من الأدب والتواضع والحلم وعدم الكبر على الخلق ، وعدم استحقارهم والاستخفاف بهم ، حتى يكون ذلك سببا فى قبول أمره ومجانبة نهيه أمر لقمان عليه السلام ابنه بما يجمع هذه الخصال فقال : « ولا تُصعِّر خدّك للناس » أى لاتعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقارا لهم ، واستكبارا عليهم ، بل ألِن جانبك لهم ، وتواضع لصغيرهم وكبيرهم ، واجلب محبتهم إليك بحسن صنيعك معهم ، ولطف معاملتك لهم ، فانهم بذلك ينتظرون

لك أمرا فيتبعونه أونهيا فيجتنبونه وبعد أن بين له عليه السلام كيف يصانع الناس ويعاملهم ويعاشرهم أخذ يبين مايجب أن يكون هو عليه فى نفسه من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة فقال : « ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » أى إذا مشيت فى الأرض فلا يكن مشيك خيلاء فان الله يبغض من هذه حالته ، وإذا مشيت فليكن مشيك لا بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، فان كلا الأمرين مذموم ؛ لأن الأول مع مافيه من التكبر وفتور الهمة ، وضعف العزيمة ، فيه ضياع لفرص كثيرة . والثانى مع ما فيه من أمارات الطيش والخفة وعدم الثبات ، فيه تحميل الأعضاء فوق طاقتها وإضعافها بعمل جهود لا تتحملها قواها العضلية ، فيهدم بذلك أساس قوته ، ويجر الفساد على بنيته ، واذا تكلمت فاخفض صوتك ، ولا ترفعه زيادة عن الحاجة ، فان الجهر بأكثر من الحاجة مما يضر بالسامع ويؤذيه ، ولأن صوته بذلك يكون منكرا يشبه صوت الحمير الذى هو أفظع الأصوات وأقبحها وأنكرها كما قال جل شأنه : «ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

الثالثة : قبح له السخرية بالناس ولمزهم والتنابز بالألقاب وسوء الظن :

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنوا لا يَسخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أنْ يكونوا خيراً منهم ولاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاء عَسى أنْ يَكنَّ خيراً مِنهنَّ ولاَ تلمِزُوا أنفسكمْ ولاَ تنَابزَوا بالألقَابِ بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الايمَانِ ومَنْ لمْ يَتبْ فأولئكَ همُ الظالمونَ يأيهَا الذينَ آمَنوا اجتَنبوا كثيراً مِنَ الظنِّ إنّ بَعضَ الظنِّ إثمٌ ولا تَجَسَّسوا ولا يَغْتَبْ بَعضكم بَعضاً أيحبّ أحدكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه مِيْتاً فكرِهتموه واتقوا الله إنّ اللهَ توّابٌ رَحيم) ففى هذه الآية الكريمة أرشد الله جلت حكمته الى الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة : وهى ألا يسخر أحد

من أحد و يستخف به و يستحقره ، و ألا يعيب أحد على أحد بشيء يكرهه ، و ألا يسيء ظنه بأحد من إخوانه ، و ألا يبحث و يفتش عن عورات الناس ومعايبهم ، و يستكشف عما ستروه ، و ألا يذكر أحد أخاه بما يكرهه فى غيبته فان ذلك كله مما نهى الله عنه ، و رغّب فى التباعد منه . فنهى عن السخرية بالناس و الاستخفاف بهم بقوله : (يَاأيهَا الذينَ آمَنوا لا يَسْخرْ قَوْمٌ من قَوْم عَسى أنْ يكونوا خيرا منهُمْ ولا نِسَاء من نِسَاء عَسى أنْ يكنّ خيرا منهُنّ) أى لا يصح أن يستهزىء أحد من أحد ولا يستخف به و يحقره سواء أكان من الرجال أم النساء ، لأنه ربما كان المسخور به عند الله خيرا من الساخر ، فلا ينبغى أن يجترىء أحد على السخرية بغيره ، و الاستخفاف به بمجرد أنه رآه رث الهيئة ، أو فقيرا أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لبيق فى محادثته ، أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميرا و أنقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

و السخرية إنما تحرم إذا كانت فى حق من يتأذى بها أما من جعل نفسه مسخرة و ربما فرح بالسخرية به كما يفعله السفلة من الناس ، فان السخرية فى حقه من جملة المزح و ليس بمحرم فى حقه و إنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير و التهاون : و ذلك تارة يكون بالضحك من كلامه ، إذا تخبط به و لم ينتظم ، أو من أفعاله إذا كانت غير منتظمة ، كالضحك من صنعته أو صورته و خلقته ، إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها ، و قد تكون السخرية بالمحاكاة فى الفعل و القول و قد تكون بالاشارة و الايماء .

و نهى عن أن يعيب أحد غيره بقوله (و لا تَلمِزُوا أنفُسَكمْ) أى لا يعب بعضكم بعضا بقول أو فعل أو إشارة ، لأن الناس كنفس واحدة فمتى عاب الانسان أخاه فكأنما عاب نفسه ، و هذا أدب كبير أدب الله به عباده ليكون سببا فى ألفتهم و اتحادهم ، و ارتباط قلوبهم بعظيم المودة و وثيق المحبة

و نهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه ، لأن ذلك يزرع فى القلوب

الضغينة ، ويمكن فيها الحفيظة ، وهو مما جاء الشرع الشريف بزواله، ولذا سمى جل شأنه التنابز بالألقاب الذى هو داعية الحقد والبغض فسقا فى قوله : (بِئْسَ الاسمُ الفُسوقُ بَعْدَ الايمانِ ومنْ لم يَتُبْ فأولئِكَ همُ الظَّالِمونَ)

ونهى عن كثير من سوء الظن بأحد من الناس بقوله: (يَاأيهَا الذينَ آمنوا اجتَنِبُوا كَثيراً منَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ) أى يا أيها الذين آمنوا تباعدوا عن كثير من الظن وهو مجرد التهمة التى لاسبب لها ، ولا دليل عليها كأن تتهم غيرك بشىء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا . فليجتنب الكثير منه احتياطا . ويشترط فى حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهد منهم التستر، والصلاح ، والأمانة. أما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث والمنكرات: كالدخول والخروج فى حانات الخمور ، وصحبة الغوانى الفاجرات، فلا يحرم سوء الظن به فى نحو ما يظهر منه فقط .

الرابعة: أنكر عليه البحث عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله (ولا تَجَسَّسُوا) أى لا تبحثوا عن عورات الناس ولا تستكشفوا عما ستروه ، فان فى ذلك فضيحة لهم وتعرضا لما لا يعنى ولا يفيد ، وهب أن ذلك الباحث اطلع على جميع عورات أخيه ومعايبه ، فأى فائدة تعود عليه من ذلك سوى أنه كالذباب لا يتتبع الا القاذورات والمواضع الفاسدة من الجسد وغيره ؟

ونهى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته بقوله : (ولا يَغْتَبْ بَعْضُكمْ بَعْضًا أيُحِبُّ أحَدُكم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيتًا فكرِهتُموه) أى لا يذكر بعضكم بعضا بما يكره فى غيبته سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل . ومنه الاشارة والكتابة وغيرهما مما يفهم نقصانه ، فان علة النهى عن الغيبة الايذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب وهو موجود حيث أفهم الغير ما يكرهه المغتاب بأى وجه كان من طرق الافهام ، وسواء أكان ذكر ذلك الشىء الذى يكرهه بنقص فى بدنه أو نسبه ، أو خلقه أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه ، وداره ، وماله ، وولده ، وزوجته ، وخادمه، وغير ذلك

من كل ما يتعلق به. فذلك كله مما كرهه الله تعالى وحرمه ونهى عنه، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتا، ذلك الأمر المستبشع طبعا وعقلا وشرعا.

ومحل حرمة الغيبة إذا لم يكن المغتاب مجاهرا بالمعاصي متهتكا لا يبالى بما يفعل، فان الغيبة فى مثله جائزة، وذلك لأن الذى يعلن بالفجور والفسوق ولا يستحيى من عصيان الخالق، ولا يستتر عن المخلوق فيما يأتى من الكبائر ويظهر من المناكر - قد كشف ستاره، وأبدى عواره، فخرج من حد الظن إلى حد اليقين، فمثل هذا ليس مقصودا من النهى فى الحديث «مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحَيَاءِ فَلَا غِيبَةَ لَهُ».

الخامسة: بين له أن أحق المنكرات بالترك الجهر بالقول السيء فقال جلت حكمته: (لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا) فنهى عن البذاءة باللسان والجهر بالسوء من القول، سواء أكان ذلك القول السيء شتما أم سبا، أم لعنا أم مراء، أم خصومة، أم ذما فى حق الغير أم غير ذلك مما يدل على حقارة قدر صاحبه، ودناءة نفسه وقلة حيائه، وسوء تربيته. وعدم قدرته على أن يكبح زمام نفسه عما تسول له من القبائح والمنكرات. وتهيجه له القوة الغضبية التى منشؤها الزهو والعجب والكبر والمزاح والهزل والمماراة والمضادة والغدر، وغيرها من الأخلاق الرديئة المذمومة شرعا وعقلا.

ولما كان الجهر بالسيء من القول بهذه المكانة من القبح عبر الله جل شأنه عن النهى عنه بما يفيد شدة قبحه وزيادة نكره وبشاعة أمره فقال: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول» ولم يقل لا تجهروا بالسوء من القول أى واذ كان غير محبوب لله جل وعز. وغير مرضى له - فهو أولى الأشياء المنكرة بالاجتناب، وأحقها بالترك والابتعاد. ثم استثنى جل شأنه من عدم محبته للجهر بالسوء من القول، وبغضه وكراهته له جهر من ظلم بأن يدعو على

ظالمه ، أو يتظلم منه ، أو يذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مبغض عند الله تعالى ، وذلك لأنه إنما يستغيث ليغاث ويستجير لينجد ، ويذكره بسوء لعله يرد عليه ظلامته ، ولأن المظلوم مصدور ، وهو لا بد أن يُنَفِّسَ ، وهذا ما لا بد منه من طريق الفطرة ، فرخص له الشارع ذلك ، وفى ذلك دلالة على قبح الظلم والظالم ، وعدم نظر الله له ، وعدم اعتبار حرمته ، واحتقاره له جل شأنه حتى لم ينه عن مذمته بظلمه ، وعن الجهر بالسوء من القول فى حقه .

السادسة ـ حظر عليه تتبع ما ليس له به علم : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) فلا يقول رأيت ، والحال أنه لم ير ، ولا سمعت وهو لم يسمع ، ولا علمت دون أن يعلم وهكذا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى سائله عن ذلك كله من أين جاءه العلم بما رآه وسمعه وعلمه ، فانه جل شأنه خلق الأعضاء للانسان وجعل لكل عضو منها وظيفة قائما بها ، وعملا خاصا به ، يسأل عنه دون غيره : فيسأل السمع عما سمعه ، والبصر عما رآه ، والقلب عما علمه ، فان كان الجواب طبق ما ناط الله هذه الأعضاء به ، وخلقها لأجله وكلفها إياه من الأعمال أثاب صاحبه ، إذ استعملها فيما خلقت له . وإن كان الجواب غير مطابق ـ عاقب صاحبها ، جزاء تقصيره ، وعدم استعماله هذه الأعضاء فيما خلقت لأجله ، ومعنى سؤال هذه الأعضاء ومجاوبتها أن الله سبحانه ينطقها عند سؤالها فتخبر عما فعلت وفعله صاحبها ، وهذا الذى أشار الله تعالى له بقوله : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

السابعة ـ نهاه عن التجبر والتبختر والتمايل فى المشية ، فان ذلك يبغضه الله ورسوله ، لأنه نتيجة إعجاب المرء بنفسه وهو أخبث سرائر القلوب ، وأعظم كبائر الذنوب ، ودليل على جهل المرء بمقدار نفسه ، وعماه عن عيبها إذ رأى قبيحه حسنا ، وخطأه صوابا ، فأوجب لنفسه حقا لم تستوجبه ، ورأى لها فضلا

لم تستأهله ، ولو أنه تبصر فى عيوب نفسه قليلا ، وتأمل ماهو عليه من المثالب والمعايب - لاستنكف بما عليه نفسه : من الزهو والعجب الذى حملها على هذه المشيه التى يبغضها الله ورسوله ، كما قال مطرف بن عبد الله للمهلب بن أبى صفرة عند ما نظر إليه ، وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء : ياأبا عبدالله ، ماهذه المشية التى يبغضها الله ورسوله !! فقال له المهلب أما تعرفنى ؟ قال : (أعرفك ! أولك نطفة مذرة (١) وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة) فعلام الانسان يتكبر وقد عرف مبدأه ومنتهاه ؟

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه صعد المنبر وحمد الله وأثنى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أيها الناس ، قد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم يقبضن لى القبضة من التمر والزبيب » فقال له عبدالرحمن بن عوف : « والله ياأمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك » فقال له : « ويحك يابن عوف خلوت بنفسى فحدثتنى فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها قدرها »

فمثل هؤلاء هم الذين جل خطرهم ، وعظم قدرهم فى الدنيا ومع ذلك لم يجعلوا لأنفسهم حظا فى الاستعظام والاعجاب ، فلذا يقول الله تعالى توبيخاً للمعجب بنفسه المتبختر فى مشيته : (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) أى لن تثقب الأرض حتى تبلغ آخرها بمشيتك متكبرا ، ولن تبلغ الجبال طولا بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، وفى ذلك من التهكم والتحقير للمختال ما لا يخفى ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما أخبر جل شأنه عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، ثم بين جل شأنه أن هذا الذى ذكر من الاعجاب والتبختر فى المشى ، وتتبع الانسان ماليس له به علم وغيره مما تقدم ذكره ونهى الله عنه - هو قبيح مكروه عند الله تعالى يجب اجتنابه والتباعد عنه بقوله : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً)

---

(١) فاسدة

الذريعة الخامسة

تنشئته على بر الوالدين والعطف على القريب

إن أبا الانسان وأمه لهما عليه حقوق لابد من أدائها ، وواجبات لابد من قضائها : فمن تلك الحقوق وتلك الواجبات مقابلتهما بكل مايمكنه من البر والاحسان ، وأن يمتثل أوامرهما عامة ، وبخاصة ماتعود عليه بالمنفعة : كأوامرهما المتعلقة بحسن السلوك ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاشرة مع الخلق ، والنظافة ، والعفة ، والأمانة ، وغير ذلك من الكمالات وحميد الأخلاق ، وجميل الصفات . وأن يجتنب نواهيهما وكل مايؤذيهما ، أو يكدر خاطرهما أو يجلب غضبهما من قول أوفعل ، فان أجهد نفسه فى فعل كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الأكبر من المروءة ، وإن لم يفعل ذلك واستجلب غضبهما فقد قابل الحسنة بالسيئة ، والاحسان بالكفران ، والخير بالشر ، والطاعة بالمعصية ؛ فان أباه هو الذى رباه صغيرا ، وأجهد نفسه فى تحصيل ماينفقه عليه فى ملبسه ومأكله ومشربه وجميع مطالبه ، والقيام بأوده ، إلى أن عرف حقوق نفسه ، وأمكنه أن يكتسب ، ولولاه لمات جوعا ؛ لانه لا يقدر على شىء من ذلك فى حال صغره ، وأما أمه فقد عانت فيه المشقات العظيمة والآلام الكثيرة فى مدة حمله وولادته ورضاعه وتنقيته من الأدران ، وسهرت لأجله الليالى الطوال ، وتكدرت لكدره ، وفرحت لفرحه ، إلى غير ذلك من ضروب العنت التى لاتحصى ، والمشقات التى لاتستقصى .

ومنها أن ينفق عليهما إذا كبرا ، لأنهما كفلاه صغيرا إلى أن استطاع أن يكتسب ، فهذا الكسب ثمرة غرسهما ، وليس من الأدب والمروءة أن يغرس الانسان غرسا ثم يحرم جنى غرسه .

ومنها أن يجالسهما بالأدب والوقار فلا يضحك ولا يلعب ، كما يضحك ويلعب السفهاء ، وليكن ضحكه ولعبه على وضع لايخل بالأدب ، ولا يرفع

صوته فوق صوتهما ، ولا بحضرتهما ، ولا يمشى أمامهما إلا لحاجة ، ولا يسبقهما بالكلام فى المجلس ، وإذا أقبلا عليه أو أحدهما وهو فى مجلس قام ليوسع لهما حتى يجلسا إن كان فى المكان ضيق . وجملة القول يفعل جميع الوسائل التى تكون سببا فى مرضاتهما وزوال ما يكدرهما ، وإلى هذه الآيات السامية أشار الله جلت حكمته فى كتابه العزيز إذ يقول : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) فأرشد إلى أهم الأمور ، وأولاها بالعناية ، وأجدرها بالرعاية ، وأقربها لرضا الله تعالى ، وأبعدها من سخطه ومقته : ألا وهو بر الوالدين الذى جمع من الخير أكمله ، ومن الاحسان أجمله ، ومن المروءة أرفعها ، ومن الخيرات أنفعها . وكفى به فضلا وشرفا أن قرنه الله بتوحيده وعبادته ، وبالغ بالتوصية به مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق ، وتحمل ذوى العقول على تأدية الواجب لهما من الحقوق ، فأمر جل شأنه بالاحسان إليهما وقرنه بتوحيده وعبادته فى قوله : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) أى أمر أمرا جازما ، وحكم حكما قاطعا بتوحيده وعبادته ، وبر الوالدين والاحسان بهما . وفى هذا الاقتران من الدلالة على تأكد حقهما ، والعناية بشأنهما مالا يخفى . ثم شدد فى الأمر بمراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها ، فاذا حصل منهما أى شىء يكرهه فلا يصح له أن يتكلم معهما بأى كلام يكون من ورائه تضررهما وتكدر خاطرهما ، بل الواجب عليه فى هذه الحالة أن يقول لهما قولا لينا جميلا سهلا أحسن ما يمكن التعبير به : من لطف القول وكرامته ، مع حسن التأدب والحياء والاحتشام ، وبخاصة إذا كانا كبيرين ، فانهما فى هذه الحالة أحق بالمجاملة وحسن التلطف ،

لأنهما يظنان أنهما كَلٌّ عليه ، فكل كلمة تصدر منه ولو صغيرة يجدان منها ألما ولذا خص الله سبحانه وتعالى حالة الكبر بالذكر فى قوله (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً) أى إن كبرا وهما فى كنفك وكفالتك فلا يصح أن تقول لهما أىَّ قول يكدر خاطرهما ويجلب غضبهما ، حتى التأففِ الذى هو أدنى مراتب القول السيىء ، بل الواجب أن تعاملهما بالحسنى وتقول لهما القول اللين الطيب الحسن ، مع الأدب والتوقير والتعظيم والاحترام والاحتشام ، وأن تخفض لهما جناح الذل ، وتتواضع ، وتتذلل لهما بجميع أنواع التذلل والمسكنة ؛ لأنهما صارا أفقرَ الناسِ اليك بعد أن كنت أفقرَ الناس إليهما ، واحتياجُ المرء إلى من كان محتاجا إليه غايةُ الضراعة والذل والمسكنة ، فكانا لذلك أولى بشدة الرحمة والشفقه وزيادة التعطف عليهما . ثم ختم جل شأنه التوصية بهما ، والحثَّ على برهما ، والاحسان بهما بطلب الدعاء لهما من الله أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة ، فقال : (وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) كأنه تعالى يقول لا تكتف برحمتك التى لا تدوم ، ولكن اطلب من الله الرحمة الدائمة ، وقل رب ارحمهما رحمة مثل رحمتهما وتربيتهما إياى وأنا صغير .

ثم إن بر الوالدين لا ينتهى بموتهما ، بل يجب بعد الموت كما يجب فى الحياة ويكون بالصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلةِ الرحم التى لا توصل إلا بهما : فمن ذلك أن رجلا جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يارسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ عهدهما ، وإكرامُ صديقهما وصلةُ الرحم التى لا توصل إلا بهما . ولئن تأكد بر الوالدين فهو فى حق الأم أوكد لأنها تعبت فى حمله وولادته وحضانته وغيرها أكثرَ من أبيه ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بر

الوالدة على الولد ضعفان» ويقول: «دعوة الوالدة أسرع إجابة. قيل يارسول الله، ولِمَ ذاك؟ قال: هى أرحم من الأب، ودعوة الرحم لاتسقط» وقال تبارك اسمه فى الحث على بر الوالدين وما أعده مثوبة لذلك، من قبول العمل الصالح، والتجاوز عن السيئات وإدخال الجنة (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) فأرشد إلى بيان مايجب على الانسان من بر الوالدين والاحسان اليهما والحنو عليهما وخصوصاً أمه، لأنها تعبت فيه، وكابدت من المشقات والمتاعب فى حمله ووضعه ورضاعه مالم يشاركها الأب فى شيء منه، ولذلك كان حقها أوكد من حقه، وبرها أوجب من بره وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) فانه جل شأنه بعد أن وصى بالوالدين وأمر بالاحسان إليهما والحنو عليهما، ذكر ما نالته الأم من التعب والمشقات، وقاسته من الأوصاب والآلام فى حال حمله من الثقل والكرب، ثم أردف ذلك ببيان ماتقاسيه الأم من الآلام من حين الوضع إلى الفطام من تعهده بالنظافة وإزالة ماعليه من الأدران، وكدرها لكدره، وفرحها لفرحه، وسهرها عليه الليالى الطوال، وغير ذلك مما يفيد أن حق الأم آكد من حق الأب واضعاً ذلك فى قالب بيان مدة الحمل والرضاع فقال: (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) أى إن كانت هذه المدة الطويلة ظرفا لما تقاسيه الأم من الآلام، وتلاقيه من المشقات والمتاعب فى الولد ـ فحقها عليه فى بره لها

آكد من حق أبيه فى ذلك عليه ، وقال جل ثناؤه فى الحث على بر الوالدين والاحسان إليهما والحنو والشفقة عليهما ، قارنا ذلك بتوحيده وعبادته مما يدل على تأكد حقهما: (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً) فبين صنوف البر وأنواع الخير وحسن المعاملة مع الله والناس مما لو عملت وتخلقت به لكنت من أسعد السعداء، وأنبل النبلاء : فمن ذلك توحيد الله تعالى وحسن عبادته وبر الوالدين بالاحسان اليهما والحنو عليهما ، وصلةُ الرحم بمديد المساعدة لهم إن كانوا فقراء ، والتودد اليهم بالزيارة والهدايا ، والطيب من القول ان كانوا أغنياء ، والاحسان الى اليتامى والمساكين بالنظر فى مصالحهم والقيام بأودهم وكل مايحتاجون اليه . ومن ذلك حسن الجوار سواء أكان الجار ملاصقا أم غير ملاصق ، وبخاصة اذا انضم الى الجوار القرابة . وحسنه بالتصدق على الجار إن كان محتاجا ، والتودد اليه بالزيارة والمبادرة برد السلام والمساعدة له فى كل مايحتاج اليه ، فلا يمنع عنه ماعون البيت وأثاثه اذا احتاج الى شيء منه . وكذلك حسن الصحبة وهو المراد بقوله تعالى : (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ) وهو من كانت صحبته بسبب مرافقته بالجنب فى طلب علم ، أو تعلم صناعة ، أو مباشرة تجارة ، أو مرافقة فى سفر ، أو قعوده بجنبه فى مسجد أو مجلس ، أو غير ذلك . وحسن الصحبة معه أن يكون له فى النوائب ، ويؤثره بالرغائب ، وينشر حسنته ، ويطوى سيئته ، ويكتم سره ، ويستر عيبه ، واذا سأله أعطاه ، واذا سكت وكان محتاجا ابتداه ، وان نزلت به نازلة واساه . ومواساة ابن السبيل وهو المسافر تكون بسد عوزه ، وإعانته بما يوصله إلى محل أوبته ، والشفقة والرحمة بالأرقاء والعبيد والاحسان اليهم ؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير فى أيدى الناس ، ويكون ذلك بتربيته وتعليمه ، وعدم تكليفه

من العمل ما لا يطيق ، وأن يكسوه سيده ويطعمه مما يلبس ويأكل ، حتى اذا آنس فيه النباهةَ والمعرفةَ والقدرةَ على أن يملك زمام نفسه ، ويعرف أن يتصرف فى معيشته باستقلاله ـ أعتقه ، فان ذلك هو المقصود من الاسترقاق ، وليس المقصود منه الاستعباد المطلق ؛ لأن العبد أخو سيده ، ومتمتع بسائر الحقوق البشرية والمميزات الانسانية ، بل المقصد الأسمى منه أن العبد إذا وجد عند سيده كان ذلك داعية لتعلمه ، واكتسابه من أخلاق سيده وحسن آدابه ، وكمال معرفته ـ ما يؤهله لأن يعرف أحوال نفسه ، ويمكنه أن يقوم بجميع مصالحه ، حتى إذا وصل الى هذه الحالة أعتقه ، وقد جعل الشارع لذلك أسبابا كثيرة : منها الكفارات وغيرها . وما أحسن ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الارقاء والخدم فانه صلى الله عليه وسلم جعل يوصى أمته فى مرض موته ويقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » وجعل يرددها حتى انتقل للرفيق الأعلى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » وقال صلى الله عليه وسلم : « اذا صنع لأحدكم خادمه طعاما فليُقْعده معه ، فان كان مشفوها(١) فليضع فى يده منه أُكلة » .

صلة الرحم : رحم الانسان أقاربه وصلتهم أن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف ، ويقضى عنهم دينا ، ويفرج عنهم غما ، ويقوم بما يحتاجون اليه ، ويتودد اليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول ، والبشاشة عند اللقاء ، والمبادرة بالسلام ، ورد ضالتهم ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم اليه وهى من أفضل الخصال وأجمل الخلال ؛ فبها يكثر التواصل والتواد ، وتؤمن الغوائل ، ويزول التباغض والتحاسد وتستمال القلوب ، وتصفو الضمائر ، وتحسن السرائر . ولهذا حث الشرع عليها وبالغ فى التمسك بها ، حتى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سببا فى إدرار الرزق وسعته ، وفاتحة الخير وزيادته . فقال عليه الصلاة والسلام : « ان أعجل الطاعة ثوابا

(١) طعام مشفوه : كثرت عليه الايدى

صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجارا فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا وصلوا أرحامهم » وقال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يُمدله فى عمره ، ويوسع له فى رزقه - فليتق الله وليصل رحمه » وسأل معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عن المروءة فقال : « هى تقوى الله وصلة الرحم » وقال رجل لابنه فى بعض وصاياه : « يابنى ، لا تقطع القريب ؛ وإن أساء ، فان المرء لا يأكل لحمه وإن جاع » ولعل حكمة حث الشارع عليها ، والتشديد فى أمرها ، والترغيب فيها ، والتحذير من قطعها ومُجانبة ذلك جهد الاستطاعة - أن أقارب الرجل هم أكثر الناس بعد أبويه له تناصرا ، وأكثرهم رغبة فى الخير له ، وأشدهم شفقة عليه وأعظمهم محبة له ، بهم يعلو بين الأنام قدره ، ويعظم فخره ، ويرتفع ذكره ، وهم أكثر الناس به اختلاطا ، فاذا قطعهم تنغص عيشه ، وكثر شره ، وقل خيره ، ولأنهم أبعاض أبويه ، ومنهما نشئوا أو اختلطوا معهما فى نسب ، فكل هذه حقوق تحتم على الشخص أن يصلهم بقدر جهده واستطاعته . وقد حث جل شأنه على صلة الرحم ورغب فيها وحذر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها ، والنار لمن قطعها فقال : (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ المِيْثَاقَ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَاأَمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الارْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فبين ما أعده من الخير العميم والثواب الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، وتخلقوا بهذه الأخلاق الجيلة ، من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق ، وصلة الرحم التى أمر الله بها أن توصل مع مراقبة جانب الله تعالى ، والخشية من عقابه على قطعها ، والخوف من سوء الحساب فى السؤال عنها ، والصبر عند حلول النوائب ، وإقام الصلاة على وجهها المطلوب شرعا : من الخضوع والخشوع والانكسار ، والنفقة والتصدق على الفقراء والمساكين فى السر والجهر ، فان هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات قد أعد الله لهم من الجزاء الاوفى ، مابينه بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » وقال تبارك اسمه فى الحث على صلة الرحم ، وبيان أن ذوى القرابات فى إيصال بعضهم الخير إلى بعض أولى من غيرهم ممن ليس بينهم وبينهم قرابة: (وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ) فبين أن الأقرباء أولى من غيرهم بالصلة والمودة. فما أبعد نظر الشريعة الغراء وأعلمها بالمصلحة للعباد .وقال تبارك اسمه فى الحث على صلة الرحم وبرها ، والنهى عن حرمانها وقطعها: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » فبين أمرين :

الأول ـ ما أرشد اليه خلقه من الأمر بتقواه وهى عبادته وحده لاشريك له

الثانى ـ الحث على صلة الرحم وبِرّها وعدم قطعها وهو الذى أفاده بقوله : (واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام) أى واتقوا الله الذى يسأل بعضكم بعضا به وتقواه بطاعتكم إياه ، واتقوا قطع مودة الأرحام ؛ فان قطعها من أكبر الكبائر ، وصلتها باب لكل خير فتزيد فى العمر ،وتبارك فى الرزق ، ولذا وصل جل شأنه صلة الرحم بتقواه .

وماأحسن ماذكر الله من دواعى الحنو والعطف والشفقة والرحمة بالأقارب واستمالة القلوب اليهم ، حتى يصلوهم ولا يقطعوهم ، إذ ذكر جل شأنه أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، فان فى ذلك من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة حقوق الأخوة مالايخفى . وقوله : (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) أى مطلعا وعليما فيعلم من امتثل أمره بتقواه وصلة الرحم، ومن لم يمتثل فيجازى كلا بما يستحق والله أعلم

الذريعة السادسة

غرس الاجلال والاعظام للنبي صلى الله عليه وسلم في قلوب النشء

النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من يجب احترامهُ وتبجيله وتوقيره ؛ لانه صلى الله عليه وسلم السببُ فى هداية الخلق إلى فلاحهم فى دنياهم ، ورفعهم من حضيض الشقاوة إلى أوج السعادة ، وإخراجهم من ظلمة الجهل والجحود إلى نور العلم والايمان ، مع مقاساة المشقات والمتاعب فى ذلك ، وليس من العدل والمروءة أن يقابل صلى الله عليه وسلم بغير كمال التبجيل وتمام الاحترام والتعظيم والادب معه فى حياته ومماته . ولما كان علوُّ مقامه صلى الله عليه وسلم وجليلُ مقداره بالمكانة التى قلما يمكن أحدا أن يقوم بما يجب لها من الآداب دون إرشاد وتعليم - سن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين من الآداب مابه يعرفون كيف يسلكون مسلك تعظيمه فى ترك فعل مايكرهه بين يديه ، أو الاستعلاء عليه فى كلام أومشى ، أودخول بيته بغير إذنه ، أوفى لزوم طاعته ومتابعته ، والنزول عند حكمه ، والرضا بقضائه ، أوغير ذلك . ولتبجيله وتوقيره مظهران :

الاول - أفاده الله تعالى بقوله: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) فبين صنوف الآداب التى أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه صلى الله عليه وسلم من الاجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم سواء أكانت هذه الآداب فعلية أم قولية ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ) وفيها نهى صريح عن الاسراع فى شىء من الاشياء قبله ، وأمر ضمنى بمتابعة سنته ، والوقوف عند شريعته وأمر بالتقوى ومراقبة جانب الله تعالى فى كل شىء ؛ لانه سبحانه سميع لأقوالنا ، عليم بنياتنا ، لا تخفى عليه من ذلك خافية فقال : (واتقوا الله إن الله سميع عليم) ومن كان كذلك فمن حقه أن يتقى ويراقب

ثم قال : (يأيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لهُ بالقَوْلِ كجهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أعمَالُكُم وَأنْتُمْ لاتَشْعُرُونَ) ففيها حظر ظاهر لرفع الاصوات عند محادثته صلى الله عليه وسلم ومكالمته ، إلى حد يكون فوق مايبلغه صوته صلى الله عليه وسلم ؛ لان ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام له صلى الله عليه وسلم ؛ لان خفضَ الصوت وعدمَ رفعه من لوازم التعظيم والتوقير عادة ، ونهىٌ عن الجهر بالقول كما يجهر الواحد لاخيه إذا كلمه ؛ لان ذلك إنما يكون بين الاكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية ، مع مافيه من الجفاء فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم ، وعدم الادب معه ، ثم حذر سبحانه المغبة بقوله : (أنْ تَحْبَطَ أعْمَالكمْ وَأنتمْ لاَ تَشعْرونَ) أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده والجهر له بالقول كما يجهر أحدكم لاخيه إذا كلمه خشية أن تبطل أعمالكم بذلك دون أن تفطنوا ؛ لان سَبْق رسول الله فى قوله أوفعله ، ورفع الصوت فى حضرته ، ومحادثته بالجهر كمحادثة الاكفاء - كل ذلك تجاوز لحدود الادب فى مقام يتعين فيه الاجلال والتعظيم ، ومن أجل ذلك أقسم أبو بكر رضى الله عنه ألا يكلم النبى صلى الله عليه وسلم إلا السرار أو أخا السرار . وقد بر رضى الله عنه بيمينه حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا مايستعيذه . ثم قفى على ذلك ببيان مزايا من عمل بهذه الآداب ، فقال : (إنَّ الَّذِينَ يَغضُّونَ أصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امتَحَنَ اللهُ

قلوبهُمْ للتقوَى لهم مَغْفِرَةٌ وَأجرٌ عظيمٌ) أى ان الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله اجلالا و تعظيما ، أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى وجعلها لها أهلا ومحلا وكان جزاؤهم على ذلك مغفرة وأجرا عظيما

وقال جل شأنه فى الادب مع رسوله صلى الله عليه وسلم فى المجتمعات العامة : (إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَإذَا كانُوا معَهُ عَلى أمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ فَإذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فبين الآداب نحو الرسول عليه الصلاة والسلام فى حال ماذا كانوا مجتمعين معه على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه : كالجمعة والجماعة والعيد والجهاد والتشاور فى أمر ، وغير ذلك من الامور الداعية الى الاجتماع ، وذلك بأنهم لا يتفرقون عنه صلى الله عليه وسلم ولا ينصرفون عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم حتى يستأذنوه فى الذهاب فيأذن لهم به ، فان هم خالفوا ذلك وتسللوا من عنده خفية واحدا بعد واحد ، كان ذلك علامة على نفاقهم ، وعدم ثبات ايمانهم لان الخروج من مجلسه صلى الله عليه وسلم بغير اذنه من أمارات عدم الاكتراث به ، وعدم رغبتهم فيما جاء به واجتمعوا لاجله ، وذلك من أعظم الجنايات وأكبرها ، ولذا جعل الله جل شأنه استئذانه صلى الله عليه وسلم عند ارادة الانصراف من مجلسه من علامات كمال الايمان فى قوله : (إنَّ الذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) أى ومن لم يستأذن عند ارادة الانصراف فليس بمؤمن حقا ومن الآية الكريمة يؤخذ أدب المرءوس مع رءيسه ، وأدب المتعلم مع معلمه وأدب المصلين مع امامهم ، وأدب الرعية مع راعيهم ، فان مراعاة الادب معهم ، واعتبار حرمتهم من الواجبات ، فأحرى بهم ألا يبرموا أمرا دونهم

ولا يخالفون خطة لهم رسموها ولا يأمرونهم بأمر الا بادروا بتنفيذه كما لا ينصرفون من مجلسهم الا بعد استئذانهم

وجملة القول يفعلون كل مافيه تبجيلهم وتعظيمهم واحترامهم ، ويتركون كل مافيه تحقيرهم واهانتهم .

وبعد أن بين جل شأنه كيف يتأدبون معه صلى الله عليه وسلم عند ارادة الانصراف من مجلسه أمره عليه الصلاة والسلام أن يأخذهم باللين ، ويعاملهم بالرفق ، وبما يكون داعية الالفة والتوادّ ، فاذا استأذنه أحدمنهم أن يخرج من المجلس لعروض عذر له أذن له ان شاء ومنعه إن شاء على حسب ماتقتضيه المصلحة التى يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا معنى قوله تعالى له صلى الله عليه وسلم : (فَاذَا استَأْذَنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنهمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهمُ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رَحِيمٌ) أى فاذاطلبوا منك الاذن فى أن يخرجوا من مجلس الاجتماع فأنت مخير بين أن تأذن لهم أولا . وفى هذا التفويض له صلى الله عليه وسلم من رفع شأنه ، وعلو منزلته عند الله تعالى - مالا يخفى . ولما كان الاستئذان وان كان لعذر مسوغ لايخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا عل أمر الآخرة . وهو اغتنام مجلسه - أمره أن يستغفر لهم واعدا بالمغفرة بقوله : (إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم) أى كثير المغفرة لفرطات عباده والرحمة بالتيسير عليهم ، بالغ فيهما الغاية التى ليس وراءها غاية . وفى الآيه الكريمة من المبالغة فى الحفاوة به صلى الله عليه وسلم مالا يخفى ؛ إذ جعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه أمرا محتاجا للاستغفار ، فضلا عن الذهاب بدون إذن ، ورتب الاذن منه على الاستئذان لبعض شأنهم ، لاعلى الاستئذان مطلقا ، ولا على الاستئذان لأى أمر مهما كان أو غير مهم . ومع ذلك فقد علق الاذن على المشيئة وليس ذلك بالغريب فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه مكانة دونها كل مكانة والله يختص برحمته من يشاء والله غفور رحيم

المظهر الآخر - متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ماجاء به عن ربه ، والنزولُ عند حكمه والرضا بقضائه . وقد أفادها الله تعالى بقوله: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسولُه أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهم الْخِيَرَةَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسولَه فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مبيناً) فبين مايجب على عباده من الأدب وحسن المعاملة مع رسوله صلى الله عليه وسلم . فاذا حكم على أحدهم فليس له أن يختار من أمره شيئا بل يجب عليه أن يجعل رأيه تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام ، واختياره تبعا لاختياره ، حتى يكون بذلك مؤمنا حقيقة ، كما قال تبارك وتعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهمْ ، ثمَّ لَا يَجِدوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْلِيماً) وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وذلك لأن من لم ينزل على حكمه صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض بقضائه فهو ضال : وذلك إما لكونه يرى أن هذا الحكم منه صلى الله عليه وسلم وقع فى غير محله ، فهو ظلم وجور فهو يمتنع عن قبوله ، وهذا نهاية الخسران والضلال . وإما لأنه يرى أن حكمه عليه السلام وقع فى محله ولكن لا يقبله عنادا وكبرا ، أو لأنه لا يوافق هواه ، وعلى كل فهو جحود وكفران ، ولذا شدد الله سبحانه على من لم يرض بحكمه صلى الله عليه وسلم ، واختار غير مااختاره بقوله : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور مثل عدم الرضا بقضائه وحكمه صلى الله عليه وسلم - فقد ضل عن طريق الحق ضلالا ظاهرا واضحا لا يخفى: فان كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب ، فهو ضلال خطأ وفسق . وعلى كل حال فهو من الضلال . وقلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم بحال لا يصح لمؤمن ولا مؤمنة أن يتصف بها ويكون عليها .

وقال جل وعز فى حسن متابعة الرسول والتأسى به فى أقواله وأفعاله

وأحواله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا) فبين لزوم الأدب معه صلى الله عليه وسلم بوجوب متابعته والتأسى به فى أقواله وأفعاله إلا ما علم أنه من خصوصياته صلى الله عليه وسلم

ولذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسى به صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب فى صبره، ومصابرته، ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه، فقال للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى اقتداء به صلى الله عليه وسلم اقتداء حسنا، وهو أن تنصروا دين الله، وتؤازروا رسوله، ولا تتخلفوا عن نصرته، وتصبروا على ما يصيبكم، كما فعل هو صلى الله عليه وسلم إذ كسرت رَباعيته وجرح وشج وجهه وأوذى بضروب الاذى فصبر، وواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك مثل فعله، واستنوا بسنته.

ولما كانت متابعته صلى الله عليه وسلم، والاقتداء به فى مثل هذه الأمور العظام، والمواطن الصعبة التى لا يتحمل عبئها إلا من تيقن ثواب الله ورحمته ورسخ إيمانه وكمل يقينه، فلازم طاعته بكثرة ذكره، قال الله تعالى (لِمَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر وذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا) أى هذه الأسوة الحسنة للذين يرجون ثواب الله ولقائه ورحمته فى اليوم الآخر والذين يذكرون الله كثيرا. والآية وإن كان سببها خاصا كما علمت - عامة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالتأسى به صلى الله عليه وسلم ومتابعته فى كل ما جاء به حسنة فى كل حال.

وقال تعالى فى وجوب متابعته فى كل ما أمر به ونهى عنه: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) فبين وجوب متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به، بفعل كل ما أمر به، وترك كل ما نهى عنه، لقوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) أى أىُّ شىء أمركم به من الطاعات وفعل الخيرات فافعلوه وأىُّ شىء نهاكم عنه من الخبائث والمنكرات فاجتنبوه ، لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، على أنه إنما يأمر بأمر ربه وينهى بنهى ربه ، فعدم متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ماجاء به أو بعضه - مخالفة لأمر الله ونهيه ، ولا يجرؤ على مخالفة الله ورسوله إلا فاقد الحياء . ولما أمر جلّ شأنه بالائتمار بأمره صلى الله عليه وسلم والانتهاء بنهيه أمر بتقواه ، وخوّف من شدة عقوبته فقال : « واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى اتقوه بامتثال أوامره وترك زواجره ، فانه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ماعنه زجره ونهاه .

وهذا قُلٌّ من كثر وفيض من غيض ، وحسبك من القلادة ماحف بالعنق .

الذريعة السابعة

طبع نفوس النشء على التأدب فى حق الله عز وجل وإلقاء خشيته فيها وهو نوعان :

أما الأول : فعلى مثال ماجاء فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فتراه نسب الخلق والهداية والاطعام والسقيا اليه تعالى ، ونسب المرض إلى نفسه فى قوله : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) وكان مقتضى السياق أن يقول وإذا أمرضنى ، فينسب المرض إلى الله تعالى كما نسب إليه غيرَه من الأفعال مع اعتقاده بأن الكل منه ، وفى العدول عن ذلك من الأدب مالا يخفى .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن عند مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعهم من استراق السمع : (وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) فتراهم عند إسناد الشر

بنوا الفعل للمجهول ولم يعينوا المريد له ، مع اعتقادهم بأن المريد له هو الله تعالى ، وعند إسناد الخير صرحوا بمريده ، فقالوا : (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) وهذا أدب عظيم . ومثل هذا النوع من الآداب كثير فى القرآن .

وأما الثانى : فامتثال المرء أوامره جل شأنه ، واجتنابهُ نواهيه ومراقبته فى كل عمل من أعماله ، بل وفى سائر حركاته وسكناته ، فان كان هذا العمل طاعةً كانت المراقبة باستحضار ذاته العلية وتَمَثُّلِ عظمته تعالى بقلبه ، وانبعاثِ الخشية والخشوع من جميع جوارحه ، واطمئنانِ نفسه بالمثول بين يديه ، وملاحظةِ أنه يراه فى جميع حركاته وسكناته ، وهو معنى الاحسان الذى ذكره صلى الله عليه وسلم فى قوله : « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّه يَرَاكَ » وإن كان هذا العمل معصية تذكر أن عليه رقيبا ، مهيمنا ، قريبا ، يعلم ماتوسوس به نفسه ، ويُخفيه صدره ، ويُبصر دبيب النمل فى الليلة الظلماء ، فعند ذلك يخشع قلبه ، وتستكين جوارحه ، ويتملك الخوف فؤاده ، فيجتنب القبيح بعد العزم عليه ، ويحجم عن المنكر ، بعد الوصول اليه ، وبذلك تتم له السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

ويجمع المراقبةَ بقسميها كلمةُ « التقوى » وهى اتخاذ الوقاية من غضب الله تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه

ومن ذلك يتبين أنها اسم جامع لجميع أنواع البر ، وكافلٌ لصاحبه كل خير ، ومبعدٌ عنه كلَّ شر ، ولذا أكثر الله جل شأنه فى القرآن الكريم من الحث عليها ، مبينا مايترتب عليها من صلاح الدنيا ورفيع الدرجات فى الآخرة

فمن ذلك قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فالآية الكريمة ناطقة بثلاثة أمور :

الأول ـ الحث على التقوى وهى امتثال ماأمر الله واجتناب مانهى الله عنه

الثانى ـ الحث على العمل الصالح ، ومحاسبةُ الانسان نفسه قبل أن يحاسب ، والنظرُ فيما ادخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعرضهِ على ربه ، ومناقشتهِ الحساب : فيطالبُها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لِمَ سكت ، وعن سكونه لِمَ سكن ، فاذا وجدها مع ذلك اقترفت ذنبا أو ارتكبت تقصيرا فى حق الله تعالى وجب عليه أن يعاقبها ، وعقوبتها إما بمنعها عن مشتهياتها ، وإما بتوبيخها الشديد ، أو باللوم عليها اللوم الصارم ، بأن يقول لها يانفس ، أى شىء جرأك على معصية الله : إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أنه لايراك فما أعظم كفرَك ، وأشد جهلك !! وإن كانت مع علمِك باطلاعه عليك فما أقل حياءك !! يانفس ، لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف يكون غضبك عليه !! ومقتك له !! لاجرم أنك تعاقبينه أشد العقاب ، وتخافين أنك لو تجاوزت عنه جرَّ ذلك إلى مالاتحمد عاقبته !! فكيف مع ذلك تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبِه وشديدِ عقابه !! فان كنت مغترة بكرم الله تعالى وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمابالك لاتعولين على كرم الله فى مهمات دنياك ، فاذا قصدك عدو فلِمَ تستنبطين الحيل فى دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى !!

وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضى إلا بالدينار والدرهم ، فمابالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها !! فلِمَ لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يسخر لك عبدا من عبيده ، فيساعدك على نيل حاجتك !! أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا !! وهكذا مثل هذه التوبيخات ، فان حاسب نفسه وعاقبها بمثل هذه العقوبات عند وجود تقصير منها تمت له طاعتها ، وسهل عليه تصريفها فيما

ينفعه و ينفع قومه . أما إذا أهملها سهل عليه مقارفة المنكرات ، وانست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب حرمان نفسه الفضائل السامية .

وإلى هذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله : (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) اى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لها من الأعمال الصالحة يوم عرضكم على ربكم ، واعلموا أن الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمالكم لاتخفى عليه منكم خافية فيجازيكم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

الثالث - الحث على مداومة استحضار عظمة الله وجلاله كما يؤخذ من قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فان الغفلة عن الله تعالى وجليل قدرته تورث الغفلة عن العمل الصالح الذى يرفع الأمم ويسعدها ، لأن الجزاء من جنس العمل ، قال تعالى (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أى الخارجون عن صراط الله السوى

الذريعة الثامنة

تربيته على حسن معاملة أفراد المجتمع

مما سلكه الاسلام فى تكوين خلق الفرد أنه أوجب عليه أن يعامل أفراد المجتمع برفق ولين ، ويخفض جناحه للكبير منهم والصغير ، ولا يخاطب أحداً بغلظة ، ولا يتكبر ولا يتعاظم على أحد منهم ، بل يستجلب محبتهم بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ، ولطف صنيعه ، ولا يكثر المراء والخصومة معهم ، وأن يبتدر من يعرف ومن لا يعرف بالتحية ، وإذا حياه غيره بتحية ردها بعينها أو بأحسن منها ، وأن يلقى غيره بالبشاشة والبشر وطيب الكلام ، ولا يؤذيهم بقول أو فعل ، وأن يعفو عن مذنبهم ، ويصفح عن تائبهم ، ويتودد إليهم بكل وسائل أنواع التودد ، وألا يعد أحداً منهم بوعد إلا وفى به ، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة . وقد جاء

القرآن الكريم مبينا هذه الآدابَ على أحسن وجه وأكمله ، مرشدا إلى مايجب التخلق به ، ويجب استعماله فى معاملة أفراد المجتمع ، من كل مايجلب رضاهم ومحبتهم فتتحدُ كلمتهم وتتألفُ جامعتهم ، ويسعون لأنفسهم فيما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر والضير : فمن ذلك ماحث الله سبحانه عليه من مقابلة الاساءة بالاحسان ، والذنب بالغفران ، والغضب بالحلم ، والغيظ بالكظم مع بيان الثمرة المترتبة على ذلك فقال : (وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فبين مايجب على الأفراد من حسن معاملة إخوانهم صغيرهم وكبيرهم ، فإن أغضبهم أحد صبروا وإن جهل عليهم حلموا ، وإن أساء اليهم عفوا عنه ، وإن أذنب فى حقهم ذنبا غفروه ، وأغفوْا عما حصل منه من الهفوات ، وتجاوزوا عما صدر منه من الغلطات ، فان فعلوا ذلك صار العدو لهم صديقا ، والبعيدُ عنهم قريبا ، والمبغض لهم حبيبا ، وهذا ماأفاده الله بقوله : (وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) أى إن أساء اليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه والتى هى أحسن أن تحسن اليه : كأن يذمك فتمدَحه ، أو يشتمكَ فتعطيه جائزة ؛ فانك إن فعلت ذلك وأحسنت اليه من حيث أساء اليك ـ قاده إحسانك إلى مصافاتك ومحبتكِ والحنوّ عليك ، حتى يصير كأنه ولى حميم أى قريب اليك يهتم لأمرك من فرط الشفقة عليك . وبعد أن وصى عباده بحسن المعاملة ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، وبين الثمرة المترتبة على ذلك ، أخذ يمدح من عمل بهذه الوصية وحافظ على هذه المزية ، فقال : (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) أى وما يقبل هذه الوصية ولا يعمل بها إلا من

اجتمعت له خلال الصبر وثباتِ القلب وقوةِ العزيمة ، وكان له منها نصيب موفور . وقال العليم الحكيم يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم محاسنَ الأدب ومكارمَ الأخلاق ، وحسنَ المعاملة ، مع صنوف الخلق سواء المطيع منهم والعاصى : (وَاخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) فأمره أن يُلينَ جانبه ويتواضعَ للمؤمنين، لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليه ومحبتهم له ، وقيامهم بكل مايرضيه ، وبذلهم النفس والنفيس فى سبيل نشر دينه ، وسعيهم فى إعلاء كلمته ، ونصرته على أعدائه ، وهذا ضرب من التدبيرات الالهية والسياسات الشرعية التى يجب على كل من قام بالدعوة ليرشدَ الناس ويهديَهم إلى مافيه صلاحُ حالهم دنيا وأخرى ، ويقوِّم مااعوجَّ من أخلاقهم - أن يكون متخلقا بها فيُجمل المعاملة ويُحسن الصنيعة مع من خالفه ؛ لما فى ذلك من محبتهم له وعدم نفورهم منه ، وربما كان ذلك سببا فى رجوعهم عن معصيته ومخالفته إلى طاعته وامتثال أمره ، وذلك بأن يَلطفَ بهم ويحنو عليهم ، فلا يعاقبَهم ولا يردَعهم ولا ينهرَهم ولا يقسو عليهم فى المعاملة ، وإن كان ماعملوه من المخالفة والعصيان يستحقون عليه أكثر من ذلك ، بل غاية مايقابلهم به أن يتبرأ من عملهم ويقول لهم : (إِنِّى بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) والآية الكريمة وإن كان المأمور فيها بخفض الجناح واستعمال اللين واللطف وحسن المعامله والمجاملة هو خصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم - هدايه لأمته واتباعه بطريق التبع ؛ لأن كل أمر له أمر لأمته مالم يرد نص مخصِّص ، ولذا وجب على كل مسلم أن يعامل جميع الناس بالرفق واللين والتواضع ، ويستجلب محبتهم اليه بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ، ولطف صنيعه سواء المحسن منهم والمسيء ، فان ذلك أدعى لمعونتهم له وقت الحاجة وإغاثتهم له وقت الشدة ، ونصرته وقت الحرج والضيق .

وقال جل ذكره فيما يجب أن يستعمله الانسان مع خصمه من حسن

المعاملة والملاطفة والللين حتى يكون ذلك سببا فى قبول قوله ، وإجابة طلبه ، مخاطبا بذلك موسى وأخاه هرون عليهما السلام ، عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله تعالى : (إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ، اِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) فيقول الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام : اذهب أنت وأخوك هارون الى فرعون وادعواه الى عبادتى وتوحيدى والاخلاص لى ، ومعكما آياتى ومعجزاتى وحججى وبراهينى ، متمسكين بها فى اجراء أحكام الرسالة ، واتمام أمر الدعوة ، وعليكما مع ذلك عند مواجهتكما له ومقابلتكما إياه ألا تنيا ولا تقصرا فى ذكرى ، واستحضار أنى وليكما وناصركما مع الدعوة إلى توحيدى ، ليكون ذلك عونا لكما عليه ، وقوة وسلطانا ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام عن ربه : (إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِيَ الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُنَاجِزٌ قِرْنَهِ) أى يذكر أنى وليه والآخذ بيده . وبعد أن أمر جل شأنه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويصحب أخاه هرون معه ـ أخذ يأمرهما بالذهاب إلى فرعون ، ويرشدهما إلى مايقولان له لعله يكون سببا فى إذعانه لهما ، وقبوله ماجاء به ، فقال : اذهبا إلى فرعون إنه طغى : أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه وتجاوز الحد فى الكفر والتمرد بادعائه الربوبية ، فقولا له قولا لينا لاخشونة فيه ، فان التخشين فى القول من أعظم أسباب النفور وعدم الامتثال ، بخلاف تليين القول فانه أسرع إلى الاجابة ، وأدعى إلى كسر سورة عناد العتاة ، وتليين قسوة الطغاة ، وقد فعل عليهما الصلاة والسلام ما أمرا به فقد قالا له : (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) وقال له موسى عليه السلام : (هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) فان هذا غاية فى اللين والرفق ، لأنه دعاء فى صورة العرض والمشورة ، وقد ذكر جل شأنه العلة الباعثة على دعوته باللين وحسن الملاطفة

فقال : (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى) أى لعله يتأمل فيبذل النصفة من نفسه ، والاذعان للحق ، فيدعوه ذلك إلى الايمان ، أو يخشى أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة ، وذلك يدعوه الى الايمان أيضا ، فهذا ماأمر الله نبيه موسى وأخاه هرون : من حسن المعاملة مع فرعون واللين له فى القول والتلطف به ، وهما صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، وهو أحط منهما قدرا عند الله تعالى ، فكيف بمعاملة غيره من المؤمنين بعضهم بعضا ، فانهم أولى باستعمال الملاطفة واللين بينهم . وقال تعالى يعلمنا كيف نعامل خلقه ، بتأدية مالهم من الحقوق ، مع بيان ماأعده الله لمن أحسن هذه المعاملة من النعيم المقيم ، وما أعده لمن لم يحسنها من الهوان والعذاب الأليم : « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَاأَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَاصَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَاأَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فبين ماأعده لمن أحسن من عباده المؤمنين المعاملة معه جل شأنه ، ومع عباده من الثواب الجزيل والنعيم الدائم المقيم ، وقد بين جل شأنه أن حسن المعاملة يكون بأشياء :

الأول — الوفاء بالعهد وهو بالنسبة لله عز وجل امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وبالنسبة للخلق ألا يعد أحدهم وعدا إلا وفى به وأنجزه ، ولا يكون كالمنافق إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، واذا حدث كذب ،

واذا اؤتمن خان .

الثانى ـ صلة ما أمر الله به أن يوصل ونهى أن يقطع ، وهى بالنسبة لله عز وجل دوام مراقبته وتمثل عظمته فى قلبه ، حتى يكون ذلك زاجراله عن معصيته ومخالفة أمره ، والايمان بالكتب والرسل ، فانه جل شأنه أمر بوصل ذلك وعدم قطعه . وبالنسبة للخلق ثلاثة أنواع : وصل قرابة المؤمنين الثابتة بالايمان والداخلة فى عموم قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ويكون بالاحسان إليهم على قدر الطاقة والوسع ، ونصرتهم والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، وجلب الخير إليهم ، ودفع الضرر عنهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ، إلى غير ذلك . ووصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويكون بالشفقة بهم ، وتعهدهم فيما يحتاجون إليه ، واحترامهم وتوقيرهم والتودد إليهم ، كما قال تعالى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) فان فى صلتهم صلة رسول الله صلى الله عليهم وسلم ، وهى غاية ما يسعى المرء لنيله . ووصل قرابته من الرحم : ويكون بأن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف ، أو يقضى عنهم دينا ، أو يفرج عنهم غما ، أو يقضى لهم ما يحتاجون إليه إن كانوا فقراء ، ويعاملهم بالتودد ، ويتعهدهم بالزيارة ، ويبدأهم بالسلام إن كانوا أغنياء .

الثالث ـ الخشية من الله تعالى ، ومراقبته جل شأنه فى جميع الأعمال والأحوال ، والخوف من سوء الحساب فى الدار الآخرة ، فان دوام المراقبة والخشية والخوف من سوء الحساب يوم الحساب مما يوطن قلب العبد على طاعة الله تعالى ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . وما أحسن تلك المعاملة

الرابع ـ الصبر عن المحارم ، والتعفف عن المآثم ، وترك جميع الموبقات ، ونبذ سائر المنكرات ، واحتمال المشاق فى نصرة الله ودينه ، ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاة الله تعالى ، وجزيل ثوابه .

الخامس - إقامة الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى ، فان ذلك من حسن المعاملة بمكانة دونها كل مكانة .

السادس - الانفاق من فضل الله تعالى على من يجب لهم الانفاق : من زوجات وقرابات وأجانب : من فقراء ومساكين ، فى السر والجهر .

السابع - درء السيئة بالحسنة أى دفعها بها ، فاذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل ، صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا ، وإن أساء إليهم عفوا عنه ، وإن حصل منه هفوة ، أغضوا عما حصل منه من الهفوات وتجاوزوا عما فرط منه من الغلطات ، فهذه الأشياء التى ذكرها الله غاية فى حسن المعاملة معه ومع عباده . ثم بين ما يترتب عليها من الثواب الجزيل والسعادة الأبدية بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) ثم فسر ذلك بقوله : (جَنَّاتُ عَدْنٍ) أى جنات إقامة يخلدون فيها هم ومن هو صالح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ليكون فى الجمع بينهم وبين من يحبون من أهليهم وقراباتهم قرة عين لهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنة ، يسلمون عليهم ويهنئونهم بما حصل لهم من التقريب والانعام ، والاقامة فى دار السلام ، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام جزاء حسن معاملتهم مع الله ومع خلقه .

وبعد أن بين سبحانه حال السعداء وما أعده لهم من النعيم المقيم أتبع ذلك ببيان أحوال الأشقياء ، وما أعده لهم من العذاب الشديد والعقاب الأليم ، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله تعالى ومع عباده فقال : (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) . وقال تعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم لطف المعاملة وحسن المصانعة مع اليتامى الأذلاء والفقراء الضعفاء ، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا

السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) فبين وجوب حسن المعاملة ولطف المجاملة مع هذين الصنفين، وهو اليتيم الذى مات أبوه وهو صغير، والسائل الذى ألجأته الحاجة والفاقةُ إلى ذل السؤال وتكفف الناس: فحسن المعاملة مع اليتيم ألا يقهره ولا يغضبه ولا يأخذ منه حقاً هو له، وأن يكون له كالأب الرحيم للابن البار، فيسعى فى نماء ماله إن كان له مال، وفى تعليمه وتربيته ويحسن كفالته فلا يذله ولا ينهره ولا يهينه، ولا يفعل به أى أمر يكدر خاطره أو يحصل له منه ضرر. وإنما وصى جل شأنه باليتيم هنا وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وحث على ذلك ورغب فى حسن كفالته ولطف معاملته - لأن اليتيم الذى مات أبوه، وكان المتكفل بحسن تربيته وتعليمه ونجاحه وفلاحه والسعى وراء كل مايكون فيه سعادته فى الدنيا والآخرة، والقائم بتدبير حالته المعاشية والنظر فى كل مايجلب له الخير ويدفع عنه الشر والضير، إذا لم يجد من يقوم له بما كان يقوم له به أبوه - نشأ على الأخلاق الفاسدة والطباع الرذيلة؛ لأن النفس بطبيعتها ميالة إلى الشرور مطبوعة على الفجور، فاذا لم تجد وازعا يكبح جماحها، ويحول دون تنفيذ كل رغباتها، لاسيما فى الصغر تحكمت فيها الشهوات، وتمكنت فيها الرذائل والمنكرات، فينشأ صاحبها على ذلك فاسد الأخلاق مرذول الطباع منقادا لأهوائه البهمية عبداً لشهواته المدنية، وبذلك يكون كَلّاً على المجتمع وجرثومة فساد فيه. وحسن المعاملة مع السائل يكون إما باجابة ماسأله، والنصح والاخلاص له فى الجواب، مع عدم التكبر والتجبر والفحش فى القول وإظهار الفضل عليه إن كان سائلا عن علم، وإما باعطائه سؤله، أورده برحمة ولين، وتعطف وتلطف، إن كان محتاجا يسأل مابه يسد رمقه ويزيل عوزه. ولا يصح أن يقابل السائل الذى هذه حالته بالفظاظة والغلظة والكبر من المسئول؛ فان فى ذلك من قلة المروءة وخسة الطبع مالا يخفى.

على أنه لايحسن بعاقل أن يتقلب فى نعمة، ولايرى من الشكر على هذه

النعمة التى جعلته مسئولا وغيره سائلا ، وعزيزا وغيره ذليلا يتكفف الناس ويسألهم ، هذا يمنحه وهذا يمنعه - حقا لا يحسن به ألا يرى من الشكر أن يمنح أخاه المؤمن وهو يسأله مما منحه الله من العلم أو المال ما يسد به حاجته ، فذلك من زمانة فى مروءته وخسة فى طبعه .

وقال جل ذكره يحث على حسن المعاملة مع الناس بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائبهم : (وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فبين وجوب صلة الرحم والأقرباء مهما اقترفوا من الذنب ، ولا يكون ما فعلوه سببا فى أن يأتلى أولوا الفضل والسعة أى يحلفوا أن يمنعوهم ما كانوا يحسنون به عليهم ، وليكن ديدنهم معهم العفو عن ذنبهم الذى أذنبوه ، وجنايتهم التى اقترفوها ، والصفح عن تائبهم بالاغضاء عنه ، والاغماض عن جنايته ، فان ذلك سبب لعفو الله تعالى ومغفرته ، كما قال تعالى ، مرغبا فى العفو والصفح ، حاثا عليهما : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وسيلة تقويم الخلق

تمهيد

الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار ، وللنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع ، ولها أفعال تصدر عنها بالارادة فهما ضربان أخلاق الذات ، وأفعال الارادة . والانسان مطبوع على أخلاق قلما حمد جميعها أو ذم سائرها ، وإنما الغالب أن بعضها محمود وبعضها مذموم ، فتعذر لهذا التعليل أن تستكمل فضائل الأخلاق طبعا وغريزة ، ولزم لأجله أن يتخللها رذائل الأخلاق طبعا وغريزة ، فصارت الأخلاق غير منفكة فى جبلة

الطبع وغريزة الفطرة عن فضائل محمودة ورذائل مذمومة . وإذا استقر ذلك فالسعيد من غلبت فضائله على رذائله ، فقدر بوفور الفضائل على قهر الرذائل ، وسلم من شين النقص ، وسعد بفضيلة الفضل فالانسان أولى بالعطف والتشجيع على الفضائل المكتسبة ، لأنها مستفادة بفعله ، دون الفضائل المطبوعة وإن حمدت فيه لوجودها بغير فعله . ومن القبيح أن يتحرز المرء من أغذية البدن اتقاء الضرر ولا يعنى بتهذيب أخلاقه ومداواتها بالعلم الذى هو غذاؤها صونا لسلامتها ، وإذا كنا نعنى بجميع أعضاء البدن وخاصة بالأشرف منها فبالحرى أن نعنى بأجزاء النفس وخاصة بالأشرف منها وهو العقل .

وكما أن الأمراض التى تعرض للبدن إن لم يعلم الطبيب أسبابها لم يتمكن من علاجها كذلك علل النفس ينبغى أن نعنى باستئصال أسبابها ، فمتى أحس الانسان أنه أخطأ وأراد ألا يعود ثانيا فلينظر أى أصل فى نفسه حدث ذلك عنه فيحتالَ فى إزالته .

وبعد فلو لم يكن إلى تغير الأخلاق سبيل ما كان للأقاويل التى أودعتها الحكماء كتبها فى استصلاح الأخلاق معنى ؛ إذ لا يُرْجَى لها نفع ولا جدوى . وكذلك لم يكن للمواعظ التى يقصد بها ذوو الأخلاق الذميمة من الاشرار معنى إذا لم نطمع فى انتقالهم عماهم عليه من الشر . ولذلك كانت وسائل تقويم الخلق هى :

١ ـ يجب أولا أن نحصى الأخلاق خلقا خلقا ونحصى الافعال الناشئة عن خلق خلق ، ومن بعد ذلك ننظر أى خلق نجد أنفسنا عليه ، وهل ذلك الخلق الذى اتفق لنا منذ أول أمرنا جميل أو قبيح ؟ والسبيل إلى الوقوف على ذلك أن نتأمل أى فعل إذا فعلناه لحقنا من ذلك الفعل لذة ، وأى فعل إذا فعلناه نتأذى به ، فاذا وقفنا عليه نظرنا إلى ذلك الفعل : أهو فعل يصدر عن الخلق الجميل أم هو صادر عن الخلق القبيح ؟ : فان كان ذلك عن خلق

جميل قلنا ان لنا خلقا جميلا فى تلك الوجهة ، وإن كان ذلك عن خلق قبيح قلنا إن لنا خلقا قبيحا من هذه الوجهة ، فبهذا الوجه نقف على الخلق الذى نصادف أنفسنا عليـه ، أى خلق هو . وكما أن الطبيب متى وقف على حال البـدن نظر : فان كانت الحال التى صادفه عليها حال الصحة احتال فى حفظها على البدن ، وإن كان مايصادف عليه البدن حال سقم أعمل الحيلة فى إزالته عنـه ـ كذلك متى صادفنا أنفسنا على خلق جميل احتلنا فى حفظه ، وإن صادفناها على خلق قبيح استعملنا الحيلة فى إزالته عنها ؛ فان الخلق القبيح سقم نفسانى ، فينبغى أن نحتذى فى إزالة أسقام النفس حـذو الطبيب فى إزالة أسقام البدن ، ثم ننظر بعد ذلك الخلق القبيح الذى صادفنا أنفسنا عليه ، أهو من جهة الزيادة أو النقصان ؟ وكما أن الطبيب أيضا متى صادف البدن أزيد حرارة أو أنقص رده إلى التوسط من الحرارة بحسب الوسط المحدود فى صناعة الطب ـ كذلك متى صادفنا أنفسنا على الزيادة أو النقصان فى الأخلاق رددناها إلى الوسط المحدود فى هذا الـكتاب .

ولما كان الوقوف من أول وهلة على الوسط عسرا جداً التمسنا الحيلة فى وقف الانسان عليه أو على القرب منه جدا : وذلك أن ننظر الخلق الحاصل لنا : فان كان من حيث الزيادة أو النقصان عودنا أنفسنا مباشرة الضد ونديم ذلك زمانا حتى يتحقق الوسط .

٢ ـ وأن يرتاض الانسان بمكارم الأخلاق ومحاسنها ويتنزه عن مساويها ومقابحها ، ويأخذ فى جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلا فى أفعاله عن عن طرق الرذائل ، وأن يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعايب ، ويصرف همته فى اقتناء كل خلة كريمة خالصة من الشوائب ، وأن يبذل جهده فى اجتناب كل خصلة مكروهة ، ويستنفد وسعه فى اطراح كل خلة مذمومة ، حتى يحوز الـكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسى حلل الجمال بدماثة شمائله ، فانه إذا حاسب نفسه ، وأجاد فـكره ـ علم أن الضرر فى مساوى

الأخلاق أكثر من النفع ، وأن الذى يعده نفعا ، وليس نفعا على الحقيقة - هو يسير جدا غير باق ولا مستمر ، وأن هذا اليسير الذى يعده نفعا لا يفى بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضا أن الشر والخبث لا يعقبان إلا الشر ويوحشان منه الناس : ألا ترى أن من تشرَّر قصده الناس بالشر واستعدوا لأذيته ، واحترزوا منه وكرهوا نفعه ، وحظروا عليه وجوه الخير ؟

وصفوة القول أن السبيل إلى اعتقاد الانسان الأخلاق المحمودة واستعمالها واجتناب المذمومة وإهمالها ثلاثة أمور :

الأول - بتمييز القوة الناطقة بأحوال ثلاثة : بمداومة الاطلاع على كتب الأخلاق والسياسات والعمل بها ، وبتدقيق النظر فى العلوم العقلية والبحث عنها ، وبالتدرج الى استعمال العادات الجميلة وترك ضدها .

الثانى - بقهر القوة الشهوانية بأحوال ثلاثة : بأن يجتنب مجالسة السفهاء والخلعاء والنساء والأرذال ، وبأن يكثر مجالسة الزهاد وذوى الاجتهاد والورع ، وبأن يتحرى الجميل من رغباته ، فيحققه

الثالث - بتعديل القوة الغضبية بأحوال ثلاثة :

بأن يذكر المؤذى أن لو كان هو المؤذَى هل كان يختار ذلك منه أو ينفر منه ؟

وبأن يتذكر ماشهده من طيش غيره فلا يرضاه لنفسه عند الغضب ،

وبأن يكسر سورة الغضب بالرفق ، ويستعمله على تعديل القوة الشهوانية فقط .

لا جرم أن ملاك الأمر فى تهذيب الأخلاق هو تقوية العقل وتمكينه من السيطرة على القوانين الغضبية والبهمية ، وخير السبل إلى تقوية العقل معالجة العلوم العقلية ؛ فان الانسان إذا نظر فيها ، ودرس كتب الأخلاق

والسير ، وداوم عليها - تيقظت نفسه ، وانتعشت من خمولها ، وأحست فضائلها وأنفت من رذائلها ، لأنها إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب ، واستولت عليها الرذائل . وإذا ارتاض الانسان بالعلوم العقلية ، شرفت نفسه وعظمت همته ، وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك من أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وانقاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه . ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية فليبذل جهده فى تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة : لينظر أيهما أجدى عليه ، وأنفع له ، وأيهما أحمد عاقبة ، وأبقى على الأيام . ومما يهذب النفس ويصلحها أن يجعل الانسان غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلا بأرفع درجة ، فانه إذا جعل ذلك غرضه كان حريا أن يتصف بالفضائل ، ويبلغ منها درجة مرضية إن فاتته الدرجات الرفيعة . فأما إن قنع بما دون الغاية فلا يأمن أن يقصر عن بلوغها ويفوته المطلوب .

مراتب الناس فى قبول التأديب

هى كثيرة وتشاهد وتعاين فيهم ، وخاصة فى الاطفال ، فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ مبدأ نشوهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعل الرجل التام الذى انتهى فى نشوه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه ، فيخفيه بضروب من الحيل والافعال المضادة لما فى طبعه . وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب ونفورهم عنه ، وما يظهر فى بعضهم من القحة ، وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، الى سائر الأحوال المتفاوتة - ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الاخلاق الفاضلة ، وتعلم منه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة ، وأن فيهم المواتى والممتنع ، والسهل والسلس ، والفظ العسر والخير والشرير ، والمتوسط بين هذه الأطراف فى مراتب لا تحصى كثرة .

واذا أهملت الطباع ولم تُرَضْ بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على سَوْمِ طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولة ، وتبع ماوافقه بالطبع من غضب أو عرامة أوشره أو غيرها .

أثر الأسوة فى تقويم الخلق

تمهيد

النفس مجبولة على حب المماثلة والمحاكاة

اعلم أن حب النفس للمماثلة ، ومحاكاة الغير ـ هو السبب الكلى فى مسارقة الطبع وتغريره إلى الفساد عند مشاهدة المعاصى والمفاسد ، ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعم الله عليه ، فتؤثر فيه مجالستهم فيستصغر ماعنده ، وتؤثر فيه مجالسته الفقراء فيستعظم ما أتيح له من النعم : قال جعفر بن سليمان : كلما فترت فى العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة ، فيرجع إلى نشاطى فى العبادة ، ويفارقنى الكسل . ويكفى فى تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته ، وبهذا يعرف قوله صلى الله عليه وسلم : « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » وهو كناية عن انبعاث الرغبة من القلب ، وحركة الحرص على الاقتداء بهم ، والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه : وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة ؛ لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصى ، ويذعن للميل إليها ، فيكون ذكرهم موجبا للعنة . وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ، بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيرِ إنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ » لهذا ينبغى لمن عرف من عالم زلة ألا يحكيها ؛ لأن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من

قلوبهم استعظام الاقدام عليها ، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية . وقد علم من هذه الكلمات سببية كون الأخلاق معدية ، والطباع سراقة ، وعرف ماجبلت عليه النفس من المماثلة . ومماهو من باب المشاكلة ماجبلت عليه النفوس من ميلها لشكلها وأنسها بجنسها : قال بعض البلغاء : من شأن الأجناس أن تتواصل ، ومن عادة الأشكال أن تتآلف ، والشيء يتغلغل إلى معدنه ، ويحن إلى عنصره ، فاذا صادف منبته ولاقى عنصره - وشج بعروقه ، وشبك بفروعه، وتمكن على الاقامة ، وثبت ثبات الطينة : قال صلى الله عليه وسلم : «لو أن مؤمنا دخل الى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد - لجاء حتى يجلس اليه ، ولو أن منافقا دخل الى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد - لجاء حتى يجلس اليه» وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب اليه بالطبع ، وان كان هو لا يشعر : قدم ناس الى مكة المشرفة ، فقالوا : قدمنا الى بلادكم ، فعرفنا خياركم من شراركم فى يومين ، قيل : كيف ؟ قالوا : لحق خيارنا بخياركم وشرارنا بشراركم فألف كل شكله . ومن هذا قال بعض البلغاء :

تخير أخا فى الله تصحبه ساعة * فكل امرىء يصبو إلى من يجانس

وهذ الخلق لايختص بالانسان ، بل يوجد فى سائر الحيوانات : قال بعض الحكماء : كل انسان مع شكله ، كما أن كل طير مع جنسه . وفى الأثر أنه لما مات بعض الخلفاء واختلف المسلمون جمعت الروم ملوكها لغزو بلادهم وفتحها ، وكان فيهم رجل صاحب عقل ورأى ، فنهاهم فلم ينتهوا ، فلما أصبحوا اغدوا عليه ، فأحضر كلبين عظيمين قد أعدها ، ثم حرش بينهما ، فتهارشا حتى سالت دماؤهما ، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكلبين ذئبا قد أعده ، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه ، ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه ، فأقبل ذلك الرجل على جمع الروم وقال : مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب : لا يزال الهَرْج من المسلمين مالم يظهر لهم عدو من غيرهم ، فاذا ظهر العدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم ، وتألفوا على العدو . فقبلوا قوله .

ومن هذا الباب قول أرسطاطاليس : « الأشكال لاحقة بأشكالها كما أن الأضداد مباينة لأضدادها » ومنه أخذ المتنبي معنى قوله :

وشبه الشيء منجذب إليه * وأشبهنا بدنيانا الطغام

وكما أن المشاكلة موجبة للألفة ، فعدمها مقتض للنفرة : كان من عادة ملوك الفرس أنه إذا غضب أحدهم على عالم حبسه مع جاهل . وغضب الرشيد على ثمامة بن الأبرش وكان عالما متبحرا ، فسلمه الى خادم يقال له ياسر ، وكان ياسر يحسن اليه ، ويتأدب فى حقه ويعظمه ، حتى سمعه ثمامة يوما يقرأ : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذَّبِينَ » بفتح الذال فقال ثمامة: ويحك إن المكذبين هم الأنبياء . فقال له ياسر : كان يقال عنك إنك زنديق ولم أصدق ، أتشتم الأنبياء ياثمامة ! ثم أعرض عنه وهجره . فلما رضى الرشيد عنه ورده إلى مجلسه سأله يوما فى أثناء المحاورة : ما أشد الأشياء ؟ قال : عالم يجرى عليه كلام من جاهل . ثم أخبره بقصته مع ياسر خادمه . فضحك الرشيد من ذلك .

ومن هذا قيل : إذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا ، لأن الاقتران مع الجاهل عذاب الروح ، والضرب بالسياط عذاب البدن ، والعذاب على الروح أوجع . وقيل لبعض الحكماء : ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل ؟ فقال : لأن الحمل الثقيل يشارك الروح الجسد فى حمله، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله . ولما تفقد سليمان عليه السلام الطير ولم يجد الهدهد قال: (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) فلما أتاه بالحجة دفع عنه العذاب الشديد ، وقال : لابد من تأديبه حتى لا تجترىء الطيور على مثل فعله ، فحبسه مع الحدأة فى قفص واحد ، فلما نظر الهدهد إلى كثافة طبعها ، ورقة طبعه ، وحسن منظره ، وقبح منظرها — هاله ذلك ، فطلب من سليمان أن يخرجه من ذلك القفص ويعذبه أشد العذاب ، فعذب بنتف ريشه حتى صار قطعة لحم ، وكان ذلك عليه أسهل من اجتماعه مع الحدأة ، وليس ذلك إلا لعدم الجنسية . ومن هذا يعلم السبب

فى قلة إخوان أهل الفضل والكمال لقلة المناسبة فلا تكاد ترى الناقص الامبغضا للكامل ، ولاترى الكامل الامشنوءاعند الناقص : دخل أبو العيناء على المتوكل وعنده جلساؤه فقال له : يامحمد ، كلهم كانوا فى عينيك منذ اليوم ، ولم يبق أحد لم يذمك غيرى . فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى * فلازال غضبانا علىّ لئامها

وقال رجل لأفلاطون : إن فلانا الحاكم يثنى عليك ثناء جميلا ويمدحك . فقال له : كيف صرتُ مناسبا لذلك الجاهل حتى يثنى علىّ ويمدحنى ؟ لأن المدح لا يكون إلا بعد التناسب : قال الله تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » قال بعض الأذكياء :

ومن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

وقال أمير المؤمنين : من جهل شيئا عاداه، وقال الله تعالى : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » وقال عليه الصلاة والسلام : « النَّاسُ أَعْدَاءُ مَاجَهِلُوا »

ومن أمثال العرب : أعجز عن الشيء من الثعلب على العنقود : وذلك أن العرب تزعم أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلما لم ينله قال : هذا حامض . وحكى الشاعر ذلك ، فقال :

أيها العائب سلمى * أنت عندى كثعاله

رام عنقودا فلما * أبصر العنقود طاله

قال هذا حامض لما * رأى ألا يناله

وقال بعض الأساطين لابنه : يابنى ، عليك بكل نوع من العلم فى زمنه ؛ فان المرء عدو ماجهل ، وأنا أكره أن تكون عدوا لشيء من العلم .

والعلة فى أن الانسان عدو مايجهله هى أنه يخاف من تقريعه بالنقص خصوصا إذا ضمه ناد ، أو جمع من الناس ؛ فانه تتصاغر نفسه عنده إذا خاضوا فيما لا يعرفه ، وينقص فى أعين الحاضرين ، وكل شيء آذاك ونال منك فهو عدوك . وقيل لأفلاطون : لمَ يبغض الجاهلُ العالم ولا يبغض

العالمُ الجاهل ؟ فقال : لأن الجاهل يستشعر النقص فى نفسه ويظن أن العالم يحتقره ويزدريه فيبغضه ، والعالم لانقص عنده ، ولا يظن أن الجاهل يحتقره ، فليس عنده سبب لبغض الجاهل .

رضا الناس غاية لاتدرك

قال بعض الأساطين لبعض أصحابه : والله ما أقول لك إلا نصحى : إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل ؛ فانظر الأصلح فاعمله ، ولذلك قيل:

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

وقال بعض العلماء : إن الاتيان بما تستحسنه جميع الطباع ليس فى قدرة البشر ولبعض العقلاء :

لو كنت كالقدح فى التقويم معتدلا * لقالت الناس هـذا غير معتدل

وحكى أن بعض العرفاء أراد أن يعلم ابنه السلوك ، وأن يفطمه عن النظر إلى الخلق ، فخرج راكبا على دابة هو وولده ، فقال بعض الناس : انظروا إلى هذين كيف ركبا على هذه الدابة وهى لاتطيق !! فنزل ولده عنها وبقى الوالد ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل كيف هو راكب وولده يمشى وكان الولد أولى منه بالركوب !! فنزل الوالد وركب الولد ، فقالوا : انظروا إلى هذا الولد ماأقل أدبه ، أبوه يمشى على أقدامه وهو راكب !! فقال لولده : انزل فنزل عن الدابة ومشيا على أرجلهما ، وتركا الدابة تمشى دون راكب عليها ، فقالوا : ماأقل عقل هذين ، يمشيان على أقدامهما ، والدابة لاراكب عليها !! فقال الرجل لولده . انظر إلى هـذا الأمر واعتبر به ، فانه لايسلم أحد من القال والقيل فيه مهما عمل وقد رأيته عيانا .

وحكى عن موسى عليـه السلام أنه قال : « إلهى ، أسألك ألا يقال فىّ ما ليس فىّ ، فأوحى الله إليه : ذلك شىء مافعلته لنفسى فكيف أفعله بك » .

ومما ينسب لسيدنا على أمير المؤمنين :

قد قيل إن الاله ذوولد * وقيل ان الرسول قد كهنا

مانجا الله والرسول معـا * من لسان الورى فكيف أنا

ومن كلام له كرم الله وجهه : إن أقل قالوا حريص على الملك ، وان أسكت قالوا جزع من الموت ، إشارة إلى عدم انضباط لسان الناس فى حقه . وقد نسبوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام يوم بدر أنه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبرأ نبيه من الخيانة وأنزل الله فى كتابه : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وفصل الخطاب فى هذا الباب أن تعلم أن الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بأنواع النعم ، وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ، ولا عظموه حق عظمته ، بل قالوا فيه مالا يليق به ، ووصفوه بما يستحيل عليه ، وأضافوا اليه ما يتقدس عنه ، وهو مع ذلك يرزقهم ، ويقضى مآربهم ، فمعاصيهم اليه صاعدة ، وبركاته عليهم نازلة : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) وينفق مما عنده . وبالجملة فان رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء باصلاح نفسه أولى .

الأسوة خير مرشد

القدوة هى المعلم القدير بلا لسان ، والمرشد الناصح من غير بيان ، وهى مدرسة الانسان العملية التى يرسخ تعليمها فى النفوس ويعلق بالافهام . والناس مائلون طبعا إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بآذانهم ، والمرئى يؤثر أكثر من المقروء والمسموع ، وتعليم العمل أنفع من تعليم القول ، والارشاد يُرى الطريق ولكن القدوة البكماء تسيِّر فيه ، ومهما أوتى المعلم من البراعة فى تهذيب النفوس فليس ببالغ ما يبلغه زميل له دونه فى المهارة وفوقه فى السيرة . ولذا كان خير النصح : افعلْ كما أفعل لا كما أقول . ولما كانت غريزة التشبه أقوى ما تكون فى الأحداث وجب أن ينشَّئوا فى بيئة صالحة ليشبوا نافعين ، فانهم يتمثلون بمن حولهم : كالحشرات الصغيرة تتلون بلون النبات الذى تقتات به . ومن أجل ذلك كانت التربية البيتية أفعل

فى نفوسهم من التربية المدرسية ؛ فالبيت أصل المجتمع ، ومن ينبوعه تنبثق الآداب والاخلاق ، ومحبة الأسرة مصدر المحبة الوطنية . ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعم العالم أجمع ، وصفات الوالدين تظهر فى أولادهما ، وأفعالهما المختلفة التى يمارسونها تحيا فى أولادهما . بعد أن يكونوا قد نسوا تعليمهما الشفوى ، ونظرة واحدة من الأب قد تبقى مؤثرة فى الولد مدى الحياة .

كتب (فول بكستن) إلى أمه بعد أن نال منصبا عاليا يقول : (إننى أشعر على الدوام بنتائج المبادىء التى غرستها فى عقلى) وكل عمل يعمله الانسان مهما كان طفيفا هو مقدمة لنتائج لا يعلم نهايتها إلا الله . يموت المرء وتظل ذكراه حية تجول بين الأحياء وتؤثر فيهم ، فحياة الانسان فى هذه الدنيا ثمرة أنضجتها القرون السالفة وأوصلتها إلى حالتها الحاضرة ، وللجيل الحاضر هذا الأثر نفسه فى الأجيال التالية ، وهكذا سيرتبط الماضى الدابر بالمستقبل البعيد ، ولن تموت أفعال الناس وإن ماتت أجسادهم وصارت هباء منثورا .

ولقد أظهر ذلك أحد المربين بعبارات بليغة هى : (إن كل ذرة تتحرك بالحركة التى حركها بها الحكماء الفلاسفة حتى إن الهواء نفسه يشبه كتابا كبيرا على صفحاته كل ما تفوه به بنو البشر : كل ما قالوه ولم يفعلوه ، أو وعدوا به ولم يحققوه) .

وكما وضع الله القدير على جبهة القاتل علامة ظاهرة لجرمه ، كذلك سَنَّ شرائع تلزم كل مذنب أن يقر بذنبه ؛ لأن كل ذرة من جسده مهما تغير وضعها لا تزال تتحرك بالحركة الأولى التى ارتكب بها ذلك الذنب : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . لذلك كان كل فعل نفعله ، وكل كلمة نقولها ، لا ، بل كل عمل نراه ، وكل قول نسمعه - يؤثر فى حياتنا أثيرا مستمرا ، ويمتد تأثيره إلى الجنس البشرى كله . ولا نقدر

أن نتتبع هذا التأثير بتفرعاته المختلفة بين أولادنا وأصحابنا ورفاقنا ، ولا أن نمنعه ، إذ لابد من أن يتصل بهم ، ويدوم امتداده مدى الأيام .

ومن هنا نرى أهمية القدوة الحسنة التى هى مهذب أخرس ، ويقدر عليها أفقر الناس وأحقرهم . والرجل الحقيقى ينشأ فى كل أين وآن : فى أكواخ المزارع ، وقصور المدائن . ومن فلح أرضا تقاس بالشبر أمكنه أن يكون قدوة لغيره فى عمله ، كمن يملك الألوف ، وعلى الفرص وانتهازها يكون معول الذين يجعلون من نفسهم أسوة وقدوة .

وخير تراث يتركه الآباء للأبناء ـ السيرة الحسنة ، والقدوة الصالحة ؛ فانهما يحدوانهم إلى سبيل الخير ، ويصدانهم عن الضير . ولا شرف أعظم من أن يسعد الخالف والسالف كل بعمل الآخر الحميد . وذوو الهمة والمروءة لايقدرون أن يحركوا الناس للعمل مالم يكونوا هم من أهله ، ولا يكفينا أن نقول للناس : اعملوا كذا وكذا ، بل علينا أن نعمل أمامهم ، وما أحسن ما قالته إحدى السيدات وهو : (إذا أردنا فعل شىء فعلينا أن نشرع فيه بأيدينا) :

إن قلت ـ ويحك ـ فافعل أيها الرجل * فكم رجال لنا قالوا ومافعلوا

فلوم قام « نُومَارْ بط » وتبوأ كل منبر ، وخطب فى إصلاح شأن المجرمين ولو قام « يوحنا بُونْدِس » وملأ جرائد البلاد من الحث على إنشاء المدارس للمساكين ، ولم يعملا عملا ـ ماأفادا شيئاً ، ولكنهما لم ينبسا ببنت شفة ، بل امتطيا متن العمل فنجحا ، واقتدى الناس بهما كما اقتدى الدكتور (غثرى) الواعظ البليغ الذى يدعى رسول مدارس المساكين بيوحنا بوندس فى تعليم أبناء المعوزين على أثر رؤيته صورة تمثل حانوت إسكاف هو « يوحنا » والاسكاف جالس ومنظاراه على أنفه ، وبين ركبتيه حذاء عتيق وعليه سيمى الهيبة والوقار وعلو الهمة ، وعيناه شاخصتان إلى جم من الصبيان والبنات ، جالسين أمامه بثياب خلقة ، وكتبهم فى أيديهم ، جمعهم مثل راع صالح

وعلمهم ، وانتشل من وهدة الشقاء ماينيف على خمسمائة ولد وهو يحصل خبزه بعرق جبينه . فانظر كيف جعلت العناية الالهية من هذه النظرة سعادة أولئك الأولاد الذين كانوا يطوفون الأزقة فى حال يرثى لها . وإنى لاخال عظماء الرجال وأشرافهم الذين أطنب الشعراء فى مدحهم ، وأقيمت لهم الانصاب قد وقفوا فى ساعة الحساب الرهيبة ، وانقسموا شطرين لكى يجتاز بينهم هذا الرجل الخامل الذكر إكبارا لأمره ، وتقديرا لفعله . ولا شىء يؤثر فى الأخلاق تأثير القدوة ؛ لأن الناس يقتدون بمن حولهم فى العادات والأخلاق والآراء ، وإن لم يقصدوا ذلك . وإن التحذير مع كونه قد يفيد كثيرا لتفوقه القدوة الحسنة ؛ لأنها مهذب عامل . والمرشد الناصح السيء السيرة كمن يبنى بيد ويهدم بالأخرى :

وإنك إذ ما تأت ما أنت آمر * به تُلْفِ من إياه تأمر آتيا

ولذا كان على العاقل أن يختار رفاقه ، ويسأل عن جاره قبل داره ، وعن رفيقه قبل طريقه ، ولاسيما فى شرخ الشباب ، فان فيه قوة خفية تجعل الشبان يتخلقون بأخلاق رفقائهم :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

فعلى الشبان أن يعاشروا فضلاء القوم ليقتدوا بهم ، وإلا فالانفراد خير من مرافقة أدنياء القوم ؛ لأن الانسان يعرف بأصحابه : فمن عاشر حكيما كسب الحكمة ، ومن لازم دنيئا باء بالدنايا ، والطبع سراق :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ولقد أحسن السير (بطرس للى) المصور من حيث إنه ألزم نفسه ألا يطيل النظر إلى صورة قبيحة خوفا من أن يكتسب قلمه منها شيئا يفسد ذوقه ؛ فان القبائح كالوباء ينشب أظفاره فى الأجسام فيبيدها وفى العقول فيضلها ، وملازمة الأفاضل تورث الفضل كالهواء إذا جاور الزهر طابت ريحه : قال فرنسيس هرنر عما استفاده من معاشرة العقلاء : (لا يسعنى أن

أنكر أننى استفدت منهم استفادة عقلية أكثر مما استفدت من كل الكتب التى تصفحتها فى حياتى) ولا عجب ، فالوردة تعطر ماجاورها ، والذبالة تنير ماحولها ، والنيل يسقى مافى حوضه من النبات ، وكذلك تأثير العقول فى العقول ، والأخلاق فى الأخلاق . ولقد يبلغ الولع بالمقتدى بعظيم أن يقرب منه حتى يلمس هدب ثوبه ، كما فعل (نورت كوت) مع (رينلدز) المصور.

والوقائع الحربية خير مدرسة تبث الشجاعة فى قلوب الجبناء ، ولا أدل على ذلك من أن الرجال العاديين قد فعلوا العجائب ، لأن قوادهم كانوا أبطالا بسلا . ولقد أراد (زِسْكَا) أن يكون قدوة صالحة فى مماته كما كان فى حياته ، فأوصى بجلده أن يصنع طبلا لكى يحرك شجاعة البوهيميين . وحرص الأتراك على الانتفاع بالقدوة جعلهم يطلبون عظام إسكندر بك أمير أبيروس بعد موته ليحملوها فتتصل شجاعته بهم ، ولقد عنى العالم بتدوين تراجم مشهوريه ليقتدى بهم الخلف ؛ إذ يرى آباءه أحياء فى سير حياتهم وجلائل أعمالهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ومن مات وترك وراءه مثالا حسنا فقد ترك لنسله ولغيرهم أفضل تركة لا تنقطع ثمارها . ومن يقرأ سير الرجال الأفاضل يشعر بحياة جديدة تدخل فى عقله وقلبه . ولقد تنبه السير الحسنة القوى الخامدة ، وتحدث فى الانسان ميلا إلى بعض الأمور بعد أن كان لا يشعر به ، وفعل القدوة الحسنة يتصل بالتسلسل إلى ماشاء ربك ، لذلك وجب اختيار الكتب الفضلى ، كاختيار أفضل العشراء ، ويحدث أحيانا أن يأخذ الانسان كتابا لمجرد التسلية فيرى فيه سيرة تنبه قوة كانت خاملة وتحرك يدا كانت متعطلة .

وإذا دققنا النظر رأينا فى الدنيا سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثلوا بمن قبلهم ، وكانوا مثالا لمن بعدهم . ومن الامثلة التى يمكننا أن نعرضها على الشبان ليقتدوا بها — مثالُ العامل المسرورِ بعمله ؛ لأن السرور زَيْتُ النفس : يسهل حركتها ، ويزيد مرونتها ، وبه تزول المصاعب ، ويزداد الرجاء

وتغتنم الفرص . والروح العالية تكون مسرورة دائما ونشيطة ، وتعمل أعمالها بسرور ، وتحرك الغير الى الاقتداء بها ، وترفع شأن أحقر الصناعات .

وأتم الأعمال مايعمله الانسان من قلبه بسرور : كان من عادة (هيوم) أن يقول : إنه يفضل الطبع الميال إلى السرور على عقار دخله عشرة آلاف جنيه مع طبع ميال إلى الحزن .

وإن شئت أن تعرف تأثير السرور فى انجاح الأعمال فهذا السير (يوحنا سَنْكِلير) امتزج اجتهاده بالجذل ، فذللا له كل صعب ، وأدنيا منه كل بعيد ، فقد أصلح وهو فى الثامنة عشرة من عمره أملاكا اتصلت إليه بالارث من أبيه ، وانتشر إصلاحه فى كل اسكتلندا ، وكانت الزراعة حينئذ فى حال يرثى لها ، والفلاحون فى غاية المسكنة ، ونساؤهم منهم كالدواب تحمل الأحمال ، والبلاد بدون طُرق والأنهار بغير قناطر ، فجمع ألفا ومائتى رجل ، وفتح طريقا طولها ستة أميال تسير فيها العجلات بسهولة ، مع أنه كان يتعسر سلوكها على المعزى ، كل ذلك فى نهار واحد ، فأعجب قومه به ، وانقادوا لرأيه ، وصار يفتح الطرق ، ويقيم المطاحن ، ويبنى القناطر على الأنهر ، ويحسن حال الزراعة ، ويشجع المجتهدين بالجوائز ، حتى صارت البلاد جنة يضرب بها المثل فى الخصب وحسن الطرق ، واتسع نطاق أعماله المفيدة ، فأنشأ مجمع الصوف البريطانى ، وجلب الأغنام على نفقته من البلدان البعيدة ، وأدخل الجنس الشِّفْيُوتِي إلى اسكتلندا غير مبال باستهزاء مربى المواشى الذين زعموا أنه لا يمكن حيوان الجنوب أن يعيش فى الشمال ، ولقد تبدد زعمهم حين رأوا كثرة الغنم الشفيوتية التى أحدثت ارتفاعا عظيما فى أسعار الأراضى الصالحة للمرعى .

ولما انتخب نائبا فى المؤتمر عن مقاطعته ، وسنحت له الفُرص لافادة بلاده ـ طلب إلى المستر (بت) الوزير مساعدته فى إنشاء مجلس وطنى للزراعة ، وهم باخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، فحرك ميل الجمهور

وأكْثَرِ أعضاء المؤتمر ، واستمر على إكبابه حتى أنشىء هــذا المجلس ، وانتخب رئيساً له بعـد أن كان يقال له فى مقـام التيئيس : (إن مجلس الزراعة الذى تحـلم به سيكون فى القمر) وجنت البلاد ثماره التى تجل عن الحصر . ولقد يأخذك العجب حـين تعلم أن هـذا الرجل العالى الهمة قاد كتيبة على نفقته ، عـددها ألف متطوع لمحاربة فرنسا وهو مـدير لمصرف اسكتلندا ، ورئيس لمجمع الصوف البريطانى ، ومدير لمجمع صيد السمك ، وعضو فى مجلس إصدار الأوراق المالية ، ونائب فى المؤتمر ، وهى أعمال لا يقوم بها عدة رجال ، ذلل مصاعبها وحـده ، ولم تقفه عن تأليف كتب تـكفى وحدها لتخليد اسمـه ، وكتابه فى الزراعة أفضل كتاب ، وكتابه فى حال اسكتلندا الاقتصادية والماليـة فى واحد وعشرين مجلدا من أعظم ماجادت به قريحة إنسان ، ولقد نتج من طبع هذا الـكتاب نتائج كثيرة حميدة : منها إلغاء بعض الامتيازات المضرة بالجمهور ، ورفع أجرة القسوس والمعلمين ، وترقية شأن الزراعة . ومازال هذا الفاضل آخذا فى أعماله باجتهاد وسرور إلى أن أدركته الوفاة ، فصار أفضل مثال لأسرته ، ولأهـل بلاده ، بل غرة فى جبين بريطانيا ، وقـد أحرز الخـير لنفسه ، وهو يطلب خير غـيره ، لا بجمع الثروة بل بما ناله من السرور والراحة الداخلية ، والسلام الشامل ، وتمم مايجب عليـه لوطنه ولم ينس مايجب عليـه لأهل بيته . وبنوه وبناته ارتقوا فى درجات المجد ، وأعظم ما كان يفتخر به (وقد ناهز الثمانين) أنه ربى سبعة بنين ومامنهم من استدان مالا لا يقدر على إيفائه ، أو أحزن أباه بعمل وكان تجنبه ممكنا .

معذرة فقد أكثرت من إيراد الأمثلة الأجنبية منا ـ لا عن فقر فى تاريخ رجالنا ـ وإنمـا أردت بعث الهمم بايراد مثـل قليلة كانت منشأ الحضارة الغربية التى نمتدح بها ، ونقتفى آثارها ، وإن أردتم أمثلة خيرا من هـذه

فصحائف تاريخنا مفعمة بها وحسبنا قوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »

العمل مظهر الخلق

لاقيمة للخلال التى تتصف بها نفس الانسان إلا إذا ظهر أثرها : فمهما كانت نفس الانسان راغبة فى النظافة مثلا ، عارفة بطرقها ، مقتنعة بلزومها ـ لا يصح أن يقال : إنه متخلق بخلق النظافة إلا إذا ظهر أثره فى جسمه وثوبه وفناء داره ومتاع بيته .

ومهما شعر الانسان من نفسه بالشجاعة والاقدام لا يصح أن يقال : إنه شجاع مادام يحجم أو يتسلل لواذا عن مواطن الخطر والدفاع عن الحوزة .

ومهما أحس من نفسه العطف والحنان على الفقير ولا يجود بفلس واحد فى سد حاجة ذلك الفقير وتخفيف الضر عنه ـ لا يصح أن يقال : إنه شفيق ولا أن يصف نفسه بصفة الرحمة والحنان . ومهما حدث عن نفسه أنه يحب وطنه ، وأنه يعتقد وجوب خدمته ، والاستماتة فى سبيله ، وهو إذا كلف أقل عمل لمصلحته جادل عن نفسه ومارى ، أو انخذل عن تأييد تلك المصلحة وتوارى ـ كان كاذبا فى دعوى الوطنية ولم يكن محبا لوطنه ولا متخلقا بحب الوطن . وهكذا سائر الأخلاق والفضائل الانسانية .

فالأخلاق خلال مشهورة تقع آثارها تحت مشاعر الحس سواء فى ذلك قبل أن تصبح عادة للانسان أو بعد أن تصبح عادة له تصدر عن نفسه بسهولة :

أليس هو قبل أن يعتاد الصدق يصدق مرة ثم مرة ثم مرة حتى يصبح الصدق عادة له فتصدر عنه أعماله وأقواله الصادقة بسهولة ومن غير روية ، فانظر كيف أن الأخلاق خلال تتكرر آثارها المحسة فى نهاياتها كما هى كذلك فى بداياتها .

حقاً إن الأعمال فى الانسان ترتكز على نيته وإرادته المستقرة فى نفسه ، وبهذه النية أو الارادة تصبح الأعمال خلقية ويكون لها حظها من الحسن والقبح ودرجتها من الاعتبار وإلا كانت وأعمال الحيوان سواء ؛ فان أعمال الحيوان تشبه أن تكون حركات آلية لصدورها عنه من دون قصد ولا سابقة فكر : تأمل قول بعض الحكماء : « من زرع فكرا حصد عملا ومن زرع عملا حصد عادة ومن زرع عادة حصد خلقا ومن زرع خلقا حصد حظه من هذه الدنيا سعادة أو شقاء » ومن أجل ذلك وجب على المربى أما كان أو أبا أو معلما ألا يتخذ القاعدة فى تربية الطفل وصف الفضائل والآداب وتربيتها فى نفسه وحمله على الاقتناع بضرورتها ، مكتفيا بذلك ، بل قرنها بالعمل الخارجى والممارسة الفعلية : فاذا أراد غرس خلق التعاون فلا يكتفى بأن يسرد على مسمع الطفل القضايا والمسائل سردا ، بل يقوم بمعونة غيره عملا بمرأى منه الفينة بعد الفينة ، ويمهد بين يديه طريق عمله وممارسته ، فيصير الطفل معوانا لغيره من بنى جنسه ، ويصح إذ ذاك أن يقال : « إنه محب للتعاون متخلق به » .

والخلق تارة يكون شخصيا أى متعلقا بشخص الانسان ، وعائدا أثره إليه أولا وبالذات ، ثم يجاوزه إلى مجتمعه كالسعى فى كسب المال ، وطورا يكون اجتماعيا يتصل أثره ونفعه بالمجتمع اولا ثم به تبعا : كالتعاون والتحاب وبذل المساعدة للآخرين المشاركين له فى هذا المجتمع ، لكننا إذا أنعمنا النظر وجدنا أنه قلما يخلو خلق شخصى من أثارة اجتماعية فيه أو خلق اجتماعى من أثر شخصى : فالعمل مثلا واجب شخصى تعود ثمرته ونفعه على العامل الساعى كما قلنا ، لكن فيه أثارة أو علاقة اجتماعية أيضا من حيث انه لو لم يعمل الانسان ويكدح ما وجد مجموع أعمال الأمة ومساعيها التى تتوقف عليها نهضتها وارتقاء مجتمعها ، وأن الدرهم الذى يكتسبه العامل الساعى جزء من مجموع ثروة الأمة ، ولولا درهم الفرد ما تكونت ثروة المجموع : كما أنه لولا نقطة الماء ما وجد هذا البحر الخضم .

والتعاون والتحاب خلق اجتماعى كما ذكرنا ، ولكن فيه منفعة شخصية

ويهدل ثمرها على المتخلق بخلق التعاون وإن لم يقصد هو ذلك من وراء عمله فان من أحب الناس وبغى الخير لهم ومد يده إلى مساعدتهم فى أيام شدتهم كانوا بالطبع حريصين على مقابلته بالمثل ، ومد يد المعونة إليه فى أوقات شدته ، وأيام محنته ، فيكون بذلك قد جنى من غرسه هذا الخلق الاجتماعى نفعا شخصيا وثمراشهيا ، وهكذا سائر الأعمال التى يزاولها الانسان فى حياته وإن كانت شخصية من جهة ـ كانت اجتماعية من جهة أخرى مادام الانسان مدنيا بالطبع . وقد شاء خالقه الحكيم أن تكون مصلحته ومرافق حياته مرتبطة بمصلحة بنى جنسه ومرافق حياتهم :

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

الأفعال الظاهرة دليل على الأخلاق الباطنة

قال أمير المؤمنين : إذا كان فى رجل خلة رائعة فانتظروا منه أخواتها : مثال ذلك : إنسان مستور الحال عنا رأيناه وقد صدرت عنه حركة تروعك إما لحسنها أو لقبحها : كأن ينكر غير مرة منكرا عجز غيره عن إنكاره ، أو يسرق كذلك ، فينبغى أن تنتظر وتترقب منه أخوات ماوقع : وذلك لأن الخليقة المحركة له إلى فعل ذلك لابد أن تحركه إلى فعل مايناسبها ؛ لأنها مادعته إلى فعل تلك الحركة لخصوصية فيها ، بل لما فيه من المعنى المقتضى وقوعها ، وهذا يتعدى إلى غيرها مما يجانسها ، ولذلك لاترى أحدا قد اطلعت من حاله يوما على أنه يدمن الخمر الا وسوف تطلع فيما بعد منه على أنه يقترف غيرها من الخبائث ، وكذلك فى الأمور الحسنة :

شتم بعض سفهاء البصرة الأحنف شتما قبيحا فحلم عنه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : (دعوه فانى قد قتلته بالحلم عنه ، وسيقتل نفسه بجرأته) فلما كان بعد أيام جاء ذلك السفيه وشتم زيادا وهو أمير البصرة ، وظن أنه كالأحنف ، فأمر به فقطع لسانه ويده . وإذا عرفت أن الطبع باعث على الأفعال فَلْنَتْلُ عليك شطرا مما اخترناه من الأخبار والأقوال فى أن الأفعال الظاهرة

علامات على الأخلاق الباطنة وكاشفة عنها : فمن ذلك قول أمير المؤمنين كرم الله وجهه : إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره ؛ فانك تقف من مشورته على عدله وجوره وخيره وشره .

وقال : ماأضمر أحدكم شيئا إلا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه . ولما كان الانسان إنما يضمر فى نفسه أمراً مهما عنده من عداوة أو بغضة أومحبة إلى غير ذلك ، وكان الوجود اللسانى عبارة عن الوجود النفسانى ومظهرا له - لم يتمكن المرء من حفظ ماأضمره بالكلية ؛ لأن مراعاة ذلك الحفظ إنما يكون للعقل بحسب مايراه من المصلحة ، والعقل يشتغل بالتصرف فى مهم آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره ، فينقلب الخيال به من سر العقل ، فيبعثه فى فلتات القول من غير ترو . وكذلك لما كانت التصورات العقلية والأمور النفسانية مبادىء للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل - لم تنفك الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار فى صفحات الوجه والعين . وشاهد ذلك التجربة ، ولله در القائل :

لاتسأل المرء عن خلائقه * فى وجهه شاهد من الخبر

وقول الآخر :

وفى عينيك ترجمة أراها * تدل على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدت اللين فيها * غدت وكأنها زُبر الحديد
وقد عاهدتنى بخلاف هذا * وقال الله أوفوا بالعهود

والشعر فى هذا المعنى كثير ، وإنما اقتصرنا منه على مقدار الحاجة . ومما يستطرد هنا الاستدلال بالآثار الظاهرة فى الجسم على الأخلاق الباطنة فيه وهو المسمى بالفراسة وهى الاستدلال بالخَلق على الخلق : فمن ذلك ماروى فى الأثر أن الهوج فى الطول ، والكيس فى القصار ، والكبر فى العور ، والبُهت (١) فى العميان ، والذكاء فى الخرس ،

وقيل مكتوب فى التوراة : تسع خصال فى تسع رجال : الشؤم فى الأعور ،

(١) الكذب

واللجاجة فى الأحول ، والغفلة فى الطويل ، والصرامة فى القصير ، والكياسة فى الكَوْسَج (١) والتكبر فى الأعرج ، والشطارة (٢) فى الأحدب ، والخبث فى الأشقر . وكانوا يقولون : عظم الجبين يدل على البله وعرضه يدل على قلة العقل ، وصغره يدل على لطف الحركة ، فاذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة ، والتى يطول تحديقها يدل على الحمق ، والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر فى الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان .

عبادة الله أقوى أركان الخلق

العبادة فى نظر الاسلام ممارسة الطاعات البدنية ، والقيام بالشرائع العملية ، وإن كانت العبادة تطلق أيضاً فى اللغة على توحيد الله وتعظيمه أبلغ تعظيم ، وتذليل النفس له ، والخضوع القلبى بين يديه : جاء فى الحديث الشريف : « لاَ عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ » ، فقد جعل الشارع « التفكر » من العبادات ، وإنما هو تأمل فى عظمة الله وحكمته الباهرة فى إبداع نظام الكائنات . فموضوع العبادة إذاً طاعة الله والتزام ماشرعه من الدين ، وهذا كما يشمل الطاعات البدنية كالصوم والصلاة يشمل الطاعات الأخرى التى منها الأعمال الخلقية ، فانها كلها مما أمر به الشارع ، وحض عليه أشد حض وذكر به أبلغ تذكير ، بل إن الطاعات البدنية على فضلها وعلو منزلتها فى نظر الشارع - إنما يراد بها تكميل الأخلاق وتربية النفس التربية الدينية الفاضلة .

انظر قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(١) من ليس فى لحيته شعر

(٢) الدهاء

لَمْ يَزْدَدْ مِنَ ٱللهِ إلاَّ بُعْداً » « كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إلاَّ ٱلْجُوعُ وَٱلْعَطَشُ »

فالعبادة البدنية إنما تقع موقعها من رضا الله تعالى إذا أدّت إلى تزكية النفس وتطهير الأخلاق وحسن القيام بالواجبات من حيث يكون ذلك سبباً في عظمة الأمة وثبات أمرها ونفوذ سلطانها ، وفي هذا يقول بعض علمائنا المتقدمين : « أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس »

وقد نبه الشارع صلى الله عليه وآله وسلم في غير ما حديث إلى تفضيل الأخلاق على العبادات بنسبة ما لها من الأثر المبين والنفع الظاهر في مصالح البشر وسعادة حالهم : من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » « عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » « إصْلاَحُ ذَاتِ ٱلْبَيْنِ خَيْرٌ مِنْ عَامَّةِ ٱلصَّلاَةِ وَٱلصِّيَامِ » والمراد باصلاح ذات البين السعي في إزالة الخصام وسوء التفاهم من بين المتنازعين من أبناء الأمة ، فيئول أمرهم إلى الألفة والقوة . « نَظَرُ ٱلرَّجُلِ إلَى وَالِدَيْهِ حُبًّا لَهُمَا عِبَادَةٌ » « مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا كَانَ خَيْراً لَهُ مِنَ ٱعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ » « إنَّ صَبْرَ أَحَدِكُمْ سَاعَةً فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ ٱلْإِسْلَامِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ ٱللهَ أَرْبَعِينَ يَوْماً » يعني أن اهتمامه وثباته في موقف يدرأ به الخطر عن أمته خير له من العبادة في تلك المدة .

وكما أن الشارع فضل مكارم الأخلاق على مجرد عبادة الجوارح كذلك فضل دراسة أسرار التشريع الاسلامي على مجرد العبادة أيضا : قال صلى الله عليه وآله وسلم « عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ »

هذه الأحاديث الشريفة ناطقة بأن مكارم الأخلاق ، وتكميل النفس بالعلم الصحيح وممارسة الواجبات الشخصية والاجتماعية عبادة ، بل قد تكون

أحيانا خيرا من العبادة على حسب مالها من حسن الأثر فى نفع الأمة وتوفير الخير لها .

الخلق عماد الايمان

أودع الله سبحانه وتعالى نفوس جماعات البشر روحا خلقية ، وجعلها مناط سعادتهم وشقائهم ، وأقسط الموازين للدلالة على انحطاطهم وارتقائهم حتى قال بعض علماء الاجتماع : « إنما تتفاضل الأمم فى حال البداوة بالقوة البدنية ، فاذا ارتقت تفاضلت بالعلم ، ثم إذا بلغت من الارتقاء غايته تفاضلت بالأخلاق »

ومن أجل ذلك كانت الأخلاق الركن المتين فى الشرائع السماوية ، والسبب الأكبر فى ظهور أمرها وبقاء سلطانها : فقد روى سيدنا أنس رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن حسنَ الخلق نصف الدين »

وجاء فى الحديث الصحيح عن أنس أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ الخلقَ وعاءِ الدينِ » وهذا يدل على أن نسبه الخلق الحسن إلى الدين كنسبة الوعاء الى الماء المستقر فيه ، فكما أن الماء لا يقوم بنفسه من دون وعاء يضم أجزاءه ويصونها عن التفرق والضياع ، كذلك أحكام الدين وتعاليمه لا تقوم بنفسها ، ولا يدوم سلطانها ، مالم يكن للمتدينين أخلاق ثابتة تحوط أحكام الدين وتحفظها من الضياع والاضمحلال : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ حفَّ الاسْلَامَ بمَكَارِم الاخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الأعمَالِ » وقد جعل صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته الشريفة إلى الخلق نشر مكارم الأخلاق فيهم إذ قال : « إنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخْلَاقِ »

ولما أراد تعالى أن يثنى على نبيه فى القرآن وصفه بحسن الخلق فقال : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » على أن الاسلام قرر فى غير موضع أن الأعمال الخلقية من ضروب الايمان : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ

شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ومعنى «إماطة الأذى عن الطريق» تنحية الحجر والشوك وكل عاقول يؤذى الناس فى طريقهم. فانظر كيف جعل إماطة الأذى عن الطريق من خصال الايمان وليست هى سوى جزء من الواجبات الاجتماعية. وإذا كانت «إماطة الأذى» من شعب الايمان كانت شعبه وخصاله التى لها علاقة بالواجبات الشخصية والاجتماعية مما يفوق الحصر ويتجاوز كل حد. وقد فسر بعض أهل الحقيقة الدنو فى الحديث بالقرب وإماطة الأذى بتطهير النفس. وتأمل الأحاديث الشريفة الآتية تجد الأخلاق الشخصية والاجتماعية دعامة عظيمة من دعائم الاسلام: قال صلى الله عليه وسلم: (أشرف الايمان أن يأمنك الناس وأشرف الاسلام أن يسلم الناس من لسانك ويدك» «المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» «أفضل الايمان أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيرا أو تصمت»، «من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن» والحديث صريح فى أن المؤمن من كان له ضمير يوبخه على صنيعه، ويبكته على ما اجترح من السيئات، «ليس بمؤمن من لم يأمن جاره غوائله» «أحسنكم إيمانا أحسنكم أخلاقا» «علو الهمة من الايمان» والمراد بعلو الهمة كبر النفس والطموح إلى معالى الأمور، والبعد عن سفسافها، «الدين المعاملة»

هذه الاحاديث ناطقة بأن الأخلاق الشخصية والاجتماعية من خصال الايمان وأجزائه المتممة له، وأن المؤمنين يتفاضلون بما يتم لهم من هذه الاخلاق والخصال. فليزدد المؤمن الموفق من ذلك

ولا أدل على قوة ارتباط الأخلاق بالايمان فى نظر الاسلام بما ورد عن سفانة بنت حاتم الطائى: أسرتها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتوه بها فقالت: «هلك الوالد، وغاب الرافد، فان رأيت أن تخلى عنى، ولا

تشمت بى أحياء العرب؛فان أبى كان سيد قومه : يفك العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبا ، أنا بنت حاتم الطائى . فقال لها صلى الله عليه وسلم : « ياجارية،هذه صفات المؤمنين حقاً . خلوا عنها ، فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق » ثم أسلمت هى وأخوها (عدى بن حاتم) رضى الله عنهما »

القاعدة الخلقية

تبتدىء كل قاعدة خلقية بضرب من الأوامر تقضى بثواب أو عقاب، وباتباعها مع توالى الزمن وتكرار الفعل تصبح عادة موروثة لاتكلف فيها ، ويشعر الناس أنها شىء حسن يميلون اليه طوعا ، فنحن الآن نستر جسومنا بالملابس دون أن نؤمر بذلك ، ونخجل أن نسير عراة ولو فى الظلام ؛ لأنا نعتقد أن ذلك أمر قبيح ، بخلاف أهل الأزمان الغابرة . وكلما أردنا أن نسن قاعدة خلقية صغناها فى أمر ينفذ بقوة القانون ريثما يألفها الناس وتصير عادة مستحبة عندهم ، وسنة خلقية بينهم : كمنع البصق فى المراكب العامة مثلا .

فالسنة الخلقية إذاً هى الواجب الذى يفعله الانسان من تلقاء نفسه معتقدا صحته .

والسنن العامة أنواع :

١ ـــ السنن الكونية الطبعية : كقوانين الجاذبية ، والضوء ، وتعاقب الفصول . وهذا النوع لاسبيل إلى تغييره أو تبديله لاستقراره وثبوته .

٢ ـــ السنن الاجتماعية : وهى ماقضت بها مواضعات الاجتماع وعوامله وهى متغيرة بتغير الأزمان والأجيال على أن بعضها ثابت كقانون العرض والطلب فى التجارة ، وكقواعد اللغات .

٣ — الشرائع الوضعية : وهى ليست عامة ولا ثابتة ، ويمكن من يرضى بتحمل العقاب أن يعصاها سراً أو جهراً .

والسنة الخلقية لاتقبل التغيير ، لأنها سنة الحق والصواب ، والحق عام ثابت فى كل زمان ومكان وجيل وإن اختلف الناس فى فهمه والوصول إلى كنهه ، وللشخص أن يتحلى بها ليسمو إلى الخلق الكامل ، فان تجرد منها كانت شخصيته ناقصة . والفرق بين السنة الخلقية والشرائع الوطنية أن الأولى ليست أمرية بل يفعلها الانسان طوعا واختيارا ، أما الأخرى فانها أمرية أمر بها النظام الأجتماعى وأوعد من يخالفها بالعقاب ، بخلاف السنة الخلقية التى يتبعها الانسان بمحض إرادته ويعدها الغاية الحسنى ، فاذا تركها نقصت شخصيته وعاقبه ضميره بالتأنيب ، وكفاه ذلك عقابا .

فالواجب فى نظر القانون أمر مفروض على الانسان أداؤه دون مناقشة ، وأما الواجب الخلقى فشىء مسوق اليه باختياره تلبية لنداء ضميره : ذلك بأن السنة الخلقية تكمل الشخصية ، والحق مثل كامل يسعى اليه الانسان مادام محتفظا بشخصيته ، فان أساء فهم الحق وهو حسن النية لاينقصه ذلك شيئا من شخصيته ؛ لأنه لايلبث أن يتدارك خطأه ، ويصلح ما أفسده . ولو تساوى الناس فى العقل والحكمة والفطانة لتلاقوا فى نقطة واحدة هى نقطة الحق الواحد المطلق العام الثابت : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) ولكن فيهم من عرف الحق واتبعه لا لأنه الحق بل لأنه يوافق رغباته ، ومنهم من طلب الحق وأخطأ السبيل ، ومنهم من هداه الله إلى الحق فعرفه ، واتبعه لذاته ، وقليل ماهم .

ومما لاشك فيه أن الشرائع المدنية والقواعد الخلقية متفقة فى منع الكذب وخلف الوعد والسرقة ، فاذا تجنبها الانسان خوفا من العقاب فقد أطاع القانون ، ولكنه لا يعد إنسانا كاملا إلا إذا تركها بغضا فيها وحبا فى الكمال .

الحقوق والواجبات القومية

إذا استطاع فرد أن يعيش فى عزلة عن الناس كانت حقوقه وواجباته على قدر ماتوحى إليه غرائزه ، إذ لاشأن له فى الحياة الخلقية ، لأن الحياة الخلقية تتوقف على الجماعة التى يحتمل أن تحتك الرغبات فيها وتتصادم ، ونواة الجماعة الأسرة وهى تحرص الحرص كله على البقاء والسعادة ، ولاسبيل إليها إلا بالتضافر والتضحية الفردية ، وإذا تناسلت الأسرة نشأ عنها فخذ ثم بطن ثم عمارة ثم قبيلة ثم شعب ، وصار على كل فرد منه حقان : حق لأسرته ، وحق لشعبه . ويحتمل أن يصطدم الحقان فيضحى ذو النفس الخلقية بحق أسرته رجاء إسعاد أمته ، كما يضحى حق نفسه فى إسعاد أسرته . هذا إذا كانت روابط الشعب متينة ، أما إذا كانت قلوبهم شتى كانت التضحية الكثيرة غبنا عليه وعلى أسرته ؛ فان مقدار مابين القوم من المحبة والتكافل يعيّن ما على الفرد من الواجب ، والأمم تسير فى سبيل الرقى بقدر مابين أفرادها من حسن الرابطة وتمام التعاون ، والأمة التى يختل فيها هذا التوازن ويكثر فيها الحيف والمحاباة والاغتصاب تتقهقر وتتعرض للفناء ، وعلى هذه القاعدة كانت القبائل يغزو بعضها بعضاً ، وتعد القوية ماتنهبه من الضعيفة حقاً لها ، وتستبيح دول أوربة الآن استعمار بلاد الشرق وشمالى إفريقية ، وترى الحقّ الذى تقيمه بين أفرادها وبين جاراتها من الدول - باطلا إزاء الأمم الشرقية ؛ فالحق بينها وبينهم هو القوة

فنرى أن الحق والواجب متناسبان مع قوة التضافر بين الأفراد والجماعات ، والحق فى الجماعة أو الأمة الواحدة مايوحى به الضمير ولو كان مستندا إلى قانون يؤيده ، ولكنه بين أمة وأخرى أو طبقة وطبقة تعينه القوة ، وليس هذا حقاً خلقياً ؛ لأن الحق الخلقى هو الحق المطلق المستمد من الضمير السليم البعيد عن التحيز لشخصية أو حزبية أو جنسية ؛ لأن الناس على اختلاف درجاتهم وقوتهم وبلادهم تحميهم رابطة الانسانية ، فالبسيطة وطن عام للجميع ،

والعالم كله سائر فى سبيل الرقى العلمى والسياسى والخلقى والاقتصادى ، فليس بعيد أن نراهم جميعا ينشدون الحق المطلق ، ويحوطونه بسياج من التكافل وتبادل المنافع ، ولهذا تعقد المعاهدات ، وتسن القوانين الدولية ، فكلما قطعت الأمم خطوة نحو الرقى الانسانى قربت من الحق المطلق ، وانضوت تحت لواء الانسانية العامة .

الموازين الخلقية

مقدمة

مثل أعمال بنى الانسان مثل كتاب ينظر فيه القاضى فيصدر حكمه وفقاً للقانون ، ويطلع عليه المؤرخ فيستخرج منه عبرة وموعظة ، ويدرسه العالم الاجتماعى فيستنبط قاعدة ، ويتأمله المشتغل بعلم الأخلاق فيقضى فيه على حسب موازينه ومقاييسه . ولما كان لكل عمل من الأعمال دواع او بواعث وجب أن نوجز القول فى دواعى الأعمال قبل البدء فى موازينها فنقول :

دواعى الأعمال

لقد نظر الخلقيون فى البواعث التى تسوق الانسان إلى اقتراف أعماله فألفوها محصورة فى ثلاث : الميل الفطرى ، والمنفعة ، والواجب : ذلك بأن الأطفال يأتون أعمالهم مسوقين بجبلتهم وغرائزهم ليس لهم من الارادة والاختيار مابه يعتزمون ويتخيرون ، وهم فى غرائزهم مختلفون : فمنهم من أوتى طبائع هى أصول الفضائل وبذور محاسن الخصال وكريم العادات ، ومنهم من كان نصيبه سيىء الجبلات وردىء الغرائز ، سواء أكان ما أوتوه من طريق الوراثة قريبها وبعيدها ، أم هى قدرة الخالق الفرد قضت عليهم بها . وهؤلاء إن أتيح لهم قسط من التعليم الصحيح والتهذيب الخلقى نجوا من شر طبائعهم ، ودخلوا فى زمرة أهل الفطر السليمة ، فأصبحوا اخيارا صالحين . أما المنفعة فهى تلمس الهناءة الشخصية وإفراغ الوسع فى نيل المآرب وقضاء

اللبانات مع التعويل على إعمال القريحة والفكر والاستمداد من معين الارادة والعزيمة .

وأما الواجب فهو فعل ما ينبغى سواء أكان فيه رضا للميل والمنفعة أم اغضاب لهما ، وهو أشرف الثلاثة وأنبلها ، فهو الآمر الزاجر الحجة على القلوب الذى يوجب تقديم الميل مع المنفعة قرباناً له ، لا بل يوجب تقديم الحياة التى لايغنى عوض منها ، وهو يشمل الواجب الدينى والمدنى والفردى والاجتماعى .

يستخلص مما تقدم أن من يَتَقَصَّى أعمال بنى الانسان يجد منها مادا عيته الميل الفطرى فقط كأفعال الأطفال ومن فى حكمهم مما استحوذ على قلوبهم الهوى وجنوده ، ومنها مادا عيته الميل والمنفعة كمن يلتمس المال والبنين ، ومنها مادا عيته محض الواجب على تعدد ضروبه كمن يذود عن بيضة دينه ، أو يدفع عن حوزة قومه ووطنه ، وقد تجتمع الدواعى الثلاثة كالعلماء ينقبون عن حقائق السنن الكونية وما أودعها الله من الفوائد والمنافع لبنى الانسان عامتهم وخاصتهم ، إذ فيها ينقع العالم غلّة ميله ، ومنها يستنبط ما يقوّم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفى إماطة اللثام عنها وإخراجها للعالمين ـ قيام بالواجب جدير بالذكر ، قمين بدائم الثناء .

وقد ردها ابن حزم إلى أصل واحد إذ يقول فى كتابه « مداواة النفوس » مانصه : « تطلبت غرضاً يستوى الناس كلهم فى استحسانه وطلبه فلم أجده إلا واحدا وهو طرد الهمّ ، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ومراداتهم لايتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرد الهم ، ولا ينطقون بكلمة أصلا الا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم : فمن مخطىء وجه سبيله ، ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب ، وهو الأقل . فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن ينتهى عالم الابتداء ويعقبه

عالم البقاء ، على ألا يقصدوا شيئا سواه ، وكل غرض غيره ففى الناس من لايستحسنه : اذ فيهم من لادين له فلا يعمل للآخرة ، وفيهم من أهل الشر من لايريد الخير ولا الأمن ولا الحق ،

ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ومنهم من لايبغى المال بل يؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومن تبعهم من الزهاد والفلاسفة ، ومنهم من يبغض اللذات بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه ،

وفى الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثر من نرى من العامة .

هذه هى أغراض الناس التى لاغرض لهم سواها ، وليس فى العالم مذكان إلى أن ينتهى أحد يستحسن الهم ولايريد اطراحه عن نفسه ،

فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع وانكشف لى هذا السر العجيب وأنار الله لفكرى هذا الكنز العظيم - بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم الذى هو المطلوب النفيس الذى اتفق جميع أنواع الانسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعى له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة ، وإلا فانما طلب المال طلابه ليطردوا به همّ الفقر عن أنفسهم ، وإنما طلب الصوت من طلبه ليطرد به عن نفسه همّ الاستيلاء عليها ، وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه همّ فوتها ، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل ، وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه همّ التوحد ومغيب أحوال العالم عنه ، وإنما أكل من أكل وشرب من شرب ولبس من لبس ولعب من لعب وكنز من كنز وركب من ركب ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الفعال وسائر الهموم .

وكل ماذكرنا لمن تدبره هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض فى خلالها من فقد وضياع ومنافسة منافس ومناوأة عدو وحاسد ، أما العمل

للآخرة فقد وجدته سالما من كل عيب خالصا من كل كدر موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة ، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه فى تلك السبيل لم يهتم بل يسر ، إذ رجاؤه فى عاقبة ماينال به عون على مايطلب وزائد فى الغرض الذى يقصد ، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر فيما يطلب . ورأيته إن قصد بالأذى سر ، وإن نكبته نكبة فرح ، وإن تعب فيما سلك فيه سر ، فهو فى سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك . فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم ، وليس له إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى ، وما عدا هذا فضلال وسخف ثم أردف ذلك بقوله :

لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل فى دعاء إلى حق ، وفى حماية الحريم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفى نصر مظلوم . وباذل نفسه فى غرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى ، ولا مروءة لمن لادين له ، والعاقل لايرى لنفسه ثمنا إلا الجنة .

الموازين الخلقية

إن لكل شىء ميزانا يوزن به ، ويقدر على حسبه ، فلا سبيل للأحاطة بمجمله وتفصيله ومحاسنه ومثالبه ، ودفع الشك واللبس فى جوهره وعرضه إلا إذا عرف ميزانه ومقياسه ، فما مقياس الأعمال خيرها وشرها ، وما مرجعها الذى تُرَد إليه ؟ لقد افترق الفلاسفة الخلقيون قديما وحديثا فرقا شتى فى إجابة هذا السؤال ، فأدلى كل برأيه ، ودعم حجته وبرهانه ، وها نحن أولاء نبسط مذاهبهم فنقول :

الميزان الأول

العرف

قال قوم : إنه العرف ، وحجتهم أن الانسان لايزال ينظر الى عادات قومه ومواضعاتهم نظرة إكبار وإجلال يستمد منها آراءه وينسج منها أحكامه ،

وليس شيء أحب إليه مما وافق مألوفهم ومواضعاتهم ، فالخير ما وافقها والشر ما خالفها ، ومن جرى عليها فهو المحمود الجدير بالثناء ، ومن خالفها فهو الذميم المستحق للمقت والبغضاء .

وقد بلغ من مكانة العرف أن فقهاء الحنفية اتخذوه قاعدة شرعية بنوا عليها كثيرا من الأحكام ، بيد أن التاريخ شاهد عدل على أن اتخاذ العرف معيارا للحسن والقبيح وميزانا للخير والشر خطأ عظيم : ألم تعلم أن العرب كانوا لا يرون غضاضة فى وأد بناتهم والتزويج بمحارمهم جريا على عرفهم ؟ فلما جاء القرآن ونبههم على سوء فعلهم وقبيح صنيعهم كفوا عن عاداتهم وأدركوا مبلغ خطئهم . وكان الرومان يقرون ما للآباء على الأبناء من الحق فى قتلهم ، وظل العالم كله لا يجد عيبا فى الاتجار بالرقيق ، وتنزيله منزلة السلع ، حتى جاء الاسلام . وكانت هذه العادة قد رسخت فى نفوس البشر ، فحض على هجرها واجتنابها بشتى الطرق ومختلف الوسائل . ومن الأمور التى أقرها العرف عند العرب فى جاهليتهم وغيرهم من الأمم البدوية أنه كان يحق لكل من أقارب القتيل أن يأخذ بالثأر من الجانى ، فان هرب وخفى مكانه جاز لولى القتيل عرفا أن يقتل أيا كان من أقارب الجانى قِتلة كقِتلة القتيل .

ومما لا شك فيه أن العرف مختلف لاختلاف الأمم ، ولمساوقة الفواعل التى نشأت عنها وجوه الاختلاف فى الخَلق والخُلق : ألم يأتك نبأ بعض القبائل التى لا تزال على حالها الفطرية كأهل « برنو (١) » ؛ زين لهم العرف أن أحدا لا يستحق أن يخطب فتاة حتى يلقى عند قدميها هامة إنسان ، فان عجز عن ذلك عد فى حكم العرف نذلا مهينا جبانا عند أبناء عشيرته غير كفء لخِطبه . هذا القتل يعتده أولئك المتوحشون نبالة وإقداما يوجب القصاص عند أهل الشرائع السماوية والوضعية . ومما يقره عرف « الزولو (٢) » أن الجندى لا يستطيع التزوج إلا إذا شهد معركة وانتصر

(١) هم قبائل الى الغرب من بحيرة شاد بأفريقية

(٢) سكان بلاد جنوبى إفريقية وهم قسمان : قسم فى « ناتال » وآخر

فيها ، وأغرب من ذلك أنهم يزوجون قسرا وإلزاما الفرقة برمتها من الجنود ببنات الفرقة الأخرى ، ومن حاول مخالفة الأمر من الجنسين قتل على الفور .

ومما تواضع عليه الأستراليون الأصليون أن من كانت له ابنة وبلغت الرابعة عشرة من عمرها عرضها على أحد الرجال للزواج ، ومتى تم الاتفاق على تزويجها أسلمها أبوها إلى الزوج دون أن تراه أو تعرفه، فاذا أبت أخذها بالتوبيخ ثم الزجر ثم الضرب حتى تخضع ، وعند ذلك يجرها من شعرها إلى بيتها الجديد .

ومن عرفهم أنهم يطعمون الغلام من لحم أخيه القتيل لتجتمع له القوتان فى جثمانه ، ومن عرف «التمنيين» وهم من أهل « سيراليونة (١) » أنهم إذا أرادوا انتخاب ملك عليهم ضربوه ضربا مبرحا ليمتحنوا صبره وجلده ، وكثيرا ما يموت من شدة الضرب .

ولقد درج أهل « سنغمبيا » على ألا يعتدوا الغلام فى مصاف الرجال حتى يظهر براعة ومهارة فى غزوة أو لصوصية . ومما يقره « الميلاتيز (٢) » أنه اذا مات أحد رؤسائهم قتلوا واحدة أو أكثر من نسائه أو واحداً من أقاربه أو أصدقائه زعما منهم أن ذلك مُضىّ فى خدمته إلى عالم الآخرة ، وقد تطلب نساء الميت القتل طوعا واختيارا خشية أن يعشن ذليلات بعدوفاته .

ومما ارتضاه « الفيلوب (٣) » أنهم إذا اتهموا رجلا بسرقة أتوه بقضيب

فى مستعمرة الكاب ويعرفون جميعا باسم « الكفار » وهى تسمية عربية أطلقها عليهم المسلمون من سكان إفريقية ، وهؤلاء الكفار أشد أمم « البنتو » بطشا وأكثرهم إقداما على الحروب .

(١) كلمة برتغالية معناها (جبل السباع) وهى مستعمرة إنجليزية فى السودان الغربى رديئة الجو . (٢) قوم يقيمون وراء « غانة الجديدة » فى جزائر بسمارك المشتملة على جزائر بريطانية « الجديدة » « وإرلندة الجديدة »

(٣) هم سكان مستعمرات إنكلترا والبرتغال على ضفتى نهر (غمبيا) فى غربى إفريقية

من الحديد محمى إلى درجة عظيمة ، فأدنوه من لسانه ، فاذا احترق ثبتت عليه جنايته ، واذا اتهموا ساحرا من سحرتهم أو عرافا من عرافيهم حاكموه إلى كأس السم ، فيتحساها ، فاذا مات اتخذوا موته دليلا على ثبوت الجناية عليه ، وقد حل به جزاؤه .

ومما كان يستحسنه « البنتو (١) » المتوسطون أنهم إذا أرادوا أن يقربوا قربانا شدوا إنسانا الى شجرة ، فاذا افترسه وحش بالليل دل ذلك على قبول قربانهم ، وإلا أوثقوا يديه ورجليه بحبل ، وربطوا حجرا إلى عنقه ، ثم ألقوه فى البحيرة ؛ ليغرق أو ليلتقمه التمساح .

ومما لايزال يعمله « البنتو (٢) » الغربيون أنهم يحتفلون كل سنة بالصلب ، فيأتون برجل يعدونه للصلب ، ثم يتقدم « البادونقا (٣) » منتضيا سيفاً طويلا ، فيأمر بصلب المحكوم عليه فى جذع شجرة ، ثم تدق المسامير فى كفيه وقدميه ، ويسام سوء العذاب .

ومما جرى عليه عرف « البَتَّا » أنهم إذا نشبت حرب بينهم وبين عدو لهم حفروا حفرة ، فوضعوا فيها غلاماً ، ثم هالوا عليه التراب إلى عنقه ثم أطعموه مزيجا من « الزنجبيل » « والفلفل » « والملح » حتى اذا أشرف على الموت عطشاً سقوه قليلا من الماء ، ولا يمكنونه من الارتواء حتى يقسم لهم أنهم منتصرون على عدوهم ، فاذا أقسم صبوا فى حلقه رصاصا ذائبا ، فيموت على الفور وهو على قسمه .

هذه هى أمثال ضربناها ، لنبين أن العرف لا يصلح أن يكون ميزانا خلقيا .

---

(١) هم الذين يستوطنون الجهة الشمالية من بلاد « الكنغو الحرة »

(٢) هم قوم كانت لهم دولة قوية إلي الجنوب من نهر « الكنغو » قبل مجيء البرتغاليين سنة ١٤٩١ ثم اعتنقوا النصرانية زمنا قصيرا

(٣) هو كاهن متنكر يلبس وجها مستعارا ويتشح برداء مصنوع من ورق الموز أو غيره من الشجر .

الميزان الثانى
الفطرة

يرى القائلون بهذا المذهب أن فى النفس البشرية قوة غرزية ملهمة حقائق الأمور هى الفيصل الذى ترد إليه الأعمال : فبها تفرق بين الخير والشر ، وتميز بين الحق والباطل كما تميز الباصرة السليمة بين الأحمر والأصفر مثلا . ويستدلون على صحة رأيهم هذا بأن جل بنى الانسان على اختلاف العصور قد أجمعوا كلمتهم على أمور لايزالون مجمعين عليها : فقالوا مثلا إن الصدق محمدة ، والشجاعة مكرمة ، والاحسان جميل ، والكذب مذموم ، والجبن ممقوت ، والشح قبيح .

ولامرية فى أنهم فرقوا بين هذه الرذائل وتلك الفضائل بعين البداهة ومحض الالهام كما أدركت أبصارهم جمال الأمور المحسة وقبحها . وبنوا على مذهبهم هذا أن الخير أو الشر ما ترشد اليه الفطرة لاماجلب لذة وهناءة ، أوجر إلى ألم ومساءة ، وأن الصدق صدق فى ذاته وان أفضى إلى مغبة وخيمة ، والكذب كذب فى ذاته وإن أعقب اغتباطا وعاقبة هنيئة . من أجل ذلك يرون أن الاقوال والأحوال ، لا ، بل الأفعال الخلقية جميعها — وسائل لامقاصد ، وأن الفضيلة فضيلة على اختلاف الحال والمكان والزمان لاترتبط بغاية من الغايات ومأرب من المآرب ، وأنها بدهية غنية عن الدليل والحجة ، وأنها لاتنقلب إلى ضدها وإن تبدلت الأحوال وتعاقبت غير الليالى والأيام .

يرى أهل هذا المذهب أن هذه « الفطرة » تدرك دون خبرة وتعلُّم وأن هناك قواعد للسلوك الخلق واضحة بينة لا لبس بين خطئها وصوابها خيرها وشرها ، وأنها رأس الفضيلة الخلقية ، بيد أنهم لايزالون مختلفين فى حقيقة هذا الذى تدركه الفطرة بما أوتيته من وحيها وتلقينها : أهو سداد الفعل ، أم سداد المبدأ الخلق ؟ ففريق يرى أن الموهبة الجبلية التى فطر الله الناس عليها تمكنهم من التفرقة بين الحق والباطل والخير والشر فى الأفعال الجزئية كما يسر لهم أن يعرفوا لأول نظرة لون المنظور إليه أحمر أو أخضر مالم تكن على أبصارهم

غشاوة ، وفريق يرى أن الذى يدركه الانسان بداهة هو صدق مبادىء كلية ، عم التسليم بها بين بنى الانسان فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الحكم على الأفعال الجزئية بأنها خطأ أو صواب إنما جاء من تطبيق هذه المبادىء : فاذا علمنا علما صحيحا أن عليا مثلا استحوذ على مال محمد غصبا أو احتيالا - قضينا باستهجان عمله واستحقاقه للمقت عملا بمبدأ معلوم بالفطرة : وهو أن الاغتصاب والاحتيال من أعمال الباطل ؛ وعلى ذلك فايقاع الحكم الخلقى يتم بحركة عقلية قوامها إدخال عمل بعينه فى قاعدة أوحت بها الفطرة التى وهبها الله لجميع طبقات الأناسى ، كما وهب لهم المشاعر

قدم هذا المذهب

إن الذى يستقرىء تاريخ الفلسفة وماحوته من شتى المذاهب يرى أن القول بتلقين الفطرة ليس أمرا محدثا ، بل قال به « زينون » الفيلسوف اليونانى : فقد كان مما يدعو إليه رياضة النفس وامتحانها بحرمانها مشتهياتها وتطهيرها من أرجاس الشهوة وأدناسها ، إذ تمكين النفس منها يفضى إلى بطر يطغى ، وأشر يردى ، ويحول بينها وبين العمل بما علمته تلقينا وإلهاما ، فاذا أعطيت المراد من شهوات وقتها تعدتها إلى شهوات قد استحدثتها . وقد تقبله أتباعه ، فأخذوا يبثون فى نفوس الناس ما استنبطوه من أقوال أستاذهم وسيرته : من الحرص على استبقاء النفس الطاهرة مجردة من شوائب الشهوات ليتم لها القيام بما أودعته بالفطرة ، وأن اللذة ليست غرضا من أغراض الانسان وليست من الخير فى شىء ، بل أنبل الأغراض وأحجاها هو تلمس الفضيلة والحرص عليها ، وإن أفضى ذلك إلى ركوب متن الأهوال واقتحام المخاطر واحتمال الأذى فى النفس والمال والولد .

أخذوا ينشرون فى أرجاء بلادهم أنه يجدر بالانسان الذى منحه الله العقل والحكمة ألا يجعل همه تحصيل الغنى وجلب اللذات ، وأنه حرى به ألا يجعل له هما سوى أن يكون متحليا بمكارم الأخلاق رافعا لواء عزة

النفس فى أى بيئة كان ، لايحفل بما يعامله به النـاس من تبجيل أو تحقير موقنا أنه جار على سنن الفضيلة . ولقد ضربوا للحياة مثلا ، فقالوا : مثل الناس فى هذه الحياة الدنيا كمثل قوم يمثلون رواية على المسرح : فمنهم من عمله تمثيل الحاكم ، ومنهم من عمله تمثيل النديم أو الشحاذ أو المحتال ، فلا اعتداد بالكسى والأردية التى تميز بينهم ، فلا نطرى الحاكم لبريق تاجه وبهاء ملبسه ، ونذم الشحاذ لرثاثة ثيابه وبشاعة منظره ، وإنما نحمد منهم من يحسن نصيبه من التمثيل ، ويتقنه الاتقان المروم .

كذلك الناس فى هذه الحياة الدنيا : لانحمدهم لحسن منظرهم وبهاء ظاهرهم ، بل لطهارة مخبرهم ونقاوة سرائرهم ، وحسن أقوالهم وأحوالهم ، والاضطلاع والوفاء بما اؤتمنوا عليه .

نقد القول بالفطرة

حقا إن هذه الفطرة التى قصدها أهل هذا المذهب تفرق بين الخير والشر وتميز الحق من الباطل والخبيث من الطيب ؛ لأنها الجبلة القابلة للحق ، إلا أنها قد يعرض لها مما يحوطها مايعطلها قليلا أو كثيرا ، ويصرفها عن السداد فى حكمها ، و يغَشِّى قابليتها ، وحينئذ يرى الانسان الخير شرا والحسن قبيحا ، فلا يصح إذن أن تكون هذه الفطرة مقياسا خلقيا يركن إليه ، ولا رائدا يُعوَّل عليه ، ويجمع ذلك كله قول الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وهو جلى فى أن الفطرة فى مبدئها صافية فى ذاتها لا يَطْبَعُهَا إلا مايطيف بها .

الميزان الثالث

القول باللذة

تمهيد

(ا) حقيقة اللذة

اللذة شعور جسدى أو عقلى بما أحدثه الفعل من إرضاء الشهوة سواء أكانت جسدية، أم عقلية: فالشبع لذة لأنه سد الجوع، والصدق لذة لأنه أرضى الضمير، والفوز لذة لأنه أرضى الطمع بالشهوة أو رد بغيا أو صان عرضا أو حفظ وطنا، والربح لذة لأنه أرضى شهوة الطمع فى المال.

(ب) اللذة والألم

وحال الانسان لاتخلو من أمرين: لذة أو ألم: فاذا جاع أحس ألم الجوع، وإذا شبع أحس لذة الشبع، وحل السرور محل الألم. فالفعل ينقله من حال الألم إلى حال اللذة، أو يقربه منها، والغريزة التى هى مصدر الأخلاق هى التى تحركه إلى الفعل الذى ينجو به من الألم.

(ج) ضروب اللذة

للذة ضروب ثلاثة: -

الأول - اللذة التى نستمدها من فعل مضى،

الثانى - اللذة التى ننتظر أن تنشأ عن فعل معين فى المستقبل،

الثالث - اللذة التى نشعر بها فى الزمن الحاضر لأمر سيقع فى المستقبل.

فاللذة الأولى حدثت مع حدوث الغاية، والثانية لم تحدث بعد وإنما ننتظر حدوثها، والثالثة نشعر بها فى الحال.

وهنا نتساءل: هل يختلف الشعور نفسه حين حدوث اللذة عن الشعور بها حين تصورها واقعة؟

الجواب أنهما يختلفان من حيث الشدة ، وفى كثير من الأحوال تكون اللذة بتوقع حدوثها أشدّ منها حين حدوثها ، وفى غالب الأحايين تنتهى اللذة حين تُبْلَغ الغاية .

ومما تقدم يتبين أن الغاية ليست اللذة بعينها لحدوث اللذة قبل حدوث الغاية ، وفى هذا خفاء على الذين ألفوا اللذة متفقة مع الغاية ، ولو فطنوا إلى أن كثيرا من الأفعال نفعلها قبل أن نخبر غايتها لنعلم مبلغ ما فيها من المسرة أولا - لاقتنعوا بأن الغاية شىء واللذة شىء آخر ؛ ذلك بأن الغاية دفعت إليها الغريزة لحاجة الجسد أو النفس إليها ، فالطفل لم يرضع ثدى أمه لأول مرة قصدَ لذة الشبع ، وإنما الغريزة دفعته إلى رضاعة الثدى ؛ لأن وظيفتها دفعه للفعل فى سبيل حياته وبقائه . والطفل يبكى لا لأنه جائع متألم من الجوع ، فقد يكون شبعان ثم يبكى ؛ لأن الغريزة تدفعه للبكاء لكى يحرك حنو أمه لارضاعه .

ولما وجد الانسان من طريق الاختبار أن الاندفاع فى العمل بعامل الغريزة يمنحه لذة - أصبح يندفع هذا الاندفاع توخيا اللذة ولكن الغريزة لم يكن قصدها اللذة ، وإنما النفع الحيوى من نموه وبقاء حياته واستمرار نوعه ، بيد أن الطبيعة قرنت هذه الغاية بلذة ؛ لتغريه بالاندفاع فى الفعل . فالغاية القصوى من الفعل ليست اللذة ، وإنما جاءت اللذة معها ومع الفعل دليلا على أن ما يندفع إلى فعله إنما هو حسن له وصالح لبقائه ، وكفيل بحياته ونجاحه . فاللذة حركة مرتبطة بعلم النفس ، والغرض حركة مرتبطة بعلم وظائف الأعضاء .

ومما تقدم يتبين وجاهة القول بأن الغاية تختلف عن اللذة . بيد أن هناك من يقول : بأن الغاية القصوى هى اللذة بعينها . وحجتهم فى ذلك أن الانسان إذا لم يتوقع لذة من فعلٍ ما لا يندفع إليه ، وإذا كانت الطبيعة قد جعلت اللذة تغرى الانسان فتدفعه إلى الفعل ؛ لأن غرضها حفظ الحياة وبقاء النوع - فالانسان لا يحفل بتنفيذ غرض الطبيعة بل يتركها تفعل فعلها ، وهو جاهد نفسه فى تحصيل لذته لا يبغى سواها فهى غايته القصوى .

لهذا القول نصيب من السداد ، لأن الانسان يسعى لادخار المال لا لانه فى حاجة إليه ، بل يستلذ التنعم به ، وقد يكون تنعمه مفضيا إلى عكس الغرض الذى تقصد إليـه الطبيعة · فقد يمرض ويموت عاجلا ، وتصبح الثروة التى أمكنته من الترف والرفاهية سببا فى سوء العاقبة له ، وقد يعلم حق العلم أن كثيرين غيره ممن انغمسوا فى الشهوات ساءت حالهم ، وقصمت المنية ظهورهم ، ولا يعتبر بهم ، بل هو يريد الحياة - كما يقولون - عريضة قصيرة ؛ لأنه يبتغى اللذة لنفسها ، لا للبقاء والحرص على الحياة .

وكذلك فاعل الخير وخادم الانسانية لا يبتغى من وراء فعله خير النفسه، بل يقصد استمتاع الضمير واغتباطه بالخير نفسه .

وكذلك المتفنن يقضى زهرة حياته فى الفن الجميل كالشعر أو الموسيقى ، وهو يعلم أنه معوذ محروم التمتع بما فى الحياة من ضروب المسرات ، وأن الفن لا يغنيه ، ولـكنه يعكف على فنه للذته فيه : فاللذة هى الغاية القصوى من الفعل الذى يرمى إليه ، ولا غاية له سواها

ويعلل أصحاب القول بأن الغاية واللذة شىء واحـد الامثلةَ المتقَدمة ونظائرها بأن غرض الحرص على الحياة كامن فى الفعل ، قائلين إن الانسان مهما توخى اللذة لا يغفل عن الحرص على حياته وبقائها بوصفها غاية قصوى ؛ بدليل أن المنغمس فى شهواته تمتعا باللذات متى ساءت عاقبة انغماسه وشعر أنه أخطأ - أدرك أن اللذة ليست الغرض الأول ، بل الحياة واستمرارها هما الغرض الأسمى ، وما اللذة إلا أمر صاحب الفعل ، فان كان قد اختار فعلا غير سديد فلأن التعقل خانه ، والاختيار من وظيفة التعقل .

وصفوة القول أننا إذا نظرنا إلى الأفعال فى ذاتها ، وإلى المحركات إلى فعلها - كانت اللذة غاية الغايات التى يرمى إليها الانسان فى أفعاله على الاطلاق ، وإذا نظرنا إلى الأفعال من حيث ما فيها من حسن أو قبح ، وصواب أو خطأ - كانت الغاية شيئا واللذة شيئا آخر : أما الغاية فالحرص على الحياة

وأما اللذة فهى المغرية بالفعل المحسِّنة له الدالة عليه، وقد تكون دلالتها مضللة ، ولهذا فالمعول عليه هو التعقل؛ لأنه هو الحَكَم الذى يرجع إليه فى الحكم . ومن ذلك يتجلى الفرق بين المذهبين وهو أن القائلين : بأن اللذة هى الغاية القصوى لايلحظون الوجهة الخلقية فى تقريرهم أن اللذة والغاية شىء واحد ، وأن القائلين : باختلاف اللذة عن الغاية يلحظونها مستدلين بأن الانسان ليس حيوانا مُسَيَّراً بالغريزة وحدها ، بل له تعقل ذو سلطان على غريزته ، فلا يعمل عملا إلا إذا ضرب التعقلُ فيه بسهم

ولا أدل على ذلك من أنه يفكرُ أحيانا ، ويتروى فى المفاضلة بين اللذة والحرص على حياته ، وهو فى ذلك إنسان خلق لاحيوان غرزى

(ه) ـ تعاقب اللذة والألم

لكل نوع من العمل وجهان : سارّ ومؤلم ، فيقال : هذا أحسن من ذاك ؛ لأن لذته تزيد على ألمه ، وكذلك العكس .

ولامرية فى أن الحكم بأن أحد الوجهين أكثر لذة يستدعى تبصرة فى مقتضيات العمل وعواقبه الخلقية ؛ فالمرء الذى ينغمس فى الملاهى الجسدية يجد فيها لذة ، ثم يجد فيها ألماً فى عواقب انغماسه من مرض وخسران مال وسوء سمعة ، فاذا تبصر فى عمله ووازن بين ماضيه من لذة وألم ـ فربما ألفى الألم يفوق اللذة ، فيدرك أنه سىء السلوك ، فيعدل عنه ، وكذلك الغاشّ يجد لذة فى غشه ؛ إذ ينعَمُ بمال لم يتعب فيه ، ولكنه يجد ألماً لفقد الثقة فوق مايشعر به من توبيخ الضمير لاختلاسه حق غيره . فاذا فاضل بين سروره وألمه شعر أن عمله كان سيئا : ومن ذلك قالوا : إن السلوك السىء لايخلو من لذة ، بل هو ماأفضى إلى أقل لذة ، وإن أعظم الأعمال لذة ومسرة لايخلو من ألم : ألا ترى أن تحصيل العلوم قد يكون أعظم لذة عند الباحث وهو لايشعر بما يلقاه من الآلام حال شعوره بلذة البحث ، فقد يُضعف صحته ، أو يشغله عن اكتساب رزقه فيعيش مقترا عليه .

(و) - تفاوت اللذات

افترق علماء الأخلاق فى تفاوت اللذات فرقتين :

فرقة تقول : إنها تختلف كما وكيفاً ، وفرقة ترى أنها تختلف كما لا غير .

أما الفرقة الأولى فتقول : إن اللذات تختلف كيفا باختلاف موضوعاتها: فلذة العالم تخالف لذة الغنى ، ولذة المتفنن غير لذة الاقتصادى ، وهلمّ جراً . . . .

وأما الفرقة الأخرى فتقول : إن اختلاف اللذات باختلاف موضوعاتها يرد كيفياتها إلى كميات ، إذ من المسلم به أن نقرر أن لذة الشاعر بشعره قد تكون أعظم من لذة كاسب المال بكسبه ، وإذا أردنا أن نضع قاعدة لنوعية اللذات كما أو كيفاً فلا تتحقق هذه القاعدة إلا فى قيمة اللذات وما يستحقه السلوك منها ، وفى هذا رجوع إلى الكمية ، لأننا لا نحكم على مقدار لذة ما إلا بعد معاودتها ، فيقال حينئذ : هذه اللذات أعظم قيمة من تلك . ولا فرق فى اختلاف كيفيتها ، إذ لا معول على الكيفية فى الشعور بالسرور فاللذات تختلف باختلاف الشعور بها ، والشعور قد يكون كثيرا ، وقد يكون قليلا .

وهنا يجب أن نقول : إذا كانت قيمة اللذة تتوقف على الشعور بها ، والشعور خاص بالذاتية الشخصية ، والذاتيةُ الشخصيةُ تتغير أحوالها حينا بعد آخر ، فما تشعر به الآن لذة عظيمةً لا تشعر به وقتاً آخر كذلك - إذا كانت قيمة اللذة كما وصفنا - فكيف يمكن وزن اللذات ليُعلم أيها أعظم وأيها أصغر ؟

قال بعض العلماء : ميزان اللذات أنك تزن شعورك باللذة الحاضرة بشعورك بلذة أخرى سابقة عليها .

وليس لهذا الميزان كبير قيمة ، لأن ذاتية الشخص (كما قدمنا) تتغير حالها حينا بعد آخر ، فلا تصلح أن تكون ميزاناً يُركن إليه .

وقال العلامة « بنتام » : ميزانها واحد من سبعة : شدتها ، وطول مدتها ، وقربها ، والتثبت من وقوعها ، وقلة ما يصحبها من الآلام ، والغاية الخلقية التى تفضى إليها ، واتساع نطاقها .

(ز) ـ ضروب اللذة فى رأى علماء النفس

لعلماء النفس فى اللذة مذهبان :

١ ــ اللذة الغرزية التى يسعى إليها الانسان بفطرته .

٢ ــ اللذة الكسبية التى تنشأ عن الأعمال الخلقية ، وهى نوعان :

ا ــ لذة يسعى الانسان لجلبها إرضاء لنفسه فقط ، وهى لذة الأَثَرة المخالفة لتعاليم الاجتماع سواء أصحبتها لذة لغيره أم لم تصحبها .

ب ــ لذة عامة وهى ما نطلبها إرضاء لأكبر عدد ممكن من الناس لأن فى هذا سرورنا ، وما ابتغاء السرور للناس إلا وسيلة لسرورنا المشتق من سرورهم ، وهذا النوع من اللذة يقدَّر بأمرين : حدّته ومدته ؛ فبعضه يزيد عن الأخر بمقدار تحريكه للشعور ، أو بدوام أثره .

ملاحظة :ـ

نظر بعضهم إلى ما يعانيه الانسان من الآلام فى الحصول على المسرات الخلقية ، وقدرها حسابا معتبرا الآلام سلبا والسرور إيجاباً ، وبطرح السالب من الموجب يكون الباقى هو مقدار السرور .

(ح) ـ رأى علماء الاخلاق من المسلمين فى اللذة وأصنافها ومراتبها

قال الغزالى فى كتابه إحياء العلوم (ج ٤ ص ٢٥٣) ما ملخصه : ركب الانسان من قوى وغرائز ، لكل منها لذة هى تحصيلها ما يلائم طبعها الذى فطرت عليه ؛ لأن هذه الغرائز لم تركب فى الانسان عبثا ، بل لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع : فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم أن لذاتها فى الغلبة والانتقام ، ولذة السمع والبصر والشم فى الابصار

والاستماع والشم ، وهناك غريزة تسمى « النور الالهى » ، وقد تسمى « البصيرة الباطنة » والعقل أيضاً لا بالمعنى الذى به تدرك طرق المجادلة والمناظرة ، بل بمعنى أنها هى التى تُعلمَ بها حقائق الأمور كلها ، ومن أجل ذلك كان مقتضى طبعها المعرفة وهى لذتها ، وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به . ومنشأ ذلك فرط لذة العلم ومايستشعره صاحبه من كمال ذاته به ، ولذة العلم تتفاوت بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم : ألم تر إلى أن العلم ببواطن أحوال الرئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته ألذ وأشهى للنفس من العلم ببواطن فلاح أو حائك .

من أجل ذلك كان الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأسرار الآلهية المحيطة بكل الموجودات - هو أعلى أنواع المعارف وألذها ، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها .

وصفوة القول أن اللذة القصوى عند فريق كبير من أهل الحقيقة هى لذة العلم والمعرفة بالكون وتدبيره ، فهى المعيار الصادق الذى توزن به الأعمال وتقدر ، وماعداها فلذات لا تصلح أن تكون معيارا ؛ لأنها إما مختلفة بالنوع كمخالفة لذة الأكل للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة ، أو مختلفة بالضعف والقوة كمن كان جائعا ثم أحضر له الأكل وكان يلعب « بالشطرنج » ، فاستمر على لعبه وأعرض عن الأكل ؛ لأن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل على جوعه .

وفريق منهم وهم « أهل الفَناء » يرون أن اللذة القصوى هى لذة مطالعة جمال الربوبية : فقرة عينهم وصلُه ولقاؤه ، ومن بلغ منهم هذا المرتبة انمحقت همومه وشهواته ، وصار القلب مستغرقا بربه ، فلو ألقى فى النار لم يشعر بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية .

رأى ابن حزم فى صنوف اللذة

وقال ابن حزم فى صنوف اللذة ما يلى : «لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده - أعظم من لذة الآكل بأكله ، والشارب بشربه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والآمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التى سميناها أولا كما يجدها المنهمك فى اللذات الأخرى ويحسونها كما يحسها المقبل عليها »

اللذة البدنية بوصفها ميزانا

يرى أهل هذا المذهب أن الانسان لا يستطيع أن يجزم بشىء سوى ما يصيب بدنه من اللذة والألم ، فاللذة هى الخير ، والألم هو الشر ، وهما معيار الأعمال ومناط الأحكام ، وإذ أنه لا يدرى شيئا مما يكنه له الغيب - وهو يعلم الحاضر علما محسا لا مرية فيه - فالحكمة كل الحكمة أن يهتبل فرصة اللذات قبل فواتها ، وينتهب المسرات قبل انقطاعها ولا مرشد إليها سوى ماركب فيه من الطبائع والغرائز ، فهى الرائد الذى لا يكذب أهله ، والمرشد الصادق إلى ما فيه اللذة والهناءة فى هذه الحياة الدنيا .

فرق أهل هذا المذهب

إن الذى يستقرىء آراء أهل هذا المذهب يرى أنهم ينحصرون فى فرقتين : « الفرقة الأولى أولوا الأثرة » ، ورأيهم أن الانسان فطر على حب نفسه وجلب الخير لها ودفع الشر عنها جهد المستطاع ولو أدى إلى ضرر الغير ، وأنه حرى بالقواعد الخلقية أن تتمشى مع الفطرة وتساوقها فلا تقف فى سبيلها حجر عثرة ، فتحول دون بلوغ آمالها وتطلعها إلى أمانيها . من أجل ذلك كان الخير كل الخير هو أن تبلغ النفس مسراتها ولذاتها وتدرك مآربها

وتقضى لباناتها ، والشر كل الشر ألا تنال ذلك . والقول بهذا المذهب قديم فقد جاء فى كتاب « كليلة ودمنة » إذ يقول « دمنة » لبعض الجند دفاعا عن نفسه : ويلك ! وهل علىّ فى التماس العذر لنفسى عيب !! وهل أحد أقرب إلى الانسان من نفسه وإذا لم يلتمس العذر لنفسه فمن يلتمسه !! ٠٠٠٠ وإذ يقول مخاطبا القاضى : وأنتم إذ ظننتم أنى مجرم فيما فعلت فانى أعلم بنفسى منكم ، وعلمى بنفسى يقين لاشك فيه ، وعلمكم بى غاية الشك ، وإنما قبح أمرى عندكم أنى سعيت بغيرى ، فما عذرى عندكم إذا سعيت بنفسى كاذبا عليها ، فأسلمتها الى القتل والعطب على معرفة منى ببراءة نفسى وسلامتى مما قرفت به . . . ونفسى أعظم الأنفس علىّ حرمة وأوجبها حقا !! فلو فعلت هذا بأقصا كم وأدنا كما وسعنى فى دينى ، ولا حسن بى فى مروءتى ، ولا حق لى أن أفعله، فكيف أفعله بنفسى !!

وكذلك ظهرت دلائله فى فلسفة « أرسطيب (١) » القورينائى و « جورجياس (٢) » و « كالكليس » من فلاسفة اليونان : فكان « أرسطيب » وأتباعه من بعده يقولون : إن أسمى اللذات هى إرضاء الشهوة ، وإمتاع النفس ، وانتهاب المسرات ، واغتنام نومة الدهر ، وقد ظهر أثره أيضا فى الشعر العربى فمن ذلك قول « أبى العتاهية :

---

(١) أرسطيب : فيلسوف يونانى ولد فى (قورنية) (مدينة من برقة فى شمالى إفريقية) نحو سنة ٤٠٠ ق م ورحل إلى أثينا فتلقى العلم عن سقراط ، وهو أول من قرر أن المذهب الاسمى من الحياة هو تحصيل اللذة وطرد الالم ، وأن الفضائل إنما سميت فضائل لما فيها من اللذة .

(٢) جورجياس :

فيلسوف يونانى عاش من ٤٨٥ – ٣٨ ق م ، وهو أحد أقطاب الطائفة السفسطائية وكان يرى أنه ليس بشىء موجود ، وإن وجد فلا تمكن معرفته ، وإن وجد وأمكنك معرفته فلا يمكن تعريفه الغير .

كم من مؤخر لذة قد أمكنت   لغـد وليس غد له بمواتِ
حتى إذا فاتت وفات طلابها   ذهبت عليها نفسه حسراتِ
تأتى المكاره حين تأتى جملة   وأرى السرور يجئ فى الفلتاتِ

ثم ظهر أيضا فى آراء بعض فلاسفة القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر مثل «هوبز (١)» و«هلباخ (٢)» و«هلفيتوس (٣)» و«سان لمبير (٤)» و«فورييه» : فمن كلام «هوبز» : لو استقرينا ما يسميه بنو الانسان خيرا لوجدناه ينحصر فيما تتوق إليه نفوسهم ، وأنهم لا يبغون فى جميع أحوالهم إلا أن يؤثروا أنفسهم بأكثر قسط من ملذتهم وهناءتهم ، وان أظهروا أنهم لخير بنى الانسان فاعلون ولاسعادهم جاهدون .

نقد القول بالأثرة:

إن القول بأن الأثرة وحدها هى الباعث على ما يقترفه الانسان من الأعمال مردود بأن الأحقاب الخالية وما تلاها من الدهور والأزمنة أصدق شاهد على أن الانسان على اختلاف مذاهبه ونحله يأتى من ضروب الاحسان مثلا مالا لون فيه للأثرة قطعاً ، بل طالما روى لنا التاريخ كيف

---

(١) هوب :

فيلسوف انجليزى عاش من ١٥٨٨ — ١٦٧٩ وماخص مذاهبه أنه مادى فى العلم النظرى ، مشكك فى المنطق ، قدرى وأثرى فى الاخلاق ، مستبد فى السياسة

(٢) هلباخ :

فيلسوف فرنسى عاش من ١٧٢٣ — ١٧٨٩ كان ملحدا وكان يزعم أن النصرانية منبع كل مرض

(٣) هلفتيوس ١٧١٥ - ١٧٧١ وهو من أكبر أنصار المذهب المادى

(٤) سان لمبير ١٧١٧ — ١٨٠٣ فيلسوف فرنسى لخص المذاهب الخلقية للفيلسوف هلفتيوس وسماها التعليم الدينى

كان يستبق أهل الجود والسخاء إلى بذل أموالهم والايثار على أنفسهم ، وهم مع ذلك عند أنفسهم فى عداد المقصرين . ومن مساوىء هذا المذهب أن تنشئة الناس على أن يقصر كلٌّ سعيه على ذات نفسه لايدخر وسعا فى إنالتها مآربها غير حافل باخوانه وشركائه فى البلد والدين واللغة ـ قضاء على كيان الجماعة البشرية وهدم لنظامها :

أرأيت كيف تكون الحال الاجتماعية لو تقطعت بينهم أواصر التراحم ، وقبض كل يده عن عشيرته وبنى ملته ؟

لاشك فى أنهم لا يألون جهدا فى التهافت والتكالب على جمع المال واحتجانه طيبه وخبيثه ، ويصبحون وقد سُلبوا نعم المعاضدة والمواصلة والمؤانسة والاخاء والمودة ، ثم ابتلوا بالعداوة والخذلان والندامة والخسران ، وعم بينهم الرياء والمساترة ، وصار بعضهم لبعض أعداء محذورين يداجون بالمودة ويتحرزون عن المكاشفة ، وكان مثلهم كالحنظلة الخضراء أو راقها القاتل مذاقها ، وكأن يزيد بن الحكم الثقفى عناهم بقوله :

تكاشرنى ضحكا كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دوى

لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخدك ملتوى

فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

ومما يضعف القول بهذا المذهب أننا ما زلنا نقرأ فى صحف الأبطال وقادة الأمم كيف سمت بهم هممهم العظيمة إلى اطراح لذاتهم وماهم فيه من رفاهة العيش وهناءة البال ، لاسعيا وراء اللذة والمسرة ، بل لينقذوا غيرهم من بنى جلدتهم ـ غير مكترثين بما يصيبهم فى ذات أنفسهم من أذى وإهانة ، كأنهم يفرحون بما يدهمهم فى سبيلهم من نوازل الأحداث وخطوب الزمن ، لاتهدهم العظائم ، ولا تفزعهم الشدائد .

وممن قبحوا اللذة البدنية وأنكروا اتخاذها ميزان الأعمال الخلقية « ابن مسكويه » إذ يقول ما محصله :

زعم قوم أن اللذات الحسية تبلغ بالانسان كماله وغايتـه ، وأنها الخـير المطلوب والسعادة القصوى ، وان القوى النفسية إنما وهبها ليرتب بها الأفعال ويميزها ، ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هى درك المآرب الجسمية ، فما خلقت قوتا الحفظ والذكر إلا لتحفظ الأولى آثار الملذات والمسرات ، وتذكر الأخرى هـذه الآثار ، فيشتاق الجسم إليها ، ويحب معاودتها : ومعنى هذا أن منفعة الحفظ والذكر انما هى اللذات وتحصيلها .

بهذا الفهم السقيم أنزلوا النفس المميزة الشريفة منزلة العبد المهين تخدم النفس الشهوية فى مآكلها ومشاربها ومنازعها الباطلة ، وضل عن أذهانهم أن الناس على هذا الوجه يشاركون فى هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان ، وان اللذة فى الحقيقة إنما هى راحة من ألم

وأنها لاتحصل للملتذ إلا بعـد آلام تلحقه : ألم تر كيف أن الناس يحسون الأذى الذى يلحقهم بالجوع والعرى وضروب النقص ، ويجدون الحاجة ماسة إلى مـداواتها بمـا يدفعها عنهم حتى إذا زالت آثارها ، وعادوا إلى حال السلامة منها التذوا بذلك ، ووجدوا للراحة لذة ، ومع هذا فهم لا يشعرون أنهم إذا اشتاقوا للمآكل فقد اشتاقوا أولا إلى ألم الجوع ؛ لأنهم إن لم يألموا بالجوع لم يلتذوا بالأكل ، أضف إلى ذلك أن اللذات فى ذاتهـا إنما هى لضرورة الجسد ، فالبدن مركب من طبائع متضادة ، وما المأكل والمشرب وما ماثلهما إلا عـلاج للجسم من الأمراض التى تحدث به عنـد الانحلال الناشىء عن خلوه من المادة والغذاء وعون على حفظ تركيبه على حال واحدة أبدا ، ولم يقل عاقل : إن علاج المرض سعادة تامة ، والراحة من الآلام خير محض وغاية مطلوبة ،

وقال «ابن مسكويه» فى مقام آخر : ليست الراحة البدنيـة من أسباب السعادة ؛ لانه لا يميل اليها إلا من كان إلى مرتبة البهائم أقرب كالأطفال وأهل الجهالة ، ولا يصح فى الأذهان أن تنسب البهائم إلى السعادة ولا من كان

قريبا من مرتبتها ، ولقد أبدع فى الابانة عن ذلك من قبل «أرسطو» إذ يقول : -

« اللذة البدنية ليست الغرض الاول الذى يصبو إليه الانسان ، وتنتهى إليه رغبته ، بل تجىء تابعة لمقصد آخر هو أن له بعمله وجده عقلا يعتصم بالحكمة ونفسا تمتح من ينابيع الهدى والمحبة » ، وإذ يقول : « ينبغى ألا تكون همم الانسان إنسية وإن كان إنسانا ، وألا تكون همته همة الحيوان الميت وإن كان هو ميتا ، بل جدير به أن يقصد بجميع قواه أن يحيا حياة تدنيه من الملأ الأعلى ، لان الانسان إن كان صغيرا بالجسم فهو عظيم بالحكمة ، شريف بالعقل ، والعقل أنبل جميع الخلائق »

حقا لا تنافى بين الفضيلة والاستمتاع ببعض اللذات ، لان الانسان مادام فى هذا العالم فهو فى حاجة ماسة إلى أن تكون أحواله الخارجية مجملة ، بيد أنه محظور عليه أن يصرف قوته كلها فى الطلب والاستكثار من عرض الدنيا فقد يصل الى الفضيلة من ليس بكثير المال ولا ظاهر اليسار ، وقد تجىء الأفعال النبيلة ممن قل ماله وضعف يساره اه بتصرف

وصفوة القول : أن القائلين بالأثرة واللذة البدنية يدعون إلى اطراح كل المعتقدات الانسانية واعتدادها حجر عثرة فى نيل الأمور الحقيقية التى هى من مقتضيات الغرائز والطباع التى هى أصدق مرشد فى زعمهم للانسان إلى مايوصله إلى تحصيل مآربه وقضاء لباناته . ان هذا لهو الضلال البعيد ، كيف خفى عليهم أن اللذة البدنية ليست الخير الاسمى ، بل ليست فى ذاتها خيرا ؟ لان الانسان خلق وله إدراك وإرادة تحصل للنفس رغبات هى أحب إليها من الشهوات إلى الغريزة .

الفرقة الثانية

النفعيون

يرى أهل هذا المذهب أن أوجب مايجب على الانسان تحصيله ونيله هو المنفعة ، ولا مرية فى أن من يقصد بسعيه جلب المنفعة فهو قاصد اللذة أيضا ،

بيد أنها ليست اللذة البهيمية العاجلة الزائلة ، بل التى تبقى معه مادام حيا ، لأن التجارب دلت على أن كثيرا من اللذات العاجلة لها عواقب وبيلة تورث آلاما باقية ، وأنه طالما جاء السرور بعد الألم والفرح بعد الترح . ومن أجل هذا لا يليق بالانسان الذى اختصه الله بهبة العقل والرشاد أن يعتد كل مايعرض له غنيمة يجب اقتناصها والحرص عليها ، بل يجب أن يتدبر عواقبه : فان كان ضارا اجتنبه ، وإن كان نافعا سارع اليه

لم يرد أهل هذا المذهب بالمنفعة منفعة النفس فقط ، بل قالوا : المنفعة المنشودة هى تحصيل مابه أوفر قسط من اللذة والهناءة لأكبر عدد من بنى البشر . وقصدوا بهذا أن نستقرى ماعساه ينشأ عن العمل من اللذات والآلام لنا ولبنى جنسنا ، لا بل ولأنعامنا ، سواء فى ذلك ماكان منها عاجلا أو آجلا مباشرا أو غير مباشر ، ثم نوازن بين اللذات والآلام : فان رجحت الأولى فخير وهناءة ، وإن رجحت الأخرى فشر ومساءة . وعلى هذه القاعدة لاوزن للأفعال الخلقية فى نظرهم إلا بما تأتى به من المسرة لغالب بنى الانسان ، محتجين بأنه لايمكن تصور حقيقة خلقية لعمل ما إلا بما يتوقع من النفع منه ، وكونه أرد وأجدى عليهم فى شئونهم الحيوية ، فان كان العمل مما تهنأ به الآحاد ولا يعم نفعه الجماعة فهو فى رأيهم غير جدير بالمدح والثناء .

يرون أن السعادة هى أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام ، وأن الفضيلة ماحبذت إلا لأنها لراحة بنى الانسان واغتباطهم ـ أجلبُ منها لا نزعاجهم وتكديرهم ، وأن الرذيلة على العكس منها . ويقولون : ما كان للصدق أن يكون فضيلة لولا أنه ذريعة إلى ارتقاء العمران ، ووسيلة ناجعة إلى إسعاد بنى الانسان : أرأيت كيف يكون نظام الأمة مختلا ، وبناء رخائها متداعيا ، إذا لم ترزق علماء صادقين فى يقينهم ، يبشرونها وينذرونها وينصحونها ويزجرونها ، وأطباء أمناء لايدلسون ولايخدعون ، يدلونها على مابه تحفظ الأبدان وتصان الأرواح ، وعلماء بالخليقة قد فهموا السنن الكونية ، ووقفوا على مافيها من الفوائد والمصالح ، ثم استخرجوا للناس

منها مايداوى أسقامهم ويشفى عللهم ، ومعلمين صادقين فى أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم ، حتى يكونوا قدوة صالحة لتلاميذهم ، وأسوة حسنة لمتبعيهم .

هذا بعض من كل مما جعل الصدق فضيلة يجب الحرص عليها والاعتصام بها ، وإن كان فى ذلك غضاضة على من وهت عزائمهم ، وضعفت قلوبهم .

ويقولون : ما كان للظلم أن يكون رذيلة لولا أن العدوان على الناس فى أموالهم مثلا ذاهب بآمالهم ، مقعد لهم عن السعى وراء المعاش ، قابض لأيديهم عن المكاسب ، مفض إلى انتقاض أحوالهم ، وخراب أمصارهم ، واختلال حال دولتهم وسلطانهم : هل رأيت أمة ابتليت بمن يغتصب أموالها وينتهب ثروتها ، ويسلبها حقوقها ، ويسخرها على غير إرادتها ، ثم نفقت فيها سوق العمران ، أو أخرجت رجالا صناديد يذودون عن دينهم وأنفسهم وشرفهم ووطنهم ؟ فالنفس الذليلة لاتجد ألم الهوان ، والنفس الشريفة يجرحها يسير الكلام :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

نعم قد يجود الزمان بأفراد قليلين هم فلتات الطبيعة ، ونادرة الدهر ، أولئك هم العبقريون المجددون

نقد هذا المذهب

١ - إن الذى يتتبع آراء أهل هذا المذهب وأقوالهم ينكشف له لأول وهلة أنهم يدعون إلى إهمال مصلحة الذات ومقتضيات الغرائز ، وفى ذلك مخالفة للسنن الفطرية التى لابد من مساوقتها فى البدء بما يصلح النفس ، وما يعود عليها بالراحة والغبطة ثم التثنية بغيرها مما حضت الشرائع على العناية بأمرهم وتجميل حالهم مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، وتأييدا لقول الفلاسفة : إن السعادة الفردية ضرورية لسعادة الجماعة ، وإن كانت تقصد لذاتها ، أضف إلى ذلك أن اتخاذ المنفعة فى ذاتها معيارا للأفعال الخلقية مفض لامحالة إلى اللبس بين الحق والباطل :

فطالما جر الباطل إلى لذة وحبور ، وجاء فى سبيل الحق مالا يوصف من الهموم والشرور ، ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع ، وماخير بخير بعده النار ، ولاشر بشر بعده الجنة .

ب ـ ومما أخذ على هذا المذهب أن العمل به يستوجب حتما أنه لابد من استقراء ماعساه أن ينشأ عن كل عمل من لذة وألم لجميع بنى الانسان على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم مابرز منهم إلى عالم الدنيا ومالم يبرز ، وبدهى أن هذا عريق فى الخطأ ، إذ كيف نستطيع أن نحكم أن العمل الذى ينفع صنفا من أهـل هـذا الجيل ينفع الأجيال القادمة ! ! ألم تر كيف ألمع عمر رضى الله عنه إلى هذا المعنى إذ يقول : « علموا أبناءكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » ، ويقول على كرم الله وجهه : « لاتـكرهوا أبناءكم على آدابكم فانهـم مخلوقون لزمان غير زمانكم » إشارة إلى أن مايجىء من الزمان بعد زمن الآباء له حكم خاص ومقتضيات جديدة . وأن عمر نهى عن حفر قناة السويس قائلا : « إنها خرق فى الاسـلام » مع أن حفرها وقتئذ لم يكن فيه من خطر على الاسلام ، بل ربما كان عونا على سرعة انتشاره .

حـ ـ ومما غالى فيـه أهل هذا المذهب أنهم أدرجوا الحيوان فى عـداد الخليقة التى يشملها قانون الموازنة بين الملذات والآلام ، وهم فى ذلك قـد ضلوا ضلالا بعيدا ، إذ لو صح مذهبهم ماساغ لانسان أن يذبح البقرة ليهنأ بأكل لحمها ، ويصطاد الطيور لينعم بطعامها . وربما قال قائل : ليس الحيوان فى مرتبة واحدة ، فبعضه مفضل على بعض ، وهـذا مردود بأن التفضيل قائم على الهوى والتشيع ، وذريعة إلى ارتكاب الخطأ والتنـكب عن جادة الصواب ، ودع عنك أن الناس خلقوا متفاوتين فى نحائزهم وأمزجتهم : فقد يباشر اثنان لذة واحـدة ، فيجدها أحدهما كبيرة قمينة بأن يعدها خيرا وسـعادة ، ويجدها الآخر تافهة لاوزن لها ولاقيمة ، فلا يأبه لها ، ولايحفل بشأنها ، وفى ذلك دليل على بطلان اتخاذها معيارا تقاس به الأعمال .

رد النقد

١ ـ ولقد أجيب عن ذلك بأن الانسان خلق مجبولا على تلبية ماتدعوه إليه فطرته : من الاحتفاظ بنفسه ، ودرء الشر عنها ، وجلب الخير إليها ، حتى إن هذا ليحمله على العدوان على أخيه ، وبذل كل مالديه من الحول والطول فى سلبه ماله وجاهه ، وتعبده واسترقاقه ، متذرعا طورا بمحض بطش القوة والجبروت ، وطورا بحجة الاشفاق عليه ، ووقايته من يد قاسية تعدو عليه ، فهو لذلك يأخذه فى كنفه ويحميه فى ظله . فلما كانت غرائز الانسان على هذا النحو قصد النفعيون أن يبعثوا بمذهبهم فى نفوس الناس أن الأعمال لاوزن لها إلا بما تعود به من المنفعة والخير على جمهور البشر ليكسروا نَهَمَ الغرائز ، ويخضدوا شوكة سلطان الأثرة ، ويحولوا عقول الآحاد إلى أن يجعلوا للجماعة حظا من جهودهم ونصيبا من ثمرات عقولهم ، حتى يرفعوهم إلى مستوى اجتماعى يعدهم إلى ماهم أهل له من الضرب بسهم فى الشئون الاقتصادية والاعتصام بالمبادىء الخلقية . ويقولون تأييدا لقصدهم هذا : إنه إذا تعارض الحق واللذة فلا اعتداد بها ، لأن فى اتباع الحق والذود عن حياضه اللذة العظمى والهناءة الدائمة .

٢ ـ ولقد انبرى فريق من أنصار هذا المذهب إلى رد الشبهات التى أثارها الناقدون لمذهبهم فقالوا : حقا إن الموازنة بين ماينشأ عن الأعمال من اللذات والآلام يستدعى زمنا طويلا يستنفد الوسع ، ويستغرق الجهد ، بيد أنها معيار لايخطىء ، وميزان لايعتوره الخلل والعطب ، وحسبك دليلا على هذا أن أهل العصور الخالية لما جربوا الأمور وامتحنوها بعين التدبر والتفكر ، ونسبة عواقبها بعضها إلى بعض ـ حكموا عليها حكما صادقا لم يغيره اختلاف الزمان والمكان ، فمرقت من أفواههم قضايا صحيحة وقواعد سديدة : قالوا : إن السخاء فضيلة ، والشح رذيلة ، والصدق نبل ، والكذب وضاعة . ثم إذا جد لهم حادث نظروا فيه : فان كان مما يندرج فى الأصول التى لديهم أدرجوه

فيها ، وإلا سلكوا فى شأنه الطريقة الأولى : طريقة الموازنة بين اللذات والآلام : فان رجحت الأولى سموه خيرا ، وإلا اعتدوه شرا .

أطوار النفعية

يتبين من النظر فى تاريخ الفلسفة الخلقية أن الذى غرس أصول هذا المذهب هو « أبيقور » (٣٤١ — ٢٧١ ق م) ولبث مذهبه متبعا ، ورأيه متنقلا متدرجا من جيل إلى جيل ، حتى وصل إلى « هوبز » (١) و « بنتام » (٢) و « سبنسر » (٣) من مفكرى الانجليز الحديثين : كان « أبيقور » يرى أن الأعمال إنما توزن بما ينشأ عنها من المنفعة والفائدة ، وأن المنفعة لاقيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطا ، بيد أنه قال : إن اللذة وإن كانت الخير الأسمى ومنتهى الغايات — صنفان ، أحدهما مفضل على الآخر : الصنف الأول : اللذة المتنقلة الزائلة : وهى لذة المشاعر التى لاتفارقها الآلام والهموم . والثانى : اللذة الثابتة الباقية : وهى لذة العقل التى لايشوبها الألم ولا يعقبها الهم وهى أفضل وأجدر ؛ لأنها تدنى صاحبها من الحياة الكاملة ، وتجعله رابط الجأش ، ثابت الجنان بمفازة من وساوس الاضطراب وتشعب الهموم . ومن أجل ذلك وجب على الحكيم أن ينظر نظرة سداد فى رغباته وحاجاته فينظمها ويقللها حتى يستطيع فطام نفسه عن الركون إلى أهوائها ، فلا يلحقها بعد اضطراب أو وسواس .

والرغبات عند « أبيقور » ثلاث : رغبة فطرية ضرورية كالأكل والشرب ،

---

(١) هوبز : فيلسوف إنجليزى اشتهر بالبحوث السياسية والخلقية وأساس الأخلاق عندة المصلحة الشخصية (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م)

(٢) بنتام : (١٧٤٨ — ١٨٣٢ م) اشتهر ببحوثه فى الأخلاق والقانون ، ويعد مؤسس مذهب النفعية

(٣) سبنسر : (١٨٢٠ — ١٩٠٣ م) فلسفته مؤسسة على مذهب النشوء ، ألف كتبا كثيرة فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع ، ويعد من أقطاب العلم الحديث

والاقلال من هذه أحجى وأحرى ؛ لأن من أعطى الخبز والماء فقد قاسم الملوك لذة مطاعمهم ومشاربهم ، وهذا شبيه بما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حسبُ ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه » ، ورغبة غير ضرورية ألبستها العادة لباس الضرورى كالرغبة فى الملبس والمسكن مما يسميه ابن خلدون بالحاجى ، وهذه لابد من مراقبتها وتتبع سيرها ، ورغبة غير هاتين ، وهى الرغبة فى التأنق فيما سبق من المطعم والمشرب والمسكن ، والرغبة فى الجاه والغنى ، وهذه رغبة باطلة يجب فطام النفس عنها والابتعاد عن بواعثها وأسبابها

« نقد مذهب أبيقور »

لقد عاش « أبيقور » مع من كان يقول باتخاذ الغريزة المرشد الحكيم والرائد الصادق الذى يصف طريق اللذة ، ومع هذا فلم يحفل بهذا القول بل قال : لابد من إشراك العقل مع الغريزة ينصحها ويردعها ، ثم يهديها ويرشدها إلى مواطن المنفعة ، واجتلاب الفائدة الجديرة بالقصد والسعى . بيد أنه أخطأ فى أن جعل من ذرائع اللذة اجتناب الاضطراب ، وتحاشى المزعجات ، وغير ذلك من الطرق السلبيـــة التى هى إلى الوهم أدنى منها إلى الحقيقة ، والتى هى من دلائل الجبن وخور العزيمة ، بل ذريعتها فى رأى الناقدين مباشرة المعتاد من الأعمال والأقوال والأحوال ؛ فالخيبة مقرونة بالهيبة ، وقد فاز باللذة الجسور . ومما أخذ عليه أنه قال : إن سبب إيثار اللذة العقلية على اللذة الحسية أنها غير مشوبة بالألم والمشقة ، وأنها دانية الملتمس ، وضل عن أنها عزيزة المنال لاتدرك إلا بعد عناء كبير ، وأنه اتخذ المنفعة ميزانا توزن به الأمور ، وتقـدر به الشئون ، وخفى عليه أنها ذات أنواع شتى : فما يراه هذا نافعا له يفيده ويسره يراه ذاك ضارا به يؤذيه ويؤلمه ، أضف إلى ذلك أن المنفعة لا تحقق فى رأيه إلا إذا نشأت عنها لذة ، والناس من حيث اللذة مختلفون : فمنهم من يؤثر لذة المشاعر ، وإن كانت سريعة الزوال قليلة الغناء . ومنهم من يؤثر اللذة العقلية ، وإن صحبها العناء والنصب أو نشأ عنها الهم والكدر ؛ ومن أجل ذلك لا يصح اتخاذ المنفعة القائمـة على اللذة

المختلف فى شأنها قانونا خلقيا يهتدى به الناس فى شئونهم ، ويجرون عليه فى معاملاتهم .

« رأى بنتام فى النفعية »

لقد تدرج مذهب « النفعية » ، فاجتاز مراحل كثيرة ، وتقلب فى صور عدة ، لاحقها أدنى إلى السداد من سابقها : فمن ذلك أن « بنتام » المتوفى سنة ١٨٣٢ م أداه البحث والتنقيب إلى أن المنفعة واللذة هما ركن الاضطلاع بالواجب والقيام به ، ثم بين مراده منهما ، فقال : لا تعد اللذة ركنا ينبنى عليه الواجب إلا إذا نال أكبر قسط منها جل الناس ومعظمهم ، ولا يعد العمل نافعا إلا إذا كان ما ينشأ عنه من اللذة والفرح يربو على ما يتلوه من المساءة والترح ، ولا يعد العمل من باب الفضيلة إلا إذا كان للذة مضاعفا وللألم مخففا، ثم شفع هذه القواعد ببيان هو إلى علم الحساب أدنى منه إلى الفلسفة الخلقية، أوضح به خصائص اللذة فقال : إنها واحدة من قوية أو ضعيفة ، عاجلة أو باقية ، قريبة أو بعيدة ، محققة أو ممكنة ، رنقة أو صافية ، متتابعة أو متقطعة، عامة يهنأ بها الناس كافة أو خاصة بفئة قليلة .

ولما كان « بنتام » من القائلين بأن جميع اللذات من نوع واحد لا اختلاف بينها إلا فى الكمية ، أو الأحوال المحيطة بها الأجنبية منها ـ قصر نظره على استيعاب خصائصها المقدمة الذكر التى هى فى الواقع صفاتها الظاهرة ، ولم يحفل بصفاتها الباطنة ، كما فعل من جاء بعده من العلماء ، وتلك زلة من زلاته ، بيد أن له حسنة لا يسوغ إغفالها : وهى تأييده القاعدة : « إن الانسان مدنى بالطبع » لا يستغنى بنفسه عن غيره إذ يقول : « إن بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة رابطة متينة ، وتلازما وشيجا ؛ لأن المرء لا يستطيع تحصيل ما هو ضرورى لحياته ، دون الاستعانة ببنى جنسه : إن أصابهم سرور فهو فرح مغتبط ، وإن حزبهم أمر فهو حزين ممتعض ، فمثله ومثلهم كمثل النحلة تكد وتدأب فى تدبير شأن الخلية » .

وصفوة القول أن مذهبه هو أنه يجب على أنصار النفعية أن يعظوا الناس : بأن من كان يبغى المال مثلا ، والتلذذ بجمعه واستغلاله - فليبغه لأمته ، وليفرغ جهده فى حفظ الثراء عليها ، وبذلك يكبر نصيبه ، وتتضاعف ثروته الخاصة ، ويحشر فوق ذلك فى زمرة الذين بنوا بأيديهم هيكل السعادة الوطنية ، والهناءة القومية . وأن من كان يسعى لكسب الوجاهة فليطلبها لأمته ، ولا يدخر وسعا فى الاحتفاظ بعزتها وكرامتها ، وأنه بذلك ينال عزة ووجاهة فوق ماقصد وأراد ؛ فمن كان من قوم أعزاء مهيبين مكرمين فهو عزيز مكرم ، وإن من صبت نفسه إلى الهيمنة على القلوب وامتلاك ناصيتها - فليس له من سبيل إلا اطراح الأثرة ، وبذل مايستطيع فى التحبب إلى عشيرته وبنى وطنه ، والتودد إليهم ، فلا يجدون مناصا من الاعتراف له بالطاعة والولاء . وكلما حدب عليهم ، وآثرهم على نفسه ، وأيقنوا بأنه لنفسه منكر ، وللذاته مؤخر - بسطوا له يد المعونة ، ورفعوا له ألوية الاكبار والاجلال .

يرى أنه يجدر بأنصار النفعية أن يبينوا للناس أن التكاليف الخلقية هى أن يكون حب الفرد لوطنه وملئه مثل حبه لنفسه وأهله ، وأن الحرص عليهما سابق على الحرص على راحته وحياته ، وأن الهناءة ليست أن يكون المال عند الآحاد وفيرا تفيض به خزائنهم ، فتنقبض نفوسهم بخلا وجمودا ، أو أن تشبع البطون ، وتقضى اللذات وتمتلىء العيون نوما — بل هى من فضائل الأعمال العامة ، وجلائل الصفات الشاملة .

« نقد مذهبه »

لامرية فى أنه لا تشابه بين اللذات والأعداد ؛ فاللذات متعذر قياسها وتقديرها لتنوعها وتباين صفاتها ، ذلك : بأنه إذا جال فى النفس قضاء واحدة من ثنتين : لذة شهود سبق الخيل ، ولذة مواساة صديق حميم ، وأريد إيثار إحداهما على الأخرى فقد يتعذر ذلك ؛ لأنهما ليستا من باب واحد ، فليس لهما مقياس واحد ، وبدهى أن الموازنة لا تكون إلا بين الاشياء التى هى إلى الاستقرار والثبات

أدنى منها إلى الزوال والتغير ، ولقد قال ابن حزم فى كتابه «مداواة النفوس» عند الكلام على مختلف اللذة : « وإنما يحكم فى الشيئين من عرفهما لامن عرف أحدهما ولم يعرف الآخر » ومن العيوب التى لاتخفى على أولى الألباب أن المنفعة التى اعتدها « بنتام » ركنا من أركان اللذة التى تحدو بصاحبها إلى تأدية الواجب — ليست فى الغالب هى الباعث الفذ ، بل هناك بواعث أخرى . على أننا إذا سلمنا جدلا أنها تقضى إلى تأدية الواجب — فمحال أنها تصلح أن تكون ميزانا خلقيا تعرف به طبائع الأعمال الخلقية .

وقد حاول «بنتام» أن يُجَمِّلَ صورة المنفعة فقال: «إن الشوق إلى دركها هو الذى يحملنا على أن نتحلى بصفات الجد والقناعة والعدل » ، وشذ عن ذهنه أن الذكى الفطن الذى جرب الأمور ، وحلب الدهر أشطره — قد يتشح برداء هذه الصفات تذرعا إلى نيل بغيته وقضاء مآربه ، وذلك ليس من الفضيلة فى شىء . ولقد أبدع فى الاشارة إلى هذا « قونتنيل » إذ يقول ، لما أبصر بلص يساق إلى السجن : « هذا رجل تعوزه المهارة والحذاقة ، ولقد ضل فى حسابه » فالذكاء والحصافة ليسا دليلا على الخلق الكريم ، والنفس الطاهرة .

دع عنك أن المنفعة ليست من الأشياء التى يؤمر بها الانسان ، ويستحث على تحصيلها ؛ لأن نفسه بفطرتها نزاعة إليها ، تواقة إلى اقتناصها ، بل إنما يؤمر بالشئون الخلقية : كتأدية الواجب ، وإعلاء كلمة الحق ، والذود عن حياض الشرف والكرامة ، ومناهضة الباطل ، ومكافحة الظلم والبهتان ، مما فيه اختبار للنفس ، وامتحان لعزيمتها ، وقوة جلدها ، ومبلغ ثباتها ، على أن المنفعة تتغير وتختلف على حسب اختلاف المقتضيات والأشخاص ، وأن ماينفع قوما يضر بآخرين : « مصائب قوم عند قوم فوائد »

استيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م)

ولقد جاء بعد بنتام « استيوارت ميل » فخالفه فى شيئين :

الأول - أن اللذة مختلفة فى نوعها أيضا ؛ لأن لها أنواعا يفضل بعضها

بعضها : كفضل اللذة العقلية على اللذة الحسية ، وإن كانت اللذة الحسية أكبر كمية وأكثر عموما وانتشارا : ألم تر أن المرء الذى صغرت همته واتجهت ميوله إلى إرضاء المشاعر ، وإنالتها ماتشتهيه طالما فاز برضاها ، وتم له اغتباطها ، تخلدت إلى الرذيلة والنقيصة ؟ وأن الذى كبرت همته وصبت نفسه العظيمة إلى معالى الأمور ، وعظائم الفعال - لايكاد يجد نفسه مغتبطة هنيئة ، بل هى دوما نزاعة إلى الاستزادة من الشئون المعنوية والمتاعب العقلية ؟ وخير لابن آدم أن يكون إنسانا مكدر العيش ، متعب العقل والجسم - من أن يكون حيوانا توافرت له اللذة وكملت لديه الهناءة ، وأن يكون سقراطيا متبرما من أن يكون حيوانا متمتعا

الثانى - أن مذهب المنفعة يجب أن يقصد به سعادة البشر جميعه ، فليس بكاف سعادة الأسرة أو المدينة ، بل ولا الوطن : ذلك بأن « بنتام » كما قدمنا يرى أن المرء إنما يفعل الخير لغيره من حيث منفعته هو وسعادته ، فجاء « ميل » وقال : ليس هذا الرأى قمينا بأهل الأخلاق أن يحبذوه ، بل واجب على من يعمل عملا أن ينزل الناس منزلة نفسه .

« نقد مذهب ميل »

لقد اعترض الباحثون على مذهب ميل قائلين : يخيل لمن يستقرى كلامه أنه قد فصم نفسه من طائفة القائلين بالاختبار والتجربة ، وهو أحد أساطينهم وكبير دعاتهم بما أورد فى كلامه من إيثاره اللذة العقلية والشئون المعنوية على اللذات الحسية ، وخفى عليه أن أفضلية اللذة العقلية ليس باعتبارها لذة ، بل بما نشأت عنه من الأمور السامية والشئون العالية التى تتفاضل بقيمتها الذاتية ، دون نظر إلى مايعقبها من المسرة والاغتباط ، ومعنى هذا أن فى الأشياء نفسها خيرا هو أسبق وجودا من اللذة ، وهو قطب رحى تفضيل بعضها على بعض .

وعلى ذلك فالقول بإيثار اللذة العقليـة على ماسواها خروج من مذهب القول باللذة جملة واحدة ودخول فى مذهب العقليين .

ولما أحس «ميل» هذه الحيرة لم يجد مخلصا إلا أنه اقترح عرض الأمر على محكمين يفصلون فى تفضيل أنواع اللذات بعضها على بعض ، ويكونون ممن جربوا اللذات العقلية والحسية ، بيـد أنه لم يحسن الخروج من مأزقه ، بل تورط وركب متن الشطط ، لأنهم إن كانوا ممن ذاقوا واحدة من اللذتين فحكمهم ناقص لا يُؤْبَهُ له ولا يعول عليه ، وإن كانوا ممن ذاقوا الاثنتين فحكمهم فاسد مردود ، لأن تجربتهم حصلت فى أوقات متباينة ، وأحوال غير متجانسة ، وحينئذ فالموازنة بين اللذة الحسية ، واللذة العقلية ـ غير قائمة على أساس السداد والرشاد .

فمن أراد أن يوازن بين لذته وهو نشوان مخمور ولذته وهو يكافح فى إنقاذ وطنه وتحرير بنى جنسه ـ فقـد تعلق بأهداب الخيال ، واعتصم بحبال الأحلام : ذاك فى عالم النوم والحـلم ، وهذا فى عالم الحقيقة والحكم . ولقد انبرت للرد على « ميل » طائفة أخرى أبعد غورا فى النقد وأكثر تعمقا فى البحث ، فقالوا : إن دعوة الناس إلى أن يقصدوا بتحصيل منافعهم الخاصة بهم منافع البشر جميعه لهى دعوة تثلج بها الصدور ، وترتاح إليها النفوس بيد أن مذهبه فى جملته قائم على منفعة الذات المقصود بها جلب الخير لغيرها

وبدهى أن تحصيل المنفعة لغير الذات ليس فيه إلزام ولا شبه إلزام ، والتكاليف الخلقية إن لم تُؤَدّ بالالزام منهارة الدعائم سريعة الزوال ، وحينئذ فلا مفر من البحث عن مذهب آخر غير مذهب أهل الاختبار والتجربة ، يحث الناس على أن يكونوا لغيرهم خداما ، ولجماعة بنى البشر أعوانا . وحسبك دليلا على أن جلب المنفعة لغير الذات ليس بالزامى أنه لو تعارضت منفعة الذات وغيرها ـ لأوجب « ميل » ومن هم على رأيه إيثار منفعة الذات وتقديمها على منفعة غيرها ، لأن القاعدة الأولى لمذهبهم هى أن أعظم خير

يسعى إليه الانسان فى هذه الدنيا ـ هو درء الضرر عن نفسه وجلب الهناءة لها ، فكيف يستطيع أن ينقض هذه القاعدة ، فيجلب لنفسه الأكدار والهموم ، ويطوح بها فى مهامه المخاطر والأهوال فى سبيل إنقاذ غيره من تهلكة ، أوانتشاله من ورطة !!

لقد حاول « ميل » أن يقيم الدليل على أن مذهبه خلو من التناقض ، بيد أنه أساء الاستدلال ، ولجأ إلى المراوغة والاحتيال ، إذ يقول : لاجرم أن مصلحة الذات تتنافى غالباً مع المصلحة العامة ، وضرب لذلك مثلا بالجنود يستميتون فى القتال ، فيقدمون أنفسهم طعمة للمدافع والسيوف ، ويتركون وراءهم الأرامل واليتامى فريسة للفقر والشقاء ، وعبيدا لأصحاب الأموال والثراء ، فما حياتهم أبقوا ، ولا أولادهم ربوا ، إن ذلك لهو الخسران المبين. غير أنه اقترح طريقاً يفضى إلى إضعاف التنافر بين مصلحة الذات والمصلحة العامة : هى أن تربى آحاد الأمم تربية تبلغهم درجة من الرقى والتهذيب لا يكادون يجدون معها فرقا بين المصلحتين . فاذا نظمت طوائف الجماعة الانسانية على هذا النحو أمكن العمل بمذهب النفعية على رأى « ميل » وكان نعمة على بنى الانسان فى معاشهم ومعادهم .

لم يقع هذا المقترح موقعا حسنا عند فريق الناقدين فقالوا له : لقد طلبت المحال ، وتشبثت بأهداب الخيال ، وقمين بك أن تقول : إن مذهب النفعية على هذا الوجه ليس من الأخلاق فى شىء .

إجمال القول فى محاسن النفعية ومساويها

محاسنها :

يرى النفعيون فى تزيين مذهبهم مايلى :

١ — أن الانسان خلق مجبولا على تلبية ماتدعو إليه فطرته من الاحتفاظ بنفسه ، ودرء الشر عنها ، وجلب الخير إليها ، حتى إن هذا ليحمله على العدوان على أخيه ، وبذل كل مالديه من الحول والطول فى سلبه ماله وجاهه وتعبده

واسترقاقه ، ومتذرعا طورا بمحض بطش القوة والجبروت ، وطورا بحجة الاشفاق عليه ووقايته من يد قاسية تعدو عليه ، من أجل ذلك قصد النفعيون أن يبثوا فى نفوس الناس أن الأعمال لاوزن لها إلا بما تعود به من المنفعة والخير على الجمهور ، ليكسروا نَهمَ الغرائز ، ويخضدوا شوكة سلطان الأثرة ، ويحولوا عقول الآحاد إلى أن يجعلوا للجماعة حظاً من جهودهم ، ونصيباً من ثمرات عقولهم ، حتى يرفعوهم إلى مستوى اجتماعى يعدهم إلى ماهم أهل له من الضرب بهم فى الشئون الاقتصادية والاعتصام بالمبادىء الخلقية .

٢ ـ قصدوا بمذهبهم أن يعظوا الناس : بأن من كان يبغى المال مثلا فليبغه لأمته ، وليفرغ جهده فى حفظ الثراء عليها ، وبذلك يكبر نصيبه وتتضاعف ثروته الخاصة ، ويحشر فوق ذلك فى زمرة الذين بنوا بأيديهم هيكل السعادة الوطنية والهناءة القومية . وأن من كان يسعى لكسب الوجاهة فليطلبها لأمته ، ولا يدخر وسعا فى الاحتفاظ بعزتها وكرامتها ، وأنه بذلك ينال عزة ووجاهة فوق ما قصد وأراد . وأن من صبت نفسه إلى الهيمنة على القلوب وامتلاك ناصيتها فليس له من سبيل إلا اطراح الأثرة وبذل مايستطيع فى التحبب إلى عشيرته وبنى وطنه والتودد إليهم ، فلا يجدون مناصا من الاعتراف له بالطاعة والولاء .

٣ ـ من أسمى أغراض النفعية أن يعلم الناس أن حبهم لوطنهم وملتهم مثل حبهم لأنفسهم وأهليهم ، وأن الحرص عليهما سابق على الحرص على راحتهم وحياتهم ، وأن الهناءة ليست أن يكون المال عند الآحاد وفيرا ، تفيض به خزائنهم ، فتنقبض نفوسهم بخلا وجموداً ، أو أن تشبع البطون وتقضى اللذات وتمتلىء العيون نوما ، بل هى فى فضائل الأعمال العامة وجلائل الصفات الشاملة .

٤ — أن الموازنة بين ما ينشأ عن الأعمال من اللذات والآلام معيار لايخطىء ، وإن استدعى زمنا طويلا ، وحسبك دليلا على صحة هذا أن أهل العصور الخالية لما جربوا الأمور وامتحنوها بعين التدبر والتفكر ،

ونسبة عواقبها بعضها إلى بعض — حكموا عليها حكما صادقا لم يغيره اختلاف الزمان والمكان ، فمرقت من أفواههم قضايا صحيحة وقواعد سديدة ، فقالوا : إن السخاء فضيلة ، والشح رذيلة ، والصدق نبل ، والكذب وضاعة .

مساويها :

١ — أن الذى يتتبع آراء أهل هذا المذهب ينكشف له أنهم يدعون إلى إهمال مصلحة الذات ومقتضيات الغرائز . وفى ذلك مخالفة للسنن الفطرية التى لابد من مساوقتها فى البدء بما يصلح النفس ، ثم التثنية بغيرها ممن حضت الشرائع على العناية بأمرهم مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ »

٢ — أن اتخاذ المنفعة فى ذاتها معيارا للأفعال الخلقية مفض لامحالة إلى اللبس بين الحق والباطل : فطالما جر الباطل إلى لذة وحبور ، وجاء فى سبيل الحق مالا يوصف من الهموم والشرور ، ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع ، وما خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .

٣ — أن العمل بهذا المذهب يستوجب استقراء ما عساه أن ينشأ عن كل عمل من لذة وألم لجميع بنى الانسان على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم ، وبدهى أن هذا عريق فى الخطأ إذ كيف نستطيع أن نحكم أن العمل الذى ينفع صنفا من أهل هذا الجيل ينفع الأجيال القادمة ؟

٤ — أنهم أدرجوا الحيوان فى عداد الخليقة التى يشملها قانون اللذات والآلام ، ولو صح هذا ماساغ لانسان أن يذبح بقرة ليهنأ بأكلها .

٥ — أن المنفعة ليست من الأشياء التى يؤمر بها الانسان ويستحث على تحصيلها ؛ لأن نفسه بفطرتها نزاعة إليها ، بل إنما يؤمر بالشئون الخلقية ، وتأدية الواجب ، وإعلاء كلمة الحق ومكافحة الظلم مما فيه اختبار للنفس ، وامتحان لعزيمتها وقوة جلدها .

٦ — أن المنفعة تتغير وتختلف على حسب اختلاف المقتضيات والأشخاص ، وأن ماينفع قوما يضر بآخرين .

الميزان الرابع

الايثار

لقد تبين مما تقدم أن جمهور الخلقيين إلى آخر عهد « استيوارت ميل » لم يرتضوا مذهبا من التى بسطناها قاعدة يقوم عليها الميزان الخلقى الذى يسترشد به الناس فى شئونهم ، ويهتدون به فى سلوكهم ومعاملاتهم ،فانبرى فريق يدعو إلى اتخاذ أسس غير ماتقدم للميزان الخلقى ، ومن هؤلاء الفيلسوف « أوجست كنت » (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م)إذ يقول : لامرية فى أن الانسان لا يهنأ بالحياة دون الجماعة ، فقد خلق محتاجا إليها ، فعليه ألا يألو جهدا فى بذل مالديه من القوة والمعونة للذود عن كيانها ومناهضة من يعاديها ، وألا يدخر وسعا فى اقتناص وسائل إسعادها ، وتوفير راحتها . وكل طائفة لايتضافر آحادها على الفناء فيها فهى خلو من المناعة الخلقية والقوة المعنوية ، لاتستطيع أن ترد عدوانا أو تقيم برهانا ، وقال : أشد أركان الأخلاق متانة هو الايثار : وهو ان يعيش كل لغيره لا لنفسه . هكذا أراد « أوجست كنت » ومن على رأيه ، وهم مغالون فيما ذهبوا إليه ، لأن الايثار المجرد ضرب شديد من ضروب الزهد ليس من الحكمة حمل الناس جميعا عليه ، بل هو مرتبة الخواص الذين لايرضيهم سوى المثل الكامل ، والذين يقولون : « إذا فقدنا صبرنا ، وإذا وجدنا آثرنا » وإنما الزهد الذى يمكن احتماله ، والجرى عليه هو ما أشار إليه الامام على كرم الله وجهه إذ يقول : من عمل بقوله تعالى: « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » فقد ملك الزهد بطرفيه ، لأن لكل نفس على صاحبها حقا تتقاضاه منه ، وواجبا تطالبه به ، وحينئذ فليس من المألوف أن يخرج الواحد عنهما لجماعته مختارا

طائعا، كأنه عنصر من جسم كيماوى، ومسمار فى جسم آلى. على أن القول بخروج كل واحد عن حقوقه ابتغاء هناءة الجماعة لايخلو من تناقض وتضارب؛ إذ لو وجب على كل واحد أن يخرج عنها لغيره لوجب على كل واحد أيضا ألا يرضى بفناء غيره فيه تحقيقا لفضيلة الايثار !! وبهذا أصبح الايثار عبثا لاقيمة له، ومفوتا لما يقصد من المسرة والهناءة للجماعة.

ولقد نبه «ابن مسكويه» من قبل الفيلسوف «أوجست كنت» إلى الحاجة إلى الاجتماع، واعتداده أساسا خلقيا؛ إذ يقول فى كتابه «تهذيب الأخلاق»: «لما كانت الخيرات الانسانية كثيرة، وكانت القوى التى تصدر عنها كثيرة كذلك، ولم يكن فى طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها - وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم، ومن أجل ذلك وجب أن تكون أشخاص الناس كثيرة، وأن يتضافروا فى زمان واحد على تحصيل سعادتهم المشتركة؛ ليكمل لكل واحد منهم ما يبغى بمعونة الباقين له، وبذلك تكون الخيرات بينهم مشتركة، والسعادة مفروضة بينهم، فيتوزعونها، حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها، ويتم لجميعهم بمعاونة جميعهم الكمال الأسنى والسعادة القصوى.

من أجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا؛ لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر، ولولا ذلك ماتمت للفرد سعادته، فكل واحد منهم بمنزلة عضو من أعضاء البدن، وقوام الانسان بتمام أعضائه» انتهى بتصرف.

وقال الفارابى فى هذا الصدد مامحصله: «كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه، وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لايمكنه أن يقوم بها وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه، من أجل ذلك لايستطيع الانسان أن ينال الكمال الذى لأجله منح الغرائز إلا باجتماع جماعة كثيرة يتضافرون، فيقوم كل واحد لغيره ببعض مايحتاج إليه فى قوامه، فيجتمع مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد جميع مايحتاج إليه فى قوامه وبلوغه الكمال، ولهذا كثرت أشخاص الانسان،

فانتشروا فى المعمور من الأرض ، فنشأ عن ذلك الاجتماعات الانسانية ، وهى صنفان : كاملة وغير كاملة : أما الكاملة فثلاث : عظمى ووسطى وصغرى : فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها فى أنحاء المعمور قاطبة ، والوسطى اجتماع أمة فى جزء من المعمور ، والصغرى اجتماع أهل مدينة فى جزء من الوطن .

وأما غير الكاملة فاجتماعات أهل القرية والمحلة والمنزل . والقرية بمنزلة الجزء للمدينة ، والمدينة بمنزلة الجزء للوطن ، والأمه جزء من أهل المعمور ، فالخير الأفضل ، والكمال الأقصى إنما ينال أولا بالمدينة ، لا بالاجتماع الذى هو أنقص منه .

ولما كان شأن الخير فى الحقيقة أن ينال بالارادة والاختيار ، وكذلك الشرور إنما تكون بالارادة والاختيار - كان من الميسور اتخاذ المدينة ذريعة للتعاون على بلوغ بعض غايات الخير وغايات الشر : ومعنى هذا أن كل مدينة يمكن أن تجمع وسائل السعادة : فالمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة فى الحقيقه هى المدينة الفاضلة ، والاجتماع الذى يراد به التعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ، والأمة التى تتضافر مدنها كلها على ماتدرك به السعادة هى الأمة الفاضلة ، والعالَم الفاضل هو ماتضافرت أممه على بلوغ السعادة » انتهى بتصرف .

الميزان الخامس

العاطفة

لقد تبين أن الموازين المتقدمة لاتصلح أن تكون ميزانا خلقيا للأعمال ، ومن أجل ذلك انبرى طوائف من العلماء إلى البحث عن موازين أخرى: فقالت طائفة « بالعاطفة » مؤيدين قولهم — بأن الانسان فطر على حب الخير لغيره ، فكل ماتمشى مع هذه الفطرة فهو خير ، وكل ماباينها فهو شر:

يريدون بذلك أن الحدب على الناس هو جماع الفضيلة ، ولذلك كان هو الواجب الأسمى الذى يجب أن توجه همم بنى الانسان إلى القيام بتكاليفه ، بيد أن هناك كثيرا من الاعمال لا يمكن أن يكون مصدرها العطف والحدب: أرأيت لو أن رجلا اقترف إثما ثم قدم نفسه للقضاء أفيقال : إنه فعل ذلك مدفوعا بالعطف والحدب ؟ الحق أنه مسوق بباعث العدل والانصاف . وعلى ذلك فالعاطفة لا تصلح أن تكون أساسا لواجب ما ، إذ ليس لها من الالزام ما يجعلها قانونا خلقيا ، يأمر وينهى ، وينذر ويبشر . وما أجمل ما قاله ابن حزم فى كتابه « تطهير الأعراق » : وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم ، وعلة ذلك طبعية فى البشر .

الميزان السادس

استمالة القلوب

وقالت طائفة أخرى : استمالة القلوب ميزان خلقى توزن به الأعمال خيرها وشرها . وحجتهم فى ذلك أن الناس جبلوا على ميول طبعية تدعوهم إلى الائتناس ببنى جنسهم وتآلف قلوبهم ، فترى الواحد منهم يشاطر إخوانه فى سرائهم وضرائهم :

وعلى ذلك كل فعل يستميل القلوب ، ويستهوى الأفئدة فهو خير ، وكل ما نفرها وأبعدها فهو شر ، دع عنك أن الناس مجبولون على أن يفعلوا ما يكسبهم رضا غيرهم عن فعلهم ، وإقرارهم عليه ، وأن يتحاشوا فعل ما من شأنه تنفيرهم وإسخاطهم . وهذا معناه أن بين النفوس تجاذبا ومشاركة فى الاحساس والشعور ، فاذا ما أسدى امرؤ إلى غيره عارفة أو قدم إليه يدا رأيت المسدى إليه ينعطف نحو المسدِى ، ويعرب عن الاعجاب بعمله وصنيعه ، فتتولد عنده عاطفة مثل عاطفة المسدى تحدوه إلى مقابلة الصنيع بمثله . وبهذا التوالد النفسى أمكننا أن نحكم أن عمل الخير جدير بالمثوبة والجزاء الحسن .

لقد تمكن هذا الرأى من نفس « آدم سميث » فجعل قاعدة السلوك هى : « ليكن عملك بحيث ينال أكبر قسط من رضا جل من يشهدونه » . فمناط كون العمل خيراً أو شراً استحسان غالب الشاهدين واستقباحهم إياه ، بيدأن « آدم سميث » لما رأى أنه يتعذر على الواحد أن يشهد الناس جميع أعماله ، فيعلم مرتبتها الخلقية ـ قال : إن من يفعل الفعل لهو فاعل وشاهد فى وقت واحد ، فواجب على من يقدم على عمل مّا أن يجرد من نفسه ذاتاً لها عواطف كعواطف غيره ، يتخذها رقيبا على نفسه التى تباشر الفعل ، فان رضيت الذات المجردة عن العمل قام ذلك مقام الاقرار عليه من أناس غيره شاهدين ، ولهذا أدخل بعض التغيير فى القاعدة المقدمة الذكر فقال : « ليكن عملك بحيث ينيلك رضا شهود له مجردين عن الغرض والهوى » .

نقد هذا المذهب

لقد أراد أنصار هذا المذهب أن يجعلوا الواجب الخلقى الأسمى أن يبذل المرء جهده فى اجتذاب غيره إليه وإقراره على عمله وسلوكه ، وهذا معناه أن يكون مناط الحسن أو القبح الخلقى لعمل مّا هو إكبار الناس هذا العمل أو تحقيره ، أى ميلهم إليه وانصرافهم عنه ، ولا مرية فى أن هذا المناط قلوب متغير : فمن الناس من ألفوا العدوان والسلب والنهب ، وتنزلت هذه الفعال عندهم منزلة المألوف المحبب الدال على الشجاعة والبأس ، فاذا شاهدوا واحدا يفتات على غيره أو أمة تستعبد غيرها ، وتسلبها حقوقها ، وميراث أسلافها ـ مالوا إليها ، وأطروا فعالها ؛ لأن فعل العسف والجور بمرأى منهم أيقظ فيهم ميل العدوان والسلب الذى ألفوه ، فاستحسنوا العمل تلبية لما ضروا عليه . ومعنى هذا أن استحسان طائفة لعمل وتشيعها له هو مظهر البيئة التى درجوا فيها ، والاحساس الذى ألفوه . وما مثلهم فى هذا إلا كمثل الماء يكتسب لون إنائه ولا لون له فى ذاته .

مما تقدم يتبين أن القول باتخاذ حال من أحوال الاحساس أو الوجدان

معيارا توزن به الأعمال الخلقية ، ومرجعا ترد إليه الشئون المعنوية - ضعيف لا يركن إليه ؛ فما كان للأخلاق أن تبنى على أسس بفطرتها متغيرة ، أو ترد إلى قوانين غير ملزمة : هل يصح فى الأذهان أن تقوم التكاليف الخلقية على مثل قاعدة : فطر الناس على النزوع إلى عمل كذا فواجب عليهم أن يفعلوه ؟

على أن كل قانون خلقى يؤسس على اللذة ووسائلها ، أو المنفعة ومقاصدها ، أو الميول النفسية وتوجهها - غير جدير بأن يكون ميزانا يستضىء به بنو آدم الذين اختصهم الله بالنبوة ، وميزهم بالعقل والحكمة . فواجب تلمس مرجع آخر أدنى إلى كمالهم ، وأليق بمآلهم وآمالهم فما هو يا ترى ؟

الميزان السابع

الاقتداء بالله

يقول أفلاطون : هو الاقتداء بالله المنفرد بصفات الجمال والكمال . فالواجب الخلقى يقضى بالاقتداء به ، والاتسام بصفاته ، ولا يستطيع إنسان أن يبلغ درجة هذا الاقتداء إلا إذا ألف بين قوى النفس الثلاث : وهى القوة التى بها يكون الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور ، والقوة التى بها يكون الغضب والنجدة والأقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع ، والقوة التى بها يكون الميل : وهو طلب الغذاء والشوق إلى ملاذ المآكل والمشارب وضروب اللذات الحسية .

هذه القوى الثلاث متنافرة لا ينتظم أمرها وتسعد حال صاحبها العقلية . إلا إذا سالم بعضها بعضا ، وصارت الأولى صاحبة السلطان والغلبة والقيادة ، وائتمرت الأخريان بأمرها ، فان تم ذلك تم العدل للنفس واجتمع لها كمالها المعنوى ، حتى إذا هيمنت القوة العاقلة على أختيها وأصبحت دولة العقل وقد خيم عليها الوفاق باستئصال جذور الشقاق والخصام - وجب توجيه الهمة إلى إيجاد الألفة بين الفرد وجماعته ، وبينه وبين أمته ، ثم بينه وبين شعوب العالم وقبائله ، حتى إذا تمت له الألفة النفسية والقومية والعالمية قيل إنه أصبح جزءا من العالم المنظم المنسق ، وأنه يحيا حياة التجانس والجمال ، وأنه جدير

بأن يكون مثلا خلقيا يحتذى ، وأسوة حسنة تتبع ، وأصبح كما وصفه ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق - من الذين بلغوا مرتبة الفضيلة المحضة : وهى التى لا يكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا طلب لحظ من الحظوظ الجسمية والنفسية ، أولئك هم الذين يتصرفون بتصرف الخير العقلى ، وأعلى رتب الفضائل . فيوجهون كل هممهم إلى نيل الشئون المعنوية بلا طلب عوض أى يجعلون جهودهم لنفس ذاتها فقط .

وجملة القول ، أن أفعالهم تصبح خيرا محضا صادرة عن نفوس مستمدة من المدد الفياض الصمدانى ، لا تعوقها دواعى البدن ومنازعه البهمية وعوارض التخيل المتولد عنهما ، بل كل همتهم وإرادتهم فى ذات الفعل ، لا يطلبون بذلك حظا ولا مجازاة ، وهكذا شأن الخير المحض لا يفعله صاحبه من أجل شىء آخر غير الفعل نفسه ؛ لأنه هو الغاية المتوخاة لذاتها المقصودة لعينها ، قد بلغ فى النفاسة منزلة لا تتصور معها أن يكون مقصودا لغيره . إنهم ببلوغهم هذه الغاية القصوى من الرقى العقلى والنفسى قد تم لهم الاقتداء بالبارى جلّ شأنه ؛ فأفعاله تعالت حكمته إنما القصد الأول بها ذاته العلية ، لا شىء خارج من ذاته ، أى ليس قصدها الأول الكائنات التى نحن بعضها ؛ لأنه لو كان كذلك لكانت أفعاله حينئذ إنما كانت وتكون وتتم بمشارقة الأمور الخارجة ، وليس لهذا معنى إلا أن تكون الأشياء الخارجة أسبابا وعللا لأفعاله ، وهذا شنيع قبيح تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ، بيد أن عناية الله تعالى بالأشياء الخارجة إنما هى على القصد الثانى ، فليس يفعل ما يفعل من أجل الأشياء أنفسها ، بل من أجل ذاته أولا ؛ لأن ذاته العلية أهل للتفضيل - لا من أجل المفضل عليه ، ولا من أجل شىء آخر .

لا جرم أن الانسان الذى استطاع الحصول إلى سبيل الاقتداء بالله فى أفعاله الحكيمة تكون أفعاله التى يفعلها على القصد الأول من أجل ذاته نفسها التى هى الفعل الآلهى ومن أجل الفعل نفسه ، فاذا ما عمل عملا ينفع به غيره فليس نفع الغير مقصده الأول ، بل مقصده الثانى ؛ لأن القصد

الأول ذات الفعل ووجه الفضيلة ، لا لاجتلاب منفعة أو دفع مضرة ، أو طلب رياسة ، أو محبة كرامة .

نقد هذا الميزان

١ ـ أنى للانسان أن يؤلف بين هذه القوى الثلاث المتنافرة تأليفا يجعله المثل الأعلى الذى كان ينشده أفلاطون ؟

٢ ـ لقد غالى أفلاطون فى علاقة النفس بالجسم ، فقد اعتده عائقا لها عن كمالها ، بحجة أن جميع ماينتابها من الأمراض كالجهل وغيره من الرذائل ناشىء عن اتحاده بها لما سجنت فيه عقابا لها على ذنوب اقترفتها فى حياة سابقة لهذه الحياة (١)

٣ - يستخلص من رأيه فى الدولة النفسية أنه لم يدع مجالا لحرية الارادة ، وكل مذهب يقضى على حرية الارادة فليس من الأخلاق فى شىء

٤ ـ وجماع مايؤخذ على أفلاطون فى مذهبه هذا أنه غالى فى إضعاف القوتين الغضبية والشهوية إضعافا قد يفضى إلى القضاء عليهما مع أن سنة الحياة تقضى بالابقاء عليهما ، مع وقفهما عند حد الاعتدال الذى لم يوفق أفلاطون إلى تبيانه .

الميزان التاسع
السعادة

ماهية السعادة :

أيام أن كنت طالبا اتفقت أنا وزمرة من الزملاء على أن نذهب فى يوم عطلة إلى مكان رحب الأرجاء طلق الهواء لترويح النفس مما ألم بها من تعب الدرس ، وفى أثناء ركضنا إلى غرضنا قطعنا شارعا فسيحا مليحا ، تحفه من

(١) يشعر هذا بأن أفلاطون من القائلين بتناسخ الأرواح ولامراء فى فساد هذه العقيدة

جانبيه القصور الشامخة والمنازل الباذخة تحدق بها الحدائق الغناء ، والرياض الفيحاء ، والرياح تعبث بأشجارها ، ويستوقفك تغريد أطيارها ، ترى عليها علائم العظمة واضحة ، ودلائل السعادة لائحة . فوجه أحدنا نظرنا إلى وجاهة هذه الدور وما عسى أن يكون عليه أهلها من هناءة وسرور ، فقال آخر : لاتخدعنك المظاهر ، فقد يكون وراءها ماتشق له المرائر ، وطالما انطوى حسن الرواء على كثير من المشقة والعناء : يتظاهر المضحك بأعظم سرور وقت الددَن ، وجوانحه تكاد تتفتت مما ألم به من مصائب ومحن ، وكثيرا ما كذب الُخبْرَ الخبَر ، والمخدوع بالسراب لايقف له على أثر ، ولعل فى ظاهرها الرحمة و باطنها من قبله العذاب . ومازال الحديث يدور حول سكان هذه الدور وماتحتمله حالتهم من شدة ورخاء أو راحة وعناء ، إلى أن جر ذلك إلى البحث فى معنى السعادة ، فطلبت من الآخوان أن يحدد كل منهم السعادة ـ على رأيه ـ بأوجز عبارة ، وأفصح بيان . فأخذ كل يلقى دلوه فى الدلاء ، ويبدى ما يعن له من الآراء : فمنهم من رأى أن السعادة فى الثروة الواسعة ، ومنهم من رآها فى الصحة الشاملة ، ومنهم من ذهب إلى أنها فى المناصب السامية والدرجات العالية ، ومنهم من اعتقدها فى الصيت البعيد والذكر الحميد ، ومنهم من قال : « يجب توافر كل هذا لكل سعيد » . كل ذلك وأنا منصت إلى كل رأى ، مصغ إلى كل مقال . ولما جاء دورى قلت من فورى ـ وكان قد سبق ذلك تفكير ليال ، وأيام طوال : « السعادة هى راحة البال)أقصد بالبال : القلب النقى ، والضمير الحى ، والوجدان الحساس ، والنفس اللوامة التى أقسم الله بها فى سورة القيامة . وإنى أصارح القارىء الكريم ، وأصدقه القول فى أنى ما أخذت هذا المعنى من كتاب ، ولا شافهنى به فيلسوف ولا أستاذ ، وما كنت أدرى حينئذ (ولعل كثيرا من الناس لا يدرون) أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حدد معنى السعادة تحديدا محكما ، واستودع تعريفها لفظا رقيقا . نعم إنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر ذلك فى بحث علمى ولا فى أثناء درس دينى ، بل كان يقوله عرضا لمن يستفهم عن دعاء أشمل

وطلب من الله أتم وأكمل ، فيكون دعاء ، ويكون سعادة ، فقد تكرر فى أدعيته صلى الله عليه وسلم ـ طلب العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة

وقد بين (عليه أفضل الصلاة والسلام) العفو فقال : « هُوَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وتُعْطِي ، مَنْ حَرَمَكَ ، وتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وتُحْسِنَ لِمَنْ أساءَ إِلَيْكَ » فالعفو عمن ظلمك هو نهاية الحلم والشجاعة ، وإعطاء من حرمك هو نهاية الجود ، ووصل من قطعك هو غاية الاحسان ، والاحسان إلى من أساء إليك هو منتهى كرم الأخلاق . وأما العافية فهى السلامة من الأمراض جسما ونفسا ، والسلامة من كل مايؤذى (ظاهرا أو باطنا ، مادة أو أدبا ، حسا أو معنى) فى الدين والدنيا والآخرة .

أعتقد الآن بعد هذا البيان أنك توافقنى على « أن السعادة » هى العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، وأن الانسان إذا منحه الله تعالى هذين الأمرين يحيا حياة طيبة مطمئن الخاطر حسن الحال مستريح البال فى دينه ودنياه وآخرته . حقا لقد أوتى سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) جوامع الكلم ، فقد جمع ما أفنى فيه الفلاسفة أعمارهم ، وما قضوا منه أوطارهم ، فى كلمتين : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)

ويؤيد ماذهبت إليـــه من معنى السعادة قوله تعالى فى سورة محمد : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) وقوله تعالى بعد ذلك فى السورة نفسها : (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) . ويتجلى من هذا أن من عاش فى عفو وعافية عاش سعيدا ، ويزداد نصيبه من السعادة كلما امتدت به الحياة . وإلى ذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام : « السعادة طول العمر فى طاعة الله »

تتأمل فى هذه الزمرة التى كانت تتناقش فى معنى السعادة فى أوقات الاستراحة فنرى أنها صورة مصغرة من العالم فى نظره إلى السعادة : كل يفسرها بما توحيه إليه طبيعته وجبلته ، وبما يمليه عليه عقله وعقيدته ، وبما تطمح إليه نفسه ، وتتطلع إليه همته . حقا إن الناس مختلفون فى هذه السعادة الانسانية ، وقد أشكلت عليهم إشكالا شديدا جعلهم يتفارقون فى شأنها ، ولا يهتدون إلى مكانها : فالفقير يرى أن السعادة العظمى فى الثروة واليسار ، والمريض يرى أنها فى الصحة والسلامة ، والذليل يرى أنها فى الجاه والسلطان ، والخليع يرى أنها فى التمكن من الشهوات كلها على اختلافها ، والعاشق يرى أنها فى الظفر بالمعشوق ، والخيِّر يرى أنها فى إفاضة المعروف على المستحقين ، والبدوى الذى نشأ فى الصحراء حيث صفاء السماء ورقة الهواء وتمتعه من أنواع الحريات بما يشاء يعتقد السعادة فى عزة النفس ورفعتها وشرفها وسمو مكانتها ، يستميت فى ذلك ولو رافقه شظف العيش ورقة الحال ، ويأبى الذلة كل الاباء ولو صاحبها رغد العيش وكثرة المال : فهذا شاعر البادية يقول :

لا تسقنى ماء الحياة بـذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

ولقد عبرت عن ذلك أبلغ تعبير تلك البدوية (١) التى عافت نفسها أرقى حياة فى الحضر ، وحنت إلى حياة خباء من الشعر ؛ لأنها شعرت فى الأولى بشىء من الذلة والاهانة ، وقد ترعرعت فى الثانية على كبير من العزة وسموّ المكانة ، قالت :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف
وكلب ينبح الطُّرّاق عنى أحب إلى من قِطٍّ ألوف
ولبس عباءة وتقرَّ عينى أحب إلى من لبس الشفوف
وبَكرٌ يتبع الأظعان صعبٌ أحب إلى من بَغْلٍ دَفوف

---

(١) هى ميسونة التى تزوجها معاوية ونقلها من البادية إلى الشام فكانت تكثر الحنين إلى البادية .

وخِرق من بنى عمى نجيب أحب إلى من علج عنيف
وأصوات الرياحِ بكل فج أحب إلى من نقر الدفوف
وأكل كسيرة فى كِسر بيتى أحب إلى من أكل الرغيف
خشونة عيشة فى البيت أشهى إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلا وحسبى ذاك من وطن شريف

جاء الاسلام ورقق القلوب ، فرأى القوم فى التقوى غاية المطلوب : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقىَّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقىّ مزيد

وحسان بن ثابت يرى أن السعادة فى السلامة من شرور الناس وغوائلهم ، قال :

وإن امرأ يمسى ويصبح سالما من الناس - إلا ماجنى - لسعيد

والناشىء فى الحضارة يرى أن السعادة فى العمائر الضخمة ، والمراكب الفخمة ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث . وقيل ليحيى بن خالد : ما السعادة ؟ فقال : « سلامة الخلقة ، وجودة الحفظ ، وذكاء العقل ، والتأنى فى المطلوبات » بينما المتنبى يرى أن ذا العقل شقى فى هذه الحياة ، وأنها لا تصفو إلا لجاهل ، أو غافل ، أو مغالط نفسه :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

وقد بلغ من اختلاف الناس فى نظرهم إلى السعادة أن كل مشتغل بناحية من نواحى الحياة ينظر إليها من تلكم الناحية : فالكاتب أو الشاعر مثلا يرى سعادته فى تأثير كلامه فى النفوس وتغلغله إلى سويداء القلوب تأثيرا وتغلغلا ينطبق عليهما قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً ، وإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً » .

والمشتغل بالدين يرى أن السعادة كل السعادة فى ترك المحظور ، وفعل المأمور ، مع التخلى عن الرذائل ، والتحلى بالفضائل ، وبعبارة أخرى يرى السعادة فى التقيد بالدين وعدم الانحراف عن جادته أو الحيد عن محجته .

وابن خلدون أول علماء الاجتماع يرى أن الملق والخضوع مما يجلب السعادة . وأبو بكر الرازى شيخ أطباء الأجسام يقول : « إن استطاع الطبيب أن يعالج بالأغذية دون الأدوية — فقد وافق السعادة » .

رأى الامام الغزالى : والغزالى شيخ أطباء النفوس يرى أن اللذة والسعادة لابن آدم معرفة الله سبحانه وتعالى ، قال : « اعلم أن سعادة كل شىء لذته وراحته ، ولذة كل شىء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شىء ما خلق له : فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه مخلوق لها . وكل مالم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به : مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ولو نهى عنها لم يتركها ، ولا يبقى له عنها صبر ، وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة ؛ لأن لذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر . ولذلك فان الانسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ؛ لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم آثار صنعته ، فلا معرفة أعز من معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته ، وكل لذات الدنيا وشهواتها متعلقة بالنفس ، وهى تبطل بالموت ، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت ؛ لأن القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر وضوءه أكبر ؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء » وقال فى موضع آخر :

« تمام السعادة على ثلاثة أشياء : قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العلم . فيحتاج الانسان إلى أن يكون أمرها متوسطا ؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه على الرخص فيهلك ، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحمق فيهلك ،

فاذا توسطت القوتان باشارة قوة العدل دُلّ على طريق الهداية . وكذلك الغضب : إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل ، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية فى الدين والدنيا ، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة . وكذلك الشهوة : إذا زادت كان الفسق والفجور ، وإن نقصت كان العجز والفتور ، وإن توسطت كانت العفة والقناعة ، وأمثال ذلك » وقال فى موضع آخر : يخاطب ابن آدم :

« وقد جمعت فى باطنك صفات : منها صفات البهائم ، ومنها صفات السباع ، ومنها صفات الملائكة :

فالروح حقيقة جوهرك ، وغيرها غريب منك وعارية عندك ، فالواجب عليك أن تعرف هذا ، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة : فان سعادة البهائم فى الأكل والشرب والنوم وما إليها ، فان كنت منها فاجتهد فى أعمالها ، وسعادة السباع فى الضرب والفتك ، وسعادة الشياطين فى المكر والشر والحيل ، فان كنت منهم فاشتغل باشتغالهم ، وسعادة الملائكة فى مشاهدة جمال الحضرة الربوبية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق ، فان كنت من جوهر الملائكة فاجتهد فى معرفة أصلك ، حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الالهية ، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب ، وتعلم أن هذه الصفات لأى شىء ركبت فيك ، فما خلقها الله لتكون أسيرها ، ولكن خلقها حتى تكون أسراك ، وتسخرها للسفر الذى قدامك ، وتجعل إحداها مركبة والأخرى سلاحك ، حتى تصيد بها سعادتك » وقال أيضاً :

« فاذا رأيت واحدا منهم (أى من أفراد المملكة القلبية) قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب — فعليك بالمجاهدة ، ولا تقصد قتلهما ، لأن المملكة لا تستقر إلا بهما . فاذا فعلت ذلك كنت سعيدا ، وأديت حق النعمة ، ووجبت لك الخلعة فى وقتها ، وإلا كنت شقيا ، ووجب عليك النكال والعقوبة »

مما تقدم يتبين أن الغزالى يرى أيضا أن السعادة فى مجاهدة النفس وكبح جماح قواها . وهـذا هو الجهاد الأكبر ، كما ورد فى الأثر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن من انتصر فى الجهاد الأكبر نال السعادة العظمى فى الدارين ، ومن كبابه الجواد فى أثناء هـذا الجهاد فقد دخـل فيمن قال الله تعالى فيهم : «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ »

رأى أرسطوطاليس : وأرسطوطاليس يرى أن سعادة كل شىء فى تمامه وكماله الذى يخصه . فالسعادة عنده ليست واحدة لجميع الناس ، فهى تختلف عندهم باختلاف أحوالهم ، وقد تـكون « مصائب قوم عند قوم فوائد » على هذا الرأى . ولذلك يعرّف السعادة بأنها « خير ما لواحد واحد من الناس » يعنى أنها خير مضاف إلى صاحبه ، ومنسوب إليه ، ومختص به . فهو يعتقد أن السعادة ليست لها شخصية معينة قائمة بذاتها ومقصودة من الجميع ، بل هى تختلف بالاضافة إلى قاصديها ، وأما الذى يقصده الـكل بالشوق ، وله طبيعة تقصد ، وشخصية قائمة بذاتها — فذلك هو الخير العام ، او الخير المطلق . فالخير العام عنـده غاية الجميع ، وأما السعادة فهى غاية كل إنسان فيما يختص به وتمام الخيرات له وحده . وقد فسر أرسطوطاليس تمام الخيرات بأنه « هو الذى إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شىء آخر » . وقال : « إن كان عطية من الله تعالى وموهبة للناس فهو السعادة ، لأنها عطية منه عزّ اسمه وموهبة فى أشرف منازل الخيرات وفى أعلى مراتبها ، وهى خاصة بالانسان التـام ، ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتام : كالصبيان ومن يجرى مجراهم »

رأى الفلاسفة العصريين : الفلاسفة العصريون فى نظرهم إلى السعادة فريقان : متشائمون أو قانطون ، ومتفائلون أو آملون :

فمن الفريق الأول : « هنريك أبسن » النروجى (١٨٢٨ — ١٩٠٦م) فانه يعتقد أن السعادة تضيع فى طلبها الجهود ، إذ أن الطريق إليها مسدود

وكل محاولة فى سبيل ذلك يكون نصيبها الخيبة المحققة ؛ لأنها بدل أن تقرب السالك تفضى إلى الوقوع فى المهالك : يقول : « إننا لانعرف سبيلا تؤدى إلى السعادة ، بل إن كل السبل تبعدنا عنها » فهو بهذا قد غلبه اليأس ، واستولى عليه القنوط من نيل السعادة ، ولا أمل له فيها . يشاركه فى يأسه وقنوطه « توماس هاردى » الانجليزى فانه أخذ يبحث عن السعادة ويجد ، وينقب ويكد ، ولما لم يوفق إلى طلبه ، ولم يصل إلى رغبته — رجع غاضبا حانقا ، يهذى هذيان المحموم ، ويفوه بما شاء له حمقه ، ساخطا على المقدر وقدره . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن الفريق الثانى : « تولستوى » الفيلسوف الروسى الشهير (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) فانه يرى أن السبب فى إخفاق الانسان فى نيل السعادة أنه يسعى فى الحصول على نيل السعادة الشخصية ، ووجود سعادة فردية مستقلة جد مستحيل ؛ لأن الحصول عليها يستدعى إيقاع الضرر بالآخرين ، وهؤلاء الآخرون لايمكن أن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام ذلك الضرر اللاحق بهم ، بل لا بد من دفاعهم عن أنفسهم ، فيقع الجميع بسبب هذه الأثرة فى الشقاء . ولكن السعادة الحقيقية هى سعادة الجماعة ، فهى الحرية بأن ينقب عنها ، ويمكن العثور عليها ، و « يد الله على الجماعة » ، ولكن بالتعاون والمحبة ، فهى لاتوجد فى غير حياة النور : حياة التضحية فى سبيل إسعاد الآخرين ، وفى إزالة العداوات الكامنة فى القلوب المتحجرة بالأثرة والانقياد إلى الأهواء والشهوات التى تجر الانسان إلى الظلام حيث يمثل أهل هذا العالم روايتهم المحزنة على مسرح الحيوانية .

و « برتراند رسل » الفيلسوف الانجليزى يشاطر « تولستوى » هذا الرأى ، وسنذكر كلامه إن شاء الله فى أسباب الشقاء .

« وبرناردشو » فى روايته « الانسان الراقى » يرد على أبسن فى تشاؤمه

قائلا : « إذا كان الانسان لا يستطيع أن يجد طريقا تفضى به إلى السعادة ، أو أن يجتنب طريقا توصله إلى الشقاء - فليس أمامه إلا الاعتصام بحبل الشجاعة ، وعدم الاقتصار على التسليم بِحَتْم البؤس والشقاء . لِيَحْسِبْ ، نفسَه محاولةً من محاولات الطبيعة ، وليُعتبر أنه ضحية ترتقى عليها الأجيال القادمة معتبرة بأخطائه متعلمة الحكمة من حمقه وشقائه ، وحينئذ لابد له من أن يجد طريقا أخرى »

ويعزو « برناردشو » عدم نيل السعادة إلى كثرة أخطاء الانسان برياءه وسعيه وراء أغراضه الخاصة وامتناعه عن الاصغاء إلى الدعوة التى توجهها إليه قوة الحياة ، وعناده فى تجاهل الورطة التى يجرها على نفسه بعمله ، ثم يقول « شو » : « إن هذه التهمة الموجهة إلى الانسان لا تقوم على أنه لم يستعمل عقله ، بل على أنه يستعمله فى فنّ التدمير : ففى سبيل الحياة لا يخترع شيئا وأما فى سبيل الموت فيخترع كل شىء : ذلك بأنه يستخدم نبوغه للتفنن فى إثارة الحروب ، ولكنه يمتنع عن استخدامه فيما ينفع . فهو لم يرتق إلا فى ميدان التخريب ، ولم يتقدم فى وسائل التغذية ، بل يأكل ويشرب ما كان يأكله أسلافه ويشربون من ألف سنة ، ولكنه إذا خرج ليحارب أعداءه فلن يستطيع أحد أن يتتبع سرعة إبداعه وارتقائه فى بناء أدوات التدمير » .

سبب اختلاف الناس فى تحديد السعادة

ا - فضل الانسان على غيره :

اقتضت إرادة الله تعالى أن يجعل له خليفة فى الأرض : هذا الخليفة هو الانسان قال تعالى : « (إِنِّى جَاعِلٌ فى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولذا فضله على غيره : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) وخلق ما سواه معونة له : (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً) وليس فضله بقوة الجسم ؛ فالفيل

والبعير أقوى جسما منه ، ولا بطول العمر ؛ فالنسر والحية أطول منه عمرا ، ولا بشدة البطش ؛ فالأسد والنمر أشد منه بطشا ، ولا بحسن اللباس ؛ فالطاوس والدُّرّاج أحسن منه لباسا ، ولا بكثرة الذهب والفضة ؛ فالصحارى والجبال أكثر منه ذهبا وفضة - بل فضله بما خصه الله به من العقل ، ولولاه لكان أقلّ مخلوقات الله :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الانسان

ولما تفاضلت النفوس ودَبَّرَتْ أيدى الكماة عوالى المران

ب - تفاوت العقول :

هذه المنحة الالهية العظيمة التى اختص بها الانسان ليست بمقدار واحد عند جميع أفراده ، بل شاء الله تعالى أن تختلف باختلاف الأفراد وتتباين ، وتتفاوت مراتبها عندهم وتتفاضل : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » ونبه على ذلك أيضا بقوله تعالى : « وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : « يارسول الله ، بأى شىء يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : (بالعقل) . قلت : « وفى الآخرة ؟ » قال (بالعقل) قلت : « أليس إنما يجزون بأعمالهم ، » فقال : « ياعائشة » ، وهل عملوا إلا بقدر ماأعطاهم الله من العقل ؟ فبقدر ماأعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ماعملوا يجزون » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنّ الله تعالى قسم العقل على ثلاثة أقسام ، فمن كنّ فيه كملَ عقله ، ومن لم يَكنْ فيه جزء منها ، فلا عقلَ له » قيل : « يارسول الله ، ماأجزاء العقل ؟ » قال : حسنُ المعرفة بالله ، وحسن الطاعة لله ، وحسن الصبر على أمر الله » وللنبى صلى الله عليه وسلم فى

هذا الباب أحاديث كثيرة وقيل لكل شيء غاية وحد ، والعقل لاغاية له ولاحد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار فى الرائحة والطيب :

وحكمة ذلك أن الانسان لاقدرة له وحده على إعداد جميع مايلزمه فى حياته ليعيش عيشة حميدة من مأوى وملبس ومطعم وغيرها ، فلم يكن بد للناس من تشارك وتعاون ، فجعل لكل قوم صنعة مغايرة للصنعة الأخرى عند غيرهم ، وكذلك جعل لكل قطر حاصلاته ، فيتولى كل صنفا من الصناعات يزاوله ويجيده ، ليتأتى تبادل المنافع : قال تعالى : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) واقتضت الحكمة الالهية أن تختلف أجسامهم وقواهم وهممهم ، ويكون كل ميسرا لما خلق له : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) فتكون معايشهم مقتسمة بينهم : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) وبقول الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدم

وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى مافى تباين الناس واختلاف طبقاتهم من المصلحة . فقال . « النَّاسُ بِخَيْرٍ مَاتَبَايَنُوا ، فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا »

(ح) سبب تفاوت العقول :

يرجع تفاوت العقول فى الغالب إلى ستة أشياء :

الأول ـ اختلاف الأمزجة ، وتفاوت الطينة ، وتغاير الخلقة ، كما أشير إليه فيما روى أن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة ، فجاء بنو آدم على قدر طينتها وجوها : الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن ، والطيب والخبيث ، والحار والرطب . وإلى نحو هذا أشار الله تعالى بقوله . « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ

رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً »وقال تعالى . (هُوَ الذى يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

الثانى ـ اختلاف أحوال الوالدين فى الصلاح والفساد : وذلك أن الانسان قد يرث من أبويه آثار ماهما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما ، كما يرث مشابهتهما فى خلقهما ، ولهذا قال الله تعالى : (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً) قيل كان بينهما وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء . وعلى نحوه روى أنه قال فى التوراة :« إنى إذا رضيت باركت ، وإن بركتى لتبلغ البطن السابع ، وإذا سخطت لعنت ، وإن لعنتى لتبلغ البطن السابع » تنبيها على أن الخير والشر الذى يكسبه الانسان ويتخلق به يبقى أثره موروثا إلى البطن السابع . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ).

وقد سبق القول فى الوراثة بمافيه مقنع.

الثالث ــ اختلاف الأطفال باختلاف ما يتفقدون به من رضاع وطعام وشراب ، فان الطفل يتأثر إلى حد كبير جدا بأخلاق ظئره وصحتها ، ولذلك يقول العرب لمن تصفه بالفضل « لله درّه »وقد أثبت الطب إثباتا لا يحتمل الشك أن للغذاء تأثيرا كبيرا فى حالة المرء خلقيا وصحيا .

الرابع ــ اختلاف أحوالهم فى تأديبهم وتلقينهم ، وتطبيعهم ، وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة . فحق الولد على الوالدين أن يؤخذ بالآداب الشرعية ، وإخطار الحق بباله ، وتعويده فعل الخير ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « مُرُوهُمْ بالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوهُمْ لِعَشْرٍ » ويجب أن يصان عن مجالسة الارديا. ؛ فانه فى حال صباه كالشمع قابل للتشكل ، وأن يحسن فى عينه المدح والكرامة ، ويقبح عنده الذم والمهانة ، ويبغض إليه

الحرص على المآكل والمشارب ، ويعود الاقتصاد فى تناولها ومخالفة الشهوة ومجانبة ذوى السخف ، ويؤخذ بقلة النوم فى النهار ؛ فهو يورث الكسل ، ويعود التأنى فى أقواله وأفعاله ، ويعود صلة الرحم ، وحسن تأدية فروض الشىء : قال بعض الحكماء : « من سعادة الانسان أن يتفق له فى صباه من يعوده تعاطى الشريعة ، حتى إذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدها مطابقة لما تعوده ـ قويت بصيرته ، ونفذت فى تعاطيها عزيمته » :

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

« وربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » .

الخامس ـ اختلاف من يتخصص به ويخالطه ويعاشره ، فيأخذ طريقته ، ويسلك محجته ، ويكتسب خلقه وعادته ؛ فإن المرء على دين خليله ، ولذا قيل:

اصحب الأخيار وارغب فيهم * رب من صاحبته مثل الجرب

وقيل: واختر قرينك واصطفيه تفاخرا * إن القرين إلى المقارن ينسب
واحذر مصاحبة اللئيم فإنه * يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

وقيل: عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

ويشير إلى ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم : « اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وسيأتى إن شاء الله من ذلك شىء كثير فى الصداقة .

السادس ـ اختلاف الاجتهاد فى تزكية النفس بالعلم النافع ، والعمل الصالح حين استقلال المرء بنفسه : قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فمنع سبحانه وتعالى المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا ، أو يفهم منه زجراً . ولاشك أن ثمرة العلم العمل ، والعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر . وسنهب القول فى ذلك فى بابى العلم والعمل إن شاء الله تعالى .

هذه هى أسباب تفاوت العقول واختلافها ، والسعيد من اجتمعت له هذه الأسباب : بأن يكون طيب الطينة ، معتدل الأمزجة ، جاريا فى أصلاب آباء صالحين ذوى أمانة واستقامة ، مرتضعا بدرٍّ طيب ، ومأخوذا فى صغره من قبل مربيه بالآداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الأشرار ، ومتخصصا بعد بلوغه بمذهب حق ، ومجهدا نفسه فى تعرف الحق ، مسارعا إلى الخير : فمن وفق فى هذه الأشياء تنجع فيه الخيرات من جميع الجهات ويكون جديرا أن يعد ممن وصفهم الله تعالى بقوله : (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) والشقى هو من يكون بعكس هذا فى الأمور التى ذكرناها .

واعلم أن من طابت أحواله انتفع بكل ماسمعه وشاهده إن خيرا وإن شرا ، ومن خبثت أحواله استضر بكل ماسمعه وشاهده ، وعلى ذلك دل الله تعالى بقوله : (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) فالخبيث من الأرض وإن طاب بذره ، وعذب ماؤه - لا ينبت إلا خبيثاً ، والطيب من الأرض وإن خبث بذره ، وملح ماؤه - لا ينبت إلا طيبا . ولذلك قال سبحانه وتعالى فى كتابه : (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ) ، وقال فى صفة كتابه : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

حظ الانسان من السعادة
على قدر حظه من العقل

قد علمنا من حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها والذى مر ذكره آنفا - أن الناس يتفاضلون فى دنياهم وفى أخراهم بالعقل ، لأنه هو الذى يميز الخير من الشر ، والنافع من الضار ، والطيب من الخبيث . وهو الذى يقدر الأمور قدرها ، وينزلها منازلها ، ويصورها على حقيقتها ، ويكشف ماهيتها وسببها ونتيجتها . وكلما كمل وتم كان تحديده للسعادة أشمل وأعم ، فالمرء يحظى من السعادة على قدر مامنح من العقل .

ولما كانت العقول متفاوتة كانت آراء الناس ورغباتهم متغايرة على قدر ذلك التفاوت : فحب الفخر مثلا يدفع بعض الناس إلى طلبه من كل ناحية والبحث عنه من كل سبيل ، وهؤلاء لا يبخلون بتضحية كل مالديهم من عزيز ونفيس لقاء ذلك ، فى حين أن البعض الآخر لاتطيب نفسه به ، ولا تتحرك رغبته إليه ، فلا ينشط لنشدانه ، ولايبالى بفقدانه ولاوجدانه . وكذلك المال : يتمكن حبه من قلوب فئة من الخلق حتى يسترقهم ويستعبدهم ، ولايكون له هذا السلطان العظيم على فئة العقلاء والزهاد . ومثلهما السلطة : تطيش بها الأفكار ، وتتوجه إليها الأبصار ، وتفسد القلوب ، وتتوق النفوس إلى الاستئثار بها ، ولايحفل بها فريق آخر ، ولا يتدانى إلى التربع فوق عرشها . وكذلك بين الناس من يجود بنفسه ونفيسه لنيل رتبة أو وسام أو لقب يشعر بسمو المكانة ، كما أن بينهم من لايعبأ بذلك ، ولا يعيره أدنى عناية ، بل يضحك منه ، ويسخر ممن يتهالكون عليه ، ويرى أن هذه الرتب والألقاب والشارات لاتمتاز بشىء من لعب الأطفال وألقابهم وشاراتهم . وبين الخليقة من يطمح إلى الجاه الرفيع ، ويتطلع إلى الصيت البعيد ، وبينهم من يود أن يجد فى أحد مجاهل الأرض ملجأ يتوارى فيه عن الأنظار ، ليخفى ماهو فيه من نسك وتواضع وانكسار ، بحيث ينقطع للتبتل إلى الله ، وينسى العالم والعالم ينساه .

كل هذه المتغايرات - وهى قُلٌ من كُثْرٍ ، وقطرة من بحر من أمثالها الكثيرة - نشأت عن تباين مراتب العقول واختلاف قواها وعدم كونها فى مستوى واحد من المعرفة والتمييز بسبب حظها من المادة العلمية غزارة أونزارة ، فإنها بهذا تعلو العقول الأخرى أو تقف عندها ، أو تهوى دونها فلا تتشابه كل المرئيات عندها ، بسبب تفاوت أبعادها وعدم صدق مشاهدتها ، ولذلك لاتتشابه الأحكام عند الأنام . واختلاف الأنظار فى التصوير ، وتباين العقول فى التقدير - لايدلان على حدوث تبديل فى الشىء أو تغيير ،

بل على عدم صدق المشاهدة ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالاختلاف فى تصويرها أو تقديرها ناشىء من ذات المقدر أى من الانسان ذاته . ولما كانت قيمة الشىء وصورته هما اللذان يبعثان على الرغبة فيه أو عنه ـ كان الانسان مقدرُ القيمة هو سبب شقاء نفسه أو سعادتها .

إن لقدر الاشياء تأثيرا عميق الغور بعيد المدى فى هذه الحياة ، والحاكم لهذا القدر أو عليه هو العقل ، فالعقل محكمة التقدير ، وعجيب جد عجيب أمر الانسان الذى يغفل شأن هـــذه المحكمة ، ويهمل أمرها ولا يتعهدها بالترمم والتنظيف مع علمه أن فى حكمها وتقديرها سعادته الأبدية ، أو شقاوته السرمدية . يُعْنَى المرء منا كل العناية بأمر نعله ، ويهمل كل الاهمال شأن عقله ، فيتفقد الأول كل يوم بالصبغ والتنظيف ، ولا يوجه عنايته لحظة إلى الثانى ، ولا يتعهده بالصقل والتهذيب والتثقيف ولو أنزل عقله منزلة حذائه ، أو أعاره جزءا من اهتمامه به واعتنائه ـ ما أَنَّ العالم مما أوقعه فيه ضعف العقول من ويلات ونكبات ، ولاهتدى إلى سبيل الخير وتمتع بجميع أنواع السعادات . نعم عجيب أن يعنى الانسان بغذاء الجسد ، فينتخب ما صلح ويتجنب ما فسد ، ولا يعنى بفحص غذاء عقله ، فيقدم له الآراء السقيمة بدل القويمة ، والنظريات الفاسدة بدل الراشدة . وعجيب ألا يجتنب ذوى الأفكار الطائشة والآراء السخيفة ، مع أنهم أعظم ضررا من الأغذية الرديئة أو المشروبات الفاسدة . !! فيوم تتوجه عناية الانسان إلى هذه الناحية يكون ذلك اليوم بدء انقلاب عظيم فى الأفكار ، ومجارى الأحوال ، ودورا جديدا من أدوار الاصلاح الأدبى والاجتماعى وخطوة واسعة فى سبيل السعادة الحقيقية .

إن من يشتاق إلى نيل شىء ويرغب فى حصوله عليه ويتوهم أن نيله نهاية السعادة ـ ينظر إليه بعين الشوق والرغبة ، لا بعين الحقيقة « وحبك الشىء يعمى ويصم » « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » فإذا ما ناله بقى الشىء

على حاله ، ولكن قلت الرغبة فيه أوزالت ، فتنظر إليه العين مجردة من كل مؤثر ، فينكشف له أمره ، ويكذب خَبَرَهُ خُبْرُه ، وإذا بالقيمة التى أوجدتها الرغبة والشوق وعظمها الظن والوهم - لاوجود لها ، فترجع النفس من السعادة التى كانت تؤملها فيه بخفى حنين . فقيمة الأشياء ليست فى ذاتها ، بل فى مقدار الرغبة فيها والشوق إليها : فالمال مثلا يظن الانسان أن فى نيله كل السعادة ، وبعد الادخار يندحر هذا الظن كل الاندحار ، فتكون له قيمتان : قيمة فى نظر المعوذ ، وأخرى فى نظر المكتنز ، وبما أن حقيقة الأشياء ثابتة فالصواب غير الواقع : فالمال إذا كان قوى التأثير فى القلوب إلى حد إبدال الطبائع وتحويل المبادىء وفعل المنكرات وانتهاك الحرمات وقطع المحارم - فإن هذه القوة ليست فى المال ولاله ، وإنما فى رغبة النفس الضعيفة وشوقها ، وتوهمها أن الخيال حقيقة ، وأن السراب ماء . ولاريب فى أن ضعف أحد المتنازعين قوة للآخر ، فيكفى أن تتخلص النفس من الرغبة القوية فى المال ، لتزول منه تلك الجاذبية العظيمة ، فلا يُرى بعين الصواب إلامادة لاأكثر ولا أقل .

فليست قيمة الحياة ولا تحقيق السعادة بأمثال هذه الأشياء التى لاقيمة لها فى ذاتها ، وليس لها تأثير صادق فى سعادة النفس الحقيقية ، وإنما تكون قيمتها وسعادتها باجتناب الخيال ، والتعلق بأهداب الحقيقة المجردة ، والركون إلى الصواب من حيث هو صواب بقطع النظر عن الرغبة فيه أو عنه .

يشعل الرجل عودا من الثقاب ليبحث فى الظلام عن شىء يبتغيه ، ثم لايعجبه ضوء عود الثقاب ولايرضيه ، فيترك التنقيب عما يريد ، ويشرع فى البحث عن مصباح من جديد ، ويستمر كذلك حتى يبيد عود الثقاب أو يكاد يبيد ، فيعود إلى البحث عن شيئه الأول ، وقد فقد الثقاب الذى عليه المعول ، ويكون بسوء تصرفه قد أفنى مامعه من نور ضئيل ، دون أن ينال بغيته ، أويدرك طلبته .

هذا هو مثال الانسان : أسباب سعادته متوافرة فى ذاته ، وفى متناول يده وبين مايملك ، لكنه لايقنع بها ، أولا يتنبه إليها ، ويبحث عنها فى غير مكانها ، ويجد فى طلبها من غير نظامها ، فإذا ضل الطريق وهو لابد ضال ، وأضناه البحث وهو لابد مضنى - يرجع إلى نفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : إذ يرى أن شعاع حياته قد نفدت مادته ، فانطفأ أوقارب الانطفاء فتفنى حياته دون أن ينال ماطمع فيه ، وقصد إليه .

من هذا يتضح أن كل أنواع الشقاء والتعاسة واليأس من خطأ العقل وفساد حكمه . وإذا كان للعوامل الأجنبية عن ذات الانسان تأثير فى نفسه فإنه هو الذى يمنحها القوة المؤثرة بالقيمة الوهمية التى يعزوها إليها . وكل مايجول فى الأفكار أو تقع عليه الأبصار فهو من أسباب السعادة أو الشقاوة بحسب مقياس العقل ، وقد يخطىء هذا ويطيش منه السهم ، وقد يوفق إلى السداد فيصيب فى الحكم . فلو فهم الانسان ماهية ذاته وما يعوزها ، وماهية السعادة ومايستوجبها لوقف تنقيبه على مايتفق مع حاجة نفسه ، ويؤدى إلى سعادته ، وفى هذه الحالة تستطيع البصيرة أن ترى الأشياء على صورتها الصحيحة ، ويمكن العقل أن يلتزم الصواب فى تقديره ، فتتحد النفس والعقل ، ولا يتسرب إليهما اختلاف فى حكمها على الأشياء ، بل مايقنع أحدهما يرضى الآخر ، ولا يرى سببا للسعادة إلا ماكان موصلا إليها حقيقة .

إن غالب الأشياء التى تتطلع إليها النفس تحاكى الأصنام فى قيمتها الحقيقية والوهمية : فالوثنى هو الذى يصنع صنمه بيده من المادة ، ثم يعزو إليه من القوى المختلفة والأمور الخارقة ماليس له منها أقل نصيب ، ثم يعتقد أن ماصنعته يده مصدر لقدرة غير محدودة ، ويتعدى ذلك إلى خوفه منه ورهبته إياه ، ثم إلى التقرب إليه بمختلف العبادات . فهذه القيمة الوهمية للصنم عند الوثنى قد نسجها وهمه وحاكها خياله ، ولو رجع إلى الحقيقة

لتجلى له أنه مجرد من كل ماعزاه إليه ، وأنه لاحول له ولاقوة ، ولا قيمة له غير قيمة المادة المصنوع منها .

فكذلك لو جردت الأشياء من قيمتها الوهمية التى يسندهاإليها الانسان ، وانكشفت قيمتها الحقيقية - لظهر جلياً أنها أقل من الأولى بكثير ، ولقلت الرغبة فيها ، أو تحولت إلى الرغبة عنها .

الارادة والسعادة

إن مهمة العقل مقصورة على التمييز والفهم ، فإذا أداها تمام الأداء منع مايحول دون السعادة فقط . أما العمل لنيل السعادة فمهمة قوة أخرى من خواص الذات: هذه القوة الأخرى هى الارادة، والارادة قوة ذاتية نفسية تلازم الحياة ، فإذا قويت الحياة ظهرت الارادة وتغلبت على الأحوال الخارجية والمؤثرات الأجنبية ، وإذا ضعفت الحياة اختفت الارادة ، وكانت الغلبة حينئذ للأحوال والمؤثرات الخارجة . إذاً للإرادة شأن هام جدا فى سعادة الانسان ، لأن السعادة تتوقف على منع الأحوال السيئة من التأثير فى النفس . فحظ المرء من السعادة على قط حظه من قوة الارادة . وعلى قدر مايتعهد به إرادته من العناية والتقوية يكون دنوه من الهناءة والسعادة وقد ذهب جم غفير من نطس الأطباء إلى غاية بعيدة فى تقديره قوة الارادة وفائدتها وتأثيرها فى النفس والجسم ، فحققوا تأثيرها فى الابراء من المرض وفى حفظ النفس من مرض السوداء والتشنج العصبى ، وقد حققوا تأثيرها فى إبدال الطبائع . ولم يكن الأقدمون يجهلون هذه القوة ، كما كانوا لايجهلون فضل استخدام الايهام فى الابراء أيضاً : قال أبو بكر الرازى : « ينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه فيها » ولكن الفضل فى شيوع استخدام الارادة والايهام يرجع إلى عصرنا هذا : فإذا اعتقد مريض قدرة طبيب شفى على يديه ، وإذا أدخل فى روعه عدم نجاح

دواء مّا أثر الوهم فى نفسه تأثيرا يقلل من فائدة الدواء ، كما أنه إذا رسخ فى ذهنه فائدة دواء آخر ولو كان ماء أثر فى نفسه تأثيرا حسنا يساعد على الشفاء

والوهم هو الداعى إلى الخوف وإلى الاطمئنان : فإذا ما أثر فى العقل على وجه مّا سرى ذلك الأثر إلى المراكز العصبية على ذلك الوجه ، وبدت علائم ذلك فى الجسم ، ومرآةُ ذلك الوجه : فيُمتَقعُ عند الخوف ، ويتورد عند السرور ، ويحمر عند الخجل ، وتتغير معالمه بتغير الأحوال النفسية . وكذلك القلب : تضعف دقاته أو تتضاعف على مقتضى ذلك ، وتتهيج الدورة الدموية ، فيحدث النزيف ، أو تضعف حركتها أو تقف فتقف معها حركة القلب . وبالوهم يشعر الانسان بالألم مع عدم وجوده ، أولا يشعر به مع وجوده .

وللارادة هذا التأثير نفسه ، فتحول دون تأثير العوامل الخارجة فى النفس ، أو تبدلها إلى مايحول الخوف اطمئنانا ، والحزن سرورا ، والشقاوة هناءة وسعادة .

قد يكون أثر العذاب فى الأجسام متماثلا إذا اتحدت الآلة أو تماثلت الآلات قوة ونوعا ، ولكن الألم من هذا العذاب لا يكون بدرجة واحدة أبدا : فمن الناس من يتألم كثيرا لأقل مؤثر ، ومنهم من لا يكاد يتألم ولو عظم المؤثر : فالعاشق مثلا يقاتل بين يدى من يعشقها دفاعا عنها ، ويثخن جسمه بالجراح ، فلا يحسها ، ولا يتألم منها ، ولا يتوانى عن موالاة عمله إظهارا لشجاعته أمام عشيقته . وقد يصاب رجل آخر بمثل جراح ذلك العاشق أو دونها بلوغا ، فيتألم منها ، ولا يقوى على موالاة الحرب . فالأثر حادث فى الجسمين ، ولكن قوة الارادة عند الأول أضعفت من تأثيره فى المراكز العصبية ، ولم يحدث الألم وقت الاصابة . وضعف إرادة الثانى جعل التأثير يصل المراكز العصبية فتهيجت ، وأحدثت الألم ، فأحسه وتألم منه .

وقد يحكم على رجلين بالاعدام : أحدهما لتمسكه برأى أو مبدأ أو عقيدة ، والآخر لارتكابه جريمة ، فيقدم الأول على الموت بدون أقل انزعاج لقوة

إرادته وإصرارها على التغلب على كل ما يواجهها أو يناهضها من المؤثرات ، والثانى قد يموت من الخوف قبل أن تميته آلة الاعدام لضعف إرادته وفنائها .

فإذا كان هذا التأثير القوى ثابتاً للارادة فَلِمَ لا يتوسل بها الانسان إلى تلطيف آلامه ، أو مضاعفة مسراته ؟

يتوهم بعض الناس أنه يمكن تحويل المعادن إلى معدن الذهب بوساطة شىء يبحثون عنه ، ولم يكن ليوهى عزائمهم ، أو يوهن قواهم ، أو يقطع آمالهم ، أو يثنيهم عن غايتهم ـ ما يصادفهم فى سبيل ذلك من تعب وخسارة وعقبات وإخفاق وإضاعة وقت بدون جدوى .

ولا ريب فى أن السعادة أثمن من الذهب ، والناس أرغب فيها منه ، فيجب أن يكون اهتمامهم بتحويل كل المؤثرات إلى نيل السعادة أعظم منه بتحويل المعادن إلى الذهب ، وليس ذلك مستحيلا ما دام ما يتم به التفاعل موجودا ومدركا لا مجهولا مثل ما يتم به تفاعل المعادن لتكون ذهبا . وهذا الشىء الذى يتم به تفاعل المؤثرات وتحويلها إلى تحقيق السعادة هو الارادة .

إن توجيه الارادة إلى هذه الغاية يجعل الانسان قادرا على حكم نفسه ، وعلى منع تأثير المؤثرات الخارجة فيها أو تخفيفه ، أو تحويل ذلك التأثير إلى ما ينبغى أن يشعر به المرء من اللذة والسعادة . ولما كانت أهمية الحوادث مقصورة على ما تحدثه من التأثيرات فى المراكز العصبية فبتحويلها إلى وفق مشيئة النفس وحاجتها يحصر الانسان عملها فيما تريده الذات ، ويكون له تمام السلطة على الحياة ، فينال غايته منها ، وهى السعادة . ولو كان الوصول إلى هذه الغاية عل تلك الصورة ميسورا لكل الناس لكانت السعادة هينة المنال ، ولكنه متعذر بدون قوتى العقل والارادة ، فلابد من استمرار ما يقويهما من العلم والتربية .

والتربية تعنى بتهذيب الأطفال وتربية عقولهم وإعدادها للاكتمال ، وهى التى تطبع فيها قيم الأشياء ، وتحدد قدرها من الوجاهة والحقارة .

فإذا وجد العلم ، وتكونت الأخلاق الفاضلة بالأدب ، وعرف العقل بالتربية ماهية السعادة - كانت الارادة القوية هى القوة العاملة لتحقيق الهناءة ونيل السعادة .

عناصر السعادة

كان متوقعا ، بل كان بدهيا أن يختلف الناس عامة ، والفلاسفة خاصة فى عناصر السعادة ، إذ أنهم ذهبوا فى شتى المذاهب ، وسلكوا مختلف السبل فى تعرف ماهيتها والوقوف على حقيقتها كما أوضحنا ذلك فيما سبق . فليس عجيبا أن يكون هذا حالهم فى تبين عناصرها ،وليس عجيبا أيضا أن التبست عليهم اقسامها ومراتبها وأسبابها ، فذكروا إحداها فى مقام الأخرى . ومادام الأصل قد أشكل عليهم فالخلط فى الفروع أمر لامحيص عنه ؛ لأن معرفة الفرع متوقفة على إدراك أصله . والفلاسفة فى ذلك فرقتان :

الأولى — الفيثاغورسية أو الأفلاطونية :

يرى فيثاغورس ، وبقراط ، وأفلاطون ، وأشباههم — أن عناصر السعادة تنحصر كلها فى هذه الفضائل الأربعة : وهى الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة . وأجمعوا على أن هذه الفضائل كافية فى السعادة ، ولا يحتاج معها إلى غيرها .

الثانية — الأرسطوطاليسية :

يرى أرسطوطاليس ومشايعوه أن عناصر السعادة خمسة :

الأول — صحة البدن ، ولطف الحواس : ويكون ذلك من اعتدال المزاج يعنى أن يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

الثانى — الثروة والأعوان وأشباههما حتى يتسع لأن يضع المال فى موضعه ، ويعمل به سائر الخيرات ، ويواسى منه أهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ، ويعمل به كل مايزيد فى فضائله ، ويستحق الثناء والمدح عليه

الثالث — أن تحسن أحدوثته فى الناس، وينشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم ، ويكثرون الثناء عليه ؛ لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف

الرابع — أن يكون منجحا فى الأمور : وذلك إذا استتم كُلَّ ما روّى فيه وعزم عليه ، حتى يصير إلى ما يأمله منه .

الخامس — أن يكون جيد الرأى ، صحيح الفكر ، سليم الاعتقادات فى دينه وغير دينه ، بريئا من الخطأ والزلل ، جيد المشورة فى الآراء .

فمن اجتمعت له هذه العناصر فهو السعيد الكامل على مذهب هذه الفرقة ؛ ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك

« سبب اختلاف الفرقتين »

١ — وجهة نظر الفرقة الأولى :

ترى هذه الفرقة أن الفضائل والسعادة كلها فى النفس وحدها ؛ ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها فى قوى النفس التى ذكرناها وهى : (الحكمة ، والشجاعة ، والعفة، والعدالة) . واتفقوا على أن المتصف بهذه الصفات لا حاجة به فى سعادته إلى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج عن البدن ؛ فإن الانسان إذا حصل تلك الفضائل لم يضره فى سعادته أن يكون سقيما ناقص الأعضاء مبتلىً بجميع أمراض البدن ، اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضرة فى خاص أفعالها مثل فساد العقل ، ورداءة الذهن ، وما أشبههما . وأما الفقر ، والخمول ، وسقوط الحال وسائر الأشياء الخارجة عنها — فليست عندهم بقادحة فى السعادة البتة .

وتظهر هذه الفرقة أن السعادة لا تحصل للانسان إلا بعد مفارقة النفس للبدن والطبعيات كلها ؛ لأنها تعتقد كما قلنا أن السعادة فى النفس وحدها ، وسموا الانسان ذلك الجوهر وحده دون البدن ، ولذلك حكموا أنها مادامت فى البدن ومتصلة بالطبيعة وكدرها ونجاسات البدن وضروراته وحاجات الانسان به وافتقاراته إلى الأشياء الكثيرة فليست سعيدة على الاطلاق

وأيضا لما رأوها لاتستكمل الأشياء العقلية لاستتارها عنها بظلمة البدن ،أعنى قصورها ونقصانها — ظنوا أنها إذا فارقت هذه الكدورة فارقت الجهالات وصفت وخلصت ، وقبلت الاضاءة والنور الالهى ، أعنى العقل التام . وعلى رأى هؤلاء فالانسان لايسعد السعادة التامة إلا فى الآخرة بعدموته .

ب — وجهة نظر الفرقة الثانية :

وترى الفرقة الثانية أن البدن جزء من الانسان وليس آلة . فلذلك اضطروا إلى أن يجعلوا السعادة التى فى النفس غير كاملة إذ لم تقترن بهاسعادة البدن وماهو خارج البدن أيضا ، أعنى الأشياء التى تكون بالبخت والجد . والمحققون من الفلاسفة يحقرون أمر البخت وكل ما يكون به ومعه ، ولا يؤهلون تلك الأشياء لاسم السعادة ؛ لأن السعادة شىء ثابت ، غير زائل ولا متغير ، وهى أشرف الأمور وأكرمها وأرفعها فلا يجعلون لأحسن الأشياء فيها نصيبا متى كان يتغير ولا يثبت ولا يتحصل بروية ولا فكر ، ولا يتأتى بعقل وفضيلة .

وهذه الفرقة قد ناقشت الفرقة الأولى رأيها : أن الانسان لا يسعد السعادة التامة إلا فى الآخرة بعد موته قائلة : إنه من القبيح الشنيع أن يظن أن الانسان مادام حيا يعمل الأعمال الصالحة ، ويعتقد الآراء الصحيحة ، ويسعى فى تحصيل الفضائل كلها لنفسه أولا ثم لأبناء جنسه ثانيا ، ويخلف رب العزة (تقدس ذكره) فى خلقه بهذه الأفعال المرضية - فهو شقى ناقص ، حتى إذامات وعدم هذه الاشياء صار سعيداتام السعادة ! !

وهذه الفرقة الثانية التى يرأسها أرسطوطا ليس تحد الانسان بالناطق المائت ، وبالناطق الماشى برجلين (لابجوهر النفس دون البدن ، كما ذهبت إليه الفرقة الأولى) ولذلك رأت أن السعادة الانسانية تحصل للانسان فى الدنيا إذاسعى لها ، وتعب بها ، حتى يصير إلى أقصاها

رأي تولستوى فى تقسيم السعادة

يرى هذا الفيلسوف العظيم أن السعادة نوعان : وهمية ، وحقيقية . ويريد بالوهمية سعادة الفرد ، وبالحقيقية سعادة الجماعة ، ويعتقد أن السعادة الحقيقية هى الحرية بالطلب ، الجديرة بالسعى الممكنة النيل . وأما السعادة الفردية المستقلة فهى غاية لاتدرك وحدها ؛ لأن الحصول عليها موقوف على سعادة الجماعة ، فيمكن نيلها باعتبارها وسيلة لاسعاد الجماعة لا غاية ؛ إذ نيلها مستقلة لايتأتى إلا بضرر الجماعة ، والجماعة تأبى ذلك كل الاباء . فالساعى فى إدراك سعادة فردية لامحيص لأثرته عن مناهضة الجماعة ومنافستها منافسة غير مشروعة ، فيدعو ذلك إلى التنازع والتدافع ويشتد الحجاج واللجاج ، ويقوى الخصام والشقاق ، حتى تقوم بينهما الحرب على قدم وساق ، فيهوى المرء فى حضيض الشقاوة من حيث كان يهوى أن يصعد إلى ذروة السعادة فالراغب فى الحياة الحقيقية الدائمة لابد أن يخضع نفسه وآماله لناموس العقل السليم والوجدان الحساس والدين القويم ؛ فهذه كلها - يؤيدها التاريخ ، ومشاهدة حياة الناس ، والاختبار — تدعو إلى التعاون على الخير ، وتحث على الاتحاد والمودة ، وتظهر جليا لكل إنسان تعذر الوصول إلى سعادة فردية مستقلة ، وتبين له أن إرغام الكائنات الحية الأخرى على حبه فقط ، وعلى كراهة أنفسها أمر من دونه شيب الغراب .

ومع كل ذلك فالانسان لايدخر جهدا ، ولا يتوانى عن السعى وراء هذه السعادة الموهومة ؛ مع أنه يدرك أنه يعالج المستحيل : حقا لقد مرت الأجيال ، وكرت القرون ، وقد عرف الناس أبعاد النجوم ، وقرروا أوزانها ، ووقفوا على حقيقة مادة الشمس والسيارات ، ولم يعرفوا كيف يوفقون بين مطالب السعادة الشخصية وحياة العالم التى تجزم بعدم إمكان هذه السعادة . إن هذه المسألة فى نظر الجمهور غير قابلة للحل كما كانت من مضى خمسة آلاف سنة

يقول الوجدان الحساس للانسان بعد يأسه من نيل سعادته ، ومساءلة نفسه فى فائدة عمله لها أو عدم فائدته :

فى إمكانك نيل هذه السعادة إن عاش جميع الناس لك ، وأحبوك أكثر من أنفسهم . والحصول على هذه الامنية فى حيز الإمكان إلا أنه يتوقف على شرط واحد : وهو أن كل الكائنات يعيش بعضها لخير الآخر ويحبه أكثر من نفسه فيصبح الجميع متحابين سعداء ؛ فيمكنك الحصول على السعادة متى أحبك الآخرون أكثر من أنفسهم ، وأحببتهم أكثر من نفسك .

هذه مناجاة الضمير الحى ، وذلك جوابه ، وقد أوضحه الدين الاسلامى أحسن الايضاح ، وعبر عنه القرآن الكريم ، والحديث الشريف أبلغ التعبير : قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ، وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)

وقال : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ؛ وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

وقال عليه الصلاة والسلام : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً »

وقال : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

وقد شبه النبى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم المؤمنين فى تعاونهم وتراحمهم وتواصلهم بأعضاء الجسم الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية المحمدية فى هذا الباب أكثر من أن تحصر وسيأتى الكثير منها فى موضعه إن شاء الله تعالى . وإنما ألمعنا إلى بعضها هنا لنشير إلى أن النقطة التى يدور حولها الفيلسوف العظيم « تولستوى » قد جلاها الاسلام ، وأوضح غامضها فى بضع كلمات . حقا إن الدين الاسلامى قد حل أعقد مشاكل العالم الحالية

وأعوص مسائل الحياة الحاضرة فى كلمتين : قضى على التطاحن والتنابذ والتقاطع والتدابر ، والتنازع والتدافع وما إلى ذلك مما هو واقع بين جميع دول الأرض بقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وحل مشكلة الشيوعية والفوضية ، والتعطل ، بقوله جل شأنه : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

يقول « تولستوى » : على هذا الشرط والمحبةوالتعاون يمكن الانسان أن ينال الحياة والسعادة ، وعلى عين هذاالشرط يمكن استئصال كل سموم الحياة التى منها تَقَاتُلُ الكائنات ، وألم الأوجاع ، وخوف الموت .

(رأى الفلاسفة الاسلاميين فى عناصر السعادة)

« ابن مسكويه ، الراغب الأصفهانى ، الغزالى »

ا - « رأى ابن مسكويه » :

يعتقد العلامة ابن مسكويه أن الانسان مركب من الروح والجسم ، فله بذلك فضيلتان : فضيلة روحانية يلائم بها الأرواح الطيبةأى الملائكة ، وفضيلة جسمانية يوافق بها الأنعام .

فهو بالخير الجسمانى مقيم فى هذا العالم السفلى مدة قصيرة ، ليعمره وينظمه ويرتبه ، حتى إذا ظفر بكمال هذه المرتبة انتقل إلى العالم العلوى ، وأقام فيه سرمدا فى صحبة الأرواح الطيبة والمراد بالسفلى كل محسوس ، وإن كان فى المكان الأعلى ، كما أن المقصود من العلوى كل معقول ، وإن كان فى المكان الأسفل . والارواح الطيبة المستغنية عن الأبدان لايحتاج فى صحتها إلى شىء من السعادات البدنية ، بل تحتاج فى ذلك إلى سعادة النفس فقط ، يعنى المعقولات الأبدية التى هى الحكمة . فإذاً مادام الانسان إنسانا أى مركبا من الروح والبدن فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعاً ، ولا يحصلان على التمام إلا بالأشياء النافعة فى الوصول إلى الحكمة الأبدية :

فالسعيد إما فى مستوى الجسمانيات، متعلقاً بأحوالها السفلى، سعيدا بها، وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة، باحثاعنها، مشتاقا إليها، مغتبطاً بها. وإما أن يكون فى مستوى الروحانيات متعلقاً بأحوالها العليا، سعيدا بها، وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية، معتبرا بها، ناظرا فى علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة، مقتديابها، ناظرا لها، مفيضاللخيرات عليها، سابقا لها نحو الأفضل فالأفضل بحسب قبولها وعلى قدر استطاعتها.

والأول ناقص مقصر عن الآخر، معرض للآلام دونه. وأى امرئ لم يوجد فى أحد هذين المستويين فهو فى مستوى الأنعام، بل هو أضل؛ لانها غير معرضة لهذه الخيرات، ولم توهب مقدرة تتحرك بها نحو هذه المنازل العالية. وإنما تتحرك بقواها نحوكمالاتها الخاصةبها، والانسان معرض لها، ووهب القدرة على الرقى فى مدارجها، وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها، بل مؤثر لضدها، يستعمل قواه الشريفة فى الأمور الدنيئة.

وأما الأنعام فمحصلة لكمالاتها التى تخصها: فإذا منعت الخيرات الانسية، وحرمت جوار الأرواح الطيبة، ودخول الجنة التى وعد المتقون - فلها العذر، والانسان غير معذور: فمثل الأنعام مثل الأعمى إذا جار عن الطريق فتردى فى بئر، فهو مرحوم غير ملوم، ومثل الانسان مثل بصير يجور على بصيرة، حتى يتردى فى البئر فهو ممقوت ملوم.

ب — رأى الراغب الأصفهانى:

قال بعض الحكماء: جعل الله لكل شىء كمالا ينساق إليه طبعاً، وقد هداه إلى التخصيص به تسخيرا، كما نبه عليه بقوله تعالى: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وللانسان سعادات أبيحت له، وهى النعم المذكورة فى قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان: ضرب دائم لا يبيد ولا يحول، وهو النعم الأخروية. وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية. والنعم الدنيوية متى لم توصلنا إلى تلك السعادات

فهى كسراب بقيعة ، وغرور ، وفتنة ، وعذاب : قال تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

وما أصدق قول الشاعر :

إنما الدنيا كرؤيا أفرحت * من رآها ساعة ثم انقضت

وما أحد الا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ، ولكن كثيراً ما يخطىء ، فيظن ماليس بسعادة فى ذاته أنه سعادة فيغتر بها ، فيكون كالموصوف بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً) وبقوله تعالى: (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) وقال الشاعر :

كل يحاول حيلة يرجو بها * دفع المضرة واجتلاب المنفعة
والمرء يغلط فى تصرف حاله * فلربما اختار العناء على الدعة

السعادة الدنيوية :

النعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى تنوولت على مايجب وكما يجب ويجرى بها على الوجه الذى لأجله خلقت ، وذلك أن الله جعل الدنيا عارية ليُتَنَاول منها قدر مايتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية ، وشرع لنا فى كل منها حكما بين فيه كيف يجب تناولها والتصرف فيها ، لكن صار الناس فى تناولها فريقين :

فريق يتناولونها على الوجه الذى جعله الله لهم ، فانتفعوا به ، فصار ذلك لهم نعمة وسعادة ، وهم الموصوفون بقوله تعالى : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ

فِي الأَرْضِ أقامُوا الصَّلاَةَ واتُوا الزكَاة وَأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) وقوله عز وجل: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِين) وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ماظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فى الدُّنْيا حَسَنَةً) فهؤلاء حيوا بها حياة طيبة كما قال تعالى: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

وفريق يتناولونها على غير الوجه الذى جعله الله لهم، فركنوا إليها، فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة، فتعذبوا بها عاجلا وآجلا، وهم الموصوفون بقوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فى الْحَياةِ الدُّنْيا وتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهُمْ كافِرونَ)

السعادة الأخروية:

والسعادات الأخروية ليس لنا تصور كنهها مادمنا فى دار الدنيا ولذلك قال تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مالاَ عَيْنٌ رأتْ ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ولاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» والسبب فى قصورنا عن تصورها شيئان:

أحدهما ـ أن الانسان لايمكن أن يعرف حقيقة الشىء ويتصوره حتى يدركه بنفسه. وإذا لم يدركه ووصف له يجرى مجرى أكمه توصف له المرآة. هكذا حالنا فى اللذة الأخروية: فإنا لا نتصورها على الحقيقة إلا إذا طالعناها، فاذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل مادونها، كما قال تعالى: (إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فى شُغُلٍ فَاكِهُونَ)

وثانيهما ـ أن لكل قوة من قوى النفس وجزء من أجزاء البدن لذة تختص

بها لا يشاركها فيها غيرها : فلذة العين فى النظر إلى ماتستحسنه ، ولذة السمع فى الاستماع إلى مايستطيبه ، ولذة اللمس فى لمس مايستلذه ، ولذة الوهم فى تصور مايؤمله ، ولذة الخيال فى تخيل مايستحسن تصوره ، ولذة الفكر فى أمر مجهول عنده يتعرفه . وكل واحدة من هذه القوى والأجزاء إذا عرض لها آفة تعوقها عن شهوتها وعن إدراك لذتها تكون كالمريض الذى لايشتهى الماء وكان به ظمأ ، وإذا تناوله لم يجد له لذة كما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

وإذا كان كذلك فاللذات الأخروية هى لذات لاتدرك إلا بالعقل المحض ، وعقول أكثر من فى هذه الدار مولهة معوقة عن إدراك حقائق اللذات الأخروية ، فلا تشعر بها ، كالمريض الذى لايحس بالجوع ، وإن كان جوعه يؤذيه ، ولا يشتهى الطعام ، وإن كان فقد الطعام يضنيه ، بل إنما يحس بالجوع إذا زال السبب المؤلم . وأيضا فعقول أكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الأشياء : فكما أن الصبيان ماداموا صغاراً لايحسون باللذات والآلام التى تعرض للرجال ، فيتعللون بالأباطيل والأضاليل . كذلك من كان فى عقله صبياً لم يطلع على الحقائق . وبالاعتبار بهم قال تعالى : (وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ) وقال تعالى : (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ)

ولما أراد الله تعالى أن يقرّب معرفة تلك اللذات من أفهام الكافة شبهها ومثلها بأنواع ماتدركها حواسهم فقال تعالى : (مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ : فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ،) ؛ ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم ، وقال تعالى : (مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ) ولم يقل :

الجنة ، لينبه الخاصة على أن ذلك تصوير وتمثيل . فالانسان مهما اجتهد فى أن يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له إليها إلا على أحد وجهين :

أحدهما — أن يفارق هذا الهيكل ، ويخلف وراءه هذا المنزل ، فيطلع على ذلك ، كما قال الله تعالى : (يَوْمَ يأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً ، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

والثانى — أن يزيل قبل مفارقة الهيكل الأمراض النفسانية المشار إليها بقوله تعالى : (فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً) ، وأرجاسها المشار إليها بقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)

فيطلع من وراء ستر رقيق على بعض ما أعدله ، كما حكى عن حارثة حيث قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « عزفت نفسى عن الدنيا ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وأطلع على أهل الجنة يتزوارون ، وعلى أهل النار يتعاوون » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « عزفت فالزم » وقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا »

رأى حجة الاسلام الغزالى :

نعم الله سبحانه — وإن كانت لا تحصى — مفصلة جملتها منحصرة فى خمسة أنواع :

النوع الأول — السعادة الأخروية التى هى بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا بالله ، ولا يكمل إلا بالنوع الثانى .

النوع الثانى — وهو الفضائل النفسية التى حصرنا جملتها من قبل فى أربعة أمور : العقل وكماله العلم ، والعفة وكمالها الورع ، والشجاعة وكمالها المجاهدة ،

والعدالة وكمالها الانصاف . وهى على التحقيق أصول الدين . وإنما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث .

النوع الثالث — وهو الفضائل البدنية المنحصرة فى أربعة أمور : فى الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ويتممها النوع الرابع .

النوع الرابع — وهو الفضائل المطيفة بالانسان المنحصرة فى أربعة أمور : وهى المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة . ولا يتم الانتفاع بشىء من ذلك إلا بالنوع الخامس .

النوع الخامس - وهو الفضائل التوفيقية وهى أربعة : هداية الله ، ورشده وتسديده ، وتأييده .

فهذه السعادات بعد السعادات الأخروية ستة عشر ضربا ، ولا مدخل للاجتهاد فى اكتساب شىء منها إلا الفضائل النفسية على الوجه الذى سبق. فقد عرفت أن هذه الخيرات خمسة : وهى الأخروية ، والنفسية ، والبدنية والخارجة ، والتوفيقية . والبعض منها يحتاج إلى البعض : إما حاجة ضرورية كالفضائل التى لا مطمع فى الوصول إلى نعيم الآخرة إلا بها ، وصحة البدن الذى لا وصول إلى تحصيل الفضائل النفسية إلا به . وإما حاجة نافعة : كحاجة هذه الفضائل الخارجة ، فان المال والأهل والعشيرة إن عدمت تطرق الخلل إلى أسباب هذه الفضائل .

وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجة

فان قلت : فما وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجة من المال ، والأهل ، والعز وكرم العشيرة ؟

فاعلم أن هذه الأمور جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المفضية إلى المقصود :

أما المال - فالفقير فى طلب الكمال كساع إلى الهيجاء بغير سلاح ، وكباز متصيد بلا جناح . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » وقال : « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللهِ الْمَالُ » كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب القوت واللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذى هو أشرف الفضائل ، ثم يحرم فضيلة الحج والصدقة والزكاة وإفاضة الخيرات .

وأما الأهل والولد الصالح - فالحاجة إليهما ظاهرة : أما المرأة الصالحة فحرث الرجل وحصين دينه : قال عليه الصلاة والسلام : « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال فى الولد : « إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » ومهما كثر أهل الرجل وأقاربه وساعدوه كانوا له بمنزلة الآذان والأعين والأيدى ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية مايطول فيه شغله لو انفرد . وكلما تخففت الأشغال الضرورية فى الدنيا تفرغ القلب للعبادة والعلم ،فهما معينان على الدين .

وأما العز - فبه يدفع الانسان عن نفسه الضيم ، ولايستغنى عنه ؛ فانه لاينفك عن عدو يؤذيه وظالم يقصده ، فيشوش عليه وقته ، ويشغل قلبه . ولذلك قيل : « الدين والسلطان توءمان » وقيل : « الدين أس ، والسلطان حارس ، ومالاأس له فمهدوم ، ومالاحارس له فضائع » . ولذلك قال تعالى : (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) : وبالجملة دفع الأذى لابد منه للفراغ للعبادة . ولا يتم ذلك إلا بنوع من العز . وكما أن الموصل إلى الخير خير - فدفع الصارف عن الخير خير أيضا .

وأما كرم العشيرة وشرف الآباء - فقد يستهان به ، ويقال : المرء بنفسه

والناس أبناء مايحسنون ، وقيمة كل امرىء مايحسنه . ولعمرى إذا قوبل شرف الأصل دون شرف النفس - بشرف النفس دون شرف الأصل - استحقر شرف الأصل . أماإذا انضم إليه لم تنكر فضيلته (فابن السرى إذا سرى أسراهما) وقد شرط النسب فى الامامة ، وقيل : الأئمة من قريش . كيف لا والأخلاق تتبع الأمزجة ، وتسرى من الأصول الى الفروع ؟ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ » ، وقال (إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ »

فهذا أيضا من السعادات ، ولا نعنى به الانتساب إلى بنى الدنيا ورءوسها وأمرائها ، ولكن الانتساب إلى النفوس الزكية الطاهرة المزينة بالعلم ، والعبادة ، والعقل .

وجه الحاجة إلى الفضائل الجسمية

فان قلت : فما غناءهذه الفضائل الجسمية ؟ فنقول : أما الحاجة إلى الصحة والقوة ، وطول العمر — فلا شك فيه . وإنما يستحقر أمر الجمال ، فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الفضائل . ولعمرى إن الجمال لقليل الغناء ، ولكنه من السعادات والخيرات على الجملة : أما فى الدنيا فلا يخفى وجهه ، وأما فى الآخرة فمن وجهين :

أحدهما — أن القبح مذموم ، والطباع منه نافرة ، وحاجات الجميل إلى إلى الاجابة أقرب . فكأنه جناح مبلغ مثال المال . والمعين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة ، إذ الوصول إلى الآخرة بهذه الأسباب الدنيوية .

والثانى — أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدّى إلى البدن ، والمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان . ولذلك عول أصحاب الفراسة على هيئات البدن ، واستدلوا بها على الأخلاق الباطنة ، والعين والوجه كالمرآة للباطن ، ولذلك يظهر فيهما أثر الغضب والشر . وقيل

(طلاقة الوجه عنوان مافى النفس) ، (ومافى الأرض قبيح إلا ووجهه أقبح) واستعرض المأمون جيشا، فعرض عليه رجل قبيح ، فحادثه فاذا هو ألكن ، فأسقط اسمه ، وقال : (الروح إن أشرقت على الظاهر ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن) وقد قال عليه السلام: « اُطْلُبُوا الْحَاجَةَ عِنْدَ حِسانِ الْوُجُوهِ » وقال : (إِذَا بَعَثْتُمْ رَسُولاً فَاطْلُبُوا حُسْنَ الوَجْهِ ، وحُسْنَ الاسْمِ » وقال الفقهاء: (إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالامامة) وقال تعالى ممتنا به : (وزَادَه بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ والجِسْمِ)وإنما نعنى بالجمال ارتفاع القامة مع الاعتدال فى اللحم ، وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه ، بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليها

« معنى الفضائل التوفيقية ووجه الحاجة إليها »

فان قلت : فما معنى الفضائل التوفيقية التى هى : الهداية ، والرشد ، والتسديد ، والتأييد فاعلم أن :

التوفيق : هو الذى لايستغنى عنه الانسان فى كل حال . ومعناه موافقة إرادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره ، وهو صالح للاستعمال فى الخير والشر ، ولكن صار متعارفا فى الخير والسعادة. ووجه الحاجة إلى التوفيق بين ، ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

وأما الهداية : فلا سبيل لأحد إلى طلب الفضائل إلا بها . فهى مبدأ الخيرات كما قال تعالى: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وقال تعالى : (ولَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ ماز كَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ولَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ) وقال عليه الصلاة والسلام : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ

الله » أي بهدايته ، قيل : « ولا أنت يارسول الله ؟ » قال : « ولا أنا » .
والهداية ثلاث منازل :

الأولى — تعريف طريق الخير والشر المشار إليه بقوله عز وجل : (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) وقد أنعم الله به على جميع عباده : بعضهم بالعقل ، وبعضهم على ألسنة الرسل . ولذلك قال تعالى : (وأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

والثانية — مايمد به العبد حالا بعد حال بحسب ترقيه في العلوم ، وزيادته في صالح الأعمال ، وإياه عنى بقوله تعالى :(والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

والثالثة — النور الذى يشرق فى عالم الولاية والنبوة ، فيهتدى به إلى مالا يهتدى إليه ببضاعة العقل الذى به يحصل التكليف وإمكان التعلم . وإياه عنى بقوله تعالى : (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى)فأضافه إلى نفسه ، وسماه الهدى المطلق ، وهو المسمى حياة فى قوله : (أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) و بقوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

وأما الرشد - فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الانسان على توجهه إلى مقاصده ، فتقويه على مافيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده . ويكون ذلك من الباطن ، كما قال تعالى : « ولَقَدْ آتَيْنَا ابْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عالِمِينَ»

وأما التسديد — فهو أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ليهجم عليه فى أسرع وقت : فالرشد تنبيه بالتعريف ، والتسديد إعانة ونصرة بالتحريك .

وأما التأييـد : فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل ، وبالبطش من خارج وهو المراد بقوله تعالى : (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ويقرب منه العصمة : وهى فيض إلهى يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولن تستتب هذه الأمور إلا بما يمد الله به عبـده من الفهم الثاقب الصـافى ، والسمع المصغى الواعى ، والقلب البصير المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على مقتضى المهمات لقلة القاصر ، لاما يشغل عن الدين لكثرته ، والعشـيرة ، والعز الذى يصون عن سفـه السفهاء ، ويرفع ظلم الأعداء . فبهذه الأسباب تكمل السعادات .

رتب السعادة

رأى أرسطوطاليس

أول رتب الفضائل تسمى سـعادة : وهى أن يصرف الانسان إرادته ومحاولاته إلى مصالحـه فى العالم الحُس والأمور المحسة من أمور النفس والبـدن ، وماكان من الأحوال متصلا بهما ومشاركا لهما من الأمور النفسانية . ويكون تصرفه فى الأحوال المحسة تصرفا لايخرج به عن الاعتدال الملائم لأحواله الحسية . وهذه حال قد يتلبس فيها الانسان بالأهواء والشهوات ، إلا أن ذلك بقـدر معتدل غير مفرط ، وهو إلى ماينبغى أقرب منه إلى غـيره : وذلك أنه يجرى أمره نحو صوب التدبير المتوسط فى كل فضيلة ، ولايخرج به عن تقدير الفـكر ، وإن لابس الأمور المحسة وتصرف فيها .

ثم الرتبة الثانية : وهى التى يصرف الانسان فيها إرادته ومحاولاته إلى الأمر الأفضل من صلاح النفس والبدن من غير أن يتلبس مع ذلك بشىء من الأهواء والشهوات ، ولا يكترث بشىء من النفسيات المحسـة إلا بمـا تدعوه إليه الضرورة .

ثم تتزايد رتبة الانسان فى هذا الضرب من الفضيلة : وذلك أن الأماكن والرتب فى هـــذا الضرب من الفضائل كثيرة بعضها فوق بعض . وسببه اختـلاف طبائع النـاس ، وعاداتهم ، ومنازلهم ، ومواضعهم : من الفضل والعلم والمعرفة والفهم ، وبحسب هممهم ، وشوقهم ، ومعاناتهم ، وجدهم .

الرتبة الأخيرة : ثم تـكون النقلة فى آخر الرتبة الثانية إلى الفضيلة الالهية المحضة : وهى التى لايكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا تشييع لحال ولا تطلع إلى ناء ، ولا ضن بقريب ، ولا خوف ولا فزع من أمر ، ولا شغف بحال ، ولا طلب لحظ من الحظوظ الانسانية ولا من الحظوظ النفسانية أيضا ، ولا ماتدعو الضرورة إليه من حاجة البدن والقوى الطبعية والنفسانية . لـكن يتصرف بتصرف الخير العقلى فى أعالى رتب الفضائل ، وهو صرف الوقت إلى الأمور الالهية ومعاناتها ومحاولاتها بلا طلب عوض ، أعنى أن يكون تصرفه فيها ومحاولته لها لنفس ذاتها فقط .

وهذه الرتبة أيضا تتزايد بالناس بحسب الهمم والشوق وفضل المعاناة والمحاولة وقوة النحيزة وصحة الثقة ، وبحسب منزلة من بلغ إلى هذا المبلغ من الفضيلة فى هذه الأحوال التى عددناها إلى أن يشتد قربه من الذات العلية واقتداؤه بها وبأفعالها

الرتبة الأولى من السعادة

يقول ابن مسكويه : « إن من عنى ببعض القوى التى ذكرناها دون بعض ، أو تعمد إصلاحها فى وقت دون وقت ـ لم تحصل له السعادة . وكذلك يكون حال الرجل فى تدبير منزله : إذا عنى ببعض أجزائه دون بعض أو فى وقت دون وقت فانه لايكون مدبّر منزل . وكذلك حال مدبر المدينة إذا خص بنظره طائفـة دون طائفة ، أو وقتا دون وقت لايستحق اسم الرياسة على الاطلاق » ومثل لذلك « أرسطوطاليس » بقوله : إن يوما واحدا معتدل الهواء لا يبشر بالربيع

فعلى طالب السعادة أن يطلب السيرة اللذيذة عنده ، فيسر بها دائما ، فان تلك السيرة واحدة ولذيذة فى نفسها فلذلك قلنا : إنه ينبغى أن يتشوقها دائما ، ويثبت عليها أبدا .

ولما كانت السير ثلاثة ؛ لأنها تنقسم بانقسام الغايات الثلاث التى يقصدها الناس : أعنى سيرة اللذة وسيرة الكرامة ، وسيرة الحكمة ، وكانت سيرة الحكمة أشرفها وأتمها ، وكانت فضائل النفس كثيرة ـ وجب أن يَفْضل الانسان بأفضلها ويَشْرُف بأشرفها : فسيرة الأفاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها ؛ لأن أفعالهم أبدا مختارة ممدوحة ، وكل إنسان يلتذ بما هو محبوب عنده : يلتذ بعدل العادل ، أو يلتذ بحكمة الحكيم . والأفعال الفاضلة والغايات التى ينتهى إليها بالفضائل لذيذة محبوبة . فالسعادة ألذ من كل شىء : يقول « أرسطوطاليس » : إن السعادة الآلهية وإن كانت فى ذروة الشرف ، وسيرتها ألذ وأشرف من كل سيرة ـ محتاجة إلى السعادات الأخر الخارجة لأن تظهر بها ، وإلا كانت كامنة غير ظاهرة ، وإذا كانت كذلك كان صاحبها كالفاضل النائم الذى لا يظهر فعله ، وحينئذ لا يكون بينه وبين غيره فرق . فالمطلع إذن على حقيقة هذه السعادة المتمكن من إظهار فعله بها هو الذى يلتذ بها ، وهو الذى يسر سرورا حقيقيا غير مموه ولا مزخرف بالباطل ، وهو الذى يخرج من حد المحبة إلى العشق والهيمان . وحينئذ يأنف أن يصير سلطانه العالى تحت سلطان بطنه : فلا يخدم بأشرف جزء فيه أخس جزء فيه . وأعنى بالسرور المزخرف بالأباطيل اللذات التى تشاركنا فيها العجماوات ؛ فان تلك اللذات حسية، تنصرم وشيكا ، وتملها الحواس سريعا ، فاذا دامت عليها صارت كريهة ، وربما عادت مؤلمة . وكما أن للحس لذة عرضية على حدة ـ فكذلك للعقل لذة ذاتية على حدة . فلذة العقل هى اللذة الحقيقية ، ومن لا يعرف اللذة الحقيقية كيف يلتذ بها ؟ ومن لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصير إليها ؟ ومن لا يعرف الخير المطلق والفضيلة العامة والحكمة

العملية أى ايثار الأفضل والعمل به والثبات عليه — لا ينشط له ولا يرتاح إليه .

المحن والمصائب لاتخرج السعيد عن سعادته :

وينبغى أن يعلم أن السعيد مادام حيا تحت هذا الفلك الدائر بكواكبه ودرجاته ومطالع سعوده ونحوسه - يرد عليه من النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب مايرد على غيره ، إلا أنه لايذعر منها ولا يلحقه مايلحق غيره من المشقة فى احتمالها ؛ لأنه غير مستعد لسرعة الانفصال منها بعادة الهلع والجزع والأحزان ، ولاقابل أثر الهموم والأحزان بالأحوال العارضة . وإن أصابه من هذه الآلام شىء فهو يقدر على ضبط نفسه ، كى لاتنقله عن السعادة إلى ضدها ، بل لا تخرجه عن حد السعادة البتة .

ولو ابتلى بما أصاب أيوب عليه السلام وأضعافه ما أخرجه عن حد السعادة : وذلك لما يجد فى نفسه من المحافظة على شروط الشجاعة والصبر على مايجزع منه أصحاب خور الطباع ، فيكون سروره أولا بذاته وثانياً بالأحاديث الجميلة التى تنشر عنه ؛ ويرى أن القاتل الذى يدعى « الشطارة » والمصارع الذى يهوى الغلبة — كل واحد منهما يصبر على شدائد عظيمة : من تقطيع أعضاء نفسه ، وترك الشهوات التى يتمكن منها طلبا لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت ، فيرى نفسه أحرى وأولى منهما بالصبر ، إذ كان غرضه أشرف ، وصيته فى الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ؛ ولأنه يسعد فى نفسه ، ثم يصير قدوة لغيره . يقول (أرسطوطاليس) : إن بعض الأشياء تعرض من سوء البخت بما يكون يسيرا سهل المحتمل ، فإذا عرض للانسان واحتمله لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه ، وعظم همته .

ومن لم يكن سعيدا ولا سبقت له رياسة بهذه الصناعة الشريفة من تهذيب الأخلاق فإنه سينفعل انفعالا قويا ؛ فيعرض له عند حلول المصائب إحدى الحالتين : إما الاضطراب الفاحش والألم الشديد والخروج بها إلى الحد الذى

يرثى له ويرحم ، وإما أن يتشبه بالسعداء ويسمع مواعظهم ، فيظهر الصبر والسكون إلا أنه جزع الباطن متألم الضمير .

وكما أن الأعضاء المفلوجة إذا حركت إلى اليمين تحركت إلى الشمال — كذلك تكون حركات نفوس الأشرار : تتحرك إلى خلاف ما يحملونها عليه من الجميل ، فتكون هذه حالهم إذا تشبهوا بالأجواد وأهل العدالة .

شَقَاوةُ الأبناء لاتخرج السَّعيد بعد موته من زمرة السعداء :

يقول « أرسطوطاليس » فى كتاب الأخلاق : قد حكمنا أن السعادة شىء ثابت غير متغير ، وقد علمنا أيضاً أن الانسان قد تلحقه تغيرات كثيرة واتفاقات شتى : فانه قد يمكن لمن هو أرغد عيشاً أن يصاب بمصائب عظيمة . ومن تتفق له هذه المصائب ومات عليها فلا يسميه أحد من الناس سعيدا . وعلى هذا القياس لايسمى أحد من الناس سعيدا مادام حيا ، بل ينتظر به آخر عمره ، ثم يحكم عليه .

فالانسان إذن إنما يصير سعيدا إذا مات ، إلا أن هذا قول فى غاية الشناعة ، لما قرره من أن السعادة هى « خير ما » والمرء ينال كثيرا منه فى حياته .

ومما لامجال للشك فيه أن الانسان بعد مماته قد يلحقه من أفعال بنيه مايسره أو يحزنه ، ومايِنفعه أو يؤذيه . فقد يمكن فيمن عاش عمره كله سعيدا إلى أن بلغ الشيخوخة وتوفى على هذا السبيل أن يلحقه مثل هذه التغيرات فى أولاده : فقد يكون بعضهم خيارا حسن السيرة ، وبعضهم بضد ذلك . ومن البين أنه قد يمكن أن يوجد بين الآباء والأولاد تباين واختلاف من كل جهة ، ولكن من المنكر أن تتغير حال الميت بتغير غيره : يصير مرة سعيدا ، ومرة أخرى شقياً . ومن المنكر أيضاً ألا تكون أمور الأولاد متصلة بالوالدين فى وقت من الأوقات . فالانسان بعد مماته يتصل به لامحالة من أمور أولاده وأولاد أولاده أحوال مختلفة بحسب اختلاف سيرهم ، ولكن

الانسان إذا مات سعيدا ثم لحقه من شقاوة بعض أولاده ، أو سوء سيرة من يحيا من نسله ما يكون ضد سيرته وهو حى ، فان ذلك لا يغير من سعادته :

يقول : « أرسطو طاليس » فى إقامة البرهان على ما تقدم :

« إن سيرة الإنسان ينبغى أن تكون سيرة محمودة ؛ لأنه يختار فى كل ما يعرض له أفضل الأعمال : من الصبر مرة ، ومن اختيار الأفضل فالأفضل مرة ، ومن التصرف فى الأموال إذا اتسع فيها ، وحسن التجمل إذا عدمها ؛ ليكون سعيدا فى جميع أحواله غير منتقل عن السعادة بوجه من الوجوه . فالسعيد إذا ورد عليه نحس عظيم جعل سيرته أكثر سعادة ؛ لأنه يداريه مداراة جميلة ، ويصبر على الشدائد صبرا جميلا ، وحتى لم يفعل كدر سعادته ونغصها وجلب له أحزانا وهموما تعوقه عن أفعال كثيرة . والجميل إذا ظهر من السعداء فى هذه الأحوال والأفعال كان أشد إشراقا وحسنا : وذلك إذا احتمل ما كبر وعظم من المصائب احتمالا سهلا بعد ألا يكون ذلك لعدم حسه أو لنقصان فهمه بالأمور — بل لشهامته وكبر نفسه . ثم قال « أرسطو طاليس » أيضا : « إذا كانت الأفعال هى ملاك السيرة كما قلنا ، فليس يكون أحد من السعداء شقيا ، لأنه لا يفعل فى وقت من الأوقات أفعالا مرذولة . فاذا كان هكذا فالسعيد أبدا يكون مغتبطا مهما كان نوع المصائب التى حلت به ، ولا يكون أيضا شقيا ، ولا سريع التنقل من ذلك ؛ لأنه لا يتنقل عن السعادة بسهولة ، فلا تنقله عنها الآفات اليسيرة ، بل لا تنقله عنها الآفات العظيمة الكثيرة ، وليس يكون سعيدا إذا نالته هذه الأمور زمانا يسيرا ، بل إذا ظفر بأمور جميلة فى زمان طويل » ثم قال بعد قليل : « وأما حال الانسان بعد موته فالقول بأن الآفات التى تعرض لأولاد الميت وأصدقائه بأجمعهم ليست تتعلق به أصلا — مضاد لما يعتقده جميع الناس . وإذا كانت الأمور العارضة لهؤلاء كثيرة متيقنة ، وكان بعضها يتعدى إلى الميت أكثر وبعضها أقل ، — صارت قسمتنا إياها إلى الأشياء الجزئية غير

منتهية . وأما بالإجمال فنكتفى بأن نقول : كما أن الآفات التى تعرض للميت
فى حياته بعضها يثقل عليه احتماله ويثلم سيرته ، وبعضها يخف عليه احتماله —
كذلك حاله فيما يعرض لأولاده وأصدقائه . إلا أن كل واحد من العوارض
التى تعرض للأحياء مخالف تمام المخالفة لما يعرض لهم إذا ماتوا ، ومايصل
إليهم من هذه الأشياء خيرا كان أو شرا يكاد يكون يسيرا نزرا بمقدار مالا
يجعل غير السعيد سعيدا ، ولا ينتزع السعادة من السعداء .

الرتبة الاخيرة من السعادة

وآخر المراتب فى الفضيلة أن تكون أفعال الانسان كلها أفعالا إلهية ،
وهذه الأفعال هى خير محض ، والفعل إذا كان خيرا محضا فليس يفعله فاعله
من أجل شىء آخر غير الفعل نفسه ؛ وذلك أن الخير المحض هو غاية
متوخاة لذاتها أى هو الأمر المطلوب المقصود لذاته ، والأمر الذى هو غاية
فى النفاسة لايكون من أجل شىء آخر . فأفعال الانسان إذا صارت كلها الهية —
فهى كلها إنما تصدر عن لبه وذاته الحقيقية التى هى عقله الالهى ، وتتهدر
وتموت سائر دواعى طباعه البدنية مع سائر النفسين البهيميتين ، فلا يبقى له
حينئذ إرادة ولاهمة خارجتان عن فعله ، بل إرادته وهمته فى ذات الفعل ،
وهذا هو سبيل العقل الالهى .

فهذه الحال هى آخر رتب الفضائل التى يتقيل فيها الانسان أفعال « الأول »
خالق الكل عز وجل : فيكون فيما يفعله لايطلب به حظا ولامجازاة
ولاعوضا ولازيادة ، بل لذات الفعل ، ولأنه لايليق به سواه . ففعل
الانسان فى هذه الحال خير محض وحكمة خالصة ؛ إذ هو يبدأ بالفعل
لاظهاره لا لغاية أخرى يتوخاها به .

وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ، ليس من أجل شىء وخارج عن
ذاته ، وإلا كانت الأشياء الخارجة أسبابا وعللا لأفعاله وهذا شنيع قبيح .
تعالى الله عنه علوا كبيرا .

وهكذا سبيل الانسان إذا بلغ الغاية القصوى الممكنة من الاقتداء بالبارى عز وجل : تكون أفعاله التى يفعلها من أجل ذاته نفسها التى هى العقل الالهى ومن أجل الفعل نفسه . وإن فعل فعلا يرفد به غيره ، وينفعه به — فليس فعله من أجل ذلك الغير بل لذاته ولنفس الفضيلة والخير ، لا لاجتلاب منفعة ودفع مضرة ، ولا للتباهى وطلب الرياسة ومحبة الكرامة . فهذا غرض الفلسفة ، ومنتهى السعادة ، إلا أن الإنسان لا يصل إلى هذه الحال حتى تفنى إرادته الناشئة عن باعث خارج وتفنى العوارض النفسانية ، وتموت خواطره التى تكون عن هذه العوارض ، ويمتلىء شعورا إلهيا وهمة إلهية . وإنما يمتلىء من ذلك إذا صفا من الأمر الطبعى البتة ، ونفى منه نفيا كاملا ، وحينئذ يمتلىء معرفة إلهية وشوقا إلهيا .

وليست تحصل هذه المراتب التى يترقى فيها صاحب السعادة التامة إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها علما صحيحا ، ويستوفيها تدريجا . ومن ظن أنه يصل إليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهج — فقد ظن باطلا وبعد عن الحق بعدا كثيرا . وليتذكر فى هذا الموضع الخطأ العظيم الذى وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة بتعطيل القوة العاملة وإهمالها ، وبترك النظر الخاص بالعقل واكتفائهم بأعمال ليست مدنية ، ولا بحسب ما يقسطه التمييز والعقل .

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ، وتجرد بنفسه اللطيفة التى عنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبعية لأخراه العلية — فقد فاز وأعد ذاته للاتصال بخالقه عز وجل إعدادا روحانيا ، ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التى كانت تعوقه عن سعادته ولا تشوف إليها ، لأنه قد تطهر منها ، وتنزه عنها ، ولم تبق فيه إرادة لها ولا حرص عليها ، وقد استخلصها للقاء رب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذى كان غير مستعد له . ويأتيه حينئذ الذى وعد به المتقون والأبرار ، كما سبق الايماء إليها فى قوله عز وجل : (فَلَا تَعْلَمُ

نَفْسٌ ماأُخْفِيَ لَهُمْ من قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم :
« هُنَاكَ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ولاَ خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ »

رأى الغزالى فى رتب السعادة

اعلم أن السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وماعداها سميت سعادة : إما مجازاً أو غلطا كالسعادة الدنيوية التى لاتعين على الآخرة ، وإما صدقا ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل مايوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليه ، فان الموصل إلى الخير والسعادة قد يسمى خيرا وسعادة .
والأسباب النافعة المعينة تشرحها تقسيمات أربعة :

التقسيم الأول : منها ماهو نافع فى كل حال وهى الفضائل النفسية ، ومنها ماينفع فى حال دون حال ونفعه أكثر : كالمال القليل . ومنها ماضرره أكثر فى حق أكثر الخلق : وذلك بعض العلوم والصناعات .

ولما كثر الالتباس فى هذا وجب على العاقل الاستظهار بمعرفة حقائق هذه الأمور ، حتى لايؤثر الضار على النافع ، بل النافع على الرفيع ، والرفيع على النفيس الأهم ، فيطول عليه الطريق : فكم من ناظر يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، وكم من طالب حبلا ليتمنطق به ، فيأخذ حية يظنها حبلا ، فتلدغه . والعلم الحقيقى هو الذى يكشف عن هذه الأمور .

التقسيم الثانى : إن الخيرات بوجه آخر تنقسم إلى مُؤْثَرَة لذاتها ، وإلى مُؤْثَرَة لغيرها . وإلى مؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها . فينبغى أن يعرف مراتبها ليعطى كل رتبة حقها :

فالمؤثرة لذاتها : السعادة الأخروية ، فليس وراء تلك الغاية غاية أخرى .

والمؤثرة لغيرها : من المال كالدراهم والدنانير ؛ فلولا أن الحاجات تنقضى بها لكانت كالحصباء وسائر الجواهر الخسيسة

والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها : كصحة الجسم ؛ فإن الانسان ـ وإن

استغنى عن المشى الذى تراد سلامة الرجل له - يريد أيضا سلامة الرجل من حيث هى سلامة.

التقسيم الثالث: إن الخيرات تنقسم من وجه آخر إلى نافع وجميل ولذيذ. والشرور ثلاثة: ضار وقبيح ومؤلم. وكل واحد ضربان:

أحدهما - مطلق: وهو الذى يجمع الأوصاف الثلاثة فى الخير: كالحكمة؛ فإنها نافعة وجميلة ولذيذة، وفى الشر: كالجهل، فإنه ضار وقبيح ومؤلم

والثانى - مقيد: وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم: كقطع الاصبع الزائدة والسلعة الخارجة. ورب نافع قبيح: كالحمق، فإنه راحة: إذ قيل: استراح من لا عقل له؛ أى لا يغتم للعواقب، فيستريح فى الحال. ورب نافع من وجه ضار من وجه: كالقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فإنه ضار للمال، ونافع فى نجاة النفس. والنافع قسمان: قسم ضرورى: كالفضائل النفسية والوصول إلى سعادة الآخرة. وقسم قد يقوم غيره مقامه فلا يكون ضروريا: كالسكنجبين فى تسكين الصفراء

التقسيم الرابع: إن اللذات بحسب القوى الثلاث والمشتهيات الثلاثة - ثلاث؛ (إذ اللذة عبارة عن إدراك المشتهى؛ والشهوة عبارة عن انبعاث النفس لنيل ما تتشوقه):

لذة عقلية، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات؛ وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات:

الأولى: كلذة العلم والحكمة، وهى أقلها وجوداً وأشرفها:

أما قلتها: فإن الحكمة لا يستلذها إلا الحكيم. وقصور الرضيع عن إدراك لذة العسل؛ والطيور السمان؛ والحلاوات الطيبة - لا يدل على أنها ليست لذيذة؛ واستطابته للبن لا تدل على أنه أطيب الأشياء. والناس كلهم إلا النادر مبتلون بالقصور عن تقدير العلم فلذلك يستلذون الجهل:

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مراً به الماء الزلالا

وأما أشرفيتها : فلأنها لازمة لاتزول ، ودائمة لاتحول وثمرها فى الدار الآخرة إلى غير نهاية . والقادر على الشريف الباقى إذا رضى بالخسيس الفانى كان مصابا فى عقله ، محروما بشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن الفضائل النفسية لاسيما العلم والعقل لاتحتاج إلى أعوان وحفظة ، بخلاف المال ؛ فإن العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص به ، والعلم نافع فى كل حال ومطلقا وأبدا ، والمال تارة يجذب إلى الرذيلة وتارة إلى الفضيلة . ولذلك ذم فى القرآن فى مواضع ، وإن سمى خيراً فى مواضع .

الثانية : هى اللذة المشتركة بين الانسان وبين جميع الحيوانات : كلذة المأكل والمشرب وهى أكثرها وجوداً .

الثالثة : اللذة التى يشارك فيها الانسان بعض الحيوانات : وهى لذة الرياسة والغلبة ، وهى أشد التصاقا بالعقلاء . ولذلك قيل : (آخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة) وكيف تكون لذة الأكل لذة مطلقة وهى من وجه إزالة ألم ، ولذلك قال الحسن : (الإنسان صريع جوع وقتيل شبع) وجميع لذات الدنيا سبع : مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومشموم ومسموع ومبصر . وهى بجملتها خسيسة ، كما روى عن على كرم الله وجهه : إذ قال لعمار بن ياسر ، وقد رآه يتنفس كالحزين : « ياعمار ، إن كان تنفسك على الآخرة فقد ربحت تجارتك ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك ؛ فإنى وجدت لذاتها المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات والمشمومات والمسموعات والمبصرات : فأما المأكولات فأفضلها العسل ، وهو صنعة ذباب . والمشروبات أفضلها الماء ، وهو أهون موجود وأعز مفقود . وأما الملبوسات فأفضلها الديباج ، وهو نسج دودة .

وأما المشمومات فأفضلها المسك ، وهو دم فأرة . وأما المسموعات فريح هابة في الهواء . وأما المبصرات فخيالات صائرة إلى الفناء » .

ومن آفتها أن كل واحدة منها يتبرم بها بعد استيفائها في لحظة . فليعتبر حاله الفراغ من الأكل بما قبله ، ولينتظر كيف ينقلب المطلوب مهروبا منه في الحال . فأين يوازى هذا ماتدوم لذته ، ولا تفنى أبد الآباد راحته ؟ وهو الابتهاج بكمال النفس بالفضائل النفسية ، خصوصا الاستيلاء على الكل بالعلم والعقل

أسباب السعادة

لو عرف الإنسان أسباب السقوط وامتنع عنها ماسقط مطلقا ، ولو عرف أسباب الخيبة وتحاشاها ماخاب في عمل أبدا : انظر إلى رقة الحديث وبلاغة القول تجدهما ترفعان قدر المتكلم في نظر السامعين ، ولكن كثرة الكلام تحدو بهم إلى سآمته وإلى الملل من المتكلم . فلو عرف الثرثار هذه الحقيقة ماتجنبه الناس ، ولاملوا سماع حديثه . ترى العين حشرة فتستهين بها ، ثم تراها تلدغ فتقتل ، فيكبر الإنسان أمرها ويخشاها ، ويأخذ لنفسه الحيطة منها . وهكذا الناس : مرت بهم ظروف كثيرة متنوعة وأحوال متباينة ، فكانت سبب رفعة بعضهم ونجاحه ، وسقوط الكثير منهم وخيبته . فلو تعرف الانسان أسباب الرفعة والنجاح وتطلبها ، وأسباب السقوط والخيبة وتجنبها - لفاز بكل أمانيه ، وماشكا في حياته سوء الحظ ونكد الطالع .

ليس غرض الناس من الحرب مجرد القتل والإفناء والتخريب ، وإنما الاستعاضة من المغارم غنما ، ومما زهق من نفوس المقتولين عوضا ودية . وما الحياة إلا حرب طاحنة بين الناس وحظوظهم ، حرب دائمة لا انقطاع لها بدأت منذ بدأ العالم ، ولا تنقطع إلا يوم يفنى آخر إنسان من على وجه الأرض . فلو تعرف العاقل أسباب انتصار المنتصرين وانكسار المخذولين ،

وترسم فى المعارك القائمة بينه وبين حظوظه خطط الأولين - ماخذل ، ولا غلبه الشقاء .

إن للتجربة ثمنا من الجهد والراحة ومن عمر الإنسان ، فلو رغب الإنسان فى معرفة حقائق الحياة من تجاربه وحده لانقضت حياته قبل أن يدرك مايريد ، وماذاق شيئا من الهناءة ، ولاعرف السعادة :

فليس يتعين على التاجر الإفلاس لرغبته فى معرفة سر النجاح ، ولا يقتضى الحال إغراق الربان سفينته ليتعلم وسائل إنقاذها من الغرق ، فقد يتعذر نجاح التاجر بعد إفلاسه ، وإنقاذ السفينة بعد غرقها . ولما كانت صحيفة الكون بعجائبه وبحوادثه منشورة أمام الإنسان فى كل حين ، فله أن يعتبر بها : فيتعلم الحكمة من شقاء غيره دون أن يشقى ، ويعرف أسرار الحياة من المتألمين منها دون أن يتألم ، ويقف على سر النجاح من أسباب سقوط المفلس دون أن يفلس ، ويتعلم النجاة من المصيبة ممن وقع فيها دون أن يلقى نفسه إلى أحضانها . وهذا هو معنى قولهم : السعيد من وعظ بغيره

حقا إن الحياة علم له أصول وقواعد : فمنها مايختص بصحة الجسم أو العقل أو الأخلاق ، ومنها مايختص بالنجاح أو السعادة . وكلها من ثمار الحكمة ، ومن نتائج أفكار الناس . فمن عرفها عنهم أمن شر الحوادث التى أوصلتهم إلى عرفانها ، والحكيم من اعتبر بمصائب غيره ، واستخدمها للانتفاع منها : بجعلها سببا لهناءته وسعادته .

من يعنى بجمع طاقة من الأزهار لايهمل شأنها حتى تذبل وتذوى وتفقد رائحتها الذكية ، وإنما ينتفع بما فيها من الفائدة : فيشم عطرها ، وينعش به نفسه . وماالعالم إلا مثال الحديقة ، وماالأزهار إلا عبر الحوادث ، ومالزوم شم الأزهار إلا وجوب الانتفاع من العبر : بجعلها وساطة للاغتباط والهناءة بدلا من ضياعها سدى .

سئل حكيم عن أنجع الوسائل المؤدية إلى شمول السلام ، فقال : « محبة الانسان غيره كنفسه »

وفى كلام سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام مايشير إلى ذلك ، فقد جمع أشتات الحكم فى أوجز العبارات ، ووصل إلى الغاية من أقصر السبل .

يظن الانسان أن السبيل إلى السعادة بعيد الشقة كثير العقبات ، والحال أن كثيرا من النفوس الساذجة تصل إليها من أقصر الطرق وأقلها وعورة .

ولما كانت معرفة وجود الشىء لاتكفى للوصول إليه بل يحتاج الأمر معها إلى معرفة الطريق إليه وإلى قطعها أيضا ـ فكذلك ثبوت وجود السعادة فى الحياة لايكفى لتحقيق سعادة الإنسان ، بل يحتم عليه معرفة الطريق إليها والسير فيها لنيلها .

وقد كتب كثيرون عن السعادة ولكنهم أغفلوا الهداية إلى الطريق المؤدى إليها . ولما كانت مقتضياتها وأسبابها كثيرة اقتصرنا على المهم منها :

فالأول

الايمـــان

ينبغى للباحث فى هذا الموضوع أن ينير سبيل بحثه بإيضاح أمور أربعة هى : الاعتقاد ، واليقين ، والايمان ، والدين . فيخص كلا منها بنبذة تجلى غامضه وتوضح مشكله ، ثم يتبع ذلك ببيان مابين الجميع من قرابة وصلة ، وعلى ذلك عولت أن أسير ، وبالله التيسير :

الاعتقاد : قال فى المصباح المنير : « اعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل : العقيدة مايدين به الانسان ، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك » وأصل ذلك كله من العَقْد وهو الجمع بين أطراف الشىء ، فكأن المعتقد قد جمع أطراف قلبه على معتقده ، فأحكم وثاقه ، وأمن انطلاقه ، ووثاقه الأدلة القاطعة عنده ، والبراهين الساطعة لديه . فالاعتقاد بشىء هو تصديقه ، وعقد القلب والضمير عليه . ويجوز أن يكون اعتقادا بحق لامرية فيه ،

أو بباطل يلتبس بالحق فينازعه مكانه وينحيه : فالأول كالاعتقاد بوحدانية الخالق ، والآخر كالاعتقاد بإلهية الصنم .

وصاحب العقيدة لا يعمل مايخالف عقيدته مادامت العقيدة قد تملكت عليه نفسه ، ووصلت إلى أعماق قلبه ، لأن الانسان مفطور على أن يصدر عن إرادة وفكر : يعمل الشيء بعد أن يترجح لديه نفعه ، ولا يقربه إذا ترجح لديه ضره . فما دام الإنسان إنساناً والفطرة هى الفطرة فعمل المرء منوط باعتقاده ناشيء عن إراته وتفكيره . ولئن طرأ عليه من الأسباب مايحمله على مخالفة مايعتقد فلا يلبث أن يعمل بموجب اعتقاده متى زال ماحال بينه وبين مراده .

فالعقيدة هى صاحبة الحول والطول : تصدر أمرها فلا يكون من صاحبها سوى الطاعة والرضا ، وتنهى فلا يكون منه إلا الخضوع والخنوع . وأما الأسباب التى تحول بين المرء وتلبية داعى عقيدته فهى ملابسات شاذة وأسباب مؤقته : فصديقك قد يسيء إليك ، ولا يمكن أن تكون إساءته ديدناله ، وصاحب المبدأ قد يضطر إلى أن يسيء إلى مبدئه ، ولكنه لا يستمر فى تلك الإساءة ، بل لا يصبر عليها ، كما أن التقى قد يفرط منه ذنب ، ولكنه لا يرضى به ولا تطمئن إليه نفسه ، بل تكثر من لومه وتعنيفه ، حتى يعقد عقدة الندم . وفى حديث الدعاء : « لك من قلوبنا عقدة الندم » يريد عقد العزم على الندامة : وهو تحقيق التوبة : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

أما ذو الألوان الذى يتغير بتغير الزمان ، ويتلون تلون الحرباء ، ويتذبذب

بين هؤلاء وهؤلاء — لخليق بألا يكون من الوجهاء أولى العقائد السليمة والمبادىء القويمة والنفوس الكريمة ، بل من أصحاب العقائد السقيمة والنفوس اللئيمة الذين فسدت ضمائرهم ، وعميت بصائرهم .

اليقين : يَقن الأمرُ وضح ، ويَقن فلان الأمرَ علمه وتحققه . فاليقين إزاحة الشك ، ولايزاح الشك إلا بالدليل القطعى الذى لاشبهة فيه ، ولذلك قال صاحب المصباح المنير : « اليقين : العلم الحاصل عن نظر واستدلال » وقال بعض أجلاء العلماء : « اليقين : هو اعتقاد أن الشىء كذا (أى على حالة أو صفة معينة) مع اعتقاد أنه لايكون إلا كذا (على هذه الحالة أو الصفة المعينة) اعتقادا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال . ولأن اليقين عدو مبين للشك سمى العلماء الموت يقينا : قال البيضاوى : اليقين الموت ؛ لأنه متيقن لحاقه لكل مخلوق » .

قال الراغب الأصفانى : « اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتهما يقال : علم يقين : وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم . وعلم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، وبينها فروق : (علم اليقين يعنى علماً كعلم الأمر اليقين ، وحق اليقين أى حق الخبر اليقين أو الحق الثابت من اليقين ، وعين اليقين أى الرؤية التى هى نفس اليقين ، يعنى المشاهدة التى هى أقصى مراتب اليقين ، يليها فى مراتب اليقين حق اليقين ، ويلى حق اليقين علم اليقين) ويقال استيقن وأيقن قال تعالى : (إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) (لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وقوله عز وجل : (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً) أى ما قتلوه قتلا تيقنوه ، بل إنما حكموا تخميناً ووهما .

كتب رجل من العُبَّاد إلى صديق له : « إنى رأيت الله تبارك وتعالى جعل اليقين بأعظم المواضع فى أمر الدنيا والدين : فهو غاية علم العالم وبصر البصير وفهم السامع ، ليس كسائرِ الأشياء التى تدخلها الشبهات ، ويجرحها الاغفال ويشوبها الوهن : وذلك أن الله تعالى جعل مغرسه القلب ، وأغصانه العمل ،

وثمرته الثواب . وإنما جعل القلب لليقين مغرسا ، لأنه جعل الخمس الجوالب لعلم الأشياء كلها إلى القلب : السمع والبصر والمجسة والمذاقة والاسترواح . فاذا صارت الأشياء إليه ميز بينها العقل ، ثم صارت بأجمعها إلى اليقين ، فكان هو المثبت لها والموجه كل واحدة منها جهتها .

ولولا معرفة القلب بالعقل الذى جعله الله لذلك لم يفرق سمع بين صوتين مختلفين ، ولا بصر بين صورتين متقاربتين ، ولا مجسة بين شيئين غير متشابهين .

ولليقين بعد ذلك منزلة يُعْرفُ بها حال الضار والنافع فى العاقبة عند الله تعالى .

فلما صار اليقين فى التشبيه كالشجرة النابتة فى القلب ، أغصانها العمل ، وثمرتها الثواب — أخبر ذلك أنه قد تكون الشجرة نابتة الأصل بلا أغصان ، كما قد يكون اليقين نابتاً بلا عمل ، وأنه كما لا تكون الأغصان نابتة بلا أصل — فكذلك لا يكون العمل نافعاً إلا بيقين ، وكما أنه لا تُخْلفُ الثمرة فى الطيب والكثرة إذا كان الأصل نابتاً والأغصان ملتفة — فكذلك يكون الثواب لمن صح يقينه وحسن عمله . وقد تعرضُ للاعمال عوارضُ من العلل : « منهن الأمل المثبِّطُ ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المزين للباطل ، والشيطان الجارى من ابن آدم مجرى الدم » — يضررن بالعمل والثواب ولا يبلغ ضررهن اليقين ، فيكون ذلك كبعض مايعرض للشجرة من عوارض الآفات : فتذوى أغصانها ، وتنتثر ورقها ، وتمنع ثمرتها ، والأصل ثابت . فإذا تجلت الآفة عادت إلى صلاحها .

فماذا يعجبك من عمل امرئ لا يشبه يقينه ، وأن يقينه لا يرتبط رجاءه وخوفه على ربه ؟ إنما العجب من خلاف ذلك !! ولعمرى لو أشبه عمل امرئ يقينه : فكان فى خوفه ورجائه كالمعاين لما يعانيه بقلبه من الوقوف بين يدى الله ، والنظر الى ماوعد وأوعد — لكان مايعتلج على قلبه من خطرات الخوف شاغلا له عن الرجاء ، حتى يأتى على نفسه أول لحظة ينظر بها إلى النار خوفا لها ، أو إلى الجنة أسفاً عليها إذا حرمها . وإذن لكان الموقن بالبعث

بقلبه كالمعاين له يوم القيامة ، وكيف يستطيع من كان كذلك أن يعقل فضلا عن أن يعمل ! !

وأما قولك : « كيف لم يكن خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانه » - فإن الله عز وجل خلق الأنسان ضعيفاً وجعله عجولا : فهو لضعفه موكل بخوف الأقرب فالأقرب مما يكره ، وهو بعجلته موكل بحب الأعجل فالأعجل مما يشتهى . وزاده حرصاً على المَخلص من المكروه وطلبا للمحبوب - حاجته إلى الاستمتاع بمتاع الدنيا الذى لولا ماطبع عليه القلب من حبه ، وسهل على المخلوقين من طلبه — ما انتفع بالدنيا منتفع ، ولا عاش فيها عائش . ومع ذلك ، إن مكاره الدنيا ومحابها عند ابن آدم على وجهين : أما المكروه فيقول فيه : عسى أن أكون ابتليت به لذنب سلف منى . وأما المحبوب فيقول فيه : عسى أن أكون رزقته بحسنة كانت منى ، فهو ثواب عُجِّل . وهو مع هذا يعلم أن حلوم المخلوقين إلى الضيق ، وأن قلوب أكثر مُسلَّطيهم إلى القسوة ، وأن العيب عنهم مستور ، فليس يلتمس ملتمسهم إلا علم الظاهر ، ولا يلتفت من امرئ إلى صلاح سريرته دون صلاح علانيته .

ومن طباع الانسان اللؤم : فليس يرضى إذا خيف إلا بأن يُذِل ، ولا إذا رُجى إلا بأن يتعب ، ولا إذا غضب إلا بأن يخضع له ، ولا إذا أمر إلا بأن ينفذ أمره ، ولا ينتفع المتشفع بإحسانه عنده إذا أساء ، ولا المطيع بكثرة طاعته فى المعصية الواحدة إذا عصى ، ولا يرى الثواب لازما له ولا العقاب محجورا عليه : فإن عاقب لم يستبق ، وإن غضب لم يتثبت ، وإن أساء لم يعتذر ، وإن أذنب إليه مذنب لم يغفر . واللطيف الخبير يعلم السريرة فيغفر بها العلانية ، ويمحو بالحسنة عشرا من السيئات ، ويصفح بتوبة الساعة عن ذنوب مائة عام . إن دعى أجاب ، وإن استغفر غفر ، وإن أطيع شكر ، وإن عُصِى عفا ، ومن وراء عبده بعد هذا كله ثلاث : رحمته التى وسعت كل شىء ، وشهادة الحق التى لا يزكو عمل إلا بها ، وشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذا كله مثبت لليقين ، باسط للأمل ، مثبط عن العمل ، إلا من شاء الله ، وقليل ماهم . فلا تحمل نَطَف عملك على صحة يقينك ، فتوهن إيمانك . ولا ترخص لنفسك فى مقارفة الذنوب ، فيكون يقينك خصما لك وحجة عليك . وكذب أملك ، وجاهد شهوتك ، فإنهما داءاك المخوفان على دينك ، واسأل الله الغنيمة لنا ولك »

الرابطة بين الاعتقاد واليقين :

علمنا مما تقدم أن الاعتقاد بشىء هو تصديقه وعقد القلب والضمير عليه . ويجوز أن يكون ذلك التصديق وهذا العقد على حق ، كما يجوز أن يكونا على باطل لابس لباس الحق . وأما اليقين فهو اعتقاد الشىء على حالته اعتقادا مطابقا للحقيقة والواقع غير ممكن الزوال . إذن اليقين اعتقاد بحق ، أو اعتقاد حق فقط . فكل يقين اعتقاد وليس كل اعتقاد يقينا ، لأن الاعتقاد قد يكون فى الحقيقة ، وقد يزايلها ويزيغ عنها . وأما اليقين فهو عين الحقيقة ، والله ورسوله أعلم .

الايمان : لفظ الايمان إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة ، وقيل الايمان : قول وعمل ، أى قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، ومنه قول النبى صلى الله عليه فى الحديث المتفق عليه : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً ، أعلاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، وأَدْنَاها إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » و « الْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمانِ » ومنه قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وجاهَدُوا بأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقوله : (إنما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمانًا ، وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) وقوله : (إِنَّمَا المؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)

والايمان المطلق : يدخل فيه الإسلام ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفد عبد القيس : « آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ؛ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ » ولهذا قال من قال من السلف : « كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً » .

وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرق بينهما ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » وهو فى القرآن كثير ، وكما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وتُقِيمَ الصَّلَاةَ وتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وتَصُومَ رَمَضَانَ وتَحُجَّ الْبَيْتَ » قال فما الايمان ؟ قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والْبَعْثِ بَعْدَ الموْتِ ، وتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ » قال : « فما الاحسان ؟ » قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ففرق هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قرن بين الاسمين ، وفى النص السابق أدخل الإسلام فى الإيمان لما أفرده بالذكر . وكذلك لفظ العمل : فإن الاسلام المذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه . فاذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة ، وإيمان القلب لابد فيه من تصديق القلب وانقياده ، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمداً رسول الله ، وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته — لم يكن قد آمن به ، بل هو كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما

يعرفون أبناءهم ، وغير هؤلاء ؛ فإن إبليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا ، بل استكبر عن أمر ربه ، وفرعون وقومه قال الله فيهم : (وَجَحَدُوا بِهَا ، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا) وقال له موسى : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » وقال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه : مثل محبة القلب له ، واتباع القلب له - لم ينفع صاحبه . بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ)

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان ، وأن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه . وهذا من أعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر . ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ؛ فإنه من المعلوم أن يكون الانسان عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به .

وحينئذ فالايمان لابد فيه من تصديق القلب وعمله . وهذا معنى قول السلف : « الايمان قول وعمل » ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة ؛ فان الارادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا ، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الارادة ، وإلا فمع كمالهما يجب وجود الفعل الاختياري .

فاذا أقر القلب إقرارا تاما بأن محمدا رسول الله ، وأحبه محبة تامة - امتنع

مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكن إن كان عاجزا لخرس ونحوه ، أو لخوف ونحوه - لم يكن قادرا على النطق بهما . وأبوطالب وإن كان عالما بأن محمدا رسول الله ، وهو محب له - لم تكن محبته له لمحبته لله ، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه ، فيحبه للقرابة . وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرياسة ، فأصل حبه هو الرياسة . فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن الاقرار بهما زوال دينه الذى يحبه ، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه ؛ فلم يقر بهما . فلو كان يحبه : لأنه رسول الله ، كما كان يحبه أبو بكر الذى قال الله فيه : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ؛ وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) وكما كان يحبه سائر المؤمنين : كعمر وعثمان وعلى - لنطق بالشهادتين قطعا . فكان حبه حبا مع الله ، لاحبا لله . ولهذا لم يقبل الله مافعله : من نصر الرسول وموازرته ؛ لأنه لم يعمله لله ، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه .

الايمان قابل للزيادة والنقصان :

قال الامام أبو الحسن على بن خلف بن بطال المالكى المغربى فى شرح صحيح البخارى : « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص . والحجة على زيادته ونقصانه ماأورده البخارى من الآيات ، يعنى قوله عز وجل : (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) وقوله تعالى : (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) وقوله تعالى : (وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) وقوله تعالى : (والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » وقوله تعالى : (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) وقوله تعالى : (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا » وقوله تعالى : (فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا) وقوله تعالى : (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) :

قال عبد الرزاق : سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفيان

الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيدالله بن عمر ، والأوزاعى ومعمر بن راشد ، وابن جريج ، وسفيان بن عيينة — يقولون : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعى ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك . فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح ، والولاية من المؤمنين — هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . وذلك أنه لا خلاف بين الجميع فى أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه — لا يستحق اسم مؤمن ، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد — لا يستحق اسم مؤمن .

وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنا بالاطلاق . وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى ، لقوله عز وجل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته

وقال ابن بطال فى باب من قال : « الايمان هو العمل » : فإن قيل قد قدمتم أن الايمان هو التصديق قيل : التصديق هو أول منازل الايمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ، ولا يسمى مؤمناً مطلقاً . هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الايمان قول وعمل . قال أبو عبيد :

وهو قول مالك والثورى والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم .

قال ابن بطال : وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته فى كتاب الايمان ، وعليه بوب أبوابه كلها ، فقال : باب : (أمور الإيمان) وباب :

« الصلاة من الإيمان » وباب : « الزكاة من الإيمان » وباب : « الجهاد من الإيمان » ، وسائر أبوابه . وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم : « إن الإيمان قول بلا عمل » وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

الفرق بين الإيمان والتصديق :

الإيمان وإن تضمن التصديق فليس مرادفا له : فلا يقال لكل مصدق بشىء: إنه مؤمن به . فلو قال :

أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه - لم يقل لهذا إنه مؤمن بذلك ، بل لا يستعمل إلا فيمن أُخْبِرَ بشىء من الأمور الغائبة كقول إخوة يوسف : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » فإنهم أخبروه بما غاب عنه

وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به : فالأول يقال للمخبِر والثانى للمخبَر به ، كما قال إخوة يوسف : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) وقال تعالى: (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ) وقال تعالى : (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين ، لأن المراد يُصَدِّقُ المؤمنين إذا أخبروه ، وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به . ومنه قوله تعالى عن قول فرعون وملئه : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ؟) أى نقر لهما ونصدقهما . ومنه قوله : (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟) ومنه قوله تعالى : (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)

ومن المعنى الآخر قوله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) وقوله : (آمَنَ الرَّسُولُ

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) وقوله : (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) أى أقر بذلك . ومثل هذا فى القرآن كثير .

المؤمن الكامل الإيمان لايخرجه الابتلاء عن كمال إيمانه :

ليس المؤمن بالذى يؤدى فرائض العبادات صورة ، ويتجنب المحظورات فقط ، إنما المؤمن الكامل الإيمان لايختلج فى قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجرى وسوسة . وكلما اشتد البلاء زاد إيمانه ، وقوى تسليمه . وقد يدعو فلا يرى للاجابة أثراً وسره لايتغير ؛ لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته . فإن اختلج فى قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة ، كما جرى لإبليس . والإيمان القوى يبين أثره عند قوة البلاء . فأما إذا رأينا مثل يحي بن زكريا عليهما السلام : تسلط عليه فاجر ، فيأمر بذبحه فيذبح - فربما اختلج فى الطبع أن يقول : فهل رد عنه من جعله نبياً ؟ وكذلك كل تسلط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين ، وما وقع ردعنهم . فان هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفرا ، وإن علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت ، وأنها قد تُجوع المؤمنين ، وتشبع الكفار ، وتعافى العصاة ، وتمرض المتقين - لم يبق إلا التسليم للمالك وإن أمض وأرمض . وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليهما السلام فبكى ابوه طويلا ثم لم ييئس : فقد قال لماضم إلى فقده فقد أخيه : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) وقد دعا موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون فأجيب بعد زمن طويل ، وكم من بلية نزلت بمعظَّم القدر ، فما زاده ذلك إلا تسليما ورضا ، فهناك يظهر معنى قوله : (وَرَضُوا عَنْهُ) وها هنا يظهر مبلغ قوة الايمان ، لا فى ركعات : قال الحسن البصرى : « استوى الناس فى العافية ، فإذا نزل البلاء تباينوا »

حقا إنه يَبينُ إيمان المؤمن عند الابتلاء : فهو يبالغ فى الدعاء ولا يرى أثرا للإجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ، ولو قويت أسباب اليأس ؛ لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح ، أو لأن المراد منه الصبر والإيمان ؛ فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم ؛ لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء . فأما من يريد تعجيل الإجابة ، ويتذمر إن لم تتعجل - فذاك ضعيف الإيمان يرى أن له حقا فى الإجابة ، وكأنه يتقاضى أجرة عمله . ومن أعظم الجهل أن يتذمر فى باطنه لذلك أو لانعكاس أغراضه ، ومن الحمق أن يقال: حصول الغرض لا يضر ، والدعاء لم يستجب . ولا شك أن ذلك من ضعف الإيمان ، وعدم التسليم للحكمة الإلهية .

ومن الذى حصل له غرض ثم لم يكدر ؟ هذا آدم طاب عيشه فى الجنة وأخرج منها ، ونوح سأل فى ابنه فلم يعط مراده ، والخليل ابتلى بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفقد الولد ، ويوسف بمجاهدة الهوى ، وأيوب بالضر ، وداود وسليمان بالفتنة ، وجميع الأنبياء على هذا ، وما لقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجوع والأذى وكدر العيش معلوم . فالدنيا خلقت للجهاد ؛ فينبغى للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر ، وأن يعلم أن ما حصل من المراد لطف ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلقة والجبلة للدنيا كما قيل :

طُبعت على كدر وأنت تريدها * صفوا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها * متطلب فى الماء جذوة نار

وهنا تتبين قوة الإيمان وضعفه ، فليس للمؤمن الكامل الإيمان إلا التسليم للمالك والتحكيم لحكمته ، وليقل قد قيل لسيد الكل : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيءٌ)

فلا ييئس من روح الله ، وإن طال عناؤه فى هذه الحياة . وله خير قدوة فيمن غبر ، وامتلأت حياته بالبلاء والكدر ، ولا محيص من الصبر على ذلك ؛ ليحظى برضا مالك الممالك : (أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) وسيأتى الكثير من هذا إن شاء الله عند الكلام على الرضا .

فلله سبحانه من الحكم فى ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ـ ماتتقاصر عقول العالمين عن معرفته . وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة ، والنهايات الفاضلة ، إلا على جسر المحنة والابتلاء :

كذا المعالى إذا مارمت تدركها * فاعبر إليها على جسر من التعب

الدين

قال فى المصباح المنير : « ودان بالإسلام دينا (بالكسر) : تعبدبه ، وتَدَيَّن به كذلك ، فهو دَيِّن ، مثل ساد فهو سيد . ودَيَّنْتُه (بالتثقيل) : وكلته إلى دينه ، وتركته ومايدين : لم أعترض عليه فيما يراه سائغا فى اعتقاده » فصريح هذه العبارة أن الدين هو العبادة التى توجبها العقيدة ، والطاعة التى يدعو إليها التصديق ، والانقياد الذى يوجبه الإيمان ويسيغه . فهو نتيجة مقدمات الاعتقاد والإيمان ، وثمرة غرسهما ، وظاهرة وجودهما . ومعلوم مما سبق أن الاعتقاد قد يكون بحق يقينى لاريب فيه : كاعتقاد توحيد الخالق ، كما قد يكون بباطل تزيا بزى الحق ونازعه مكانته : كاعتقاد إلهية الصنم .

وبذلك يكون الدين ـ وهو نتيجة مقدمته ، وفرع نبعته ، وثمرة شجرته ـ تابعا له فى الأحقية والبطلان ، والصحة والاعتلال ؛ لأن الدين قد يكون مبنيا على الاعتقاد اليقين الذى تعززه الأدلة اليقينية والبراهين القطعية . فهو والحالة هذه دين صحيح ، ومذهب خالص صريح ، لايتطرق إليه وهن ولا تجريح ، وقد يكون مبنيا على الاعتقاد الزائغ ، والإيمان غير السائغ الذى يتعلل معتنقه بالأدلة الوهمية والبراهين الواهية ، فيكون دينا فاسدا ، ومذهبا خاطئا .

يؤيد هذا قوله تعالى : (قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ ، وَلَا

أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

قال الراغب الأصفهانى فى مفردات غريب القرآن مايفيد : « والدين يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشريعة ، ويطلق على الطاعة والانقياد للشريعة : قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ) (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ) أى طاعة (وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ) وقَوْلُهُ : (لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) وذلك حث على اتباع دين النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو أوسط الأديان ، كما قال : (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

وقوله : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قيل يعنى الطاعة ؛ فإن ذلك لا يكون فى الحقيقة إلا بالإخلاص ، والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه . وقيل إن ذلك مختص بأهل الكتاب الباذلين للجزية . وقوله : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ؟) يعنى الإسلام لقوله : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) وعلى هذا قوله : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) (وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) وقوله : (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أى غير مجزيين .

الرابطة بين الدين والايمان

قال بعض الفلاسفة : « الإيمان وإن تنوعت صوره قريب من الدين مرتبط به ، بل إن الدين لا يكون بدونه ، مع إمكان وجوده هو بدون الدين . وكما أن الأشياء قد تختلف فى الصور والأوضاع الظاهرة وتكون كلها من مادة واحدة - فكذلك الإيمان والدين : هما من جوهر واحد ، وإن جاز اختلافهما فى الشكل الظاهر .

وإذا أرجعنا النظر قليلا إلى الحديث الشريف الذى سأل فيه سيدنا جبريل

عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وقوله بعد جوابه عما سأل عنه وانصرافه : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم - نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أراد بالدين ما يشمل الإيمان والإسلام والإحسان . فجماع هذه الثلاثة على ذلك هو الدين . والله ورسوله أعلى وأعلم .

الايمان بالالهية

الحياة تجهر بوجود إله :

قد توصل العلماء بوساطة الآلة المكبرة التى تُرِى الجسم أكبر مما هو بأكثر من ألف ألف مرة إلى أن فى الأجسام الحية جراثيم صغيرة شفة لزجة خالية من اللون قوامها كقوام البيض النيىء . وقد راقبها العلماء طويلا ، وفحصوها بأقوى ما عندهم من المكبرات ، فلم يروا لها أعضاء ، ولا آلات ، ووجدوا شكلها واحدا فى كل أنواع النبات والحيوان : من الفطير الدنىء إلى دماغ الإنسان . ووجدوا أنها تتحرك بحيث لا تبقى على حالة ولو لحظة من الزمان ، ولا تزال تتناول المواد غير الحية مما جاورها ، وتحييها حالا بطريقة عجيبة لم يكشفها العلم ، ثم تكوّن منها خيوطا عصبية أو شريانية أو عظمية أو عضلية أو نحو ذلك ، وتنسج هذه الخيوط أعصاباً وشرايين وعظاما وعضلات : فإن كانت مما يكوّن عظما لا يمكن أن تكوّن عصباً مهما استعمل لها من الوسائط ، وكذا ما يكوّن منها ورقا لا يمكن أن يكوّن ثمراً ، وما يكوّن زهرا لا يكوّن خشباً ، وقس على ذلك .

هذا مع أن جراثيم الورق والزهر والثمر واللحم والعظم والشرايين والأوردة - هى بحسب ما يعلم واحد أبدا ودائما فى كل أنواع النبات والحيوان وفى كل أدوار الحياة ، وكثيرا ما تكون مواد غذائها واحدة أيضا ، ولكنها لا تخطىء ولا تخلط فى عملها .

ثم إنها إذا كونت هذه الأعضاء لا تتركها ، بل هى نفسها تكون قد تجزأت

أجزاء كثيرة وانتشرت فيما كونته لحما أو عظما أو ورقا أو ثمرا الخ ، حتى إنك تراها منتشرة فى كل أنسجة الجسد بحيث لا تجد فسحة قطرها جزء من خمسمائة جزء من البوصة خالية من هذه الجراثيم . ومقدارها فى الجسد الحى نحو خمسه جرماً . ومن المؤكد أن هذه الجراثيم لا تتكون إلا من جراثيم حية . فإن قيل: أنَّى أتت حياة الجرثومة الأولى ؟ وكيف تأتى أن تعطى الحياة لما جاورها من المواد غير الحية ؟ وكيف تستطيع أن تنقسم أقساماً كثيرة جدا ، ولكل قسم خواص الجرثومة الأولى تماماً ؟ وكيف تتم أعمالها دائما على غاية الإتقان ؟

هنا طأطأ كل العلماء رءوسهم ، وقالوا : لا نعلم ، ولم يكشف لنا عما هى الحياة ، ولا يمكن أن تكون خاصة من خواص المادة ؛ للتناقض الظاهر بينها وبين الاستمرار ، بل هى عرض خارجي يؤتى به إليها ويذهب به عنها ، والآتى بها إلى هذه الجراثيم ذات قديرة قدرتها بالغة إلى كل الموجودات الحية وقابضة على زمام الطبيعة .

ألا يَتبينُ من هذا أن الحياة - محور دولاب الكون ، وروح العالم الحى - تجهر بوجود إله محى قدير حكيم ؛ جريا على القول الحق : إن لكل معلول علة ، ولكل عمل عاملا ؟

موازنة :

الذين ذهبوا إلى المعرض رأوا هنالك آلات مختلفة الأشكال والصفات : رأوا آلة تطحن القمح وتعجنه وتخبزه . وأخرى تبل التبغ وتفرمه وتنسقه ، وأخرى تطبع الورق وتطويه وتخيطه ، إلى غير ذلك . فذهلوا عن أنفسهم ، وقالوا : ما أحكم الإنسان ، وأعجب ما وصل إليه ! ! ولو حاولت إقناعهم بأن هذه الآلات وجدت من نفسها ، أى إن دقائق الحديد ، ودقائق الخشب تجمعت وتركبت ، فصار بعضها عوارض ، وبعضها مخارز ، وبعضها دواليب ، وبعضها أساطين إلى غير ذلك من الأجزاء المختلفة الأقدار والهيئات ، ثم تركبت على أوضاع خاصة ، فتألفت منها تلك الآلات العجيبة ، ثم إن هذه الآلات

جذبت إليها الفحم من طبقات الأرض ، وأضرمت فيه النار ، وملأت جوفها من مياه الينابيع ، فسخن الماء بحرارة النار ، فصار بخارا ، ورفع الأساطين التى فوقه فارتفعت ، وأدارت الدواليب الكثيرة ، وحركت الأدوات المختلفة ، فأحدث ذلك طحن القمح وعجن الطحين ، وخبز العجين ، وطبع الورق وبل التبغ الخ ، وقد جرى كل ذلك ولم تدخل فيه يد الانسان . لو جهرت لهم بهذه النتيجة لعدوك مجنونا أو هاذرا ، بل من تراه يسلم بذلك ؟ وأى عقل يعتقده سخيفاً كان أو ثقيفاً ؟ أيمكن أن توجد هذه الآلات من نفسها ؟ أيمكن أن تختار هذه الأوضاع بلا صانع قادر على صنعها ؟ كلا ؛ فالعقل والنقل لا يسلمان بذلك ، بل يرفضانه . لكن ما هذه الآلات بالنسبة إلى أصغر ضروب الحيوان التى لصغرها لا تراها العين ، والتى لو جمع ألف حيوان منها معا ما بلغ جرمها كلها جرم الخردلة الصغيرة ؟ ما هذه الآلات بالنسبة إلى العفن الذى نراه مذرورا كالرماد الأخضر ؟ وإذا نظرنا إليه بآلة التكبير رأيناه غابات من الأشجار ، وكلها تحيا وتنمو على صورة قصرت عقول البشر عن إدراك كنهها ! !

من يتجاسر فيقول : إن هذه الحيوانات وهذه النباتات وجدت هكذا من نشء الطبيعة ؟

لكن ما هذا بالنسبة إلى الحيوانات الكبيرة ذات الأيدى والأرجل والعيون والآذان ؟ أين آلات البشر من جسد الإنسان ؟ من عينيه ذات الطبقات الكثيرة والتراكيب العجيبة ؟ فلو جمعت كل آلات البشر شرقا وغربا ما ساوت كلها عينا واحدة فى الإتقان والغرابة ، ولو اجتمع كل علماء الأرض وصناعها ، وأرادوا أن يصنعوا عينا باصرة كعين البعوضة ، وصرفوا عمرهم كله فى هذا العمل الى أن حانت منيتهم — لجئتهم فى آخر حياتهم وقد رموا آلاتهم فى النار ، وقالوا كلهم : عجزنا عجزنا .

ليس فى ذلك شىء من المبالغة ، لأن سبيل الحياة والنمو لم يخط فيه الإنسان

فيما مضى ، ولا يؤمل أنه يخطو فيه فيما يأتى . وأيسر على الإنسان أن يصدق بإقامة سلم يصل من الأرض إلى الشمس من أن يصدق بإمكان عمل عين باصرة ، أو أذن سامعة ، أو جرثومة نامية :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ)

وإن كان لا يمكن الآلات التى يعملها الإنسان أن تتكون من نفسها ، بل لابد لها من صنع قادر على عملها ، وهى دون الآلات الموجودة الحية بمالا يقدر - فمن يصدق أن هذا العالم العظيم مع ما فيه من الأجسام الحية التى لاتقع تحت الحصر أوجد نفسه ؟

وخلاصة ما تقدم : أن الكائنات الحية تنطق بوجود خالق قدير خلقها وأحياها . وليس هذا قولا جرى على لسان الخلق - كما يزعم بعض المتفلسفين - بل هو حقيقة وقف العلماء عندها ، وحكم أذعن له مشهورو الباحثين .

عناية الله :

قلت سابقا : إن جميع الأجسام الحية مؤلفة من جراثيم زلالية شفة، وإن تركيبها واحد فى جميع أنواع النبات والحيوان . أما هذه الجراثيم فمركبة كيمياويا من أربعة عناصر بسيطة وهى : الأكسجين والهيدروجين والنتروجين والكربون :

فالأكسجين : غاز شف كالهواء يشعل أكثر الأجسام وإن كانت باردة ، وفيه خاصة لتقوية اشتعال الأجسام المشتعلة .

والهيدروجين: غازشف كالأكسجين ، ولكنه أخف منه كثيرا ، وأخف من كل العناصر المعروفة ، ومن جملة خواصه أنه يتحد بالأكسجين فيتكون منهما ماء . وكل المياه التى على الأرض وفى البحر وفى السحاب مركبة من الأكسجين والهيدروجين .

والنتروجين : غاز شف كالأكسجين ، ولكن خواصه تخالف خواص الأكسجين والهيدروجين . وهو يتحد بالأكسجين فيتكون من اتحادهما حوامض شديدة الفعل : أهمها الحامض النتريك أى ماء الفضة الذى يذيب الفضة وأكثر المعادن ، ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية كما لا يخفى

قلت : إن الجراثيم الحية مركبة من هذه العناصر الأربعة : فلو اتحد الأكسجين بالهيدروجين عند أول اتصالهما لحدث من ذلك ماء فقط ، وبقى النتروجين والكربون معلقين . ولو اتحد الأكسجين بالكربون لتكون من ذلك غاز سام . ولو اتحد الأكسجين بالنتروجين لتكون منهما حامض أكال. ولو اتحد الهيدروجين بالكربون لتكون منهما غاز قابل الاشتعال . ولو جمعت هذه العناصر الأربعة وتركبت ما أمكن أن يتركب منها إلا هذه المركبات ، ولكنها غير حية . وأكثرها مضر بالحياة .

فمن يخالف السنن الكونية ويركب هذه العناصر ، ويجعل منها أصلا حيا ، ويعتنى بها دائما حتى لا تنحل ولا تتركب بخلاف ذلك ؟

ومن يعطى هذه الجراثيم قوة ، حتى تكون فى النبات نباتا ، وفى السمك سمكا ، وفى الطير طيرا ، وفى الإنسان إنسانا . ويحكم عليها ، ويعتنى بها فى كل أدوار حياتها حتى لا تخطىء أبدا ؟ مع أنه لم يعهد عن جرثومة نبات كونت حيوانا ، ولا عن جرثومة سمك كونت إنسانا ، مع أن الجراثيم واحدة دائما ، وتركيبها غير متغير فى كل أنواع النبات والحيوان ، وفى كل أدوار الحياة .

قل لنا من يرتاب فى العناية الإلهية لو بطلت العناية حقيقة ؟ أما كان أوكسجين الهواء يحرق الجسد كما يحرق الحديد ؟ أما كان أوكسجين جسدك يتحد بهيدروجينه فيصير ثلاثة أرباعك ماء ؟

أما كان أوكسجين جسدك يتحد بنتروجينه فيصير حامضا أكالا ويأكل البدن ؟

قل لنا يامن تنكر العناية - لو انتفت العناية كما تزعم - فمن كان يمنع جراثيم

جسدك من أن تكوّن لحماً فقط ، فتصير كلك لحماً لا عظم فيه ، أو أن تكوّن عظما فقط ، فتصير كلك قطعة من عظم ، أو أن تكون دماً فقط ، فتصير بركة دم تنتن عما قليل ، وتهب رائحتك الخبيثة فى الأقطار ؟

شمول عناية الله :

ومن الناس من يقول : إن الله معتن بالأمور الكبيرة ، ولكنه لا يلتفت إلى الصغيرة : (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) . فلو صح زعمهم وترك صغار الأشياء لترك الجراثيم نفسها ، لأنها من أصغر مايوجد . ولو تركها سنة واحدة لخرب نظام العالم ، وصار الإنسان يزرع أرضه قمحا فتنبت له عقارب ، وينصب كرمه عنبا فيخرج له حيات ، ويتزوج بامرأة فتلد له جنادب ، ويركب على فرس فيستحيل تحته ضفدعا !!

ولا تظن أنى خرجتُ بهذا من معرض الجد إلى معرض الهزل . بل الحق أنه لو انقطعت العناية لحظة من الزمان لتعذر علينا أن نعرف مصير هذه الجراثيم .

أما الذين أرادوا أن ينكروا العناية فقد بذلوا جهدهم فى جمع شواذ الكون لإثبات دعواهم ، ولما وجدوها شيئا لا يذكر بالنسبة إلى أموره القياسية أخذوا يبحثون عن سبب فى المادة يجعلها تسير على سنن واحد ، وإلى الآن ماوجدوا .

أما ماتقدم فكاف لإقناع غير المكابر بأن حياة الأجسام الحية تقتضى وجود إله محى ، وإتمامها وظائفها بلا خلل يستدعى كون هذا الاله ناظرا إليها ومعتنيا بها .

العالم الأدبى يدل على وجود الله وعلى عنايته :

قد ظهر من البحوث الوافية أن الإنسان قد اعتقد فى كل أين وآن وجود إله ، ووجوب العبادة له . ولايخلو هذا الاعتقاد أن يكون غريزة فى فطرة البشر : « كل مولود يولود على الفطرة » أو استنباطا وصلوا إليه بالدليل ،

أو إعلانا جاءهم بوحى من هذا الإله : فإن كان غريزة فى فطرتهم فالذى فطرهم عليه هو خالقهم ، وهو خير شاهد لنفسه . وإن كان استنباطا فلا بد من أنهم استنبطوه مما فى الطبيعة من الشواهد على وجود الله وعنايته ، ونعم ما فعلوا . وإن كان الله سبحانه وتعالى قد أعلن لهم ذاته بطريقة ما فاعتقادهم فى محله وهو عين الصواب . وعلى كل فوجود هذا الاعتقاد بين كل البشر دليل على أن آداب الإنسان تثبت وجود الله وعنايته . فالعالم الأدبى يعلن وجود الله ، ويثبت كونه معتنيا بخلائقه دائما مثل العالم المادى .

أثر الإيمان بالإلهية :

يترتب على ما تقدم أمر جوهرى جدا : وهو أن الله ناظر إلى كل فرد من أفراد البشر دائماً وأبدا . فإذا كان الله ناظرا إلينا دائماً فأى أناس يجب أن نكون ؟

يادعاة الحق ، يامن يغارون على خير بلادهم ، يامن يقصدون إصلاح العالم ، يامن يضحون بمصالحهم فى خدمة وطنهم ، يامن يسفكون دمهم فى طلب الراحة والحرية وإنقاذ المظلومين ورفع لواء العدل والإنصاف ، أنا أريكم طريقا لبلوغ أمانيكم : اذهبوا وعلموا الناس أن الله ناظر إليهم دائماً ، واطبعوا فى عقولهم أن عينى الله عليهم دائماً ، أى أنه مطلع عليهم ومعتن بهم . اطبعوا فى عقل القاضى أن الله مطلع عليه يَنْتَفِ كل ظلم من حكمه . اطبعوا فى عقل التاجر أن الله مطلع عليه يَنْتَفِ كل خداع من متاجرته . اطبعوا فى عقل العامل أن الله مطلع عليه يَنْتَفِ كل غش من عمله . اطبوا فى عقول الجميع أن الله لطيف خبير يعلم ما فى ملكه من كبير وصغير يرتع الناس فى بحبوحة الأمن والراحة والحرية والسعادة .

أيها الناس فتشوا عن كل الوسائط التى يمكن استخدامها لترقية شأن بلادكم تجدوا أن هذه هى الوساطة الفضلى . وإن لم يمكنا أن نغير عقول أهل الجيل الحاضر فلنسع فى تغيير عقول الجيل المقبل . وفقنا الله إلى الصواب .

واعتقاد كون الانسان مخلوقا له خالق ديان ، يرضيه العمل الصالح ، ويغضبه العمل الطالح ـ يرجع نفعه إلى الإنسان ذاته ، ولو ضل معرفة ذلك الخالق ، وتاه عن حقيقته .

وهذا الاعتقاد ينهضه إلى الفضائل ، ويقعده عن الرذائل على قدر مايميز بين الأولى والثانية وعلى قدر رسوخ عقيدته فى نفسه ورغبته فى إرضاء ربه . ولولاه ما كان للحياة قيمة ولا منها فائدة ، ولكانت فى نظر الانسان ليلا بلا فجر ، فيسأمها ويقل نشاطه ، ويتكدر عيشه . فالإيمان هو فى الحقيقة منشأ القوة فى النفس وجمال العالم فى نظر العين ، وهو الذى يجعل للحياة غرضا منها وغاية لها ، فينطلق الشخص إلى تحقيق غرضه منها ، ويسعى إلى الغاية ليدركها . والأمل بنيل الثواب فى اليوم الآخر يملأ نفسه قوة وانتعاشاً . أما عدم الإيمان فإنه أضر بالإنسان من الاعتقاد الباطل ، لأنه أقوى العوامل المؤدية به إلى حضيض السفه والتلف .

فالإيمان بالله من أسباب رقى الإنسان وسعادته . ولولاه ما كان نظام العالم ، ولا عرف معنى الواجب ولا حدوده . والواجب هو نقطة ارتكاز النظام بين الأفراد والجماعات والأمم والإنسانية عامة .

حقاً إنه ليس للشهوة قامع ، ولا للأهواء رادع ـ إلا الايمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس ، سامى القدرة ، واسع الحول والقوة ، مع اعتقاد أنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة .

وفى الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان ، يكبحان النفس عن الشهوات ، ويمنعانها العدوان ظاهره وخفيه ، وحسامان صارمان يمحوان أثر الغدر ، ويستأصلان مادة التدليس .

وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتوقيف عند الحد ، وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة . وبدون هذين الاعتقادين لا تلبس المدنية سربال

الحياة ، ولا يستقيم نظام المعاملات ، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش .

فالدين - وان انحطت درجته بين الأديان ، ووهى أساسه - أفضل من عدمه ، وأمس بالمدنية ونظام الجمعية الإنسانية وأجمل أثرا فى عقد روابط المعاملات ، بل فى كل شأن يفيد المجتمع الإنسانى . وفى كل ترق بشرى إلى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة الأولى .

ولا ريب فى أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا شك أنه يكون سببا فى السعادة التامة والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقديه فى طرق الكمال الصورى والمعنوى ، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ، ويرفع أعلام المدنية لطلابها ، بل يفيض على المتدينين من ديم الكمال العقلى والنفسى مايظفرهم بسعادة الدارين . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

انكار الالهية

هذه العقيدة الفاسدة كلما نجحت فى أمة أفسدت أخلاقها ، وأوقعت الخلل فى عقولها ، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل وألوان من التلبيس ، حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق من الأثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات، ولا يزال الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الذلة ، ويخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية .

وقد يظن بعض ضعفة العقول أن فى جحد الإله بسطةَ الفكر ، وسعة الحرية ، مع أن هذه النزعة وحدها كافية فى إفساد المجتمع وتزعزع أركان المدنية . وليس من ضروب الباطل ماهو أشد منها تأثيرا فى محو الفضائل

وإثارة الخبائث والرذائل . وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد وهم المنكر وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولة :

ذلك أن كل فرد من نوع الإنسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شهوات، تميل به إلى تحصيل مشتهياته ، ولا يستطيع تسكين هواه . ولا كسر سورة نفسه إلا بنيل مايمكنه من تلك المشتهيات ، كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل إليه من المطلوب . ولم تحدد الطبيعة طريقا معينة يسلكها الراغبون للوصول إلى رغائبهم : فسبيل حق ، وسبيل باطل ، وسبيل الفتنة والفساد ، وسبيل الهدى والرشاد ، وسبيل سفك الدماء واغتصاب الحقوق ، وسبيل الإجمال والتعفف . وكلها ميسر للطالب غير ممتنع على السالك .

فقصر النفوس على طريقة محدودة ، ووقف أهوائها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال فى آثارها وأعمالها ، وإرضاء كل ذى شهوة بحقه ، وكفه عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره ـ هذا كله إنما يكون بأحد أمور أربعة : دفاع شخصى ، وشرف نفسى ، وحكومة رادعة ، واعتقاد بإله مُجاز فى حياة بعد هذه الحياة .

الأول : أما المدافعة الشخصية فكفاح وضراب ، ونضال وقتال ، وجلاد تسيل به الأودية مهجا ، وتخضب به الربى دما ، وتتفانى به النفوس طلبا للحقوق ، أودفاعا عنها . وتكون الدائرة للأقوياء على الضعفاء ، حتى إذا قوى الضعفاء يوما ما ثاروا على الأقوياء ، فلا يزال صاحب القوة يطحن الضعيف ، والأقران يسحق بعضهم بعضا ، إلى أن يعم جميعهم الفناء ، وينقرض النوع الإنسانى من وجه البسيطة .

الثانى : وأما شرف النفس فصفة تنكب بصاحبها عن اتيان مايذم عند قبيلته ، وغشيان مايقبح فى أنظار عشيرته . ويقابلها خسة النفس : وهى صفة لا يتأثر معها صاحبها من التشنيع ، ولا تنفعل نفسه من التقبيح

فصفة شرف النفس ليست لها حقيقة معينة ، ولا هى فى حدود معروفة

عند جميع الأمم حتى يمكنهم بالمحافظة عليها أن يقفوا بالشهوات عند حد الاعتدال : ألا ترى أن كثيرا من الأمور يعد ارتكابه عند بعض الأمم خسة ودناءة ، وهو بعينه عندبعض آخرشرف ورفعة يستتبع المدح والثناء ، على أنه فى الحقيقة شر الشرور وأعظم الفجور ؟ . وذلك كالغارة عند سكان البادية وأهل الجبال وسكان المدن وأهل الحضارة ، وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خسة وخبثاً ، وآخرون حكمة وعقلا . واعتبر ذلك فى الطبقات المتعددة فى الأمة الواحدة : فقد يكون الشيء عند بعض الطبقات فى ذروة الشرف والكمال ، وهو عند الطبقة الأخرى خارج عن حد الاعتدال : فذوو السلطان لا يبالون بنقض العهود وخفر الذمم خصوصا مع من دونهم فى السلطان ومن لا يضارعهم فى القوة ، ولا يأنفون الظلم ولا ينكرون الغدر ، ولا يتجافون مذمة من تلك المذام ، ولا يعدون شيئاً منها خسة ، ولا يحسبونها من غاشيات الدناءة ، مع أن واحدا من هذه الأعمال لو صدر من آحاد الرعية بعضهم مع بعض — لعد من دنيات الفعال ، ورمى صاحبه بخسة النفس وسقوطها . هذا كله إذا فرضنا وقوف كل طالب لشرف النفس عند مايظنه شرفا ، لا يخالفه إلى سواه لا خفية ولا جهرة ، لكن من حيث كان الباعث على التجمل بهذا الوصف إنما هو الرغبة فى تحسين المعيشة والفرار من مضانكها — فقلما يستوى ظاهر الإنسان وباطنه فى هذه الصفة ؛ فهو فى معلنات أموره يسلك سبل الشرف لينال حظه من ميل القلوب إليه ، ثم لا يمنعه ذلك غشيان الخيانة الخفية ، وغمس يده فى قذر العدوان من وراء حجاب التستر ، وبسط كفه لتناول الرشوة فى زوايا المحاكم ؛ لأن طالب خفض العيش يعرف أن هذه الخبائث الخفية تصل به إلى مقصده من السعة على أمن من الاشتهار بصفة الدناءة . وذلك معروف من أحوال الظاهرين فى ثياب الشرف والعفة ، والله أعلم ماذا يسترون تحت ذيولهم ، وما يضمرون دون جيوبهم ، وما يحتجنون من الأموال فى خزائنهم .

فإذن لا يليق بذى عقل أن يجعل شرف النفس ميزانا للعدل . ولا مجال للظن بأن هذه الصفة تقف بكل عند حده ، وترضيه بحقه ، وتكف النفوس عن غصب الحقوق ، وتدفعها عن الجور وتمنعها الحيف ماظهر منه ومابطن . ولم تبق ريبة فى قصور هذه الخلة عن الكفاية فى تعديل الأخلاق ، وتحديد الشهوات وحجب العدوان ، وحفظ النظام الإنسانى ، اللهم إلا أن تكون مستندة إلى عقيدة فى دين ، وتكون حقيقتها محدودة فى ذلك الدين ، فعند ذلك تكون دعامة لبناء الشركة الإنسانية ، ومعقدا لروابط الألفة ، وسبباً لانتظام سلسلة المعاملات ، لاستنادها على الدين لا بنفسها مجردة .

الثالث : الحكومة : ليس يخاف أن قوة الحكومة إنما تأتى على كف العدوان الظاهر ، ورفع الظلم البين . أما الاختلاس والزور المموّه ، والباطل المزين ، والفساد الملوّن بصبغ من الصلاح ، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات - فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل ، وكامنات الدسائس ، ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر ، حتى تقوم بدفع ضرره ؟

على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون - بل كثر ما كانوا ويكونون - ممن تملكهم الشهوات . فأى وازع يأخذ على أيدى أصحاب السلطة ، ويمنعهم مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم ؟ وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا ، وذوى المسكنة منهم - من شره أولئك المتسلطين وحرصهم ؟

قد يكون الحاكم فى خفى أمره رئيس السارقين ، وفى جلى حاله قائد الناهبين ، وأعوانه آلات يستعملها فى الجور ، وأدوات يستعين بها على الفساد والشر ، فيعطلون من حقوق عباد الله ، ويهتكون من أعراضهم ، ويغنمون من أموالهم : يروون ظمأ شهواتهم بدماء الضعفاء ، وينقشون قصورهم بمهج الفقراء ، ويكون مبلغ سعيهم هلاك العباد ودمار البلاد !!

الرابع - الاعتقاد بأن لهذا العالم صانعا قادرا محيط العلم نافذ الحكم ، وأنه

يوفى كل عامل جزاء عمله : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) - ثوابا جزيلا ، أو عقابا و بيلا فى حياة بعد هذه الحياة .

حقا إن الإيمان بذلك هو وحده الكفيل بقمع الشهوات ، وردع الأهواء . وقد سبق الكلام فى ذلك ، فلو خوت القلوب من هاتين العقيدتين (الاعتقاد بالله ، وبالثواب والعقاب فى الحياة الأبدية) - لسكنتها شياطين الرذائل ، وسدت عليها طرق الفضائل . ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة ، أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق ؟ وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هى نفسه ، فإن لم يؤمن بثواب ، وعقاب ، وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه - فما الذى يمنعه ذمائم الفعال ؟ خصوصاً إذا تمكن من إخفاء عمله ، وأمن سوء عاقبته فى الدنيا ، أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة ، والعدول عن سنن الفضيلة ، وأى حامل يحمله على المعاونة ، والمرادفة ، والمرحمة ، والمروءة ، وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التى لاغنى للمجتمع عنها ؟

(ولئن وجد فى أحد الجاحدين شىء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد ، أو كان أبتر ناقصا ، لفقدما يمده من سائر صفات الكمال) .

الحق أن جحدة الإلهية فى أى أمة ، وبأى لون ظهروا - كانوا ولا يزالون يسعون لقلع أساس هذا القصر المسدس الشكل : قصر السعادة الإنسانية القائم بستة جدران : ثلاث عقائد ، وثلاث خصال ، (وسيأتى الكلام عليها) أعاصير أفكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع ، وتلقى بهذا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء ، وتهبط به من عرش المدنية الإنسانية ، إلى أرض الوحشية الحيوانية .

وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان جميعها ، وعدها أوهاما باطلة ، ومجعولات وصفية ، وبنوا على هذا أن لاحق لملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل اعتمادا على أصول دينها ، بل الأليق بها - على رأيهم -

أن تعتقد أنها ليست أولى من غيرها بفضيلة ، ولا أجدر بمزية . ولا يخفى ما يتبع هذا الرأى الفاسد من فتور الهمم ، وركود الحركات الإرادية عن قصد المعالى ، كما يأتى بيانه إن شاء الله .

قالوا : إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من المزايا مايرتفع به عن البهائم ، بل هو أخس منها خلقة ، وأدنى فطرة . فسهلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ، ومهدوا لهم طرق البهمية ، ورفعوا عنهم معايب العدوان .

ذهبوا إلى أنه لاحياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضيـة : تنبت فى الربيع مثـلا ، وتيبس فى الصيف ، ثم تعود ترابا . والسعيد من يستوفى فى هـذه الحياة حظوظه من الشهوات البهمية . وبهـذا الرأى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم ، ودفعوها إلى أنواع العدوان : من قتل وسلب وهتك عرض . ويسروا لها الغـدر والخيانة ، وحملوها على فعل كل خبيثة ، والوقوع فى كل رذيلة ، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى ، وأعدموها الرغبة فى كشف الحقائق وتعرف أسرار الطبيعة .

متى ظهر جحدة الإلهية فى أمـة نفذت وساوسهم فى صدور الأشرار من تلك الأمـة ، واستهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمهم إلا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من أى وجه كان ، لموافقة هذه الآراء الفاسدة لأهوائهم الخبيثة ، فيميلون معهم إلى ترويج مشربهم وإذاعته بين العامة غير ناظرين إلى مايكون من أثره . ومن الناس من لا يساهمهم آراءهم ، ولا يضرب فى طرقهم ، إلا أنه لا يسلم من مضارها ومفاسدها ، فإن الوهن يلم بأركان عقائده ، والفساد يسرى إلى أخلاقه من حيث لا يشعر ، إذ أن أغلب الناس مقلدون فى عقائدهم منقادون للعادة فى أخلاقهم ، وأقـل التشكيك وأدنى الشبهة يكفى علة لزعزعة قواعد التقليد ، وضعضعة قوائم العادة . وإن هؤلاء الجحدة بما يقـذفون بين الناس من أباطيلهم يبذرون فى النفوس بذور المفاسد ، فـلا تلبث أن تنمو فى تراب الغفلة ، فتكون ضريعا وزقوما .

ولهذا قد يعم الفساد أفراد الأمة التى تظهر فيها هذه الطائفة ، وكل لايدرى من أى باب دمر الفساد عليه قلبه . فتشيع بينهم الخيانة والغدر والكذب والنفاق ، ويهتكون حجاب الحياء ، وتصدر عنهم شنائع تنكرها الفطرة البشرية . يأتون مايأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرج . وكل منهم وإن كان يدعى بلسانه أنه مؤمن بيوم الجزاء ، وفى نفسه أن ذلك اعتقاده واعتقاد آبائه ، إلا أن عمله عمل من يعتقد أن لاحياة بعد هذه الحياة لسريان عقائد المنكرين إلى قلبه ، وهو فى غفلة عن نفسه

فلهذا تغلب عليهم الأثرة ، وهى إفراط الشخص فى حب نفسه إلى حد لو عرض فى طريق منفعته مضرة كل العالم لطلب تلك المنفعة ، ومن أثر هذه الصفة أن صاحبها يؤثر منفعته الخاصة على المنافع العامة ، ويبيع وطنه وأمته بأبخس الأثمان ، بل لايزال به الحرص على هذه الحياة الدنيئة يبعث فيه الخوف ، ويُكمن فيه الجبن حتى يسقط به فى هاوية الذل ، ويكتفى من الحياة بمدّها ، وإن كانت مكتنفة بالذلة ، محاطة بالمسكنة ، مبطنة بالعبودية . فإذا وصلت الحال فى أمة إلى أن تكون آحادها على هذه الصفات تقطعت فيها روابط الالتئام ، وتمزقت وحدتها الجنسية ، وفقدت قوتها الحافظة ، وهوت عروش مجدها ، وهجرت الوجود كما هجرها .

اختلاف العقائد

واختلاف أنصارها

إن آراء الناس تتباين فى تقريرها الحقائق عن الأديان ، وتقرير الصور المختلفة المتناقضة للوجه الواحد تدل أوضح دلالة على خطأ التقرير ، وعلى بقاء الحقيقة ضائعة بين الأباطيل . وهذا يستدعى وجوب تلمسها ، والبحث عنها ، ولزوم إعلان الباحث آراءه لتمحيصها ؛ لجواز الخطأ والصواب فيها . فلولا البحث عن الفاقد ماوجد ، ولولا التمحيص ماعرف الطيب من

الخبيث ، ولولا الإفراط فى الحذر والاحتراس لاجتلأ العالم نور الهداية إلى الحق من زمن بعيد ، ولرجع الناس إلى دين واحد وإله واحد ، ولزال من بينهم موجب خلافهم وداعى تقاطعهم ، ولشمل العالم السكون والسلام : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) .

ولما كانت العقائد مختلفة ، وكان الناس ينتصر كل لعقيدته لتسليمه بسلامتها من الشك وبفساد ما يخالفها - : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) ، (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

لما كانت العقائد كذلك كثر الخلاف بين أنصار كل دين والمتألبين عليه من الأديان الأخرى : كل يدعى أن الحق حليفه ، والصواب أليفه ، وأن من سواه ليس على جانب الحق ، ولا على سبيل الصواب : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

ونشأ من هذا الخلاف قيام من أنكرها جميعا وناهضها جميعا .

انكار الاسلام تعادى الاديان

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين ، وكانوا - إلا قليلا - فى جانب عن اليقين ، يتنابذون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون . فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب ، أنكر الاسلام ذلك كله ، وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان ،

وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد . قال الله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) (وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلَا نَصْرَانِيّاً ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات . والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين مانزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة ، مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم مااختلفوا فيه - معروفة لكل من قرأ القرآن ، وتلاه حق تلاوته .

أصول دين الله واحدة واختلاف الفروع رحمة :

نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه : مما هو مصلحة للبشر ، وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة . قد ضمنته كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه ، والعزائم إلى العمل به . وإن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذى يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وإن اللجاج والمراء فى الجدل مفارقة للدين ، وبعد عن سنته . ومتى روعيت حكمته ، ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشرية — ذهب الخلاف

وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الناس جميعاً فى مراشدهم إخواناً بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين .

فالأديان كلها ترمى إلى غاية واحدة : هى عبادة موجد الوجود وخالق الكائنات . أما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان سابقها مع لاحقها ، والأحكام متقدمها مع متأخرها فمصدر ذلك رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الأشخاص : من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، إلى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره - كذلك لم تختلف سنته ، ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب ، من يوم خلقه الله ، إلى أن يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائماً على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده . ومن هنا تظهر حاجة البشر إلى الرسالة ، وتتجلى رحمة الله تعالى بخلقه فى تتابع إرسال الرسل إليهم بالأديان التى تناسب استعدادهم وأزمانهم ، فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات وجود الإنسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله ، لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

ما أفادته الأديان من العقائد والخصال :

أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال : كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء المجتمع ، وأساس محكم لمدنيتها ، وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم نحو غايات الكمال والرقى إلى دار السعادة ، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ، ويزعها عن مفارقة الفساد ، ويصدها عن مقاربة ما يبيدها ويبددها .

العقائد الثلاث :

الأولى — التصديق بأن الإنسان ملك أرضى ، وهو أشرف المخلوقات .
الثانية — يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

الثالثة — جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام ، إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لا تنقضى سعادتها ، ولا تنتهى مدتها .

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة فى الاجتماع البشرى والمنافع الجمة فى المدنية الصحيحة ، وما يعود منها بالإصلاح على روابط الأمم وما لكل واحدة من الأثر فى بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة والأخذ بهمم الأمم إلى الصعود فى مراقى الكمال النفسى والعقلى ، وإليك البيان :

العقيدة الأولى :

من البين أن لكل عقيدة مظاهر لا تزايلها : فمن مظاهر الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات - ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية . ولا ريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات فى صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلى ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية ، وأخذ منها بأوفر الحظوظ ، حتى ينتهى به الحال إلى أن يكون واحدا من أهل المدينة الفاضلة ، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة ، وأصول العدالة . وتلك نهاية السعادة الإنسانية فى الدنيا ، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها .

فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن مضارعة الحمر الوحشية فى معيشتها ، والثيران البرية فى حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهاملة ، والهوام الراشحة التى لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية ، ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها ، وتقضى آجالها فى دهشة الفزع ، ووحشة الانفراد . هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الإنسان عن التقاطع المؤدى إلى افتراس بعضهم بعضا ، كما يقع بين الأسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات . وهذه العقيدة أحجى حاد للفكر فى حركاته ، وأنجح داع للعقل فى استعمال قوته ، وأقوى فاعل فى تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل . إن شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، وإلى أى حد تصل بهم الشرور ، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية ؟

العقيدة الثانية : ومن مظاهر يقين الأمة بأنها أشرف الأمم ، وجميع من يخالفها على الباطل - أن ينهض آحادها لمكاثرة الأمم فى مفاخرها ، ومساماتها فى مجدها ، ومسابقتها فى شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن يتفق جميعها على الرغبة فى فوت جميع الأمم ، والتقدم عليها فى المزايا الإنسانية ، عقلية كانت أو نفسية ، ومعاشية كانت أو مادية . وتأبى نفس كل واحد عن اقتراف الدنية ، والرضا بالضيم لنفسه ، أو لأحد من بنى أمته . ولا يسره أن يرى شيئا من العزة ، أو مقاما من الشرف لقوم من الأقوام ، حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه ، ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعد شرفا إنسانيا .

فإن جارت صروف الدهر على قومه ، فأضرعتهم أو ثلمت مجدهم ، أو سلبتهم

مزية من مزايا الفضل - لم تستقر له راحة ، ولم تفتأ له حمية ، ولم يسكن له جيشان ، فهو يمضى حياته فى علاج ماألم بقومه ، حتى يأسوه ، أو يموت فى أساه .

فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق إلى غايات المدنية ، وأمضى الأسباب إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والإبداع فى الصناعات ، وإنها لأبلغ فى سوق الأمم إلى منازل العلاء ، ومقاوم الشرف : من غالب قاسر ، ومستبد قاهر عادل .

وإن أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين : ماذا تجد من فتور فى حركات آحادهم نحو المعالى ؟ وماذا ترى من قصور فى هممهم عن درك الفضائل ، وماينزل بقواهم من الضعف ، وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة ، وإلى أى هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصا إذا بغى عليهم الجهل ، فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل ؟

العقيدة الثالثة : ومن مقتضيات الجزم بأن الإنسان ماورد هذا العالم إلا ليتزود منه كمالا يعرج به إلى عالم أرفع ، ويرتحل به إلى دار أوسع ، وجناب أمرع أن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها ، وينساق بحاديها لإضاءة عقله بالعلوم النافعة ، والمعارف الصافية ؛ خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبه . ثم ينصرف همه لإبراز ماأودع فيه من القوة السامية ، والمدارك العقلية ، والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلى كماله من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ، ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل ، فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة متنكبا عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضا عن أبواب الرشوة ، مترفعا عن الملق الكلبى ، والخداع الثعلبى

ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وبالقدر الذى ينبغى ، لايأتى فيه باطلا ، ولا يغفل حقا عاما أو خاصا .

فهذه العقيدة أحكم مرشد ، وأهدى قائد للانسان إلى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أقوى ركن فى بناء المجتمع الذى لاعماد له إلامعرفة كل واحد حقوقه ، وحقوق غيره ، والقيام على صراط العدل المستقيم . هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ؛ إذ لاعقد لها إلامراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات .

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية ، تهب على القلوب ببرد الهدو والمسالمة ؛ فإن المسالمة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة ، وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متائه الشقاوة وتعاسة الجد ، وترفعه إلى غرف الحضارة الصحيحة الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة : فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس !! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد !! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة من نور المعرفة !!

الخصال الثلاث

وأما الخصال الثلاث التى توارثتها الأمم من تاريخ قد لايحد قدما ، وإنما طبعها فى نفوسهم طابع الدين :

فأحدها ـ خصلة الحياء : وهو انفعال النفس من إتيان مايجلب اللائمة ، وينحى عليها بالتوبيخ ، وتأثرها من التلبس بما يعد عند الناس نقصا .

وفى الحق أن يقال : إن تأثير هذه الخلة فى حفظ نظام الجماعة البشرية

وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع - أشد من تأثير مئين من القوانين وآلاف من الشرط والمحتسبين ؛ فإن النفوس إذا مزقت حجاب الحياء ، وسقطت إلى حضيض الخسة والدناءة ، ولم تبال بما يصدر عنها من الأعمال - فأى عقاب يردعها عن المفاسد التى تخل بنظام الاجتماع سوى القتل ؟

وقد راعى ذلك (سولون) حكيم اليونان ؛ إذ جعل القتل جزاء كل عمل قبيح ، حتى الكذبة الواحدة .

وخلة الحياء يلازمها شرف النفس : وهو مما تدور عليه دائرة المعاملات ، وتتصل به سلسلة النظام ، وهو مناط صحة العقود والتزام أحكامها ، ومعصم الوفاء بالعهود ، ورأس مال الثقة بالإنسان فى قوله وعمله . وشيمة الحياء هى بعينها شيمة الإباء وسجية الغيرة ، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها فى ردع النفس عن شىء أو حملها على عمل . والإباء والغيرة هما مبعث حركات الأمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف ، وتسنم قمم الشرف والرفعة ، وتقوية الشوكة وبسط جناح العظمة ، وتوفير مواد الغنى والثروة . وكل أمة فقدت الغيرة والإباء حرمت الترقى ، وإن تسنى لها من أسبابه ما تسنى فهى تعطى الدنية ، ولا تأنف من الخسة ، وتضرب عليها الذلة والمسكنة ، حتى ينقضى أجلها من الوجود .

ملكة الحياء تنتهى إليها روابط الألفة بين آحاد الأمة فى معاشراتهم ومخالطاتهم ؛ فإن حبال الألفة إنما يحكمها حفظ الحقوق ، والوقوف عند الحدود ، ولا يكون ذلك إلا بهذه الملكة الكريمة .

هذه سجية تزين صاحبها بالآداب ، وتنفر به عن الشهوات البهيمية ، وتفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله .

هذا هو الخلق المفرد الذى ينهض بصاحبه لمجاراة أرباب الفضائل ، ويتجافى به عن مضاجع النقائص ، ويأنف عن الرضا بالجهل والغباوة أو الضعة والضراعة .

هذا الوصف الكريم هو منبت الصدق والأمانة ، وهما معه فى قرن ، هو أداة المعلمين ، والقائمين على التربية والدعاة إلى مكارم الأخلاق والمولعين

بترقية الفضائل صورية ومعنوية ، يستعملونها فى نصائحهم ، يذكرون بها الغافل، ويحرضون الناكل ، ويوقظون النائم ، ويقعدون القائم : ألا ترى المعلم الحكيم: كيف يعظ تلميذه بقوله : ألا تستحى من تقدم قرينك عليك وتخلفك عنه!! فإن لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتوبيخ ولا نفع للتقريع ولا نجاح للدعوة .

فانكشف مما بينا أن هذه الخلة مصدر لجميع الطيبات ، ومرجع لكل فضيلة ، وسلم لكل ترق . ويمكن أن نتمثل قوما هجر الحياء نفوسهم : فما ذا نرى فيهم سوى المجاهرة بالفحشاء ، والمنافسة فى المنكر وشوس الطباع ، وسوء الأخلاق ، والإخلاد إلى دنيات الأمور ، وسفساف الشئون ؟ وكفى بمشهدهم شناعة أن نرى تغلب الشهوات البهيمية عليهم ، وتملك الصفات الحيوانية لإرادتهم ، وتسلطها على أفعالهم ! !

الخصلة الثانية

الأمانة

من المعلوم الجلى أن بقاء النوع الإنسانى قائم بالمعاملات والمعاوضات فى منافع الأعمال . وروح المعاملة والمعاوضة إنما هى الأمانة ، فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين قطعت صلات المعاملة ، وانبترت حبال المعارضة ، فاختل نظام المعيشة ، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل .

ثم من البين أن الأمم فى رفاهتها ، والشعوب فى راحتها وانتظام أمر معيشتها ـ محتاجة إلى الحكومة بأى أنواعها : إما جمهورية ، وإما ملكية مطلقة، أو مقيدة . والحكومة فى أية صورها لا تقوم إلا برجال يلون ضروبا من الأعمال : فمنهم حراس على حدود المملكة ، يحمونها من عدوان الأجانب عليها ، ويدافعون الوالج فى ثغورها . وحفظة فى داخل البلاد يأخذون على أيدى السفهاء : ممن يهتك ستر الحياء ، ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوهما . ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون ، يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات ، والحكم فى المنازعات . ومنهم أهل جباية الأموال ،

يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك ، ثم يستحفظون مايحصلون في خزائن المملكة ، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة ، وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها . ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية ، مع مراعاة الاقتصاد والحكمة : كإنشاء المعاهد والمدارس ، وتمهيد الطرق ، وبناء القناطر ، وإقامة الجسور ، وإعداد المستشفيات . ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شئون الحكومة : من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم .

وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها إنما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة . فإن خربت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة — سقط بناء السلطة ، وسلب الأمن ، وراحت الراحة من بين الرعايا ، وضاعت حقوق المحكومين ، وفشا فيهم القتل والتناهب ، ووعرت طرق التجارة ، وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة ، وخوت خزائن الحكومة ، وعميت على الدولة سبل النجاح : فإن حزبها أمر سدت عليها نوافذ النجاة .

لاريب في أن قوماً يساسون بحكومة خائنة إما أن ينقرضوا بالفساد ، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم يسومونهم خسفاً ، ويستبدون فيهم عسفاً ، فيذوقون من مرارة العبودية ماهو أشد من مرارة الانقراض والزوال .

ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين إنما يكون باتحاد آحاد العالين ، والتئام بعضهم ببعض ، حتى يكون كل منهم لبِنْيةِ قومه كالعضو للبدن ، ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم ، وعمت بالحكم أفرادهم . فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان ، ومستقر أساس الحكومات ، وباسط ظلال الأمن والراحة ، ورافع أبنية العز والسلطان ، وروح العدالة وجسدها ، ولا يكون شيء من ذلك بدونها .

وإليك الاختيار في تصور أمة عطلت نفوسها من حلية هذه الخلة الجليلة ، فلا تجد فيها إلا افئات جائحة ، ورزايا قاتلة ، وبلايا مهلكة ، وفقرا معوزا ،

وذلا معجزاً . ثم لا تلبث بعد هـذا كله أن تبتلعها بلاليع العـدم ، و تلتهمها أمهات اللُّهَيْم (١)

الخصلة الثالثة

الصدق

الإنسان كثير الحاجات ، غير معدود الضرورات . وكل مايسد حاجاته ويدفع ضروراته وراء ستر الخفاء محجوب ، وتحت حجاب الغيب مكنون. قذِف بالإنسان من غيب يجهله إلى ظهور لايعرفه ، فقام فى بدء إنشائه فى زاوية عمياء ، لايذكر اسما ولايعرف رسماً .

هذا الإنسان على ضعفه كأنما أحفظ الأكوان قبل وجوده ، فأرصدت له القتال ، وهيأت له النضال ، فله فى كل ثنية منها بلية كامنة ، وفى كل حِنو رزية رابضة ، وكل أفاقَ سهمه فى قسى الأدوار الزمنية ليصيب مقاتل الإنسان .

منح الإنسان خمسة مشاعر : السمع ، والبصر ، والذوق ، واللمس ، والشم . ولكن لاغناء بها فى هدايته لأقرب حاجاته ، وإرشاده لدفع ما خف من ضروراته ، فأحجى أن لا كفاءلها فى استطلاع مكامن البلايا ، وكشف مخابىء الرزايا ، ليأخذ حذره ، ويحرز أمره . فهو فى حاجة كل الحاجة للاستعانة بمشاعر أمثاله من بنى جنسه ، والاستهداء بمعارفهم ؛ ليتفادى بهدايتهم بعض لاسعات المصائب ، ويصيب من الرزق مافيه قوام معيشته ، وسداد عوزه . والاستهداء إنما يكون بالاستخبار ، ولاتتم فائدة الخبر فى الهداية إلا أن يكون من مصدر صدق ، يحدث عن موجود ، ويحكى عن مشهود ، وإلا فما الهداية فى خبر لاواقع له ؟

حقا إن الكاذب يرى البعيد قريبا ، والقريب بعيـدا ، ويظهر النافع فى صورة الضار ، والضار فى صورة النافع . فهو رسول الجهالة ، وبعيث الغواية ، وظهير الشقاء ، ونصير البلاء .

---

(١) اللهيم : الداهية

فعلى ماتقدم تكون صفة الصدق ركنا ركينا للوجود الإنسانى ، وعمادا للبقاء الشخصى والنوعى ، وموصل العلائق الاجتماعية بين آحاد الشعوب ، ولا تتحقق دونه ألفة مدنية أو منزلية .

وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق : كيف ينيخ الشقاء بها رواحله ، وينفذ سوء البخت فيها عوامله ! ! وكيف ينتثر نظامها ، ويفسد التئامها !

الدين والعلم

الأديان كثيرة ، وقد قصر بعضها صور العبادة على أوضاع وأقوال تؤدى فى أوقات مخصوصة بشروط معينة .

ولما كان العلم ناهضاً إلى توسيع المدارك والعقول ، وإلى اطراح ما فيها مما يتفق مع حقائقه — قامت حرب عوان بينه وبين كثير من التقاليد ، فأخذت هذه تنكمش أمامه ، ولا زال هو يتأثرها . ومن الواضح أنه لو دام الحال على هذا المنوال فلابد من مجىء يوم تزول فيه كل المعتقدات التى لا تتلاءم مع روح العلم .

لقد احتفظ رجال الديانات بتقاليد وأوضاع اعتبروها دينية ، واحتفظوا بها على قدر ماسمح الوقت ببقائها وانتشارها ، وجرى الناس على مناهجها ، ثم صدمتها قوة العلم ، فزعزعت أسسها الواهية ، فكادت تتداعى ، فأخذت تطرح منها ما ظنته يَقِف قوتها العادية رغبة فى البقاء . ولكن التمسك بالمألوفات عاق العلم عن الإسراع بها إلى التلاشى والفناء .

العلم يناهض كثيرا من التقاليد والمعتقدات الفاسدة ، ويتفق دائما مع الإيمان بوحدة الخالق ، فإنه يثبت وحدة الوجود ، ووحدة القوة الموجدة . وعلى هذا لا يكون الخلاف بين الإيمان والعلم الصحيح ، ولا بينه وبين الدين الصحيح ، وإنما هو بين ما يرمى إليه العلم من الحقائق ، ويدركه العقل منها أو يفوته فهمه — وبين فهم حقائق الإيمان ومقتضياته من الشريعة .

لحظ العقل أن بعض الأديان مؤسس على السلطة المطلقة وعلى التسليم بدون الاقتناع، وأن العلم يرتكز على التجربة والتحقق بالاختبار. ولهذا قرر تعذر جمع النقيضين وموافقة المتخالفين فى الأساس والمبدأ، والحال أن ما يرى متعذراً ربما لم يكن كذلك، وإنما ظهر فى تلك الصورة لقصور العقل عن إدراك مكان الاتفاق، وأسبابه، ودواعيه: فهناك كثير من النظريات الفاسدة لبث الناس دهوراً يعتقدونها حقائق ثابتة، ثم ظهر فسادها عند ظهور الصواب يخالفها.

إن منشأ الإيمان القلب، ومرجعه إلى القلب، ومنشأ العلم العقل، وسلطانه عليه وحده.

ولما كان الدين الصحيح هو ما كانت أركانه وعقائده سالمة من الشك ومتفقة مع العقل والحقيقة لم تكن حركة العلم إلى تحريرا لأفكار وإطلاقها من قيود السخافات والأباطيل ضارة بمبادىء ذلك الدين، ولا منافية عقائده الصحيحة، بل لابد من امتزاج القوتين، والعمل بهما لتطهير المجتمع من كل فاسد يرجع به إلى عصور الجهل.

الدين الاسلامى والعقل

إبطال الإسلام للتقليد ومخاطبته للعقل:

أنحى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حملة صادقة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم.

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها. كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم: «نم فإن الليل حالك، والطريق وعرة، والغاية بعيدة، والراحلة كليلة، والأزواد قليلة» علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام: أعلام الكون، ودلائل الحوادث. وإنما المعلمون منبهون

ومرشدون ، وإلى طرق البحث هادون .

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم : (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ؛ ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه . ومال على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم على حسب مايحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مُسمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيّان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، والاستعداد للنظر فيها ، والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون - ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل إليهم بمااقترفه سلفهم : (فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ) وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم : (بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده ، والوقوف عند

شريعته ، ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بناء الإسلام على استقلال الفكر والإرادة :

بما تقدم تم للإنسان بمقتضى هذا الدين أمران عظيمان ، طالما حُرِمَهما : وهما استقلال الإرادة ، واستقلال الرأى والفكر . وبهما كملت له إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها .

وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية فى أوربة ، إنما قامت على هذين الأصلين : فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم . ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح عليه السلام . وقرر ذلك الحكيم : أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ، ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان .

دعوة الإسلام إلى فهم الدين :

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنابه على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ، ففرضوا على العامة ، أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب ، لكن على شريطة ألا يفهموها ، ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ماترمى إليه ، ثم غالوا فى ذلك ، فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم إلا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ماجاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبدا بالأصوات والحروف ، فذهبوا بحكمة الإرسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا ، فقال :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أما الأمانى ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لايعلمون منه إلا أن يتلوه، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ماتخيلوه عقيدة وظنوه دينا، وإذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة، واعتسف فى التأويل، وقال هذا من عند الله: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً) أما الذين قال: إنهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حُمِّلوها فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بإنزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لايليق بنفس بشرية أن تظهر به: مثل الحمار الذى يحمل الكتب، ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس. وماأشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال: فما كان سبباً فى إسعادهم ـ وهو التنزيل والشريعة ـ أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة !!

وبهذا التقريع ونحوه، وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ حظه من علم ماأودع الله فى كتبه، وماقرر من شرعه، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد مالابدمنه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين، لاتختص به طبقة من الطبقات، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات.

الإسلام والمدنية :

الإنسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع إلى أن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيع من كمال جسدانى ولذة بدنية ، ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مبيدات الوجود ومهلكاته ، ثم إن ما متع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول إلى أكثر رغائبه ، مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المشروعة.

على هذا فطر الإنسان ، وقد حقق لنفسه بعض هذه الأمانى فى أزمنة مختلفة ، ولكن قادة الأديان أرادوا أن يقبضوا على نواصى الأمم ، ويسخروها لأهوائهم ، وخشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للإنسان بالتملص من قيودهم ، والتخلص من سطوتهم ، فيضعوا مكانتهم الموهومة ، فمزجوا بأحكام الدين ماليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة ، وحببوا إليهم الزهد ، والتقشف. نعم أرسل الله بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق فى الدنيا ونعيمها ، ولكن كان ذلك لأسباب خاصة فى أحوال تقتضيها ، لا لأن الدين بطبيعته عدو للمنافع المادية ، وخصم للسعادة الجسدية .

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك البدع ، فانحط أهله إلى أسفل الدركات ، وصاروا أضعف الناس فى ميدان التغالب الحيوى ، ووقر فى النفوس أن الدين ينافى كل عمل يؤدى إلى النعيم البدنى ، فنجحت الشبه والشكوك ، وتناقضت أحكامه والفطرة البشرية ، وتمسك قادته بأصولهم ، فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعة تبدو من الأمم لطلب الرقى ، وأصبح الدين فى أيديهم آلة للتعذيب والقهر ، وكانت الحرب سجالا بينهم وبين الدعاة إلى المدنية ، حتى تم لهم الفوز المطلق ، فنضبت موارد العلم ، ودرست أعلامه ، وأمسى العالم فى ظلام حالك من الجهل والعماية .

ظهر الاسلام ، فقرر أن الدين ليس عدوا للمدنية ، بل هو دليلها الصادق ، ومرشدها الخبير ، فقال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) وقال تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ

حَسَنَةً) وقال تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) وقال تعالى: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ)

ولما كان العامل فى إيجاد المدنية المادية هو العلم قرر الاسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة: فقال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) وقال: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) وقال: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وقال عليه الصلاة والسلام: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لَا تَمْنَعُوا الْعِلْمَ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فَسَادَ دِينِكُمْ وَالْتِبَاسَ بَصَائِرِكُمْ» ثم قرأ: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً يُحْسِنُهُ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»

الإسلام والمساواة:

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات بغير حق، وكان من حكمها ألا يقام وزن لشئون الأدنين، متى عرضت دونها شهوات الأعلين، وكم قاسى الأولون فى سبيل ذلك شقاء وأهوالا، وذاقوا فى إسعاد الآخرين وبالا ونكالا. فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء: أبوهم آدم والأم حواء: فلا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربى على عجمى إلا بالتقوى، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) جاء هذا الدين

يحدّد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير ، وما كان يريده لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجدا

فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة ، فورد أمره برد بيتها إليها ، مع تأنيب الأمير على ما كان منه . عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى ، وهو من نعلم ، ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما . عدل يجعل أول خليفة للمسلمين يخطب فيقول : (يأيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ، ولقد وددت أن واحدا منكم قد كفانى هذا الأمر ، فلو وجدتم فىَّ اعوجاجا فقوموه) فكان هذا إقامة لصرح الحرية الإنسانية الذى ارتفعت عليه الشعوب إلى أعلى منازل الشعور بالكرامة الاجتماعية ، وبنت عليه ماقدر لها من معارج الصعود إلى ذروة الرفعة القومية .

تظاهر العقل والدين وافتقار أحدهما إلى الآخر :

العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لا يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أسّ مالم يكن بناء ، ولن يثبت بناء مالم يكن أس . وأيضا العقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغنى البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن يغنى الشعاع مالم يكن بصر . ولهذا قال الله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ) وأيضا العقل كالسراج ، والشرع كالزيت الذى يمده : فإن لم يكن زيت لم يحصل الإسراج ، ومالم يكن سراج لم يضىء الزيت ، قال الله تعالى : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ

كأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) . وأيضاً الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان ، بل متحدان . ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر فى غير موضع من القرآن : نحو قوله : (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ولكون العقل شرعا من داخل قال فى وصف العقل : (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فسمى العقل ديناً . ولكونهما متحدين قال : (نُورٌ عَلَى نُورٍ) أى نور الشرع ونور العقل ، ثم قال : (يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) فجعلهما نورا واحدا : فالشرع إذا فُقِدَ العقل عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد الشعاع . والعقل بنفسه قليل الغناء ، لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها : نحو أن يعلم جملة : حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، وتعاطى الجميل ، وحسن استعمال العدالة ، وملازمة العفة ، ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك فى كل شىء على حدته . والشرع يُعرف كليات الأشياء ، ويبين ما الذى يجب أن يعتقد فى كل شىء على انفراده ، وما الذى هو معدلة فى كل شىء منفصلا عن غيره . ولا يعرفنا العقل أن لحم الخنزير والدم والخمر محرم ، وحظر زواج المحرمات ؛ فإن أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع . فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة ، والأفعال المستقيمة ، والدال على مصالح الدنيا والآخرة ، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل . ولأنه لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك قال الله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) وقد قال الله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) وعنى بالقليل المصطفين من الأخيار .

الدين الاسلامى أعظم الأديان

استيفاء للأمور التى تتم بها سعادة الأمم

قال السيد جمال الدين الأفغانى رحمة الله تعالى عليه : إذا نظرنا فيما بين أيدينا من الأديان وجدنا دين الإسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين : ذلك أن عروج الأمم فى معارج الحق الأعلى ، وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الأجلى ، وصعود الأجيال فى مراقى الفضائل ، وإشراف طوائف الإنسان على دقائق الحقائق ، ونيلهم للسعادة الحقيقية فى الدارين - كل ذلك مشروط بأمور لايتم إلا بها :

الأول

صفاء العقول من كدر الخرافات ، وصدأ الأوهام ؛ فإن عقيدة وهمية يُدنس بها العقل تقوم حجابا كثيفا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ، ويمنعه من كشف نفس الأمر ، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك إلى أن يحمل المثل على مثله ، فيسهل عليه قبول كل وهم ، وتصديق كل ظن ، وهـــذا مما يوجب بعده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستارا لايخرق ، وفوق ذلك ماتجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة ، وقرب الدهشة ، والخوف مما لايخيف ، والفزع مما لا يفزع . ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب ، يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ، ويضطرب من هبوب الرياح ، وينزعج لقصف

الرعد والتماع البرق ، ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له فى الإخافة ، وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ، ثم يكون ألعوبة فى أيدى المحتالين ، وصيدا فى حبائل الماكرين والدجالين .

وأول ركن بنى عليه الدين الإسلامى صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام : فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان ، متوحد فى خلق الفواعل والأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد علوى أو سفلى بأن له فى الكون أثراً بنفع أو ضر ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز أو إذلال .

ومن المفروض خلع كل عقيدة بأن الله جل شأنه ظهر أو يظهر بلباس البشر ، أو حيوان آخر ، لصلاح أو فساد ، وأن تلك الذات المقدسة نالت فى بعض أطوارها شديد الآلام وأليم الأسقام ، لمصلحة أحد من الخلق ، فضلا عما يحف بذلك من خرافات ، كل واحدة منها كافية فى إهمال العقول وطمس نورها .

الثانى

أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ الغاية منه : بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ، ماعدا رتبة النبوة ، فإنها بمعزل ، وإنما يختص الله بها من يشاء من عباده . ولا يذهب وهم أحد من الأمة أنه ناقص الفطرة ، منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشىء من الكمالات .

فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة ، أعنى الإقبال على وجوه الشرف ـ تسابق الآحاد فى مجالات الفضائل ، وتمادت بهم المجاراة إلى محاسن الأعمال ، فبلغ كل واحد ماأتى عليه سعيه من عاليات الأمور ، وشرائف المراتب . ولو أن قوما أساءوا الظن بأنفسهم ، واعتقدوا أن نصيبهم من

الفطرة نقصُ الاستعداد ، وخسة المنزلة ، وأن لاسبيل لهم إلى الوقوف فى مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب فى أن يسقط من هممهم مقدار ماظنوا فى أنفسهم . وبذلك يتولى النقص أعمالهم ، ويملك الخمود عقولهم ، فيحرمون معظم الكمالات البشرية ، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية .

إن الدين الإسلامى فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس ، وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة إستعداده لأى منزل من منازل الكرامة ، ومَحق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لاغير : فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . وقد لاتجد من الأديان مايجمع أطراف هذه القاعدة : فلديك دين (برهما) : قسم الناس أربعة أقسام ، وقرر لكلٍّ منزلة من كمال الفطرة لايجاوزها ، وكان هذا التقسيم سببا فى انحطاط المتدينين بهذا الدين ، وقصور خطاهم عن الرقى فى مدارج المدنية ، وانحسار أفكارهم دون الوصول إلى مايطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة ، والعلوم النافعة ، مع أنهم أقدم الأمم وأسبقها نظراً فى الكون وشئونه .

ومن الأديان مايغلب اليوم على أمم من البشر ، وفى أصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب إسرائيل مثلا ، وكتابه المعروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال ، ويذكر غيرهم بالتحقير والإهانة

نعم جاء رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم ، وأغفل فيما بينهم ، حتى كأنه لم يكن من دينهم ، إلا أن ماسلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلوه لأنفسهم ، فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين ، وخلفه امتياز الصنفية ، فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين فى قلوب الآخذين بدينهم ، حتى صار من عقائدهم أن صنفا من الناس على منزلة القرب من الله بحيث لايرد الله له

طلبة ، ثم الحجاب بين الله وبين سائر الأصناف : لا يقبل الله من أحد صرفا ولا عدلا ، ولا يعتد له ولا يغفر له ذنبا بتوبة ، حتى يتوسط له أهل طبقة الرياسة . فعندهم أن كل نفس - وإن بلغت من الكمال مابلغت - ليس فيها مايؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الإلهى ، ولا أن ترفع إليه طلب المغفرة لخطيئاتها ، بل لابد فى قبول ذلك منها أن يكون بوساطة الرئيس الدينى . ومن آمن بالله وصدق به وأخذ بأحكامه لا ينظر الله لإيمانه حتى ينظر إليه الرئيس الدينى ويعتده إيماناً . واستندوا فى هذه العقائد على نصوص من كتابهم ، تفيد أن مايحلونه فى الأرض يكون محلولا فى السماء ، وما يعقدونه فى الأرض يعقد فى السماء . وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلا ، وألقت بهم فى جهالة عمياء ، وذلة خرساء زمنا مديدا ، حتى ظهر فيهم مجدّدون ، نقضوا ذلك العقد ، وخالفوا فيه مااشتهر من نصوص الكتاب ، وقلدوا فى ذلك الدين الاسلامى ، وسموا مذهبهم « الاصلاح » ونشروه فى ممالك متعددة ، فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشفت عنهم تلك الجهالات ، وحلت من أعناقهم هذه الرباق ، ونهضوا من حضيض ذلة إلى ذروة رفعة ، فنطقوا بعد ماصمتوا ، وعلموا بعد ماجهلوا ، وحكموا بعد ماحُكِموا ، وسادوا بعد ماسيدوا .

الثالث

أن تكون عقائد الأمة - وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها - مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فإن معتقَدا لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا ، فلا يكون مؤمنا . هـــذا والآخذ فى عقائده بالظن يَنْصِبُ عقله على متابعة الظنون ، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته ، فأولى به أن يكون عليها - يلتقى مع سابقه فى مضارب الوهم ، وفجاج الظن . وأولئك المتبعون للظن القانعون

بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ماتعودت إدراكه ، فلا يذهبون مذاهب الفكر ، ولا يسلكون طرائق النظر . وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ، ثم تكاثفت عليهم البلادة ، حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت . وبئس المآل مآلهم .

وإن كان لابد من الاستئناس لما نقول بقول أوربى ، فهذا (كيزو) الفرنساوى صاحب تاريخ التمدين الأوربى ، قال : « إن من أشد الأسباب أثراً فى سوق أوربة إلى تمدينها ظهور طائفة فى تلك البلاد قالت : إن لنا حقا فى البحث عن أصول عقائدنا ، وطلب البرهان عليها ، ولو كان ديننا هو الدين المسيحى . وعارضها كثير من رؤساء الدين ، ومنعوها ماادعت من الحق محتجين عليها بأن بناء الدين على التقليد . فلما أخذت تلك الطائفة قوتها ، وانتشرت أفكارها برئت عقول الأوربيين من علة الغباوة والبلادة ، ثم تحركت فى مداراتها الفكرية ، وترددت فى المجالات العلمية ، وكدحت لاستحصال أسباب المدنية . »

إن الدين الإسلامى يكاد يكون متفردا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون ، وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية ، والقدح فى سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم ، وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد كل منها ينفع العامة ، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الأغلب . وفى القرآن من ذلك مالا يحصى كثرة . وقلما يوجد من الأديان مايساويه أو يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة .

ومن الأديان الظاهرة مابنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد، أو الوحدة فى الكثير، وأن الواحد يكون أكثر، والكثير يكون واحدا مما تنبذه بداهة العقل، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه، ولا يهتدى لدليل عليه، ولا مرشد إليه. يريدون أنه لابد من تنكب طريق العقل، ونبذ أحكامه، حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل، مع أن العقل مشرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان، وإن فرقا بين مالا يصل العقل إلى كنهه، لكنه يعرفه بأثره، وبين مايحكم العقل باستحالته: فالأول معروف عند العقل يقرّ بوجوده، وأما الثانى فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لايتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟.

الرابع

أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، لاينون فى تنوير عقولهم بالمعارف النافعة وتحليتها بالعلوم الصافية، ولا يألون جهدا فى تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم فى جوادّها. ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس، تتولى تهذيبها وتقويم أودها، وتكشف عن الأوصاف الفاضله وحدودها، وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها، وتفضح مستور الرذائل، وتشق الحجاب عن مضارها، وسوء منقلب المتدنسين بها. وتشتد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لاتلهيها عنهما غفلة ولاتردها صعوبة.

وذلك أن بداهة العقل حاكمة بأن جلّ المعارف البشرية، والعقائد الدينية مكتسبة. فإن لم يكن فى الناس معلم قصرت العقول عن درك ماينبغى لها دركه، وانقطعت دون الكفاية مما تستدعيه ضرورات الحياة الأولى والاستعداد لما يكون فى الأخرى، وساوى الإنسان فى معيشته سائر الحيوانات، وحرم سعادة الدارين، وفارق هذه الدنيا على أتعس الأحوال.

فإذن من الواجب الدينى إقامة معلم . والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ، ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها ، فإن فقد من بين الناس مقوم النفوس ، ومعدل الأخلاق ـ طغى سلطان الشهوة، واندفع إلى الحيف والإجحاف ، ومن طغت بهم شهواتهم سلبوا راحة غيرهم ، وهتكوا ستر أمتهم ، ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم ، بل يحترقون بنيران شهواتهم ، فيرافقون الدنيا على عناء ، ويفارقونها على شقاء ، فإذن لابد من الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، القائم بتقويم الأخلاق .

وإن من أهم الأركان الدينية فى الديانة الاسلامية هاتين الفريضتين : نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن دين الاسلام قد فاق غيره من الأديان فى العناية بهذين الأمرين .

أمور أخرى

وإذ كانت أركان الدين الاسلامى بالغة حدَّ الكثرة ، فلو أخذت فى بيان مايفيده كل ركن منها فى تقويم المدنية ، وتشييد بناء النظام الانسانى ، وإقامة الدليل على أن كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الانسانية ـ لطال المقال . والحق أن (المدينة الفاضلة) التى مات الحكماء حسرة من فقدها لاتختط فى العالم الانسانى إلا بالدين الاسلامى . وإنما كان المسلمون على مانرى من الحال والشأن المحزن ، لأنهم حادوا عن محجة دينهم ، وطرحوه وراءهم ظهريا ، بعد أن بلغوا به مابلغوا ، حتى شهد العالم بفضلهم : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

السبب الثانى من أسباب السعادة

التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل

« الفضائل التى بتحصيلها تنال السعادة »

إذا عرف أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها ، وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها - فلا بد من تعرف الفضائل جملة وتفصيلا :

فأما الفضائل بجملتها فتنحصر فى معنيين : أحدهما جودة الذهن والتمييز . والآخر : حسن الخلق .

أما جودة الذهن : فليميز بين طريق السعادة والشقاوة ، وليعتقد الحق فى الأشياء على ماهى عليه : عن براهين قاطعة مفيدة لليقين ، لا عن تقليدات ضعيفة ، ولا عن تخييلات واهية .

وأما حسن الخلق : فبأن يزيل جميع العادات السيئة ، التى بين الشرع تفاصيلها ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها ، فيؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه الصلاة والسلام : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلَاةِ » . أما أداء المأمورات وترك المحظورات مع استثقال وكراهة فنقص قد يقعد بصاحبه عن بلوغ كمال السعادة ، ولكن دوام المجاهدة يفضى إلى الغاية ، وإن كان أقل رتبة من العمل عن طوع ورغبة . وقولهم : الحق مر : يصدق على من لم يتهذب ، فبقيت فيه صوارف عن الحق ولذلك قال الله تعالى : (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) وقال عليه السلام : « إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ فِى الرِّضَا لِلّٰهِ فَاعْمَلْ ، وَإِلَّا فَفِى الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ »

ثم لا يكفى فى نيل السعادة استلذاذ الطاعة ، واستكراه المعصية فى زمان دون زمان ، بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام فى جملة العمر . ولذلك لما سئل عليه السلام عن السعادة قال : « طُولُ الْعُمْرِ فِى طَاعَةِ اللهِ » ولذلك

كره الأنبياء والأولياء الموت ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أكثر ، والنفس أزكى وأطهر ، وكمالها أتم ، وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد عن علائق البدن أشد وأوفر .

يتم ذلك إذا اطرح الشواغل ، وتنبه من نومه الذى أغفله عن إدراك حال نفسه : من جمال يبتهج به ، أو خزى وخبال يبتلى به ؛ فالناس من شهواتهم نيام ، فإذا أماتوها انتبهوا من رقدتهم .

فهذه مجامع الفضائل ، وغايتها أن تصدر من الإنسان أبدا بغير فكر وروية وتعب ، ويطلع على الحق بغير كبير عناء كالصانع الحاذق فى الخياطة والكتابة ، لا يعانى فى عمله نصب التفكير

تلك الفضائل محصورة فى فن نظرى ، وفى فن عملى ، يحصل كل واحد منها على وجهين :

أحدهما - بتعلم بشرى ، وتكلف اختيارى ، يحتاج فيهما إلى زمان وتدرب وممارسة ، وبتقوى الفضيلة فيه تدريجاً خفياً يختلف عند الناس على حسب استعدادهم .

والآخر - يحصل بجود إلهى : نحو أن يولد الإنسان ، فيصير بغير علم عالماً كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وسائر الأنبياء عليهم السلام الذين حصل لهم من الإحاطة بحقائق الأمور ما لم يحصل لطلاب العلم بالتعلم . وقد يحصل ذلك أيضاً لغير الأنبياء ممن نهجوا نهجهم وساروا على سنتهم .

ولا ينبغى أن تستبعد أن يكون بالطبع فى مبدأ الفطرة من الخلال ما يحصل بالجهد والاكتساب : فرب صبى صادق اللهجة ، سخى جرىء ، ورب آخر على خلافه . تتم هذه الخلال من طريق التأديب والتعويد : فالفضيلة تارة تحصل بالطبع ، وطورا بالاعتياد ، ومرة بالتعلم . فمن تيسرت له الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتيادا وتعلماً - فهو فى غاية الفضيلة . ومن كان رذلا من هذه الجهات الثلاث فهو فى غاية الرذالة ، وبينهما رتبة من

اختلفت فيه هذه الجهات ، والأخيران فى حاجة شديدة إلى الرياضة والمجاهدة .

الذريعة إلى محاربة الهوى

للإنسان فى مجاهدة الهوى ثلاثة أحوال :

الأول - أن يغلبه الهوى ، فيملكه ولا يستطيع له خلافا ، وهو حال أكثر الخلق ، وهو الذى قال الله تعالى فيه : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) ؛ إذ لا معنى للإله إلا المعبود ، والمعبود هو المتبوع الإشارة . فمن كان تردده فى جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره فقد اتخذ إلهه هواه .

الثانى - أن تكون الحرب بينهما سجالا : فهذا الرجل من المجاهدين ، فإن اخترمته المنية فى هذه الحالة ، فهو من الشهداء ؛ لأنه مشغول بامتثال قوله صلى الله عليه وسلم : « جَاهِدُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تُجَاهِدُونَ أَعْدَاءَكُمْ » وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الجهاد أفضل يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « جِهَادُكَ هَوَاكَ » وَلِذَلِكَ قال : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وهذه الرتبة العليا لغير الأنبياء والأولياء .

الثالث - أن يغلب هواه ، فيصير مستوليا عليه ، لا يقهره بحال من الأحوال . وهذا هو الملك الكبير ، والنعيم الحاضر ، والحرية التامة ، والخلاص من الرق . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ وَلِي شَيْطَانٌ ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَى شَيْطَانِي حَتَّى مَلَكْتُهُ » وقال فى حق عمر : « مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًّا إِلَّا وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَهُ » وهنا مزلة القدم : فكم من إنسان يظن أنه نال هذه الرتبة ، وهو فى الحقيقة شيطان مريد ؛ فإنه يتبع أغراضه ، ويلبسها لباس الدين : فقد ترى جماعة اشتغلوا بالوعظ والتدريس والخطابة وأنواع الرياسة ، وهم متبعون للهوى ، ويزعمون أن باعثهم الدين ، ومحركهم طلب الثواب ، ومنافستهم عليها للشرع ، وهى

نهاية الحمق والغرور . وإنما تعرف حقيقة ذلك بأمر : هو أن الواعظ المقبول : إن كان يعظ لله لا لطلب القبول ، وقصده دعوة الخلق إلى الله - فعلامته أنه لو جلس مكانه واعظ أحسن منه سيرة ، وأغزر منه علماً ، وأطيب منه لهجة ، وتضاعف قبول الناس له - فرح به ، وشكر الله على إسقاط هذا الفرض عنه بغيره ، وبمن هو أقوم منه : كمن تعين عليه جهاد كافر ، وقتله لارتداده ، فنزلت بالكافر صاعقة أحرقته ، وكفى مئونته ، والجهاد معه - ففرح به وشكر الله تعالى

وتلك حال لا يحسها إلا الأصفياء ، وآيتها دوام الحذر واليقظة ، كما نقل عن الصديق رضى الله عنه قوله : « اقتلونى فلست بخيركم »

الفرق بين إشارة الهوى وإشارة العقل :

إن هذا مطلب عويص ولا خلاص منه إلا بالعلوم الحقيقية ؛ إذ بها ينكشف التلبيس عن الحق ، ولكن القدر الذى ينبغى أن يضرع إليه عند التحير هو العلم بأن العقل فى أكثر الأمور يشير بالأصلح للعواقب ، وإن كان فيه كلفة ومشقة فى الحال ، والهوى يشير بالاستراحة ، وترك التكلف . فإن عرض لك أمران ، ولم تدر أيهما أصوب - فعليك بما تكرهه لا بما تهواه ؛ فأكثر الخير فى الكراهة : قال عليه السلام : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقال تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) وقال تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) فما تميل فيه إلى الدعة والرفاهية ، وحذر الكلف ، وإيثار الراحة فى الحال - فاتهم فيه نفسك ؛ فإن حبك الشىء يعمى ويصم .

وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة ، والعقل يسترشد بحجج حقيقية ، والعاشق لشخص قبيح أو المتناول لطعام بشع شغف به لعادته لو روجع لزخرف فيه معاذير مموهة ، يشهد عليه العقل بأنه متصنع متكلف .

وبالجملة : إدراك هذه الحقيقة لا يكون إلا بنور إلهى ، وتأييد سماوى . فليكن الفزع إلى الله فى مظان الحيرة ؛ فقد قال بعض العلماء : إذا مال العقل إلى مؤلمه فى الحال نافع فى العاقبة ، ومال الهوى فى نحو نقيضه الملذ فى الحال الوخيم العاقبة ، وتنازعا وتحاكما إلى القوة المدبرة المفكرة - سارع نور الله تعالى إلى نصرة العقل ، وبادر وسواس الشيطان وأولياؤه إلى نصرة الهوى ، وقام صف القتال بينهما : فإن كانت القوة المدبرة من حزب الشيطان وأوليائه ذهلت عن نور الحق ، وعميت عن نفع الآجل ، واغترت بلذة العاجل ، وجنحت إليه ، وقهر أولياء الله . وإن كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره ، واستهانت بالعاجلة ، وطلبت الآجلة . قال الله تعالى : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

ويرى بعض العلماء أن الله تعالى شبه العقل بشجرة طيبة ، والهوى بشجرة خبيثة ، فقال : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » فعند قيام الصف والتحام القتال بين هذين الجندين اللذين أحدهما من أعداء الله والآخر من أوليائه - لا سبيل إلا إلى الفزع إلى الله تعالى ، والاستعاذة من الشيطان الرجيم . قال تعالى : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

والهوى محمود ومذموم :

فالمحمود : من فعل الله تعالى : وهو قوة جعلت فى الإنسان ، لتنبعث بها النفس لنيل ما فيه بقاء بدنه أو نوعه ، أو إصلاحهما .

والمذموم : من فعل النفس الأمارة بالسوء : وهو استحبابها لما فيه لذتها

البدنية . وهى إذا غلبت سميت هوى ؛ فإنها تستتبع الفكرة ، وتستخدمها لتستغرق وقتها فى الامتثال لأمرها . والفكرة مترددة بين الشهوة والعقل ، يخدمها العقل فوقها والشهوة تحتها . فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن ، وإذا مالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين ، وولدت القبائح وبعدت من المحاسن .

قد تصدر الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل :

أجمل ابن مسكويه هذا البحث فيما يلى : إن السعادة تظهر فى أفعال العدالة والشجاعة ، والعفة ، وسائر ما تحت هذه الأنواع التى سنحصيها ونحددها إن شاء الله تعالى . وهذه الأفعال قد تظهر ممن ليس بسعيد ولا فاضل : وذلك أنه قد يعمل بعض الناس عمل العدول وليس بعادل ، ويعمل عمل الشجعان وليس بشجاع ، ويعمل عمل الأعفاء وليس بعفيف . مثال ذلك :

إن من ترك الشهوات من المآكل والمشارب وسائر اللذات التى ينهمك فيها غيره : إما لأنه ينتظر منها أكثر مما يحضره ، وإما لأنه لا يعرفها ولم يباشرها : كالأعراب الذين يبعدون عن البلاد ، وكالرعاة فى البوادى وقلل الجبال . وإما لأنه ممتلىء مما يجده ويحضره ، وإما لجمود شهوته ونقصان تركيبه ، وإما لأنه استشعر خوفا من تناولها ومكروها يلحقه بسببها ، وإما لأنه ممنوع منها ـ هؤلاء كلهم يعفون وليسوا بأعفاء على الحقيقة ، وإنما يسمى عفيفا على الحقيقة من وَفّى العفة حدها ، واختارها لنفسها ، لا لغرض آخر غيرها ، وآثرها لأنها فضيلة ، ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ، ومن الوجه الذى ينبغى ، وفى الوقت الذى ينبغى ، وفى الحال الذى ينبغى .

وكذلك حال الذى يعمل أعمال الشجعان وليس بشجاع : وذلك أن من باشر الحروب ، وأقدم على ركوب الأهوال لبعض ما توصل إليه من المال ، أو لبعض الرغبات التى لا تحد كثرة ـ مثل هذا يعمل عمل الشجعان ، ولكن يعمله بطبيعة الشره ، لا بطبيعة الفضيلة التى تدعى شجاعة . وكل من كان أكثر

إقداما وأصبر على أهوال هذه الأحوال - يجب أن يكون أكثر شرهاً ونهماً، لا أكثر شجاعة: وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريفة، ويصبر على المكاره العظيمة، طمعا فى المال وما يصل إليه بالمال.

وقد رأينا أهل الشقاوة يعملون عمل الأعفاء وعمل الشجعان وهم أبعد الناس عن كل فضيلة: وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها، ويصبرون على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الأعضاء والجراحات التى لا يؤمن منها، وينتهون فيها لأقصى الصبر على الصلب وسمل العيون، وقطع الأيدى والأرجل، وضروب التمثيل، طلبا لاسم وذكر بين قوم فى مثل حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل. وقد يعمل أيضا عمل الشجعان من يخاف لائمة عشيرته، أو عقوبة سلطانه، أو خوف سقوط جاهه، أو ما أشبه ذلك. وقد يعمل عمل الشجعان من اتفق له مرارا كثيرة أو يغلب أقرانه فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية وجهلا بمواقع الاتفاقات. وقد يعمل عمل الشجعان أيضا العشاق: وذلك أنهم يركبون الأهوال فى طلب المعشوق، لحرصهم على متعة العين منه، لا لطلب الفضيلة ولا لاختيار الموت الجميل على الحياة الرديئة، كما يفعل الشجعان بالحقيقة.

وأما شجاعة الأسد والفيل وأشباههما من الحيوانات فإنها تشبه الشجاعة، وليست بشجاعة حقيقية: وذلك أنها قد وثقت بقوتها، وأنها تفوق غيرها فهى تقدم، لا بطبيعة الشجاعة، بل لتمام القدرة وثقة النفس بالغلبة.

وأما الشجاع: فإن خوفه من الأمر أشد من خوفه من الموت، ولذلك يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة.

على أن لذة الشجاع لا تكون فى مبادىء أموره، فإن مبادىء الأمور تكون مؤذية له، لكنها تكون فى عواقب الأمور، وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره، لاسيما إذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة فى

وحدانية الله عز وجل ، والشريعة التى هى سياسة الله وسنته العادلة التى بها مصالح العباد فى الدنيا والآخرة .

فإن مثل هذا - وقد فكر فى قصر مدة عمره ، وعلم أنه لامحالة سيموت بعد أيام ، ثم كان محبا للجميل ، ثابتا على الرأى الصحيح - لامحالة يحامى عن دينه ، ويمنع العدو عن استباحة حريمه والتغلب على مدينته ، ويأنف من الفرار ، ويعلم أن الجبان إذا اختار الفرار - فإنما يستبقى شيئا هو لامحالة فان زائل ، وإن تأخر أياما معدودة . ثم هو فى هذه الحياة اليسيرة ممقوت مكدر الحياة بالذل وضروب الصغار .

وهذه حال الشجاع فى تغلبه على شهواته واعتصامه بالشجاعة لذاتها .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » ومن سمع كلام الإمام علىّ رضى الله عنه الذى صدر منه عن حقيقة الشجاعة : إذ قال لأصحابه : « أيها الناس ، إن لم تقتلوا تموتوا ، والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش » - من سمع هذا تبين له أن جميع ما أحصيناه للإنسان من مظاهر الشجاعة ليس بمعدود فيها ، وإن كان يشبهها بالصورة .

فليس كل من يقدم على الأهوال بشجاع ، وكذلك من لا يفزع من ذهاب شرفه ، أو عند حدوث الرجفات والزلازل والصواعق ، أو الزمانة فى الأمراض أو عدم الإخوان والأصدقاء ، أو عند اضطراب البحر وهول الأمواج ؛ فهو بأن يوصف بالجنون أولى بأن يوصف بالشجاعة .

وكذلك من خاطر بنفسه فى وقت الأمن والطمأنينة : بأن يثب من سطح عال ، أو يصعد مرتقى صعبا ، أو يحمل نفسه على السبح فى ماء غزير ، وهو لا يحسن السباحة ، أو يساور جملا هائجا ، أو ثورا صعبا ، أو فرسا لم يرض ، من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ، بل مراءاة بالشجاعة وإظهار أنه من أهلها ؛ فهو بأن يسمى مطرمذا (١) مائقا أولى منه بأن يسمى شجاعا .

---

(١) هو من يقول ولا يفعل

وأمّا من خنق نفسه خوفا من الفقر أو الذل ، أو أهلكها بالسم وما أشبهه ؛ فرارا من الضيم - فهو بأن يوصف بالجبن أولى منه بأن يوصف بالشجاعة : وذلك أن الإقدام وقع منه بطبيعة الجبن ، لا بطبيعة الشجاعة ؛ فإن الشجاع يصبر على مايرد عليه من الشدائد صبراً جميلا ، ويعمل أعمالا تليق بتلك الحال .

ولذلك يجب أن يعظم الشجاع ، ويشح بنفسه ، وحق على السلطان خاصة ، والقيم بأمر الدين والملك أن ينافس فيه ، ويجل قدره ، ويعلى خطره ، ويميزه من سائر من يتشبه به ممن ذكرناه .

تبين من جميع ماقلناه أن الشجاع هو الذى يستهين بالشدائد فى الأمور الجميلة ، ويصبر على الأمور الهائلة ويستخف بما يستعظمه عوام الناس حتى بالموت لاختيار الأمر الأفضل ، ولا يحزن على مالادرك فيه ، ولا يضطرب عندما يفدحه من المصائب ، ويكون غضبه إذا غضب بمقدار مايجب ، وعلى من يجب ، وفى الوقت الذى يجب . وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط ؛ فإن الحكماء قالوا : إن من لا ينتقم يلحق قلبه ذبول ، فإذا انتقم عاد إلى حالته من النشاط . وهذا الانتقام إذا كان بحسب الشجاعة كان محمودا ، وإذا لم يكن كذلك كان مذموما : فقد نقل إلينا فى الأخبار المأثورة روايات كثيرة عمن أقدم على سلطان قوى ، ورام أن ينتقم منه ، فأهلك نفسه من غير أن يضر سلطانه . وكذلك حال من أقدم على قرن قوى أو خصم ألد ، لايستطيع مقاومته ؛ فإن الانتقام منه يعود وبالاً عليه ، وزيادة فى الذل والعجز .

فاذن ليست تتم شرائط الشجاعة والعفة إلا للحكيم الذى يستعمل كل شىء فى موضعه الخاص به ، وبقدر إقساط العقل له . فكل شجاع عفيف حكيم ، وكل حكيم شجاع عفيف .

وهذه الحال بعينها تظهر فيمن عمل عمل الأسخياء وليس بسخى : فمن

بذل أمواله فى شهواته ، طلبا للسمعة والرياء ، أو تقربا إلى السلطان ، أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمه وأولاده ، أو بذلها لمن لا يستحق من أهل الشر أو الملهين أو الساخرين ، أو بذلها لطمع فى أكثر منها على سبيل التجارة والمرابحة - فكل هؤلاء يعمل عمل الأسخياء وليس بسخى : أما بعضهم فيبذل ماله بطبيعة الشره ، وأما بعضهم فبطبيعة الطرمذة والرياء ، وأما بعضهم فعلى طريق الازدياد من المال والربح فيه ، وأما بعضهم فعلى سبيل التبذير وقلة المعرفة بقدر المال . وهذا أكثر ما يعرض للوارث ، ولمن لا يتعب فى اكتساب المال ، فلا يعرف صعوبة الأمر فيه ؛ لأن المال صعب الاكتساب ، سهل الإنفاق والتفرقة . وقد شبهه الحكماء بمن يرفع حملا ثقيلا إلى قمة جبل ، ثم يرسله ، فإن الأمر فى ترقيته وإصعاده صعب ، ولكن إرساله من هناك أمر سهل .

السبب الثالث من أسباب السعادة

الإخلاص

كل شىء يتصور أن يشوبه غيره إذا صفا عن شوبه ، وخلص عنه — سمى خالصا . ويسمى الفعل المصفى المخلَص إخلاصا : قال الله تعالى : (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ) فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به . والإخلاص يضاده الإشراك : فمن ليس مخلصا فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات : منه الخفى ومنه الجلى ، وكذلك الإخلاص .

والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب ويكون ذلك فى القصد والنية . ومن حيث إن النية ترجع إلى إجابة البواعث ، فمتى كان الباعث واحداً فقط سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا : فمن فعل خيراً بقصد الرياء فقط فهو مخلص ، ومن كان غرضه الوحيد التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العرف قد خصص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب

إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. ومثل ذلك الإلحاد، فهو عبارة عن الميل إلى الحق أو عنه، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق.

الإخلاص والصدق:

قد يذكر الصدق ويراد به الإخلاص: وذلك إذا كان متعلقا بالنية والإرادة وهو ألا يكون للمرء باعث فى حركاته وسكناته إلا الله تعالى: فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وسمى صاحبه كذابا، قال عليه السلام: «أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ، فَيقُولُ اللهُ تَعالَى: مَا صَنَعْتَ فِيما عَلِمتَ؟ فيقُولُ: يارَبِّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فيقُولُ اللهُ تَعالَى: كَذَبْتَ، وَتقُولُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ عَالِمٌ، أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذٰلِكَ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فيقُولُ اللهُ تَعالَى: لَقَدْ أَنْعمْتُ عَلَيْكَ فَماذَا صَنَعْتَ؟ فيقُولُ: يارَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فيقُولُ اللهُ تَعالَى: كَذَبْتَ، وَتقُولُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ جَوَادٌ، أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَرَجُلٌ قُتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ تَعالَى، فَيقُولُ اللهُ تَعالَى: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فيقُولُ: يارَبِّ أُمِرْتَ بِالْجِهَادِ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، وَتقُولُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلانٌ شُجَاعٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ» قال أبو هريرة: «ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال: «يا أَبا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسْعَرُ نارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ»

فليس الغرضُ من التكذيب فى هذا الحديث نفى العمل، بل نفى الإخلاص فى العمل. ولذلك قال بعضهم: «الصدق صحة التوحيد فى القصد» وكذلك قول الله تعالى: (وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

وقد قالوا : « إنك لرسول الله » وهذا صدق ، ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ، فهم فى قرارة نفوسهم مكذبون ، وفى إخبارهم عن ذلك كاذبون .

فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية ، وهو الإخلاص : فكل صادق لابد من أن يكون مخلصا قال الله تعالى :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، والصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »

فهذه الآية الكريمة حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها ، تصريحا أو تلويحاً ، لما أنها مع تكثر فنونها ، وتشعب شجونها — منحصرة فى خلال ثلاث : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة مع العباد ، وتهذيب النفس . وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل ، وإلى الثانية بإيتاء المال ، وإلى الثالثة بإقامة الصلاة إلخ . ولذلك نُعت المتسمون بها بالصدق لإيمانهم واعتقادهم ، وبالتقوى لحسن معاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق . وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ »

الإخلاص والنصيحة :

فسر صاحب المصباح المنير النصيحة بأنها : « الإخلاص والصدق والمشورة والعمل » فهى كلمة جامعة لكل ذلك . قال ابن الأثير فى النهاية : « النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة : وهى إرادة الخير للمنصوح له » وليس

يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها . وأصل النصح في اللغة الخلوص . . وفي حديث أبي : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التوبة النَّصُوحِ ، قال : « هِيَ الخَالِصَةُ الَّتِي لَا يُعَاوَدُ بَعْدَهَا الذَّنْبُ » وقال تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : (قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله : « النصيحة كلمة جامعة معناها: حيازة الحظ للمنصوح له. ويقال : هو من وجيز الأسماء ، ومختصر الكلام ، وليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ، كما قالوا في الفلاح : ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه . وقيل : النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه : إذا خاطه ، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسدده من خلل الثوب . وقيل : إنها مأخوذة من نصحت العسل : إذا صفيته من الشمع : شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط »

أوردنا ذلك جميعه ، ليتجلى لك أن الإخلاص والصدق والنصيحة كلمات تتعاور المعنى الواحد وتتداول المفهوم المنفرد ، وأن النصيحة قد تطلق ويراد بها الاثنان قبلها معا، أو أحدهما على انفراده .

أنواع الاخلاص

روى تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قلنا لمن ؟ قال : « لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » فهذا حديث عظيم الشأن أوجز فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنواع الإخلاص التي عليها مدار السعادتين: الدنيوية والأخروية ، والتي لو شرحت حق الشرح بما انطوى تحتها من شعب ، وما أجمل فيها من مفردات لاستغرقت كثير

المجلدات ، وجهدت الجهود دون مالها من غايات . ولاغرابة فقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، حتى جاءت أحاديثه حكمة الحكم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) وسنبين هذه الأنواع على القدر المستطاع :

الإخلاص لله تعالى :

الإخلاص لله تعالى معناه منصرف إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه ، وترك الإلحاد فى صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها ، وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، وتخليص جميع الأمور عن الشوائب كلها : قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيها قصد التقرب إلى الله تعالى ، فلا يكون فيها باعث سواه ، ثم الدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة ، والحث عليها ، والتلطف فى جمع الناس ، أومن أمكن منهم عليها : قال محمد بن سعيد المروزى : « الأمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى مافعل ، وتخلص فيما تعمل ، فإذا أنت قد سعدت بهذين ، وفزت فى الدارين »

وقد أكثر الشيوخ الأقاويل فى الإخلاص لله تعالى ، وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم : إذ سئل عن الإخلاص فقال : « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ، ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ » أى لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد إلاربك ، وتستقيم فى عبادته كما أمرت .

وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر ، وهو الإخلاص حقا ، وهو المراد بقوله تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) وقال تعالى : (أَلاَ لِلّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) وقال تعالى : (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّهِ) وقال تعالى : (فَمَنْ كَانَ

يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) نزلت هذه الآية فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه .

الإخلاص لكتاب الله تعالى :

وأما الإخلاص لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه فى التلاوة والذب عنه من تأويل المحرفين وتعرض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه والتفكر فى عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه ، وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه ، والدعاء إليه وإلى ماذكرنا من نصيحته

الإخلاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

الإخلاص له صلى الله عليه وسلم تصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ماجاء به ، وطاعته فى أمره ونهيه ، ونصرته حيا وميتا ، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه ، وإعظام حقه وتوقيره ، وإحياء طريقته وسنته ، وبث دعوته ونشر شريعته ونفى التهمة عنها ، واستثارة علومها ، والتفقه فى معانيها والدعاء إليها ، والتلطف فى تعلمها وتعليمها ، وإعظامها وإجلالها والتأدب عند قراءتها ، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبته أكثر من الأهل والمال والناس أجمعين ، بل وأكثر من النفس : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفى روايه : « وَمِنْ نَفْسِهِ » وقد قال تعالى فى معرض التهديد والإنكار : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ثم محبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع فى سنته أو تعرض لأحد من أصحابه، ونحو ذلك مما يطول استيفاؤه، ويتعذر استقصاؤه.

الاخلاص لأئمة المسلمين:

الإخلاص لهم معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم.

قال الخطابى رحمه الله: «وحق النصيحة لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وألا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصلاح» وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور: قال الخطابى: «وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين، وأن من نصيحتهم قبول ما رووه، وتقليدهم فى الأحكام، وإحسان الظن بهم».

الإخلاص لعامة المسلمين:

عامة المسلمين هم من عدا ولاة الأمر، والإخلاص لهم إرشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم: فيعلمهم مايجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير،

ويكره لهم مايكره لنفسه من المكروه ، والذب عن أموالهم وأعراضهم ، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحثهم على التخلق بجميع ماذكرناه من أنواع الإخلاص ، وتنشيط هممهم إلى الطاعات .

وقد كان فى السلف رضى الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه : قال جرير بن عبدالله : « بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » ولجرير فى هذا منقبة ومكرمة رواها الحافظ أبو القاسم الطبرانى : اختصارها : أن جريراً أمر مولاه أن يشترى له فرسا ، فاشترى له فرسا بثلثمائة درهم ، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس : « فرسك خير من ثلثمائة درهم !! أتبيعه بأربعمائة درهم ؟ » قال ذلك إليك يا أبا عبد الله ، فقال : « فرسك خير من ذلك !! أتبيعه بخمسمائة درهم ؟ » ثم لم يزل يزيده مائة فمائة ، وصاحبه يرضى ، وجرير يقول : « فرسك خير » إلى أن بلغ ثمانمائة درهم ، فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « إنى بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » والله أعلم .

السبب الرابع من أسباب السعادة

الصحة

العلاقة بين النفس والبدن :

كل من النفس والبدن متأثر بصاحبه ؛ فإن النفس إن كملت وكانت زاكية حسنت أفعال البدن وكانت جميلة . وكذا البدن : إن جملت آثاره حدث منها فى النفس هيئات حسنة ، وأخلاق مرضية .

ولما كانت النفس مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجسم على نحو ماذكر كان أحدهما متعلقا بصاحبه متغيراً بتغيره ، فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعيانا بما يظهر لنا من أحوالها : وذلك أنا نرى المريض من جهة بدنه ـ خصوصا إذا كان مريضا بالدماغ أو القلب ـ يتغير عقله

ويمرض ، حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه الشريفة ، ويحس هو من نفسه بذلك ، كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه - إما بالغضب ، وإما بالحزن ، وإما بالشهوات الهائجة به - تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ، ويصفر ويحمر ويهزل ويسمن ، ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحس .

تصوير المرض :

لهذه العلاقة يجب أن نتفقد مبدأ الأمراض : فإذا كان مبدؤها من النفس ذاتها : كالفكر فى الأشياء الرديئة وإجالة الرأى فيها ، وكاستشعار الخوف من الأمور العارضة والمترقبة والشهوات الهائجة - قصدنا علاجها بما يخصها . وإن كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس : كالخور الذى مبدؤه ضعف حرارة القلب مع الكسل والرفاهية ، وكالعشق الذى مبدؤه النظر مع الفراغ والبطالة - قصدنا أيضاً علاجه بما يخص هذه .

ولما كان طب الأبدان ينقسم قسمين : أحدهما : حفظ صحتها إذا كانت حاضرة . والآخر : ردها إليها إذا كانت غائبة . (وسيأتى إن شاء الله الكلام على مايجب نحو صحة الأبدان) — لما كان طب الأبدان ينقسم هذه القسمة وجب أيضاً أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها : فنحفظها إذا كانت حاضرة ، ونردها إذا كانت غائبة .

مايجب لحفظ صحة النفس

إذا كانت النفس خيرة فاضلة ، تحب نيل الفضائل ، وتحرص على إصابتها ، وتشتاق إلى العلوم الحقيقية والمعارف الصحيحة - يجب على صاحبها أن يراعى الأمور الآتية :

الأول

معاشرة الأخيار

فيجب عليه أن يعاشر من يجانسونه ، ويطلب من يشاكلونه ، ولا يأنس بغيرهم ، ولا يجالس سواهم ؛ ويحذر كل الحذر من معاشرة أهل الشر والمجون ، والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة ، وركوب الفواحش والمفتخرين بها والمنهمكين ، ولا يصغى إلى أخبارهم مستطيباً ، ولا يروى أشعارهم مستحسناً ، ولا يحضر مجالسهم مبتهجاً ؛ وذلك أن حضور مجلس واحد من مجالسهم ، وسماع خبر واحد من أخبارهم - يعلق من وضره ووسخه بالنفس مالا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل والعلاج الصعب ، وربما كان سبباً لفساد الفاضل المحنك ، وغواية العالم المستبصر ، حتى يصير فتنة لهما ، فضلا عن الحدث الناشىء المسترشد :

اصحب الأخيار وارغب فيهمو رب من صاحبته مثل الجرب

والعلة فى ذلك أن محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعة للإنسان للنقائص التى فيه ، فنحن بالجبلة الأولى والفطرة السابقة نميل إليها ، ونحرص عليها ، وإنما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل والشرع ، حتى نقف عند مايرسم لنا ، ونقتصر على المقدار الضرورى منها .

وكذلك : إن معاشرة الأصدقاء الذين سنذكر أحوالهم فيما يأتى ، وسنحكم بتمام السعادة معهم ولهم - لاتتم هذه المعاشرة إلا بالمؤانسة والمداخلة ، ولا بد فى ذلك من المزاح المستعذب ، والأحاديث المستطابة ، والفكاهة المحبوبة ، وإصابة اللذة التى تطيقها الشريعة ويقدرها العقل ، حتى لا يتجاوزها إلى الإسراف ، ولا يقصر عنها تهاونا بها ؛ لأن الخروج إلى أحد الطرفين إن كان إلى جانب الزيادة سمى مجونا وفسقا وخلاعة وماأشبهها من أسماء الذم ، وإن كان إلى جانب النقص سمى فدامة ، وعبوسا ، وشكاسة ، وماأشبهها من

أسماء الذم أيضا . والمتوسط بينهما هو الظريف الذى يوصف بالهشاشة والطلاقة وحسن العشرة . ويعرض من الصعوبة فى وجود هذا الوسط ما يعرض فى سائر الفضائل الخلقية .

الثانى

الارتياض بالأمور الفكرية

ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى لا يسوغ له الإخلال بها البتة ؛ لتجرى للنفس مجرى الرياضة التى تلزم فى حفظ البدن . وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس ؛ لأن النفس متى تعطلت من النظر ، وعدمت الفكر والغوص على المعانى تبلدت وتبلهت ، وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا ألفت الكسل ، وتبرمت بالروية واختارت العطلة - قرب هلاكها ؛ لأن فى عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعا منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتكاس فى الخلق نعوذ بالله منه . وإذا تعود الحدث الناشىء من مبدأ تكوينه الارتياض بالأمور الفكرية ، وأخذ نفسه بها - ألف الصدق ، واحتمل ثقل الروية والنظر ، وأنس بالحق ، ونبا طبعه عن الباطل ، وسمعه عن الكذب . فإذا بلغ أشده وانتقل إلى مطالعة الحكمة استمر طبعه ، وتشرب ما يستودع منها ، ولا يرد عليه أمر غريب ، ولا يحتاج إلى كثير تعب فى فهم غوامضها واستخراج دفائنها ؛ فيصل سريعا إلى سعادتها التى سنذكرها إن شاء الله تعالى .

وإن كان حافظ هذه الصحة قد توحد فى العلم وبرع ، فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الازدياد ؛ فإن العلم لا نهاية له ، وفوق كل ذى علم عليم . ولا يتكاسل عن معاودة ما علمه ودرسه ؛ فإن النسيان آفة العلم . وليتذكر

قول الحسن البصرى رحمة الله عليه : « اقذعوا هـذه النفوس؛ فإنها طلعة ، وحادثوها ؛ فإنها سريعة الدثور »

الثالث

عدم إثارة قوتى الشهوة والغضب

وينبغى لحافظ الصحة على نفسه ألا يحرك قوته الشهوانية ، وقوته الغضبية بتذكر ماأصاب منهما ، بل يتركهما حتى يتحركا بأنفسهما : وذلك أن أن الإنسان ربما تذكر لذاته فى إصابة الشهوات وطيبها ومراتب كرامته من السلطان وغـيرها ، فاشتاق إليها ، وإذا اشتاق إليها تحرك نحوها ، وجعلها غرضا له ، فيضطر إلى استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة فيها؛ لتدبر له الوصول إليها . وهذه صورة من يثير بهائم عادية ، ويهيج سباعا ضارية ، ثم يلتمس معالجتها والخلاص منها . وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال ، بل هى من أفعال المجانين الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطأ . ولذلك يجب ألا يتذكر أعمال هاتين القوتين ؛ لئلا يشتاق إليهما ، ويتحرك نحوهما ، بل يتركهما ؛ فإنهما سيثوران لأنفسهما ، ويهيجان عند حاجتهما ، ويلتمسان مايحتاج البدن إليه ، ويتخذان من باعث الطبيعة مايغنيك عن بعثهما بالفكر والروية والتمييز ، فيكون حينئذ فكرك وتمييزك فى إزاحة علتهما وتقدير ماتطلقه لهما فى الأمر الضرورى الواجب لأبداننا الحافظ لصحتها ، وهذا هو إمضاء أمر الله تعالى ، وسلوك سبيل حكمته ؛ لأنه تعالى إنما وهب لنا هاتين القوتين لنستخدمهما عند حاجتنا إليهما ، لا لنخدمهما ونتعبد بهما . فكل من استعمل النفس الناطقة فى حاجات خادمها فقد تجاوز أمر الله ، وتعدى حدوده ، وحاد عن سبيل حكمته ؛ لأن خالقنا عز وجل رتب لنا هذه القوى بتدبيره وتقديره ، ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره ، وكل من خالفه وعدل عنه فهو أعظم جائر على ذاته ، وأكبر ظالم لنفسه .

هذا . ولولا خوف الإطالة لفصلنا مايحمد ويذم من هاتين القوتين .
وبالإجمال : ليحذر حافظ صحة نفسه فى جميع أوقاته ملابسة رذيلة ، أو مساعدة رفيق عليها ، أو مخالفة صواب . ولا يستحقرن شيئاً مما يأتيه من صغار السيئات ، ولا يطلبن رخصة فيها ؛ فإن ذلك يدعوه إلى أعظم منها . ومن تعود فى أول نشوئه وحدثان شبابه ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة غضبه وحفظ لسانه واحتمالَ أقرانه - خف عليه مايثقل على غيره ممن لم يتأدب بتلك الآداب.

وبيان ذلك : أنا نجد الخدم وأشباههم إذا بلوا بمخدومين ساءت أخلاقهم يسفهون عليهم ويسبون أعراضهم - هان عليهم الخطب فيما يسمعونه ، حتى لا يؤثر فيهم ، وربما تضاحكوا عند سماع مكروه شديد ضحكا غير متكلف ، ويعملون عند ذلك أعمالهم ودعين طلقين غير قلقين ، وقد كانوا قبل ذلك شرسين غضوبين غير محتملين ولا ممسكين عن الأجوبة والانتقام بالكلام وطلب التشفى بالخصام ، ويكثر ذلك منهم إذا حسنت أخلاق محدوميهم : قيل لحكيم : لا تصفح عن عبدك ، وهو يقصر فى خدمتك ، فيفسد باحتمالك ، قال : «لأن يفسد عبدى فى صلاح نفسى خير من أن تفسد نفسى فى صلاح عبدى » فإن احتمال ذلك إصلاح للنفس ، والانتقام إصلاح للعبد .

وهذه سبيلنا إذا ألفنا الفضائل ، وتجنبنا الرذائل ، وأمسكنا عن مقابلة السفهاء ومجاراتهم والانتقام منهم

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم ؛ فإنهم يستعدون للأعداء بالعدة والعتاد والتحصن قبل هجوم العدو ، وهم فى مهلة من زمانهم ، وفى اتساع من نظرهم . ولو أغفلوا ذلك إلى أن تحل بهم المكاره ، وتطرقهم الشدائد لأذهلهم الأمر عن الحيلة والرأى السديد . فعلى هذا الأصل يجب أن نبنى أمورنا فى الاستعداد لأعدائنا من الشر والغضب ، وسائر مايزيلنا عن أغراضنا من الفضائل : بأن نتعود الصبر على مايجب الصبر

عليه والحلم عمن ينبغى أن نحلم عنه ، ونضبط النفس عن الشهوات الرديئة ، ولا ننتظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها ؛ فإن الأمر عند ذلك صعب جدا ، ولعله غير ممكن البتة . ومثال رد الشهوة فى أول انبعاثها صرف عنان الدابة عن توجهها إلى باب دار تدخله : فما أهون منعها وصرف عنانها . ومثال علاجها بعد استحكامها أن تترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ، ثم تأخذ بذنبها جارا لها إلى الوراء . وما أعظم التفاوت بين الأمرين . فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور ، فأما أواخرها فلا تقبل الإصلاح فى الأكثر إلا بجهد شديد يوازى نزع الروح .

الرابع

التدبر فى كل الأمور ومعاقبة النفس عند فعل المحظور

ينبغى لحافظ الصحة على نفسه أن يلطف نظره فى كل مايعمل ويدبر ، ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه ؛ لئلا يجرى فيه على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته ؛ فما أكثر مايعرض للإنسان من بُدُوّ أفعال تخالف ماقدم فيه عزيمته ، وعقد عليه رأيه .

فمن عرض له مثل هذا وجب عليه أن يفرض لنفسه عقوبات يقابل بها أمثال هذه الذنوب : فإذا أنكر من نفسه مبادرة إلى طعام ضار وترك حمية قد كان استشعرها ، أو تناول فاكهة غير موافقة أو حلواء كذلك عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه إلا على ألطف مايقدر عليه وأقله ، وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب فى غير موضعه ، او على من لا يستحقه ، أو زيادة على مايجب منه – فليقابل ذلك بلوم نفسه وتعنيفها وإرضاء من غضب عليه ، وليفرض على نفسه مالاً يخرجه صدقة . وإن أنكر من نفسه كسلا وتوانيا فى مصلحة له فليعاقبها بسعى فيه مشقة ، أو بصلاة فيها طول ، أو ببعض الأعمال الصالحة التى فيها كد وتعب . وبالإجمال : ليرسم على نفسه رسوماً تصير عليها فرائض

وحدودا ، لايخل بها ولا يترخص فيها إذا أنكر من نفسه مخالفة لعقله ، وتجاوزا لرسومه .

الخامس

استقصاء عيوب النفس

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوبها باستقصاء شديد ، ولا يعمل بما قاله جالينوس فى ذلك : فإنه ذكر فى كتابه المعروف بتعرف المرء عيوب نفسه : « لما كان كل إنسان يحب نفسه خفيت عليه معايبه ، ولم يرها وإن كانت ظاهرة » وأشار فى كتابه هذا بأن يختار من يحب أن يبرأ من العيوب صديقا كاملا فاضلا ، فيخبره بعد طول المؤانسة أنه إنما يعرف صدق مودته ، إذا أصدقه عن عيوبه حتى يتجنبها ، ويأخذ عهده على ذلك ، ولا يرضى منه إذا قال له : لاأعرف لك عيباً ، بل ينكر عليه ، ويعلمه أنه قد اتهمه بالخيانة . ويعاود مسألته والإلحاح عليه . فإذا لم يخبره بشىء من عيوبه زاد فى العتب الصريح والإلحاح قليلا ، فإذا أخبره ببعض مايعثر عليه منه فلا يظهر له فى وجهه استنكارا ولا انقباضاً ، بل يبسط له وجهه ، ويظهر السرور بما أخرجه إليه ، ونبهه عليه ، ويشكره على الأيام وفى أوقات المؤانسة ؛ ليسهل عليه إهداء مثله إليه ، ثم يعالج ذلك العيب بما يزيل أثره ويمحو ظله ؛ ليعلم ذلك المهدى إليك عيبك أنك من وراء نفسك وفى طريق علاج مرضك ، فلا ينقطع عن معاودتك ونصيحتك .

وهذا الذى أشار به جالينوس معوز غير موجود ولامطموع فيه ، ولعل العدو فى هذا الموضع أنفع من الصديق ؛ فإن العدو لايحتشمنا فى إظهار عيوبنا ، بل يتجاوز مايعرف منا إلى التخرص والكذب فيها ، فلنتنبه إلى كثير من عيوبنا من جهتهم ، بل نتجاوز ذلك إلى أن نتهم نفوسنا بما ليس فيها . ولجالينوس أيضاً : (إن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم .) قال الشاعر :

عداى لهم فضل علىّ ومنة ... فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا

همو بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

قال أبو يوسف بن اسحق الكندي: «ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه أن يتخذ جميع معارفه من الناس مرآة له تريه صور كل واحد منهم عند ماتعرض له آلام الشهوات التي تثمر السيئات حتى لايغيب عنه شيء من سيئاته. وبذلك يكون متفقدا سيئاتهم، فمتى رأى سيئة بدية من أحدهم ذم نفسه عليها كأنه فعلها وأكثر عتبه على نفسه من أجلها، ويعرض عليها كل يوم وليلة جميع أفعاله، حتى لايشذ عنه شيء منها.

فإذا وقفنا على سيئة من أفعالنا اشتد عذلنا لأنفسنا عليها، ثم لنقم عليها حدا نفرضه ولا نضيعه. وإذا تصفحنا أفعال غيرنا ووجدنا فيها سيئة عاتبنا أيضاً نفوسنا عليها؛ فإن نفوسنا ترتدع حينئذ عن المساوى وتألف الحسنات، وتكون المساوى أيضا ببالنا لاننساها ولا يأتى عليها زمن طويل، فيعفو ذكرها، ولذلك ينبغي أن نعمل فى الحسنات لنفرغ لها، ولا يفوتنا منها شيء. قال وينبغي ألا ننقطع بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب التي تفيد غيرها معانى الحكمة ولا تتصف بها، أو كالمسن يشحذ ولا يقطع، بل نكون كالشمس التي تفيد القمر كلما أشرقت عليه إنارة من ذاتها فتكسبه تماما، حتى يكون له شبهها، وإن قصر عن نورها. فهكذا ينبغي أن يكون حالنا إذا أفدنا غيرنا الفضائل.

قيمة حفظ الصحة النفسية

حافظ صحة نفسه إنما يحفظ عليها نعما شريفة جليلة موهوبة لها وكنوزا عظيمة مدخرة فيها، وحللا فاخرة مفرغة عليها. ومن كانت هذه المواهب الجليلة موجودة له فى ذاته لايحتاج إلى تطلبها من خارجها ولا إلى بذل الأموال فيها لغيره، ولا يكلف العناء والمؤن الثقال لتحصيلها، ثم مع ذلك أعرض عنها، وأهمل أمرها، حتى انسلخ عنها وعرى منها ـ من كان كذلك فهو ملوم فى فعله، مغبون فى رأيه، غير رشيد ولا موفق؛ إذ هو يرى طالبي النعم

الخارجة يتجشمون الأسفار البعيدة الخطرة، ويقطعون السبل المخوفة الوعرة، ويتعرضون لضروب المكاره وأنواع التلف من السباع العادية، وطبقات الأشرار الباغية، وهم يخيبون فى أكثر الأحوال مع مقاساة هذه الأهوال، وربما عرضت لهم الندامة المفرطة، والحسرة المعطبة التى تقطع أنفاسهم، وتفصل أعضاءهم. فإن ظفروا بشىء من مطالبهم كان لا محالة زائلا عن قرب، أو معرضا للزوال، وغير مطموع فى بقائه؛ لأنه من خارج النفس، وما كان خارجا عنها فهو غير ممتنع عما يطرقه من الحوادث التى لا تحصى كثرة، وصاحبه مع هذه الحال شديد الوجل، دائم الإشفاق، مُتعب الجسم والنفس بحفظ ما لا يجد إلى حفظه سبيلا، والحذرِ على ما لا يغنى فيه الحذر فتيلا. وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة عن النفس سلطانا أو صاحب سلطان - تضاعفت عليه المكاره أضعافا كثيرة بقدر ما يلابسه وبحسب ما يقاسيه من الأضداد والحساد على البعد ومن القرب، وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن فى استصلاح من يليه ويلى من يليه، وفى مداراة من يواليه ويعاديه. وهو فى كل ذلك ملوم مستبطَأ، ومعتَب مستقصَر، ويستزيده جميع أهله والمتصلين به، ولا سبيل له إلى إرضاء واحد منهم بله جميعهم، ولا يزال يبلغه عن أخص الناس به من أولاده وحرمه ومن يجرى مجراهم: من حاشيته وخوله - ما يملؤه غيظا وحنقا، وهو غير آمن على نفسه من جهتهم مع التحاسد الذى بينهم من مكاتبة الأعداء إياهم ومواطأة الحساد لهم. وكلما ازداد من الأعوان والأعضاء والأنصار زادوه فى شغل القلب، وجلبوا إليه من المكاره ما لم يكن عنده فهو غنى عن الناس، وهو أشدهم فقرا، ومحسود وهو أكثرهم حسدا. وكيف لا يكون فقيرا وحد الفقر: هو كثرة الحاجة. فأكثر الناس حاجة أشدهم فقرا، كما أن أغنى الناس أقلهم حاجة:

فالله تعالى أغنى الأغنياء؛ لأنه لا حاجة له إلى شىء من الأشياء، والملوك منا أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم إلى الأشياء. ولقد صدق أبو بكر الصديق

فى خطبته حيث قال : « أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك » ثم وصفهم فقال : « إن الملك اذا ملك زهـده الله فيما فى يده ، ورغبه فيما فى يد غـيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط بالكثير ، ويسأم الرخاء ، ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم الغش والسراب الخادع ، جلد الظاهر ، حزين الباطن . فإذا وجبت نفسه ، ونضب عمره ، ومحى ظله - حاسبه الله فأشد حسابه ، وأقل عفوه . ألا إن الملوك هم المرحومون »

ولعل من يرى ظاهر الملوك من الأسرة والفرش والزينة والأثاث ، ويشاهدهم فى مواكبهم محفوفين محشودين ، بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم ، والحجاب والحشم - يروعه ذلك ، فيظن أنهم مسرورون بما يراه لهم . لا ، والذى خلقهم وكفانا شغلهم ، إنهم لفى هـذه الأحوال ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالأفكار التى تعتورهم فيما قلناه من ضروراتهم . ولعل بعض من يصل إلى الملك أو السلطان يلتذ فى المبدأ مدة يسيرة جدا بمقدار ما يتمكن منه وتنفتح عينه فيه ، وبعد ذلك يصير جميع ماملكه كالشىء الطبعى له ، لا يلتـذ به ، ولا يفكر فيه ، ويمد عينه إلى مالا يملكه . فلو ملك الدنيا بحذافيرها لتمنى دنيا أخرى ، أو نزقت همته إلى البقاء الأبدى ، والملك الحقيقى : ذلك أن حفظ الدنيا صعب جداً لما فى طبيعتها من الإخلال والتلاشى ، ولما يضطر الملك إليه من الأمور التى وصفناها ، والأموال الجمة المصروفة إلى الجند المرتبطين ، والخدم المسوّمين ، والذخائر والكنوز المعدة للآفات ، والحوادث التى لا يؤمن طروقها .

فهذه حال طلاب النعم الخارجة عنا ، وأما تلك النعم التى هى فى ذواتنا فإنها موجودة عندنا وفينا وهى غير مفارقة لنا ؛ لأنها موهبة الخالق - جل وعلا - وقد أمرنا باستثمارها والترقى فيها . فإذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعما بعد نعم ودرجة بعد درجة ، حتى تؤدينا إلى النعم الأبدية التى هى الملك

الحقيقى الذى لا يزول ، والغبطة الدائمة الصافية التى لا تحول . فمن أخسر صفقة وأظهر سقطة ممن أضاع جواهر نفيسة باقية عنده موجودة له ، وطلب أعراضاً خسيسة فانية ليست عنده ، ولا موجودة له : فإن اتفق أن يجدها لا تبقى له ، ولا تترك عليه : وذلك أنها تُنقل عنه ، أو يُنقل عنها لا محالة .

لذلك يطلب ممن رزق الكفاية ، ووجد القصد من السعادة الخارجة ـ ألا يشتغل بفضول العيش ؛ فإنها بلا نهاية ، ومن طلبها أوقعته فى مهالك لا نهاية لها .

علاج النفس

علاج النفس رد الصحة إليها إذا لم تكن حاضرة : وذلك بمداواة أمراضها الغالبة ، وهى مقابلات الفضائل الأربع : الشجاعة ، والعفة ، والحكمة ، والعدالة .

ولما كانت الفضائل أوساطا محمودة ، وأعيانا موجودة أمكن أن تطلب وتقصد وتنتهى إليها الحركة والسعى والاجتهاد . وأما سائر النقط التى ليست بأوساط فإنها غير محدودة ، ولا أعيانها موجودة ، ووجودها بالعرض لا بالذات . فلكل فضيلة طرفان محدودان يمكن الإشارة إليهما ، وأوساط بينهما كثيرة لا نهاية لها ، ولا يمكن الإشارة إليها ، إلا أن الوسط الحقيق واحد ، وهو الذى سميناه فضيلة ، وبحسب هذا البيان تكون أجناس الشرور والرذائل ثمانية ؛ لأنها ضعف الفضائل الأربع ، وهى هذه :

التهور والجبن طرفان للوسط الذى هو الشجاعة ، والشره والخمود طرفان للوسط الذى هو العفة ، والسفه والبله طرفان للوسط الذى هو الحكمة ، والجور والمهانة طرفان للوسط الذى هو العدالة . فهذه أجناس الأمراض المقابلة للفضائل التى هى صحة ، وتحت هذه الأجناس أنواع لا نهاية لها . ونذكر بعون الله تعالى هذه الأجناس مع بيان أسبابها ووسائل علاجها

مبتدءين بذكر التهور والجبن اللذين هما طرفا الشجاعة :

التهور والجبن

الشجاعة فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية ، وهى مع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع فى إقدامها وإحجامها ، فهى وسط بين رذيلتيها المطيفتين بها : وهما التهور والجبن :

فالتهور لطرف الزيادة عن الاعتدال ، وهى الحالة التى بها يقدم الإنسان على الأمور المحظورة التى يجب فى العقل الإحجام عنها .

سبب التهور : وسبب التهور الغضب : وهو حركة للنفس يُحدث بها غليان دم القلب شهوةً للانتقام . وسيأتى إن شاء الله إسهاب القول فى الغضب وأسبابه وعلاجه

علاج التهور :

علاجه أن يشعر المرء نفسه بعواقب الأمور ، وبِعِظَمِ أخطارها . ويتكلف الإحجام إلى الاعتدال ، أو مايقرب منه ؛ فإن التزام حد الاعتدال شديد ، ولو تم ذلك لتخلصت النفس من شوائب البدن وأكداره فلا تتعذّب أصلا بالتأسف على ما يفوتها منه ، ولا يتكدر عليها ابتهاجها بما يتجلى لها من جمال الحق وجلاله ، ومن استقام على الصراط فى الدنيا استقام على الصراط فى الآخرة ؛ إذ يموت المرء على ماعاش عليه ، ويحشر على مامات عليه . ولذلك وجب فى كل ركعة من الصلاة قراءة الفاتحة المشتملة على قوله : « اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

والجبن لطرف النقصان عن الاعتدال ، وهى حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب ، فتصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام .

سبب الجبن : لما كانت الأضداد يعرف بعضها ببعض ، وقد عرفنا الطرف الذى حددناه بحركة للنفس عنيفة يُحدث منها غليان دم القلب شهوةً

للانتقام – فقد عرفنا إذن مقابله : أعنى الطرف الآخر الذى هو سكون للنفس عند مايجب أن تتحرك فيه ، وبطلان شهوة الانتقام : فإذا كان الغضب هو مبعث التهور فالطرف المقابل له سبب الجبن والخور .

ويتبعهما إهانة النفس وسوء العيش ، وطمع طبقات الأنذال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين وقلة الثبات والصبر فى المواطن التى يجب فيها ذلك وهما أيضا سبب الكسل ومحبة الراحة اللذين هما سبب كل رذيلة .

ومن لواحق هذه الخلة الاستخذاء لكل أحد والرضا بكل رذيلة وضيم ، والدخول تحت كل فضيحة فى الأهل والنفس والمال ، وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف ، واحتمال كل ظلم من كل معامل ، وقلة الأنفة مما يأنف منه الناس .

علاج الجبن :

تعالج الأسباب السابقة ولواحقها بأضدادها : وذلك بأن توقظ النفس التى تمرض هذا المرض بالتحريك ؛ فإن الإنسان لا يخلو من القوة الغضبية رأساً حتى تجلب إليه من مكان آخر ، ولكنها تكون ناقصة عن الواجب ، فهى بمنزلة النار الخامدة التى فيها بقية لقبول الترويح والنفخ ، فهى تتحرك لامحالة إذا حركت بما يلائمها ، وتبعث مافى طبيعتها من التوقد والتلهب : فمن كان فى طبعه ميل إلى النقصان الذى هو الجبن فليتعاط أفعال الشجعان متكلفا مواظبا عليها ، حتى يصير له الاعتياد طبعا .

وقد حكى عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف ، فيقف فيها ، ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرض لها ، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه ؛ ليعود نفسه الثبات فى المخاوف ، ويحرك منها القوة التى تسكن عند الحاجة إلى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه . ولا يُكرَهُ لصاحب هذا المرض بعضُ المراء ، والتعرض للملاحاة ، وخصومة من يأمن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التى هى وسط بين الرذيلتين : أعنى

الشجاعة التى هى صحة النفس المطلوبة. فإذا وجدها وأحس بها من نفسه كف ووقف ، ولم يتجاوزها حذراً من الوقوع فى التهور الذى تقدم سببه وعلاجه.

مايندرج تحت التهور والجبن

يندرج تحتهما البذخ والبذالة والجسارة والنكول والتبجح وصغر النفس والهلع والاستشاطة والانفراك والتكبر والتخاس ، والعجب والمهانة.

فما يميل منها إلى جانب الزيادة فهو تحت التهور ، وسببه سبب التهور ، وعلاجه علاجه .. ومايميل إلى جانب النقصان فهو تحت الجبن ، وسببه سبب الجبن ، وعلاج الجبن علاج له :

فأما البذخ فهو الإنفاق فيما لايجب من الزينة وغيرها طلبا للصلف.

وأما البذالة فهى الدناءة وترك الإنفاق فيمايجب والافتخار بالأشياء الصغار.

وأما الجسارة فالاستهانة بالموت حيث لاتجب الاستهانة ، أو هى قلة التأثر بأسباب الهلاك من غير أثر جميل تقتضيه. وأما النكول فهو الانقباض فيما لايجب عنه الانقباض خوفا من الهلاك. وأما الهلع فهو سوء احتمال الآلام والمؤذيات.

وأما التبجح فهو تأهيل النفس للأمور الكبار من غير استحقاق. وأما صغر النفس فهو تأهيل النفس لما دون الاستحقاق.

وأما الاستشاطة فسرعة الغضب وحدته. وأما الانفراك فبطء الغضب وبلادته

وأما التكبر فهو رفع النفس فوق قدرها. وأما التخاس خط النفس فى الكرامة والتوقير دون قدرها. فإن كان على الوجه الواجب سمى تواضعا محمودا. وذم الناس للتكبر والبخل أشد من ذمهم للتخاس والتبذير ؛ فإن الأولين فى غاية القبح. والآخرين وإن كانا مذمومين ـ شبيهان بالسخاء والتواضع ، وربما يدق الفرق بينهما ، فيظن أنهما محمودان ، وهما رذيلتان

بالحقيقة مائلتان عن الوسط ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ »

الغضب

إن القوة الغضبية هى مبعث التهور والجبن ومبدؤهما ، فالثلاثة بأسرها من علائق الغضب . والغضب فى الحقيقة هو - كما تقدم - حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوةً للانتقام . فإذا كانت هذه الحركة عنيفة أجّجت نار الغضب وضرمتها ، فاحتد غليان دم القلب ، وامتلأت الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، ويصير مثل الإنسان عند ذلك على ماحكته الحكماء مَثَل كهف مليء حريقا وأضرم ناراً ، فتَجَمَّع فيه اللهيب والدخان ، وعلا التأجج فصعب علاجه ، وتعذر إطفاؤه ، وصار كل مايدنى منه للإطفاء سببا لزيادته ومادة لقوته . كذلك يعمى الإنسان عن الرشد ، ويصم عن الموعظة ، بل تصير المواعظ فى تلك الحال سببا للزيادة فى الغضب ، ومادة اللهب والتأجج ، وليس له فى تلك الحال حيلة .

وقال بعض الحكماء : إنى للسفينة إذا عصفت الرياح ، وقذفت بها إلى موج كالجبال - أرجى منى للغضبان الملتهب : ذلك بأن السفينة فى تلك الحال يلطف لها الملاحون ، ويخلصونها بضروب الحيل . واما النفس إذا استشاطت غضباً فليس يرجى لها حيلة البتة : وذلك أن كل مارجى به الغضب من التضرع والمواعظ والخضوع يصير له بمنزلة الجزل من الحطب : يوهجه ويزيده اشتعالا .

اختلاف الناس فى الغضب :

يتفاوت الناس فى ذلك بحسب المزاج : فإن كان المزاج حديدا كان قريب الحال من حال الكبريت الذى إذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب ، وإن كان المزاج بالضد فحاله كذلك بالضد . وهذا فى مبدأ أمره . فأما إذا احتدم فيكاد حال الناس يتقارب فيه .

وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب، ومبدأ اشتعال النار بسرعة وشدة من الكبريت والنفط، ثم انحدر منهما إلى الأدهان المتوسطة، إلى أن تنتهى إلى الاحتكاك: فإن الاحتكاك وإن كان ضعيفا فى توليد النار ربما قوى حتى تلتهب منه الأجمة العظيمة. وكفاك مثل السحاب الذى هو من البخار: كيف تحتك السحابتان حتى تنقدح بينهما النيران، وتنزل منهما الصواعق التى لا يثبت إثرها شىء من المواد، ولا تفارق ما تمر به حتى يصير رميماً، وإن كان جبلا أطلس، أو حجراً أصم أملس.

قال الغزالى: «والناس فى الغضب يختلفون: فبعضهم سريع التوقد سريع الخمود، وبعضهم بطىء التوقد بطىء الخمود، وبعضهم بطىء التوقد سريع الخمود، وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة» ومقتضى القسمة العقلية أن يكون هناك قسم رابع: سريع التوقد بطىء الخمود. ولو وجد لكان الأكثر ذماً، والأوخم عاقبة.

مراتب أفعال الغضب:

تنقسم أفعال الغضب إلى محمود، ومكروه، ومحظور:

أما المحمود ففى موضعين: أحدهما: المسمى غيرة: وهو أن يُقصد حريم الرجل، ويتعرض لمحارمه. فالغضب له؛ لدفعه محمود، وقلة التأثر به مذمة ومعرة. ولذلك قال عليه السلام: (إنَّ سَعْدًا لَغَيُورٌ وَإنَّ اللهَ أغْيَرُ مِنْهُ) وقد وضع الله الغيرة فى الرجال لحفظ الأنساب؛ فإن النفوس لو فقدتها لاختلطت الأنساب. ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها.

والثانى: الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش؛ غيرة على الدين وطلبا للانتقام. ولذلك مدح النبى عليه السلام والذين معه بكونهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم. وقال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ أُمَّتِى أحِدَّاؤُهَا»

فالمراد به الحدة للدين ، ولذلك قال تعالى : (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ)

ومع هذا ، فالسلطان إذا غضب عند جناية جان ، ينبغى أن يحبسه ، ولا يبادر إلى عقوبته ، حتى يجدد النظر فيه ؛ فإن الغضب غول العقل ، فربما يحمله على مجاوزة حد الواجب فى الانتقام .

وأما المكروه : فغضبه عند فوات حظوظه المباح نيلها : كغضبه على خادمه ، وعبده عند كسر آنيته ، أو توانيه فى خدمته بحكم تغافل يمكن الاحتراز عنه . فهذا لا ينتهى إلى حد المحظور ، ولكن العفو والتجاوز أولى وأحب . قيل لحكيم : لا تصفح عن عبدك ، وهو يقصر فى خدمتك ، فيفسد باحتمالك ، فقال : « لأن يفسد عبدى فى صلاح نفسى خير من أن تفسد نفسى فى صلاح عبدى »

وأما المحظور : فهو الاستشاطة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهاة والمنافسة والحقد والحسد ، وعن أمور واهية تتعلق بالحظوظ البدنية من غير أن يكون فى الانتقام مصلحة فى المستقبل دينا ودنيا . وهو الغالب على أكثر الخلق ، وهو انقياد للخلق الذى يضاد الحلم والتحلم ؛ فإن الحلم عبارة عن إمساك النفس عن هيجان الغضب ، والتحلم عبارة عن إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج . والكمال فى الحلم ، ولكن التحلم صبر على المكروه ، وفيه أيضاً خير كثير .

أسباب الغضب صنفان : صنف تطبع النفس به ، وآخر يبعثه منها والأول مرده أمران : المزاج والاعتياد .

أما المزاج : فإن الغضب - كما تقدم - غليان دم القلب : فإن كان على مَن فوقك فى القدرة على الانتقام تولد منه انقباض من ظاهر الجلد إلى القلب ، وكان حزنا ، ولأجله يصفر الوجه . وإن كان على من دونك تولد منه ثوران دم

القلب لانقباضه ، فيكون منه الغضب الحقيقى وطلب الانتقام . وإن كان على نظيرك فى القدرة على الانتقام تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط ، ويختلف به لون الوجه ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

وأما الاعتياد : فإن من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطباع السبعية انطبع ذلك فيه . وإن من خالط أهل الهدوء والوقار أثرت العادة أيضا فيه .

وأما الصنف الثانى فيرجع إلى العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور التى فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ويتحاسدون عليها . وشهوة الانتقام غاية لجميعها ، ونهاية لها .

لواحق الغضب :

ومن لواحق الغضب : الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا أو آجلا وتغير المزاج وتعجل الألم : ذلك بأن الغضب جنون ساعة ، وربما أدى إلى التلف باختناق حرارة القلب فيه ، وربما كان سببا لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف ، ثم من لواحقه : مقت الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، واستهزاء الحساد والأراذل من الناس

حسم أسباب الغضب :

ولكل واحد من أسباب الغضب علاج يبدأ به ، حتى يقلع من أصله ، وإذا ما تقدمنا لحسم هذه الأسباب فقد أوهنا قوة الغضب ، وقطعنا مادتها وأمنا غائلتها . فإن عرض لنا عارض ـ لا يمنعنا أن نطيع العقل ونلتزم شرائطه ، ونتحلى بفضيلته : وهى الشجاعة ـ يكن إقدامنا على ما نقدم عليه كما يجب ، وبحيث يجب ، وبالمقدار الذى يجب ، وعلى من يجب .

وإليك القول مفصلا فى حسم الأسباب المفضية إليه واحداً بعد الآخر :

العجب والافتخار

« ١ » فالعجب : ظن كاذب بالنفس باستحقاق مرتبة هى غير مستحقة لها . وحقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التى تعتورها ؛

فإن الفضل مقسوم بين البشر ، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره ، وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه .

« ب » والافتخار : هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا . ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه ، وكيف يملك ماهو معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة ، ولسنا على ثقة منه في وقت من الأوقات؟ وأصح الأمثال وأصدقها فيه ماقاله الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) إلى قوله : (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) وقال تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) وفي القرآن من هذه الأمثال شيء كثير ، وكذلك في الأخبار المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام

وأما المفتخر بنسبه : فأكثر مايدعيه - إذا كان صادقاً - أن أباه كان فاضلا ، فلو حضر ذلك الفاضل ، وقال : إن الفضل الذي تدعيه لي أنا مستبد به دونك فما الذي عندك منه مما ليس عند غيرك ؟ - لو حضر وقال له ذلك لأفحمه وأسكته . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة منها أنه قال : « لاَ تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ وَائْتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ » أو ماهذا معناه . ويحكى عن مملوك كان لبعض الفلاسفة أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه ، فقال له : « إن افتخرت عليَّ بفرسك ، فالحسن والفراهة للفرس لا لك ، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالحسن لها دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم لا فيك ، فإذا كانت الفضائل والمحاسن خارجة عنك ، وأنت منسلخ عنها ، وقد رددناها على أصحابها ، بل لم تخرج عنهم ، فترد عليهم - فكيف تسنى لك أن تفتخر بها ؟ . .

المراء واللجاج

المراء : الطعن فى القول تزييفا له وتصغيراً لقائله ، واللجاج : تماحك الخصمين وتماديهما .

ومن هذا كان واجبا أن نحذَرَهما مع كل أحد وبخاصة الصديق ؛ فإن مماراته تقتلع المودة من أصلها ؛ لأنها سبب الاختلاف ، والاختلاف سبب التباين وقطع الألفة التى دعت إليها الشريعة القويمة . ومن الناس من يؤثر المراء ، ويزعم أنه يقدح خاطره ، ويشحذ ذهنه ، ويزيل شكوكه ، فهو يتعمد فى المحافل التى تجمع رؤساء أهل النظر ومتعاطى العلوم مماراة صديقه ، ويخرج فى كلامه معه إلى ألفاظ الجهال من العامة وسقاطهم ؛ ليزيد فى خجل صديقه ، وليظهر انقطاع حجته . وليس يفعل ذلك عند خلوته به ومذاكرته له ، وإنما يفعله حين يُظنّ به أنه أدق نظرا ، وأحضر حجة ، وأغزر علما وأحد قريحة .

فما أشبه هذا بأهل البغى ، وجبابرة أصحاب الأموال ، والمشبهين بهم من أهل البدع ؛ فإن هؤلاء يحتقر بعضهم بعضا ، ولا يزال يغض من صاحبه ويزدرى مروءته ، ويتطلب عيوبه ، ويتتبع عثراته ، ويبالغ فى إساءته ، حتى يؤدى بهم الحال إلى العداوة التامة التى تصحبها السعاية وإزالة النعم ، وقد تجاوز ذلك إلى سفك الدم وأنواع الشرور . فالمراء واللجاج لاتثبت معهما محبة ، ولاترجى بهما ألفة ، ولايولدان إلا الشتات والفرقة والتباغض بين الإخوان .

المزاح والتيه والاستهزاء

المزاح : هو الدعابة ومايستملح من الكلام . والمعتدل منه محمود ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولايقول إلا حقا . والوقوف على المقدار المعتدل منه صعب ، وأكثر الناس يبتدىء ولا يدرى أين يقف

منه ؟ فيخرج عن حده ، ويروم الزيادة فيه على صاحبه ، حتى يصير سببا للوحشة ، فيثير غضبا كامنا ، ويزرع حقدا باقيا . فلذلك عددناه فى الأسباب ، فينبغى أن يحذره من لا يعرف حده ، ويذكر قول القائل : « وبعض الحرب أوله مزاح » فقد يهيج فتنة لا يهتدى لعلاجها ، ويشعر نارا يصلاها الأبرياء ، ولا تطفأ إلا بإراقة الدماء .

التيه : هو قريب من العجب ، والفرق بينهما : أن المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها ، والتياه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه ، إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه : وذلك بأن يعرف أن ما يتيه به لا مقدار له عند العقلاء ، وأنهم لا يعتدون به لخساسة قدره ونزارة حظه من السعادة ، ولأنه متغير زائل غير موثوق ببقائه ، ولأن المال والأثاث وسائر الأعراض - قد توجد عند كل صنف من الناس الأراذل والأشراف والعلماء والجهال . وأما الحكمة فلا توجد إلا عند الحكماء خاصة .

الاستهزاء : هو السخرية من الناس . ويستعمله المجُان ، ومن لا يبالى بما يقابل به ؛ لأنه قد وضع فى نفسه احتمال مثل ذلك وأضعافه ، فهو ضاحك قرير العين بضروب الاستخفاف التى تلحقه ، وإنما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار ، بل إنما يتعرض بقليل ما يبتدىء به لكثير ما يعامل به - ليضحك غيره ، وينال اليسير من بره .

والحر الفاضل بعيد من هذا المقام جدا ؛ لأنه يكرم نفسه وعرضه ، ويصونهما عن تعريضهما للسفهاء ، ويبيعهما بجميع خزائن الملوك ، فضلا عن الحقير التافه .

الغدر والضيم

الغدر : هو نقض العهد ، وترك الوفاء بالوعد . ووجوهه كثيرة : فقد يستعمل فى المال ، وفى الجاه ، وفى الحرم ، وفى المودة . وهو على كثرة وجوهه

مذموم بكل لسان ، ومعيب عند كل أحد ، ينفر السماع من ذكره ، ولا يعترف به إنسان ، وإن قل حظه من الإنسانية ، ولا يوجد إلا فيمن فسدت طباعهم وأسفت أخلاقهم ، فيتوقاهم الناس ، ويأنفون منهم ، ومن عرف قبح الغدر باسمه ، ونفور العقلاء منه ، ثم عرف معناه - فلا يستعمله ، وبالأخص من جادت طبيعته ، وسمت خليقته ، وطابت أعراقه .

والضيم : هو تكليف احتمال الظلم والغضب ، وربما يعرض منه شهوة الانتقام . وينبغي ألا نسرع إلى الانتقام عند ضيم يلحقنا ، بل ننظر فيه ونحذر ، حتى لا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم . وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل ، وهو الحلم بعينه .

المقتنيات النفسية

الخلط بين الغضب والشجاعة

يسمى بعض الناس الغضب فى غير موضعه رجولة وشدة شكيمة ، ويذهبون به مذهب الشجاعة التى هى فى الحقيقة اسم للمدح ، وشتان ما بين المذهبين : فإن صاحب هذا الخلق الذى ذممناه تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة يجور فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه حتى ينتهى إلى خدمه وحرمه ، فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقيلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة ، وإن كانوا برءاء من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سوءا ، بل يتجرم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا إليهم حتى يبسط لسانه ويده . وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ، ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافا لشره وتسكينا لغضبه ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته ، لا يكف يدا ولا لسانا ، وربما تجاوز فى هذه المعاملة الناس إلى البهائم التى لا تعقل وإلى الأوانى التى لا تحس : فإن صاحب هذا الخلق الردىء ربما قام إلى الحيوان أو الطائر ، فيتناوله بالضرر والمكروه ، وربما عض القفل إذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التى لا يجد

فيها طاعة لأمره . فهذا النوع من رداءة الخلق مشهور فى كثير من الجهال ، يستعملونه فى الثوب والزجاج والحديد وسائر الآلات .

وهذه الافعال كلها قبيحة ، وبعضها مع قبحه مضحك يزرى بصاحبه . فكيف يمدح بالرجولة والشدة وشرف النفس وعزتها ، وهى بالمذمة أولى منها بالمديح ؟ وأى حظ لها فى العزة والشدة ، وهى فى المرضى أقوى منها فى الأصحاء ، والصبيان أسرع غضباً وضجراً من الرجال ، والشيوخ أكثر من الشبان ؟ ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره : فإن الشره إذا تعذر عليه ما يشتهيه غضب وضجر على من يهيء طعامه وشرابه من نسائه وأولاده وخدمه وسائر من يلابس أمره ، والبخيل إذا فقد شيئاً من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه ، وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه .

وهؤلاء الطبقات لا يحصلون من أخلاقهم إلا على فقد الصديق وعدم النصح وعلى الذم السريع واللوم الوجيع . وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها أبداً محزون كئيب متنغص بعيشه متبرم بأموره ، وهى حال الشقى المحروم . تلك خصال الشجاع الزيف .

الشجاع الحق :

أما الشجاع العزيز النفس فهو الذى يقهر بحلمه غضبه ، ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم ، ولا يستفزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه ، بل يتروى وينظر كيف ينتقم ، وممن ينتقم ، وعلى أى قدر يكون انتقامه وكيف يصفح ويغضى ، وعمن ، وفى أى ذنب ؟

حكى عن الإسكندر أنه نمى إليه عن بعض أصحابه أنه يعيبه وينتقصه ، فقال له بعض أصحابه : لو أدبته أيها الملك بعقوبة تنهكه بها فقال له : ليس من الحكمة نهكه بالعقوبة ؛ لأنه حينئذ أبسط لساناً ، وأعذر عند الناس . وأتى يوماً ببعض أعدائه من المتغلبين الخارجين عليه ، وكان قد عاث فى أطراف بلاده عيثاً كثيراً ، فصفح عنه ، فقال له بعض جلسائه : «لو كنت

أنا أنت لقتلته » فقال له الإسكندر: « ولكن لم أكن أنا أنت فلست بقاتله »

هذه هى معظم أسباب الغضب مقروناً بها علاجها ، والغضب أعظم أمراض النفس ،وإذا تقدم الإنسان فى حسم سببه لم يخش تمكنه منه ، وكان ما يعرض له سهل العلاج ، قريب الزوال ، لا مادة له تلهبه وتمده ، ولا سبب يسعره ويوقده ، وتجد الروية موضعاً لإجالة النظر والفكر فى فضيلة الحلم واستعمال المكافأة إن كان صواباً ، أو التغافل إن كان حزما .

أسباب الخوف وعلاجه

لما كان الخوف الشديد فى غير موضعه من أمراض النفس ، وكان متصلا بالقوة الغضبية ـ وجب أن نذكره ، ونذكر أسبابه وعلاجه فنقول :

إن الخوف يعرض من توقع مكروه ، وانتظار محذور ، والتوقع والانتظار إنما يكونان للحوادث فى الزمان المستقبل ، وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة ، وربما كانت يسيرة ، وربما كانت محتومة ، وربما كانت ممكنة .

والأمور الممكنه : قد نكون أسبابها ، وقد يكون غيرنا سببها :

ا ـ أما الأمور الممكنة : فهى بالإجمال مترددة بين أن تكون ، وبين ألا تكون ، ويجب ألا نقطع بأنها تكون ، فنستشعر الخوف منها ، ونتعجل مكروه التألم بها ، ولعلها لا تقع ، وقد أحسن الشاعر فى قوله :

وقل للفؤاد إن نزا بك نزوة : من الروع أفرخ ؛ أكثر الروع باطله

وما كان كذلك فالخوف من مكروهه يجب أن يكون على قدر حدوثه ، وإنما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظن الجميل ، والأمل القوى ، وترك الفكر فى كل ما يمكن ألا يقع من المكاره . هذا ما كان سببه غيرنا . وأما ما كان سببه سوء اختيارنا وجنايتنا على أنفسنا فينبغى أن نحترز منه بترك الذنوب والجنايات التى نخاف عواقبها ، ولا نقدم على أمر لا تؤمن غائلته ؛

فإن هذا فِعلُ من نسى أن الممكن هو الذى يجوز أن يكون ، ويجوز ألا يكون : ذلك بأنه إذا أتى ذنباً أو جنى جناية قدَّر فى نفسه أن عمله يخفى ولا يظهر ، أو لا يخفى ويظهر ، إلا أنه يتجاوز عنه ، أو لا تكون له غائلة . وكأنه - كصاحب القسم الأول - يجعل طبيعة الممكن واجباً ، إلا أن هذا يأمن الجانب المحذور خاصة .

وجلى أن الممكن وسط طرفاه الواجب والممتنع ، فإذا صار مستقبله ماضياً بطل اسم الممكن عنه ، وكان : إما فى جانب الواجب ، وإما فى جانب الممتنع . ولا يصح مادام ممكناً أن يحسب من جانب هذا أو من جانب ذاك ، بل تعتقد فيه طبيعته الخاصة به ، وأنه يمكن أن يصير إلى أحد الجانبين ، ولذلك يقال : وجوه الأمور الممكنة فى أعقابها .

ب — وأما الأمور المحتومة - كالهرم وتوابعه - فعلاج الخوف منه أن نعلم أن الإنسان إذا أحب طول الحياة فقد أحب لامحالة الهرم ، واستشعره استشعار مالا بد منه . ومع الهرم يحدث نقصان الحرارة الغرزية والرطوبة الأصلية التابعة لها ، وغلبة ضديهما من البرد واليبس ، وضعف الأعضاء الأصلية كلها . ويتبع ذلك قلة الحركة وبطلان النشاط ، وضعف آلات الهضم ، وسقوط آلات الطحن ، ونقصان القوى المدبرة للحياة . وليست الأمراض والآلام شيئاً غير هذا ، ثم يتبع ذلك موت الأحباء وفقد الأعزاء ، والمستشعر لهذه الأشياء الملتزم لشرائطها فى مبدأ كونه لايخاف منها ، بل ينتظرها ويتوقعها

هذه جملة الكلام على الخوف المطلق . ولما كان أعظم مايلحق الإنسان هو خوف الموت ، وكان هذا الخوف عاماً ، وهو مع عمومه أشد وأبلغ من جميع المخاوف - وجب أن نبسط القول بعض البسط فى ذكر أسبابه وعلاجه :

أسباب الخوف من الموت وعلاجه

نذكر هنا أسباب الخوف من الموت مع العلاج الناجع لكل سبب . وأشهر هذه الأسباب ستة :

١ - عدم معرفة حقيقة الموت :

ليس الموت بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها ، وهى الاعضاء التى يسمى مجموعها بدنا ، كما يترك الصانع استعمال آلاته . والنفس جوهر ليس بجسم ولا عرض ولا قابل للفساد ، وهذا الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له كل المباينة بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره . فإذا فارق البدن بقى البقاء الذى يخصه ، وتخلص من علائق الطبيعة ، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه ؛ فإن الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ، ولا تبطل ذاته ، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التى بينه وبين الأجسام بأضدادها ، فأما الجوهر فلا ضد له ، وكل شيء فإنما فساده من ضده .

وإن تأملنا الجوهر الجسمانى الذى هو أخس من ذلك الجوهر الكريم ، واستقرينا حاله - وجدناه غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر ، وإنما يستحيل من حالة إلى أخرى ، وتستحيل خواصه وأعراضه التى كانت له فى الحالة الأولى إلى خواص وأعراض تناسب الحالة الأخرى . فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلى عدمه وبطلانه .

مثال ذلك : الماء : فإنه يستحيل بخاراً وهواء ، وكذلك الهواء يستحيل ماء وناراً ، فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه ، وأما هو فلا سبيل إلى عدمه .

هذا فى الجوهر الجسمانى القابل للاستحالة والتغير ، وأما الجوهر الروحانى الذى لا يقبل الاستحالة ولا التغير فى ذاته وإنما يقبل كماله وتمام صوره ، فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشى ؟

٢ - جهل المصير أو جهل بقاء النفس :

من يخاف الموت لأنه لايعلم إلى أين يصير بعده ، وجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد - فليس فى الحقيقة يخاف الموت ، وإنما يجهل ماينبغى أن يعلمه ، فالجهل إذن هو المخوف ، وهذا الجهل هو الذى حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به ، وتركوا لأجله اللذات الجسمانية وراحات البدن ، وفضلوا عليه النصب والسهر ، ورأوا أن الراحة من طرح الجهل هى الراحة الحقيقية وأن التعب الحقيقى هو تعب الجهل ؛ لأنه مرض مزمن للنفس ، والبرء منه خلاص لها ، وراحة سرمدية ولذة أبدية .

لذلك وجب على العاقل أن يطلب العلم الحقيقى الذى يكشف له حال الإنسان بعد موته ، كما قال حارثة للنبى صلى الله عليه وسلم : «كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتلاعنون فيها » وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس ووجه علاقتها بالبدن ووجه خاصيتها التى خلقت لها ووجه التذاذه بخاصيته وكماله مع معرفة الرذائل المانعة له من كماله . وقد نبه الشرع على ذلك العلم فى مواضع كثيرة ، وأمر بالتفكر فى النفس ، كما أمر بالتفكر فى ملكوت السموات والأرض .

ولما تيقن الحكماء أن كمال النفس وسعادتها فى العلم ، ونقصها وشقاءها من الجهل ، وألا برء من هذا إلا بذاك - لما تيقنوا ذلك ، واستبصروا فيه ، وهجموا على حقيقته ، ووصلوا إلى الروح والراحة منه - هانت عليهم أمور الدنيا كلها ، واحتقروا مايعظمه الجمهور : من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التى تؤدى إليها ؛ إذ كانت قليلة الثبات والبقاء ، سريعة الزوال والفناء ، كثيرة الهموم إذا وجدت ، عظيمة الغموم إذا فقدت .

وقد اقتصروا منها على المقدار الضرورى فى الحياة ، وتسلوا عن فضول العيش الذى حوى ماذكر من العيوب ومالم يذكر ، ولأنها مع ذلك

بلا نهاية ؛ لأن الإنسان إذا بلغ منها غاية تاقت نفسه إلى غاية أخرى من غير وقوف على حد ، ولا انتهاء الى أمد .

وهذا هو الموت لا ما يخاف منه ، والحرص عليه هو الحرص على الزائل ، والشغل به هو الشغل بالباطل . ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان : موت إرادى ، وموت طبعى . وكذلك الحياة حياتان : حياة إرادية ، وحياة طبعية . وعَنَوْا بالموت الإرادى إماتة الشهوات ، وترك التعرض لها . وبالموت الطبعى مفارقةَ النفس البدن . وعَنَوْا بالحياة الإرادية ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات ، وبالحياة الطبعية بقاء النفس السرمدى بما تستفيده من العلوم الحقيقية ، وتبرأ به من الجهل . ولذلك وصى أفلاطون طالب الحياة بقوله له : « مت بالإرادة تحى بالطبيعة » ومثل ذلك قول الإمام على كرم الله وجهه : « من أمات نفسه فى الدنيا فقد أحياها فى الآخرة » على أن من خاف الموت الطبعى للإنسان فقد خاف ما ينبغى أن يرجوه : ذلك أن هذا الموت هو تمام حد الإنسان لأنه حى ناطق ميت : قال الراغب الأصفهانى : « وليس معناه ما توهمه كثير من الناس من أنه من الحياة الحيوانية والموت الحيوانى ، والنطق الذى هو فى الإنسان بالقوة ، وإنما أريد بالحى من كانت له الحياة المذكورة فى قوله تعالى : (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) وبالنطق البيانُ المذكور بقوله : (عَلَّمَهُ البَيَانَ) وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة »

فالموت تمام الإنسان وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى . ومن علم أن كل شىء مركب من حد ، وحده مركب من جنسه وفصوله ، وأن جنس الإنسان هو الحى ، وفصليه الناطق والميت - علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله ؛ لأن كل مركب لا محالة منحل إلى ما تركب منه . فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته ! ومن أسوأ حالا ممن يظن أن فناءه بحياته ! ونقصانه بتمامه !! ذلك بأن الناقص إذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل . فإذن الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان ، ويأنس بالتمام ، ويطلب كل ما يتممه ،

ويكمله ، ويشرفه ، ويعلى منزلته ، ويخلى رباطه من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الأسر لا من الوجه الذى يشد وثاقه ، ويزيده تركيبا وتعقيدا . ويثق بأن الجوهر الشريف الالهى إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسمانى خلاص بقاء وصفو ، لا خلاص مزاج وكدر - فقد سعد وعاد إلى ملكوته وقرب من بارئه وفاز بجوار رب العالمين ، وخالط الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه ، ونجا من أضداده وأغياره .

ومن هنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهى مشتاقة إليه خائفة من فراقه - فهى فى غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها ، سالكة إلى أبعد جهاتها من مستقرها ، طالبة قرار ما لا قرار له .

٣ - خوف العقاب الذى يعقب الموت :

إن من خاف الموت لأجل العقاب الذى يوعد به بعده ينبغى أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب ، وهو لا محالة معترف بذنوب له وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب ، ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات ، فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت ، ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه ، ويتدارك ما فرط منه بالتوبة النصوح . والأفعال الرديئة التى تسمى ذنوبا إنما تصدر عن أخلاق رديئة هى منشأ الرذائل التى أحصيناها وعرفنا أضدادها من الفضائل . فالخائف من الموت من هذه الجهة جاهل بما ينبغى أن يخاف منه ، وعلاج الجهل هو العلم . فالحكمة هى التى تخلصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة الناشئة عن الجهل ، والله الموفق لما فيه الخير .

٤ - جهل ما يقدم عليه بعد الموت :

ومثل ما تقدم من خاف الموت لأنه لا يدرى على ما يقدم بعد الموت ؛ لأن هذه حال الجاهل الذى يخاف بجهله ، فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشتاق ؛ وذلك أن من أثبت لنفسه حالا بعد الموت ، ثم لم يعلم ما هى تلك الحال

- فقد أقر بالجهل . وعلاج الجهل العلم ، ومن علم فقد وثق ، ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة ، فهو يسلكها لا محالة ، ومن سلك طريقا مستقيما إلى غرض صحيح فقد أفضى إليه بلا شك ولا مرية ، وهذه الثقة التى تكون بالعلم هى اليقين ، وهى حال المستبصر فى دينه ، المستمسك بحكمته .

٥ — الحزن على ما يخلف من الأهل والولد والمال :

من يزعم أنه ليس يخاف الموت ، وإنما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونشبه ، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها - ينبغى له أن يعلم أن الحزن تعجل ألم ومكروه على ما لا يجدى الحزن عليه . وسنذكر علاج الحزن فى باب خاص .

جملة القول فى الخوف من الموت

الخوف من الموت لا يعرض إلا لمن لا يدرى حقيقة الموت ، أو لا يعرف إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأن العالم سيبقى موجوداً ، وليس هو فيه ، كما يظن ذلك من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد ، أو لأنه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الأمراض التى ربما تقدمته ، وأدت إليه ، وكانت سبب حلوله ، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدرى على أى شىء يقدم بعد الموت ، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات . وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها كما سبق بيانه .

والإنسان من جملة الكائنات ، وكل كائن فاسد لا محالة ، فمن أحب ألا يفسد فقد أحب ألا يكون ، ومن أحب ألا يكون فقد أحب فساد ذاته ، فكأنه يحب أن يفسد ويحب ألا يفسد ، ويحب أن يكون ويحب ألا يكون ، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل .

وأيضاً لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود إلينا ، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقى من تقدمنا ، ولو بقى من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا ما وسعتهم الأرض :

هب أن رجلا واحداً من السلف المشهورين كعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه مثلا بقى موجودا إلى الآن ثم ولد له أولاد ولأولاده أولاد ، وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم أحد : كم يكون مقدار من يجتمع منهم إلى وقتنا هذا ؟ فإنك تجدهم آلاف آلاف ألف رجل : وذلك أن بقيتهم الآن مع ماقدر فيهم من الموت والقتل الذريع أكثر من ألف ألف نسمة فى جميع الأرض . واحسب لمن كان فى ذلك العصر من الناس على بسيط الأرض مثل هذا الحساب ، فإنهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ، ولم تحصهم عدداً . ثم امسح بسيط الأرض ؛ فإنه محدود معروف ؛ لتعلم أن الأرض حينئذ لا تسعهم قياماً ، فكيف قعوداً أو منصرفين ، ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ، ولا مكان زراعة ، ولا مسير لأحد ، ولا حركة ، فضلا عن غيرها . وهذه مدة يسيرة من الزمان ، فكيف إذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة ؛ فهذه حال من يتمنى الحياة الأبدية للبدن ، ويكره الموت ، ويظن ذلك ممكنا أو مطموعا فيه ، وهى حال جهل وغباوة . فإذن الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الإلهى هو الصواب الذى لا معدل عنه ، ولا محيص منه ، وهو غاية الجود الذى ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد أو راغب مستفيد . ولذلك ذكره الله فى النعم ، وعرضه فى معرض الامتنان : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وقدم الموت على الحياة لأنه السبيل الوحيد إليها . فالخائف من الموت هو الخائف من عدل البارى وحكمته ، بل هو الخائف من جوده وعطائه . فقد ظهر ظهورا حسيا أن الموت ليس بردىء كما يظنه جمهور الناس ، وإنما الردىء الخوف منه ، وأن الذى يخاف منه هو الجاهل به وبذاته . وقد ظهر أيضا فيما تقدم أن حقيقة الموت هى مفارقة النفس البدن ، وهذه المفارقة ليست فسادا للنفس ، وإنما هى فساد المركب ، وأما جوهر النفس الذى هو ذات الإنسان

ولبه وخلاصته فهو باق ، وليس بجسم يلزم فيه ما لزم فى الأجسام فلا يتزاحم فى المكان لاستغنائه عن المكان ، ولا يحرص على البقاء الزمانى لاستغنائه عن الزمان ، وإنما استفاد والاجسام - كمالا . فإذا كمل بها ثم خلص منها صار إلى عالمه الشريف القريب إلى بارئه ومنشئه تعالى وتقدس . وهذا الكمال الذى يستفيده فى هذا العالم الحسى هو السعادة القصوى للإنسان .

نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه ، ويبعدنا من سخطه . إنه جواد كريم رءوف رحيم .

ذكرى الموت

للإنسان — فى تذكر الموت — حالان : حال قبله ، وأخرى عنده

الحال الأولى

ينبغى للإنسان قبل الموت أن يكون دائم الذكر له ، ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت وحثهم على دوام تذكره ، ومن أكبر همّ الفلاسفة تفكيرهم به ، وبسط القول فى أن الحياة باطلة والموت حق : قال عليه الصلاة والسلام « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ؛ فإنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أحَدٌ فِي ضِيقٍ إلاَّ وَسَّعَهُ عَلَيْهِ وَلا فِي سَعَةٍ إلاَّ ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ » وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة فى وجوب تذكر الموت كل حين : فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره ، ووضعوه بجانب المهد ، يجددونه على مقدار النمو فى الطفل ، ولا يزالون يفعلون ذلك ، حتى إذا بلغ أشده وضعوا النفس بجانب السرير إلى أن يحل يوم أجله ، فيحملونه عليه : يشيرون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متصلان ، وأن الإنسان يمشى فى هذه الدنيا وكأنه عابر جسر : عن يمينه الموت وعن شماله الحياة . وأنه كما

يدب بنموه فى الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات ، وأنه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت ، كما يحضره ذكر الحياة ، وأن اليقين كل اليقين فى أعواد النعش ، والشك كل الشك فى أساطين القصر . وهم يلبسون السواد حدادا فى يوم الولادة والبياض فرحا عند حلول الأجل ، ولم يعتبروه شرا ، بل هو الخير كله عندهم . فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ فى كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء فى الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر ؛ فما الدنيا فى الآخرة - كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم - إلا مثل ما يجعل الواحد أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع ؟

ما عليه الناس فى هذه الحالة

الناس فى الحالة السابقة ينقسمون ثلاثة أقسام : قسم لا يذكره ألبتة ، وقسم يذكره رعبا وخشية ، وآخر يذكره عقلا وحكمة :

القسم الأول : هو ذلك الأحمق الذى لا يتذكر الموت ، ولا يجرى له على خاطر ، كأنه قد رسخ فى ذهنه أن لا فناء ، فلا يحس هذه الحقيقة إلا عند المشاهدة ، ولا يذكر الموت إلا ريثما تنقضى تلك المشاهدة : كأن يشتد به المرض ، أو يختطف الموت أحد أهله أو جيرانه .

فهو لا يتفكر فى الموت وما بعده إلا ناظرا فى حال أولاده وتركاته عند موته ، ولا ينظر ويتدبر فى أحوال نفسه ، وعند ما يرى جنازة إلا بقوله بلسانه : (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ولا يرجع إلى الله بأفعاله بل بأقواله فقط ، فيكون كاذبا فيها تحقيقا .

القسم الثانى : وهو ذلك الذى يذكر الموت دائما لخشيته من وقوعه وخوفه من نزوله ، فيتولاهم الرعب ، ويستولى عليهم الفزع . وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم ، وانتقلوا إلى أوقات فراغهم ، فيكدرون صفاء هناءتهم

ويسودون بياض معيشتهم . وأشد ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة إثر النعمة ، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة فتراهم فى هم دائم وعناء مقيم ؛ للتوقى من الأخطار ، والتحرز من أسباب الهلاك ، ويتغالون فى ذلك التوقى إلى حال الجنون ، فيحاذرون هبوب النسيم وحرارة الضياء ، ويتوهمون فى كل لقمة تخمة ، وفى كل جرعة غصة ، حتى تمرض الأجسام من تلك الوساوس والأوهام التى قد تؤدى إلى الموت الزؤام .

القسم الثالث : وهو العاقل الكيس الذى لا يفارقه ذكر الموت كالمسافر إلى مقصد الحاج مثلا ؛ فإنه لا يفارقه ذكر المقصد ، وأشغال المنازل فى الحط والترحال لا تنسيه مقصوده .

وذلك لأنه يعلم أن ذكر الموت يطرد فضول الأمل ، ويكف غرب المنى ، ويهون المصائب ، ويحول بين الإنسان والطغيان . ومن ذكر الموت تتولد القناعة بما رزق ، والمبادرة إلى التوبة ، وترك المحاسدة والحرصِ على الدنيا ، والنشاطُ فى العبادة ، ولا ينبغى أن يهمل الإنسان نفسه من تذكر الموت أكثر من يوم ، بل يصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة ؛ فكل من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كل ساعة ينبغى أن يكون مستعدا للإجابة ، فإن لم يكن فربما يأتيه الرسول وهو غافل ، فيحرم السعادة ؛ فما من وقت إلا والموت فيه ممكن .

الحالة الثانية

هى حال الإنسان عند الموت ، والناس عنده ثلاثة أقسام أيضا :

الأول : ذو بصيرة علم أن الموت يعتقه والحياة تسترقه ، وأن الإنسان وإن طال فى الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت فى أكناف السماء ، ثم عادت للاختفاء ، فلا يثقل عليه الخروج من الدنيا إلا بقدر ما يفوت من خدمة ربه عز وجل ، والازدياد من تقربه ، والإشفاق مما يقول أو يقال له ، كما

قال بعضهم لما قيل له : لم تجزع ؟ قال : « لأنى أسلك طريقا لم أعهده ، وأقدم على رب لم أره ، ولا أدرى ماأقول وما يقال لى » ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت ، بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربما اشتاق إليه . وقال بعضهم فى مناجاته : « إلهى ، إن سألتك الحياة فى دار الممات فقد رغبت فى البعد عنك ، وزهدت فى القرب منك ؛ فقد قال نبيك وصفيك ـ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ فَقَدْ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ »

والثانى : رجل ردىء البصيرة ، متلطخ السريرة ، منهمك فى الدنيا ، منغمس فى علائقها ، رضى بالحياة الدنيا ، واطمأن بها ، ويئس من الدار الآخرة ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور : فإذا خرج إلى دار الخلود أضر ذلك به ، كما تضر رياح الورد بالجعل ، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء ، ومصباح الملأ الأعلى ، فكان كما قال الله تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً) فالدنيا سجن الأول وجنة الثانى ، (والأول) كعبد دعاه مولاه ، فأجابه طوعا ، وقدم عليه مسرورا يتوافر على خدمته ، (والثانى) كعبد آبق ، رد إلى مولاه مأسورا ، وقيد إلى حضرته مقهورا ، فيبقى ناكس الرأس بين يدى مولاه ، مختزيا من جنايته . وشتان ما بين الحالين .

والثالث : رتبة بين الرتبتين : رجل عرف غوائل هذا العالم ، وكره صحبته ولكن أنس به وألفه ، فسبيله سبيل من ألف بيتا مظلما قذرا ، ولم ير غيره ، فهو يكره الخروج منه ، وإن كان قد كره دخوله ، فإذا خرج ورأى ماأعد الله للصالحين لم يتأسف على ما كره فواته ، بل قال : (الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ

الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

ولا يبعد أن يكره الإنسان مفارقة شيء ، ثم إذا فارقه لا يتأسف عليه . فالصبي وقت الولادة يبكى لما يناله من ألم الانتقال ، ثم إذا عقل لا يتمنى العود إليه ،

والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل بشرط ألا يكون قد تقدم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحل للكمال ، كما أن الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط ألا يصيبه وقتئذ من الأسباب والعلل ما منع قبول الكمال .

علاج الحزن

الحزن ألم نفسانى يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب ، وسببه الحرص على القنيات الجسمانية ، والشره إلى الشهوات البدنية ، والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها . ومتى كان الإنسان آمنا فى سربه ، معافىً فى بدنه ، وله قوت يومه ـ فحزنه وغمه بسبب أمر الدنيا أمارة نقصانه وحماقته ؛ فإن غمه ليس يخلو : إما أن يكون تأسفا على ماض ، وإما أن يكون خوفا من مستقبل ، وإما أن يكون حزنا على سبب حاضر فى الحال :

الحزن على ماض :

فإن كان على فائت فالعاقل بصير بأن الجزع على ما فات لا يلم شعثا ، ولا يرم ما انتكث ، وما لا حيلة فيه فالغم عليه خرق ؛ فإنما يحزن ويجزع على فقد المحبوب ، وفوت المطلوب ـ من يظن أن ما يحصل له من متاع الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده ، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها لابد أن يحصل له ويصير فى ملكه . فإذا أنصف نفسه ، وعلم أن متاع الدنيا زائل ، واقتصر بهمته على الباقى ، وأعرض عما ليس فى طبعه أن يثبت ويبقى ، وإذا حصل له منه شيء بادر إلى وضعه فى موضعه ، وأخذ منه مقدار الحاجة إلى

دفع الآلام من الجوع والعرى وما يشبههما ، وترك الادخار المذموم ، والتهالك على الاستكثار الممقوت ، والتماس المباهاة والافتخار ، ولم يحدث نفسه بالمكاثرة بها والتمنى لها ، وإذا فارقته لم يأسف لها ، ولم يبال بها - فإن من فعل ذلك أمن فلم يجزع ، وفرح فلم يحزن ، وسعد فلم يشق . ومن لم يقبل هـــذه الوصية . ولم يعالج نفسه بهذا العلاج - لم يزل فى جزع دائم ، وحزن غير منتقص ؛ وذلك لأنه لا يعدم فى كل حال فوت مطلوب ، أو فقد محبوب ، وهذا لازم لعالمنا : عالم الكون والفساد . ومن طمع من الكائن الفاسد ألا يكون ولا يفسد فقد طمع فى المحال ، ومن طمع فى المحال لم يزل خائباً ، والخائب أبداً محزون ، والمحزون شقى . ولذلك قال تعالى : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ) وقال الشاعر : « وهل جزع مجد علىَّ فأجزعا »

الحزن على حاضر :

وإن كان حزنه على حاضر : فإما أن يكون حسداً لوصول نعمة إلى من يعرفه ، وإما أن يكون حزناً للفقر ، وفقدان المال ، والجاه ، وأسباب الدنيا . وسبب هـذا الجهل بغوائل الدنيا وسمومها ، ولو عرفها معرفتها لشكر الله تعالى على كونه من المخفَّفين دون المثقلين ، ولو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يعشقه لم يعشقه ؛ إذ يعلم أن الدنيا حمالة المصائب كدرة المشارب ، تورث للبرية أنواع البلية : فما أحد فيها إلا وهو فى كل حال غرض لأسهم ثلاثة : سهم نقمة ، وسهم رزية ، وسهم منية :

تناضله الأحداث من كل جانب فتخطئه طوراً وطوراً تصيبه

فمن كان معتبراً بما يتجدد كل يوم : من ارتجاع النعم من أربابها ، وحلول القوارع بأصحابها ، وشدة اغتمامهم بفقدها - لم يتأسف على فواتها . ولذلك قيل لبعضهم : لم لا تغتم ؟ قال : « لأنى لا أقتنى ما يغمنى فقده » ومتى أمعن الإنسان فكره فى غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة ، وكثرة مصائبهم فيها تسلى

عنها وهان عليه تركها . وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى ليشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم ، ويحضر الحبس أيضاً ويشاهد أرباب الجنايات ومجيئهم لإقامة العقوبات ، وأيضاً يحضر المقابر ، فيشاهد أرباب المصائب وأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه ، وكان يعود إلى بيته بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من كل البلايا . وحق على الإنسان فى الدنيا أن ينظر أبداً ما عاش إلى من هو دونه ليشكر ، وفى الدين إلى من هو فوقه ليشمر . والشيطان إذا استولى نكس هذا النظر وعكسه . فإذا قيل له : لم تتعاطى هذا الفعل القبيح ؟ اعتذر بأن فلاناً يتعاطى ما هو أكبر منه ، مع أنه ليس فى المعصية ولا فى الكفر مناظرة . وإذا قيل له لم لا تقنع بهذا الموجود ؟ فيقول : فلان أغنى منى ، فلم أصبر على ما ليس يصبر عنه ؟ وهذا عين الضلال والجهل المحض .

الحزن على مستقبل :

إن كان الغم على الأمر المستقبل : فإن كان على أمر ممتنع وجوده أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال . وإن كان ممكنا وجوده نظر : فإن كان لا يقبل الدفع كالموت قبل الهرم ، فالحزن له حماقة . وإن كان قابلا للدفع فلا معنى للغم ، بل ينبغى أن يحتال للدفع بعقل غير مشوب بحزن . فإذا فعل ما قدر عليه من تمهيد حيل الدفع بقى ساكن القلب منتظراً لقضاء الله وقدره ، عالما بأنه لا مرد لما قضاه ، فيتلقاه بصبر إن لم يندفع ، ويتحقق أن ما قدر فهو كائن ، ويتذكر قول الله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ ، وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

وإنما حرصُ الناس على تهيئة أسباب الدنيا منشؤه الغرور وحسن

الظن بانحسار الآفات ، وتقدم صدفاء الأوقات . وهيهات ثم هيهات ! . قال على رضى الله عنه : « ما قال الناس لقوم : طوبى لكم - إلا وقد خبأهم الدهر ليوم سوء » وصدق الشاعر فيما قال :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد   إلا أساءت إليه بعد إحسان

فالعاقل إذا أمعن النظر فى هذه الأمور خف على قلبه أكثر الغموم ، إلا إذا كانت العلاقة قد استحكمت بينه وبين معشوقه من آدمى أو مال أو عقار أو حرفة أو رياسة أو ولاية أو أى أمر من الأمور ، فلا خلاص له من غمومها إلا بعد قطع العلائق عنها . ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عنها تدريجاً والاشتغال بغيرها ، وإن كان ذلك الغير أيضاً مما يجانسها فى وجوب التباعد عنه ، ولكن لا بأس بغسل الدم بالدم إذا كان الأول أشد لصوقاً ، وهذه من دقائق الرياضات ؛ فإن النزوع عما وقع الإلف به دفعة واحدة عسير بل ممتنع . ولذلك يرقى المعلم الصبى بالترغيب فى اللعب بالصولجان والطيور ، ثم يكفه عن اللعب بالترغيب فى الثروة والمال ، والتزيين بالثياب الجميلة وغيرها ، ثم يرقيه من ذلك بالترغيب فى المحمدة والثناء ونيل الكرامة والرياسة ، ثم يرقيه بالترغيب فى سعادة الآخرة . والرياسة آخر مايخرج من رءوس الصديقين . ولقد كانت هذه المعالجة بأمور محذورة فى نفسها ، ولكن مطلوبة بالإضافة إلى ماهو شر منها ، وكأنها منازل وأطوار يرتقى فيها الإنسان واحداً واحداً ، ولا يمكن الخلاص إلا بهذا التدريج . فليراع ذلك فى كل صفة استولت على النفس ، واشتدت علاقتها بها ، وبقطع العلائق تمحى الغموم .

انتفاء الألم لا يستدعى وجود السعادة :

يقولون : إنه لا اغتباط مع وجود الألم ، وما دام هو ثابت الوجود فلا سبيل إلى الغبطة والهناءة ، فإذا كان هذا القول صواباً كانت نتيجته أنه إذا انتفى الألم أو انتفى شعور الإنسان به حصلت السعادة : والواقع غير هذا ؛ فإن من بين الناس كثيرين من ضعيفى الإدراك والبله والمجانين لا يشعرون بالألم مطلقاً ويندر أن يكون للمؤثرات المشجبة تأثير فى شعورهم ، أو للأعراض

الموجعة قوة كافية لتنبيه حاسة الألم فى نفوسهم . فهل أولئك سعداء ؟ وهل يكون عدم شعورهم بالألم هو السعادة التى يطمع فيها الإنسان ؟ وهل يرضى عاقل أن يكون من ذلك الفريق ليغتبط مثله بالسعادة إن صح أن الجنون سعادة ؟ ألا إن هذا الخير دليل على أن تلاشى الألم أو عدم الشعور به لا ينشا عنه وجود السعادة ، بل ليس من الأسباب الضرورية للشعور بالهناء .

اجتماع الألم والسعادة :

ذكرنا فيما تقدم أن السعيد كغيره تنتابه ضروب النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب إلا أنه لا يفزع منها ، ولا يجد مشقة فى احتمالها ، ولا تؤثر فيه أحوالها . فالنوازل مهما قويت وتوالت ، والآلام مهما اشتدت وتتالت لا تخرجه عن سعادته ؛ لما اتصف به من صبر وشجاعة ، بل قد يجد السعادة فى مكافحة تلك الآلام ومنازلتها ، فهو سعيد بآلامه مغتبط بشدائده : كالمرأة تتألم عند الولادة وألم الوضع مما لا يسهل احتماله ، ومع شدة تأثير الحادث فى نفسها ، وعظم الألم ، وكثرة التألم - تسر الوالدة بسلامة المولود ، وتشعر بلذة الأمومة ، وتغتبط ، وتكون سعيدة فى ذات اللحظة التى تتألم فيها .

ضرورة الألم فى السعادة:

قد قال العقلاء ، ولا زالوا يقولون : إنه لولا الشر ما كانت الرغبة فى الخير ، وكذلك يجب أن نقول : إنه لولا الألم ما عرفت الرغبة فى اللذة والهناءة ، فالألم - إذا لم يكن بليغاً إلى حد لا يحتمل أو يقتل - يكون حتماً واسطة للتقوية والإسعاد: يأخذ الإنسان من بعض أنواع السموم مقداراً معيناً للتداوى به ولتقوية جسمه ، فإذا زاد المقدار كان البوار ، والألم ليس أعظم منه خطراً ولا أكثر ضرراً . فالمحتمل منه يرقى النفس ، ويقوى الجسم ، ويشحذ غرار العزيمة ، ويصقل مرآة الفكر .

الألم حقيقة لابد منها :

مما تقدم يعرف الإنسان أن الألم الذى يخشاه ويتوقاه ويلعنه حقيقة

لابد من وجودها لتكون معياراً للسرور المفقود ، ووساطة للرغبة فى نوع جديد منه ، ويعرف أيضاً أنه لاقيمة للذة بدون احتمال الألم ، ولا مكان للسرور بدون عرفان الحزن . وبضدها تتميز الأشياء ، فالألم والشقاوة هما السبيل المؤدى إلى السرور والسعادة .

إن الأرض لايحسن زرعها دون حرثها وشق كبدها ، وكذلك النفس لاتشعر بالغبطة ولايبدو أثرها فيها ، دون أن تعرف الشقاء وتتألم منه. فالألم هو الذى يولد الذكاء ، ويقوى الهمة ، ويبعث النشاط . وهو الذى يطهر النفس ، ويسمو بها إلى أوج النبل والشرف ، ويحدو العقل إلى الروية والتدبر . وهو المنبه الوحيد للضمير الميت ، ومن يحيا ضميره يعود إلى الحياة .

الألم كالظل :

فكما لايبحث الإنسان عن ملاشاة ظله لوثوقه من تعذر الوصول إلى ذلك ، ومن بحث فى مفارقة ظله فقد أقام البرهان على ضعف عقله - كذلك يعتبر من الحمق وخطل الرأى البحث عن ملاشاة الألم ؛ لأنه لايزول من الوجود مابقى الإنسان على قيد الحياة ، ومن الحكمة تحويل نتائجه إلى فائدة الفرد والمجتمع ، ولا أقل من أن يكون هو الوساطة فى تهذيب النفوس وإحياء الشعور .

الحياة بدون ألم ناقصة :

لو سلمنا جدلا إمكان خلو الحياة الدنيا من الألم لكانت حياة ناقصة ينقصها الجزء المتمم لأسباب الهناءة والسعادة : إذ من خاصة النفس سآمة الحال الواحدة والمنظر الدائم ، فإذا ماألفت السرور زال بعد حين تأثيره المبهج فيها ، واعتراها الملل والسآمة والفتور . ومن خاصة الألم تجديد قوة النفس ونشاطها ، وبعث الميل إلى الراحة والسرور . فما الألم فى الواقع إلا مثال الحمام الكهربائى : يعالج به المريض ، فيتألم منه ، ويصرخ ، ولكنه يبرىء علته ، ويمنع أسباب مرضه ، ويعيد له العافية والهناءة .

الألم سر النبوغ :

من النظريات المعروفة : أن شدة الضغط تضاعف القوة المضغوط عليها. فكذلك يكون الألم الحاد ، والتألم الشديد من الأسباب التى تخرج الإنسان من حاله الطبعية فى كثير من الظروف فيبرز تبريزا لا يتم له لولا التألم ، وهاك أمثلة على ذلك :

١ — كل من يعنى بالبحث عن سر نبوغ عظماء الرجال وقادة الأفكار ورجال الانقلابات السياسية لا يعتم أن يتحقق من كون السبب الوحيد الذى نشط بهم إلى الفوق والظهور بتلك المظاهر لم يكن إلا كثرة التألم .

٢ — ما الشعر إلا تصوير الخيال والشعور النفسى فى شكل الألفاظ التى تدنيه من أفهام الناس . فقدر الشعر ورقته وبلاغته يكون على قدر تنبه إحساس الشاعر ورقة عواطفه ، وما أكثر ما يسمو به الإنسان إلى عالمى الخيال والحقيقة إذا تألم شديداً ، ونبه الألم شعوره ، وألهب عواطفه .

فكذلك يكون ما تأثرت به النفس من أنواع الشقاء ، وما نالها من الألم - هو معيار حظها من النبل ، ومن المروءة والهمة .

٣ — انظر إلى من نبغوا من صفوف الأحزاب المعارضة تجد أن تألم نفوسهم من معارضة خصومهم هى التى نشطت هممهم ، وأظهرت قواهم ، وفتقت لهم الحيلة ، فنُسبت إليهم القدرة والنبوغ . وأمعن فى النظر طويلا تجد أن هذا الامتياز يزول تماما ، ويعود النابغ إلى حاله الطبعية بمجرد زوال القوة الضاغطة عليه أو المقاومة إياه ، وإذا ما أتيح له أن يتربع عرش السلطة ، ويستأثر بالنفوذ - يبدو له من الضعف ومن حقيقة حاله ما لم يكن يعرفه فى نفسه ، ولا يعرفه الناس منه .

٤ — يشعر المرء بتقصير عن إخوانه ، ويحس فى نفسه نقصا عن أخدانه ، فيتألم لذلك كثيرا ، ويتذوق طعمه مرا مريرا ، ويفتش فى زوايا نفسه عن منبت هذا التقصير ، ويبحث فى حناياها عن موطن الضعف فيها ، ثم إذا

وقف على ماينقب عنه شرع يفكر فى الوسائل التى يتوصل بها إلى تقوية ضعفه وإكمال نقصه ، ومتى وفق إلى ذلك أقبل على العمل بهمة قوية وعزيمة ماضية ، ولايزال كذلك فى جد وكد ، لايتطرق إليه ملل ، ولايعتوره وهن ولا كلل ، حتى يفوق أقرانه ويبذ خلانه .

ومن هذه الأمثلة يتجلى لنا أن القوة والنبوغ والعظمة والرقى كلها تكون بسبب الألم .

الأمم كالأفراد فى أثر الألم :

ليست الحقيقة السابقة مقصورة على الأفراد ، وإنما يشمل حكمها الشعوب والأمم : فالأمة التى تئن من الألم يكون هو خير وساطة للم شملها ، واجتماع قلوب أبنائها ، وتقوية رابطة الإخاء بين أفرادها ، وتكاتفهم فى طلب الخلاص من بواعث الألم ، كما أنه يكون من أقوى البواعث على حب العظمة وطلب السمو والسودد : انظر إلى اليهود : فقد أجمع الناس على تقرير امتيازهم بالذكاء والدهاء . وماهذا لخاصة فيهم ، وإنما نشأ عن الاضطهاد الذى توالت عليهم أزمانه ، والآلام البالغة التى ذاقوها من أبناء البلاد التى تشتتوا فيها . وقد بقى لهم هذا الفوق الفكرى مابقى الاضطهاد ودام الإرهاق ، ثم أخذ يقل ويهبط إلى مستوى ذكاء الآخرين منذ زال سبب وجوده ومنذ تمتع الإسرائيليون فى البلاد التى يسكنونها بما لمواطنيهم من الحقوق الاجتماعية .

الشره والجمود

تكلمنا فيما سبق عن أمراض القوة الغضبية ، وأتبعنا كل مرض بأسبابه وعلاجه الذى يستأصل هذه الأسباب ، حتى تبرأ تلك القوة من أمراضها ، وتثوب إليها صحتها وفضيلتها وهى الشجاعة ، إلا أننا قد أسهبنا فى ذلك كثيرا لضرورة انتشار هذه الأمراض واستفحالها بين الناس ، حتى كدنا ننسى موضوعنا الأصلى ، والآن نسوق الكلام فى أمراض القوتين الشهوية

والعقلية متبعين ذلك بعلاج هذه الأمراض فى كثير من الإيجاز الذى يقتضيه المقام فنقول :

إن العفة هى فضيلة القوة الشهوانية وهى انقيادها على تيسر وسهولة للقوة العقلية ، حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها . ويكتنفها رذيلتان : الشره والخمود : فالشره هو إفراط الشهوة إلى المبالغة فى اللذات التى تستقبحها القوة العقلية ، وتنهى عنها . والخمود هو كلال الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضى العقل نيله وتحصيله . وهما مذمومان ، كما أن العفة التى هى الوسط محمودة .

ويندرج تحت هذين الرذيلتين ـ الوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير والرياء ، والهُتْكة ، والكَزَازَة ، والمَجَانَة ، والعبث ، والتَّحَاشى ، والشَّكاسة ، والملق ، والحسد ، والشماتة :

(ا) فأما الوقاحة فلجاج النفس فى تعاطى القبيح من غير احتراز من الذم ، وأما التخنث فحال تعترى النفس من إفراط الحياء يقبضها عن الانبساط قولا وفعلا .

(ب) وأما التبذير فافناء المال فيما لا يجب ، وفى الوقت الذى لا يجب فيه ، وأكثر مما يجب . وأما التقتير فهو الامتناع من إنفاق ما يجب ، وسببه البخل والشح واللؤم . ولكل واحد من هذه الثلاث رتبة : فالبخيل هو الذى يفرط ويقصر فى الإنفاق ؛ خوفاً من أن تضطره الفاقة إلى المسألة والتذلل للأعداء ، وكأن سبب البخل هو الجبن عند البحث . وأما الشحيح فهو الذى يجمع إلى البخل أن يكره حسن حال غيره ؛ طمعاً فى أن يضطره إلى الحاجة إليه ، فينال به الجاه والرفعة . ومنشأ هذا ضرب من الجهل . وأما اللئيم فهو الذى يجمع إلى البخل والشح احتمال العار فى الشىء الحقير . وهو ضرب من الخبث : وذلك كالمتلصص ونحوه .

(ح) والرياء هو التشبه بذوى الأعمال الفاضلة ؛ طلباً للسمعة والمفاخرة ،

والهتكة الإعراض عن تزيين النفس بالأعمال الفاضلة ، والمجاهرة بإعراضها.

(ء) والكزازة الإفراط فى الجد ، والمجانة الإفراط فى الهزل

(ه) والعبث الإفراط فى الإعجاب بلقاء الجليس والأنيس ، والتحاشى الإفراط فى التبرم بالجليس

(و) والشكاسة مخالفة المعاشرين فى شرائط الأنس ، والملق التحبب إلى المعاشرين مع التغافل عما يلحق من عار الاستخفاف .

(ز) والحسد الاغتمام بالخير الواصل إلى المستحق الذى يعرفه الحاسد ، والشماتة الفرح بالشر الواصل إلى غير المستحق ممن يعرفه الشامت

علاج هذه الامراض

علاج هذه الأمراض كلها أن يراقب الإنسان شهوته ويعلم أن الإفراط والتفريط فى مقتضياتها نقصان ، وأن الكمال فى الاعتدال . ومعيار الاعتدال العقل والشرع : وذلك أن يفهم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة : فشهوة الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذى يسد خلل ماينحل من أجزائه بالحرارة الغرزية حتى يبقى البدن حيا والحواس سليمة ؛ ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور ، ويتشبه بالطبقة العليا بالإضافة إليه ، وهى رتبة الملائكة ، وبها كمالها وسعادتها . ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوى على العبادة دون التلذذ به ، فيقتصر ويقتصد لا محالة ، ولا يشتد إليه شرهه . وشهوة الجنس خلقت لبقاء النوع محفوظا ، فتطلب للولد والتحصن ، لا للعب والتمتع . وإن تمتع ولعب كان باعثه عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة ،

وحكمة شهوتى الطعام والجنس ترجع إلى أمرين : أحدهما إبقاء الشخص بالغذاء ، والنوع بالحرث ؛ فإنهما ضروريان فى الوجود بحكم إجراء الله سنته بمشيئته الأزلية التى لا تبديل لها ولا تحويل .

والآخر ترغيب الخلق فى السعادات الأخروية ؛ فإنهم مالم يحسوا بهذه اللذات والآلام لم يقدروا نعيم الجنة فيرغبوه ، ولم يعرفوا عذاب النار فيحذروه ، ولو اقتصر على الوعد والوعيد لما أثر ذلك بمجرده فى نفوسهم

الخب والبله

الحكمة الخلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة ، بها تسوس القوة الغضبية والشهوانية ، وتقدر حركاتهما بالقدر الواجب فى الانقباض والانبساط وهى العلم بصواب الأفعال .

وهذه الفضيلة تكتنفها رذيلتان : وهما الخِبُّ والبله ، فهما طرفا إفراطها وتفريطها : أما الخب فهو طرف إفراطها ، وهو حالة يكون بها الانسان ذا فكر وحيلة باطلاق الغضبية والشهوانية يتحركان إلى المطلوب حركةً زائدة على الواجب ، ويسمى السَّفَهَ أيضاً .

وأما البله : فهو طرف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال ، وهو حال للنفس تقصر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب ، ومنشؤه بطء الفهم وقلة الإحاطة بصواب الأفعال .

ورذيلة الخب يندرج تحتها الدهاء والجربزة : فالدهاء استنباط ماهو أبلغ فى إتمام مايظن صاحبه أنه خير ، وليس بخير فى الحقيقة ، ولكن فيه ربح خطير : فإن كان الربح خسيسا سمى : جربزة . فالفرق بين الدهاء والجربزة يرجع إلى الحقارة والشرف . وأما رذيلة البله فتندرج تحتها الغَمارة والحمق والجنون : فالغَمارة : قلة التجربة فى الأمور العملية مع سلامة التخيل . وقد يكون الإنسان غُمرا فى شىء دون شىء بحسب التجربة . والغمر هو الذى لم تحنكه التجارب . وأما الحمق : فهو فساد النظر فيما يؤدى إلى الغاية المطلوبة ، حتى ينهج غير السبيل الموصل : فإن كان خلقة سمى حمقا طبعيا ، ويعسر علاجه أو يتعذر . وقد يحدث عند مرض فيزول بزواله . وأما الجنون : فهو فساد التخيل فى انتقاء ماينبغى أن يُؤْثَرَ ، حتى يتجه إلى إيثار غير المؤثر :

فالفاسد من المجنون غرضه ، ومن الأحمق سلوكه ؛ إذ غرض الأحمق كغرض العاقل ، ولذلك لا يعرف فى أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض . والجنون هو فساد الغرض ، ولذلك يعرف فى أول الأمر .

علاج هذه الأمراض : ولما كانت أمراض القوة العقلية هى الإفراط أو التفريط فى القوة الغضبية والقوة الشهوانية ، كانت أمراضها تعالج بعلاج أمراض هاتين القوتين ، وقد تقدم شرح ذلك فى محله

الغبن والتغابن والجور

العدل حالة للقوى الثلاث : العقلية والغضبية والشهوية ـ فى انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب فى الاستعلاء والانقياد . فليس العدل على ذلك جزءاً من الفضائل ، بل هو جملة الفضائل ، وهذا هو العدل فى أخلاق النفس الذى يتبعه لامحالة ، ويتفرع منه العدل فى المعاملة والعدل فى السياسة . ونستطيع بعد ماتقدم أن نعرف العدل بمعنى أشمل بأنه هو :

الترتيب الواجب فى الأخلاق والمعاملات وتدبير الشئون العامة .

والعدل فى الأخلاق جماع الفضائل كما أسلفنا ، فالرذائل المطيفة به جماع الرذائل أيضاً ، والعدل فى المعاملة وسط بين رذيلتى الغبن والتغابن ؛ إذ هو أن يأخذ المرء ماله أخذه ، ويعطى ماله إعطاؤه . أما الغبن : فأن يأخذ ماليس له ، والتغابن : أن يعطى فى المعاملة ماليس عليه حمد ولا أجر .

والعدل فى السياسة : أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس ، حتى تكون المدينة فى ائتلافها ، وتناسب أجزائها ، وتعاون أركانها ، على الغرض المطلوب من الاجتماع — كالشخص الواحد . ولا يكتنف العدل بهذا المعنى رذيلتان ، بل يقابله رذيلة الجور فقط ؛ إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط ، وبمثل هذا الترتيب قامت السموات والأرض ، حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والأجزاء

ومن حيث إن العدل حالة للقوى الثلاث فعلاج أمراضه هو علاج أمراض القوى الثلاث . والله أعلم

السبب الخامس من أسباب السعادة

الغنى

حقيقة الغنى والفقر :

يحدّ الحكماء الغنى بأنه قلة الحاجة ، كما يحدّون الفقر بأنه كثرة الحاجة : فأقل الناس حاجة أغناهم ، وأكثرهم حاجة أشدهم فقرا . لذلك كان الله جل شأنه أغنى الأغنياء ؛ لأنه لا حاجة له إلى شىء من الأشياء ، وكان الملوك أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم، فهم أشقى الناس فى الدنيا والآخرة ، كما وصفهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وأصل ذلك يرجع إلى توافر رغبات النفس وعدم توافرها : فأعظم الناس غنى هو من لا تطلب نفسه شيئا ليس فى يده : بأن كان قانعا بما أوتى على قلته ، مقبلا على طاعته ، مجملا فى طلب حاجته ، مطمئنا كل الاطمئنان إلى حالته . وهذا هو الغنى الحقيقى وسنفرد له بابا خاصا . أو كان ذا بسطة فى المال الحلال فاستطاع أن يحصل كل ما جال فى نفسه : من رغبات وآمال فى غير إسراف ولا ضياع لحق معلوم للسائل والمحروم ؛ بل كان ينفقه فى متعة نفسه غير متجاوز به طاعة ربه ، يغيث به الملهوف ، ويصطنع به كل معروف ، يحب المال حبا جما ، ولكنه يطلب فى رفق وهوادة ، ويسعى إليه فى اطمئنان وتؤدة . وهذا هو الغنى المجازى . والفرق بين الحقيقى والمجازى : أن الأول فيه إجمال فى الحب وإجمال فى الطلب ، واطمئنان ورفق إلى أقصى حد ممكن للبشرية ، وقد لا يكون فيه حب ألبتة ، ولكنه يطلب لأنه عون على الدين ، وحفظ للكرامة . وأما الآخر ففيه الحب الجم ، والطلب الأوفر . ونصيب هذا من الرفق والاطمئنان أقل بكثير من سابقه . وواضح أن كلا النوعين يمت إلى

السعادة بسبب ، إلا أن الأول أقوى سببا ، وأقرب نسبا . وأشد الناس عوزا من يرغب فى شيء لايتيسر له نيله ، ولو كثر ماله ، وامتد سلطانه ، وتعدد أنصاره وأعوانه . والطمع هو تعدد الرغبات والحرص على نيلها : فمن تكثر رغباته يكثر عدد مايعجز عن الحصول عليه ، وهذا هو الفقر الحقيقى الجدير صاحبه بالرثاء له ؛ لأنه بائس بآماله ، شقى بأمواله .

وعلى هذا لاتكون العبرة بما تملكه اليد من الكثير أو القليل ، وإنمابعدم تجاوز الرغبات حد الممكن نيله .

الغنى والفقير :

ليس ثم فارق صحيح بين المثرى والمعدم فى الحياة : فإن الحمى التى تصيب الفقير مثلا هى بعينها التى تصيب الغنى ، وتترك كلا منهما يتألم ويمرض ، فلا الفراش الوثير يخفف من وطأتها على المريض ، ولا الخصاصة تخرجها عن نوع المرض . والموت يعدو على الأمير فى قصره وهو بين حراسه وحجابه ، فلا يدفعه الحراس ، ولا يمنعه الحجاب ، ولا يُطيش سهمَه لمعانُ الذهب ، فيزهق روح ذلك الكبير الخطير ، كما يفعل بالفقير الحقير .

فإذا صح أن المال لايدفع ألما ، ولا يمنع مرضا ، ولايحول دون الموت ـ كان حظ التعس الفقير فى الحياة هو بعينه حظ الوجيه الغنى فيها ، لا يميز بينهما غير الطعام والكساء ، وماهذه بمميزات صحيحة بين الإنسان وأخيه .

فإذا قيل : إن المال من البواعث على نشاط الفكر وعلى الذكاء قلنا : إن حظ الفقير من المواهب والفضل والعقل لا يقل عن حظ الغنى منها .

والتاريخ يدل عن أن فئة عظيمة من مشهورى الرجال الذين امتازوا بالأعمال العظيمة ، والفتوحات الباهرة ، أو بالعلوم الغزيرة ومواهب الكتابة والشعر ـ نبغوا وظهروا من صفوف الفقراء ومتوسطى الحال ، ولامشاحة فى هذا ؛ لأن من هؤلاء كل رجال العمل والفنون والصناعات وأصحاب الاختراعات ورجال العلم أيضا .

إن لراحة البال وهدوء الفكر تأثيرا واضحا فى سعادة الإنسان بل هو السعادة نفسها ، والغنى أكثر الناس خوفا من الطوارىء ، وإن كان أقلهم شكوى من تعسر قضاء الحاجات ، ومن الحصول على ماشتهى من المآكل ، وطاب من المشارب والمساكن .

ولما كان القليل من الزاد يملأ البطن ويدفع الجوع ، والبسيط من الثياب يستر العورة ، ويدفع عادية الحر والبرد ، والكوخ الحقير يكفى لسكن الإنسان عند الضرورة ــ لم تكن هذه من أسباب الشقاء ، كما أنها ليست من بواعث الهناءة ، وكانت متاعب الإنسان ليست من قلة المال ، وإنما من جشع النفس وعدم القناعة .

الفقر والعوز :

هنالك فرق بين الفقر والعوز : فالأول يتأتى أن يكون مع وجود الحاجات الضرورية للحياة والعيش ، والآخر يكون بعدم وجود تلك الحاجات ، وبعدم استطاعة الإنسان الحصول عليها : فمن يتاح له أن يربح مافيه كفافه وأسرته لايكون معوزا وإن كان فقيرا ، ومن لايستطيع هذا كان معوزا حقا .

والعوز من أكبر المسائل الاجتماعية التى يعنى علماء الاجتماع والاقتصاد بحلها ، وبالبحث عن وسيلة ناجعة تكفل للمعوزين حاجتهم الضرورية وتمنع أن يكونوا عالة على المجتمع : (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ)

من المتعذر بداهة إيجاد حل يساوى الناس بعضهم ببعض فى الغنى والثروة ؛ لأنه إذا أمكن هذا فى وقت ما لاتلبث الحال أن تعود بعد قليل إلى ماكانت عليه من التفاوت بين الأفراد بسبب كسل البعض ونشاط البعض الآخر ، وتبذير فريق من الناس وحرص فريق آخر ، وبسبب التفاوت أيضا فى العلم والجهل والذكاء والغباء . فبوجود الأغنياء يتحتم وجود الفقراء ،

وبالتزاحم على موارد الكسب جريا مع تنازع البقاء والأثرة - لا يتأتى أبدا حفظ الموازنة بين الناس على صورة ونسبة واحدة .

وسائل تخفيف شقاء العوز :

هنالك وسائل كثيرة لتخفيف الشقاء ، ولمنع انتشار الفوضى بسبب تكاثر المعوزين واضطرارهم إلى الحياة : فمن أهم هذه الوسائل مباشرة الحكومة جمع الزكاة ممن تجب عليهم لإنفاقها على المعوزين ، وإيجاد عمل نافع لهم يرتزقون منه بإنشاء المعامل والمصانع من أموال الزكاة ، ثم قيام الجماعة بأود الشيوخ والعجزة وذوى العاهات البليغة ، ومنها التعليم بالمجان والقضاء على الاحتكارات والمضاربات ؛ لأن هذه هى التى يجمع الأغنياء بها المال ، ويسلبونه من الأفراد ، وهى فى الحقيقة السبب الأقوى فى سد أبواب الرزق والكسب فى وجوه الكثيرين من الناس ، وفى خلق روح الإجرام فى نفوس من أضرَّت بهم الفاقة ، وحط عليهم العوز . ويوم تتساوى جرائم الأغنياء والفقراء فى نظر الناس ، وتكون السرقات المباحة بالاحتكار والمضاربة فى مستوى السرقات المعاقب عليها لاعتبارها ضارة بالمجتمع — يكون ذلك خطوة واسعة فى سبيل إصلاح الاجتماع .

سلطان المال :

السيد يملك العبد فيكون له السلطان عليه ، فإن لم يكن هذا فلا يكون السيد سيداً ولا العبد عبداً . ويقال : إن الإنسان يملك المال . فإذا كان هذا صحيحاً وجب أن يكون للمالك سلطان على ما يملك . ولما كان الواقع أن الغنىَّ فى هذا العصر أسير المال ، وله السلطان التام عليه - كان المال هو المالك ! !

لقد دالت دول عدد عظيم من الأفكار الفاسدة ، وتقوضت مع مرور الزمن ورقى الأفكار دعائم كثير من المعتقدات الباطلة ، ولكن سلطان

المال على الناس لازال على حاله الأولى إن لم يكن قد تضاعف . قام هذا السلطان على اعتقاد باطل، ودام بدوام جهل الحقيقية أوتجاهلها، وباستمرار تأثير الوهم فى العقول ، والغرور فى الأفكار ، والعادة فى النفوس . فلو زال أساس هذا السلطان الوهمى لتحرر الناس من قيود العبودية والوثنية ، ولا ارتفعت عن العيون الحجب التى منعتها صدق الرؤية ، وعن الأفكار كل وسائل الإيهام والتغرير التى أبعدتها من تمييز الحقائق ، وجعلتها تخلط بين المال والسعادة .

قيمة المال :

الإفراط فى تقدير قيمة الشىء يدنى التقدير من الخطأ . والإنسان هو الذى قدر قيمة الحياة وافترضها ثمينة ، وفاته أنها لاقيمة لها بدونه ، فلا جرم أنه أفرط فى تقديره ، فأخطأ فى عرفان قيمتها ، وقدر لها قيمة وهمية هى دونها فى كل حال . فكذلك المال : له مزايا كثيرة تيسر للمرء كثيراً من بواعث السرور ، ولكن الإنسان أفرط فى تقدير قيمته حتى تجاوز الحقيقة ، فكان هذا الإفراط داعية سلبه أسباب السعادة الحقيقية ، والاغتباط الصحيح ، وقوة الإرادة ، واستقلال الذات . وكل من يجعل مصدر هناءته من غير ذاته يرى نفسه دون ذلك المصدر ، فيخضع له ويفقد حرية نفسه ،

ولكن الناس لايرون هذه الحقيقة ، ولا يصدقون الواقع ؛ لعدم تمييزهم الفارق بين القيمة الذاتية للمال ، وبين ما أسند إليه إسنادا .

إن قيمة الذهب فى الصحراء الخالية من الناس هى دونها فى المدينة العامرة ، وشأن الدرهم مع الغنى لايستوى مع شأنه عند الفقير المحتاج ، وتقدير البخيل الدينار لايماثل تقدير المسرف إياه . كل هذه حقائق يستنبط منها العقل أن قيمة المال فيما ينفع له ، وفيما ينيل الإنسان من رغبات نفسه . فهذه القيمة اللاذاتية تثمن وتنقص ، وتغلو وترخص بقدر كثرة رغبات النفس وقلتها وبقدر حاجاتها : سئل مثر من كبار المتمولين عما إذا كان

سعيدا ، فقال : إذا كان الغرض من السعادة إمتاع النفس وتلذذها بما تشتهيه من اللذائذ المادية فإن المال عندى كثير يكفل قضاء كل تلك الحاجات ، وأما إذا كان معنى السعادة سرورَ النفس واغتباطها فإن حظى كحظوظ الناس منها ؛ لأن الهناءة لا تباع ولا تشترى ، فما المال بموصل إليها.

وسئل عن حقيقة سروره بما يشتريه من منتخبات التحف والآثار ، فقال : إن التحفة قبل أن تصل إلى يدى تكون طبعا عند بائعها ، فلو كانت هى وساطة للسعادة والاغتباط بها ما باعها ؛ فما يبيع تلك التحف إلا لينال عوضا منها ، يظنه يؤدى إلى رغبته ، ويفضى إلى هناءته ، وربما كان سرور البائع بالتخلص مما باع أكثر من سرورى بما اشتريته منه .

وفى الحقيقة قيمة التحفة على قدر ندرتها وإعجاب الناس بها ورغبتهم فيها ، والناس ليسوا سواء فى النظر والتقدير ، فلولا اختلاف الأنظار لبارت السلع .

ومادامت قيمة الشىء تختلف باختلاف رغبة الناس ونظرهم فلا تكون قيمته فى ذاته ، وإنما فيما يلوح له من الشأن عند الغير ، وفى مقدار ندرته والرغبة فيه . وما قيمة هذه حالها من الاختلاف إلا قيمة وهمية حائلة .

النَّظر الحق إلى المال :

ليست الحكمة فى احتقار المال ، وإنما فى عدم الاستعباد له ، ولو أمكن هذا لتحرر عشاقه وضحاياه جميعا من ربقة الإذلال والخضوع . إنهم يعشقون المال لذاته ، وللتلذذ بجمعه ، لا بسبب ما يكفله من الخير إذا حسن استعماله . ولهذا تراهم يفقدون فى سبيل جمعه واكتنازه أكثر وأثمن مما ينالون : يفقدون القوة الذاتية ، والمجهودات ، والوقت ، والفكر ، والحياة ، بدون أن يعوضهم المال من ذلك شيئا يذكر . فلو أتيح أن يتعلم الصغار من الطفولة حقيقة أمر المال وقيمته الذاتية ، والغرض منه ، والسبل التى يجمع لتثميره فيها — لشبوا وهم واثقون تمام الثقة من أن السعادة لا تكون بوفرة المال ولا بالشهرة والمجد الباطل ، ولوثقوا أيضا من أن ما يشعر به الإنسان من السعادة

بسبب طيب القلب ونقاء السريرة والقناعة لا يمكن أن يحصل بدونها ، ولو مع الغنى والجاه .

إذا نظرنا هذه النظرة الحق إلى المال استقللنا ذاتا وإرادة ؛ إذ الغنى الصحيح هو استقلال الذات وحرية الإرادة ؛ لأنهما سبب قوة الإنسان وعظمته ونيل النفس وشرفها ، وبهما يتأتى قمع الميول الفاسدة ، ونيل الغايات الجليلة ، وتحقيق الرغبات الصالحة ، كما يتأتى شعور النفس بالسرور الصادق والسعادة الحقيقية .

المال للخير وللشر :

يرى الجم الغفير أن السعادة فى المال الوفير ، وهو رأى خاطل ، ووهم لاشك باطل : يؤيد ذلك العقل السليم ، والدين القويم ، والعلم الصحيح ، والواقع المحسوس . والغالب أن المال قد يجر إلى المصائب ، ويوقع فى المعاطب ، وهو من حبائل الشيطان ، وللإنسان فتان ، يكتسبه من طرقه المشروعة وغير المشروعة ، ويسلك لنيله السبل المألوفة وغير المألوفة ، وفى الإنفاق كثيراً ما يغضب الرزاق بانتهاك حرمة الآداب والدين والأخلاق ، فتجانبه السعادة والنزاهة ، ويزداد به شقاوة وشراهة : كالنار تطفأ بالزيت فيزيدها اتقاداً ، ويُصعد لهبها إصعاداً . وكالظمآن يشرب من ماء البحر فلا تبرد غلته ، بل تشتد عليه لهفته . فمثل هذا يتهالك فى الحصول على امتيازه ، ويستميت فى سبيل نيله واحتيازه ، يجمعه من حله ومن غير حله ، ويمنع ذوى الحقوق حقوقهم ، ويلهو عن واجب الله ، وينفقه فيما لا يرضاه . وبذلك يكون الثراء وسيلة الشقاء ، لا كما تزعم الدهماء من أنه سبيل الهناءة ، ويكون هو الفقر الحقيقى الذى ذمه الأنبياء والحكماء ، وندد به الشعراء ، وفضلوا العُدْم عليه : روى عن المسيح عليه السلام أنه قال : « فى المال ثلاث خصال » قالوا : « وما هى يا روح الله ؟ » قال : « لا يكسبه من حله » قالوا : « فإن فعل » قال : « يمنعه من حقه » قالوا : « فإن لم يفعل قال : « يشغَله إصلاحه عن عبادة ربه » وقال حكيم :

«ألم تر ذا الغنى ؟ ماأدوم نصبه ، وأقل راحته ، وأخس من ماله حظَّه ، وأشد من الأيام حذرَه ، وأغرى الدهرَ بثَلمه ونَقضه !! ثم هو بين سلطان يرعاه ، وأكفاء يتنافسونه ، وولد يودون فراقه ، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العناء ، ومن أكفائه الحسد ، ومن أعدائه البغى ، ومن ذوى الحقوق الذم ، ومن الولد الملامة ، لا كذى البلغة : قنع فدام له السرور ، ورفض الدنيا فسلم الجسد ، ورضى بالكفاف فتنكبته الحقوق : وقال الشاعر :

من شرف الفقر ومن فضله   على الغنى إن صح منك النظرْ
أنك تعصى الله تبغى الغنى   ولست تعصى الله كى تفتقرْ

حقاً إن الغلو فى تقدير القيمة الوهمية للمال هو علة خراب الذمم ، وانتشار الفساد ، والتفنن فى الخداع ، والغش فى المعاملات التجارية . فحب المال إلى درجة العبادة يسهل استباحة المحذور وارتكاب الجرائم ، ويبدل حقائق الأحوال ومقتضياتها ، فيحترم الناس الغنى لغناه ، وإن كان لصاً جديراً بالاحتقار والمقت ، ويحتقرون النبيل الشريف لفقره ، وإن كان جديراً بالتكريم والإجلال .

يالله من فظاعة مايحدث : إن الطفل منذ الطفولة يحنى ركبتيه للعجل الذهبى ، والصحف لا تكف عن الإفاضة بمديح الأغنياء ، والناس يتركون لهم الأماكن الممتازة حتى فى دور الصلاة والعبادة ، والنساء أدنى إلى الانخداع بمظاهر الغنى من الرجال ، والجميع يرون المال حائلا بين حقيقة الإنسان وإن سفل بخصاله ، وبين مظاهره الداعية إلى احترامه وإجلاله ، فالدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . فالكل خادع ومخدوع ، وغار ومغرور ، وحقيقة الحال ضائعة بين الخداع والغرور ، وبين المظاهر الكاذبة وتأثيرها فى العقول .

أما إذا كسب المال من حيث يجب ، وأنفق فيما يجب وبقدر مايجب — كان فى السعادة أقوى سبب ، وكان ممدوحاً ، وصاحبه مغبوطاً ، والسعى فى نيله مطلوباً : قال تعالى : «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» وروى

عن ابن عمر : « احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غداً » وقال الشيرازى : « لا تستهزىء بالمال وتنميته ؛ فإن المال آلة للمكارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدين ، ومألفة للإخوان ، ومعين على حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزينتها : قيل لحكيم : لم تجمع المال وأنت حكيم ؟ قال : لأصون به العرض ، وأؤدى به الفرض ، وأستغنى به عن القرض . وفقد المال يصحبه قلة الاكتراث من الناس ، وتتبعه قلة الرغبة فيه والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس » وقال الشاعر :

ماأحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وقال آخر :

إذا المرء لم يكسب معاشا لنفسه شكا الفقر أو لاقى الصديق فأكثرا
وصار على الأدنين كَلا وأوشكت صلات ذوى القربى له أن تنكَّرا
فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
وماطالب الحاجات من حيث تُبْتَغَى من الناس إلا من أجدَّ وشمَّرا
فلا ترض من عيش بدونٍ ولا تنم وكيف ينام الليل من كان معسرا؟

فالمال قوة يمكن استخدامها للخير ، كما يمكن استخدامها للشر ، فلا يجوز أن يسمو بها الإنسان عن مكانها من الاعتبار .

المال آلة تقضى بها الحاجات ، والآلة نافعة لا تحتقر ، ولكنها لا تأخذ شأنا غير الذى لها ، ولا تضيع إلى جانبها قيمة العامل بها ، ولا كرامته الذاتية . ولما كان النزوع بقدر المال إلى أسمى من قدره الحقيق يغض من كرامة الإنسان كان من الواجب الاحتفاظ بالكرامة الذاتية ، ولو بتضحية كل ماعداها ، فليست كرامة المرء مقدرة بما فى حوزته من المال ، وإنما بماله من الصفات الفاضلة ، والأخلاق الكريمة ، والأعمال الجليلة : فالمادحون من الشعراء يتعمدون المغالاة فى المدح ، وينسبون إلى ممدوحيهم كل مايعد

من المفاخر والمحامد ، وما عهدناهم ذكروا الغنى محمدة لذاته ، ولا عدوه مكرمة بخصوصه . فالرفعة والفخر ليسا بالثروة الواسعة ، ولا بالمراكز السامية ، وإنما بما للانسان من شمائل نبيلة ، وتربية عالية ، وأخلاق محمودة فعجيب أن يغمض الإنسان عينه لكى لا يبصر وجوه المفارقة بين مايفترضه للثروة من المزايا وبين حقيقة الحال ، وعجيب أيضا أن ينفرد برأيه ، وألا يحفل بأقوال الحكماء والأنبياء عنها ، ولا بما نسب إلى الخالق منها .

ما يجب فى تناول المال

لتنال به السعادة

الوَلوع بالدنيا رأس كل جريمة ، وليست الدنيا مقصودة لذاتها ، بل هى مزرعة الآخرة ، ففيها الخير النافع ، وفيها السم الناقع ، ومثالها مثال حية : يأخذها الراقى ، ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى . والمال من الخيرات المتوسطة ؛ فإنه ينفع من وجه ويضر من وجه ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، فلم يكن بد من الاقتصار على النافع منه ، والاحتراز من المهلك . وأصل ذلك معرفة رتبة المال وقيمته ؛ فإن أصل الأمور كلها العلم بحقائق الأشياء ، فعلى طالب السعادة مراعاة أمور فى حق المال من حيث قيمته والدخل والخرج والقدر المتناول بالنية الواجبة ، وسنوضح كلا من هذه الأمور الخمسة فنقول :

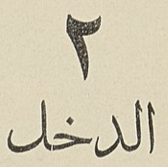
١

قيمة المال ورتبته

المقتنيات المرغوب فيها ثلاثة : نفسية ، وبدنية ، وخارجة . والخارجة أدنى هذه الثلاثة ، والمال من جملة الخارجة ، والدراهم والدنانير أحط أنواع المقتنيات الخارجة ؛ لأنهما خادمان ولا خادم لهما ؛ إذ النفس تخدم العلم والفضائل النفسية لتحصلها ، والبدن يخدم النفس ، فيكون آلة ، والمطاعم والملابس

تخدم البدن ، والدراهم والدنانير تخدم المطاعم والملابس ، والمقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن البدن تكميل النفس . فمن عرف هذا الترتيب وراعاه فقد عرف قدر المال ، ووجه رتبته ، ووجه شرفه من حيث هو ضرورة كمال النفس . ومن عرف غاية الشيء واستعمله لتلك الغاية فقد أحسن إلى الغاية ، وعند ذلك يقتصر على قدر الحاجة الموصلة إليها ، فلا يركن إليه معتكفا بكنه همته عليه . وبهذا النظر تنكشف له الشبهة فى ذم الله تعالى المالَ فى مواضع حيث قال : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ومدحه حيث امتن به فقال : (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) فإنه من حيث كونه وسيلة للحياة الباقية والسعادة الدائمة محمود ، ومن حيث كونه صارفا عنها مذموم ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ » وقال تعالى : (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وكيف لا يكون خاسرا من يجمع الشعير لدابته ثم يترك الدابة ، ويشتغل بتنقية الشعير وعد حباته وبناء حصن حواليه ، حتى تهلك الدابة جوعا !! وهذا مثل من صرفته الدنيا عن الآخرة وهو الخسران . بل مثل الناس كلهم فى الاغترار بزهرة الدنيا والاعتكاف على لزوم لذاتها مثل راكبى سفينة متوجهين إلى أفضل بلدة ينال فيها أعلى رتبة ، فأفضت بهم السفينة إلى جزيرة ذات أسود وأساود ، فأمروا بالخروج ليتزودوا منها ، وأن يكونوا على حذر من غوائل الجزيرة ، فرأوا حجراً مزبرجا وزهراً منوراً ، فأعجبهم ذلك ، وشغفوا به ، فتباعدوا عن المركب ونسوه ونسوا المقصد ، وبقوا لاهين حتى سارت السفينة ، وجن عليهم الليل ، فثارت عليهم الأسود تفترسهم والأساود تنهشهم ، ولم يغن عنهم حجرهم وزهرهم شيئا ، فيقول واحد منهم : (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) والآخر يقول : (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) وبعضهم يقول : (يَا حَسْرَتَا

عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) ولم يبق بأيديهم إلا حسرة وندامة لا آخر لها ومجاورة الأفاعى والأسود مع الخزى والنكال. فهذا بعينه مثال المغترين بمتاع الدنيا . ولهذا الخطر العظيم استعاذ الخليل إبراهيم وقال : (اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) وعنى بها هذين الحجرين : الذهب والفضة ؛ إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى فيها أن تُعْتَقَدَ الإلهية فى شىء من الحجارة . ولهذا قال على : « ياحميراء غرى غيرى ، ويا بيضاء غرى غيرى » ولذلك شبه عليه السلام طلاب الدنانير والدراهم المشغوفين بهما بعبدة الحجارة ، فقال « تَعِسَ عَبْدُ الدَّرَاهِمِ تَعِسَ عَبْدُ الدَّنَانِيرِ وَلاَ انْتَعَشَ ، وإذَا شِيكَ(١) فَلاَ انْتَقَشَ » (٢)



الدخل

الدخل: إما بالاكتساب ، وإما بالبخت : أما البخت فميراث أو وجود كنز أو حصول عطية من غير سؤال . وأما الكسب فجهاته معلومة . وأخذ المال دون تحرج مذموم شرعاً ، فلا ينبغى أخذه إلا من وجهه . والوجوه الطيبة معلومة من الشرع : فإن وجد حلالا طيباً فليأخذه ، وإن كان حراماً محضا فليجتنبه ، وإن كان الغالب أنه حلال فإن قدر على الحلال المطلق من غير تعب فليترك ؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإن لم يتيسر الحلال المطلق فليأخذ منه قدر الحاجة ، فإن كان يقدر على الحلال المطلق ولكن بعد طول التعب واستغراق الوقت فله حالتان : إن كان من العاملين بالأبدان مع اعتقاد راسخ فليشتغل بطلب الحلال ؛ فإن تعبه فى طلب الحلال عبادة كتعبه فى سائر العبادات . وإن كان من أصحاب القلوب وأرباب العلوم ، وكان يتعطل عليه ماهو بصدده لو استغرق أوقاته فى الحلال المطلق ـ

(١) إذا أصابته شوكة (٢) فلا أخرجت

فليأخذ من الذى يتيسر قدر حاجته ؛ فإن المحظور المحض قد ينقلب مباحاً خوفاً من محظور آخر شر منه

٣

المخرج

كما للدخل وجه معين كذلك المخرج ، فلا بد من مراعاة الترتيب فيه . فالإنفاق محمود ومذموم ، والمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة : وهو الصدقة المفروضة والإنفاق على العيال . ومنه ما يكسب الحرية والفضيلة وهو إيثار الغير على النفس على الوجه المندوب إليه شرعاً .

والمذموم ضربان : إفراط وتفريط : فالإفراط : الانفاق أكثرمما يجب ـ بحيث لايحتمله حاله ـ فيمالا يجب ، والإخلال بالأهم ، والصرف إلى مادونه . والتفريط : المنع عما يجب الصرف إليه ، والنقصان من القدر الذى يليق بالحال . ومتى أخذ المرء المال من وجهه ووضعه فى وجهه كان محمودا مأجورا ، والناس فى المال ثلاثة أصناف : صنف منهمكون فى الدنيا بلا التفات إلى العقبى إلا باللسان وحديث النفس ، وهم الأكثرون ، وقد سموا فى كتاب الله عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحوها . وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة : اعتكفوا بكنه هممهم على العقبى ، ولم يلتفتوا أصلا إلى الدنيا : وهم النساك . وصنف ثالث متوسطون وفوا الدارين حقهما : وهم الأفضلون عند المحققين ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة . ومنهم الأنبياء عامة عليهم السلام : بعثهم الله عز وجل لإقامة مصالح العباد فى المعاش والمعاد . وقيل ثلاثتهم ـ المراد بقوله تعالى :(وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

فالمراعى للدنيا والدين كما يجب ، وعلى ما يجب ، جامعاً بينهما ـــ خليفة

الله فى أرضه ، فهو السابق عند أهل هذا القول .

وقال بعض المحققين : « الناس ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل مشتغل بهما ، وذلك درجة المخاطرين » .

وجلى أن المنازل الرفيعة لاتنال إلا باقتحام الأخطار . وقد حكى أن بعض أولاد الملوك العادلة عظمت رتبته فى العلم والحكمة ، فاعتزل الناس وزهد فى الدنيا ، فكتب إليه بعض الملوك : قد اعتزلت مانحن فيه ، فإن علمت أن ما اخترته أفضل فعرفنا ؛ لنذر مانحن فيه ، ولا تحسبنى أقبل منك قولا بلا حجة . فكتب إليه :

« اعلم أنَّا عبيد لرب رحيم ، بعثنا إلى حرب عدو ، وعرفنا أن المقصد من ذلك قهره أو السلامة منه ، فلما قربنا من الزحف صرنا ثلاثة أقسام : متخوف طلب السلامة منه ، فاعتزله ، فالتزم ترك الملامة ، وإن لم يكتسب المحمدة . ومتهور قدم على غير بصيرة ، فجرحه العدو وقهره ، واستجلب بذلك سخط ربه . وشجاع أقبل على بصيرة ، فقاتل وأبلى ، واجتهد ، فهو الفائز التام الفوز . وإنى لما وجدتنى ضعيفاً رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين . فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن من أكرمهم عند الله . »

وهذا الكلام يكشف حقيقة الأمر فيه ، وينبه على صحة ذلك — قوله تعالى : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ) وإنما يكون الإحسان بإدخال السرور على قلوب المسلمين بالمال ، ولكن الخطر فيه عظيم ؛ فإنه ربما يشتغل من ضعفت بصيرته بما فيه ضرره من حيث لايدرى . فلخطره وجبت المبالغة فى الزجر عنه .

٤

القدر المتناول

لاغنى بك عن ملبس ومسكن ومطعم ، وفى كل واحد ثلاثة أنواع : أدنى وأوسط وأعلى :

الملبس :

أدنى درجات الملبس من حيث القدر مايستر الجزء المعتاد ستره من أدنى الأنواع وأخشنها ، وبالإضافة إلى الوقت مايبقى يوما وليلة ، كما نقل عن عمر رضى الله عنه : أنه رقع قميصه بورق شجر ، فقيل له : هذا لايبقى . فقال : « أو أحيا إلى أن يفنى ؟ » .

وأوسطه مايليق بمثل حاله من غير تنعم وترفه ، ولا ملبوس حرام كإبريسم غالب . وأعلاه جمع الثياب وطلب الترفه بها على ماعليه جماهير أهل الدنيا .

المسكن :

وأدنى المسكن مايقل من الأرض : من مسجد أوملجأ أونحوهما . وأوسطه مِلك لاتزاحم فيه ، فتقدر على أن تخلو فيه بنفسك ، ويبقى معك عمرك ، وهو على أقل الدرجات من حسن البناء والمرافق ، وهذا حد الكفاية . وأعلاه دار فيحاء فسيحة مزينة البناء كثيرة المرافق ، وتتبعها زيادات لاتنحصر على مايرى عليه أرباب الدنيا وأولو الرتب . والأول هو قدر الضرورة ؛ إذ المقصود من المسكن أرض تقلك يحيط بها حائط يمنع عنك العوادى ، ويظلك سقف يمنع المطر وحر الشمس . ولن يقنع به إلا المتوكلون . والأوسط هو حد الكفاية وما بعده خارج عن حد الدين بإقباله على أمر الدنيا ، واشتغاله بزينتها ، أما الجلوس فيها مع الغفلة عنها دون اشتغال بها وطمأنينته إليها فمن المباحات .

المطعم:

أما المطعم فهو الأصل العظيم ، إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور . وله أيضاً ثلاث مراتب :

أدناها : قدر الضرورة : وهو مايسد الرمق ، ويبقى معه البدن وقوة العبادة ، وذلك يمكن تقليله بالعادة : بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً ؛ حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين ، وقد انتهى الزهاد فى القدر كل يوم إلى حمصة ، وبعضهم فى الوقت إلى عشرين يوما ، وقيل : إلى أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها ، فإن لم يقدر على ذلك فالدرجة الوسطى : وهى فى ثلث البطن ، كما ذكرناه من قبل . ولا ينبغى أن يزيد على القدر الذى حدده الشرع ؛ فالزيادة عليه بطنة . ثم يقتصر أيضاً من نوعه على الوسط ، كما اقتصر من قدره على الوسط ؛ فنعم السعيد من قنع بقدر الكفاية ، ولكن النظر يختلف فى قدر الكفاية من حيث الوقت : فرب إنسان فارغ القلب من قوت يومه مشغول القلب بما بعده ، وينتهى حرصه إلى أن يقدر لنفسه عمرا طويلا ، ويريد أن يفرغ قلبه طول عمره ، ثم قد يقدر له حاجات ، فيطلب الاستظهار بالخزائن ، وهو الضلال المحض .

ومن أوتى من هذه الأمور قدر كفايته ثم اشتغل قلبه بغيره كان مغبونا: قال عليه السلام : « مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ ، وَلَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

٥

النية الصالحة

الأمر الخامس : أن تكون نية المرء صالحة فى الأخذ والترك : فيأخذ مايأخذه ليستعين به على العبادة ، ويأكل ليتقوى به عليها ، ويترك مايترك زهدا فيه واحتقارا له : فقد قال عليه السلام : « مَنْ طَلَبَ رِزْقَهُ عَلَى مَاسَنَّ

فَهُوَ جِهَادٌ » وقال عليه السلام لابن مسعود : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى اللُّقْمَةِ يَضَعُهَا فِي فَمِ امْرَأَتِهِ » وأراد بالمؤمن من يعرف حقائق الأمور فيقصد بما يتعاطاه وجه الله ، والاستعانة على سلوك سبيله .

وعند هذا يتبين أنه ليس الزاهد من لامال له ، بل الزاهد من ليس مشغولا بالمال ، وإن كان له أموال العالمين ، ولذلك قال على رضى الله عنه : « لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض وأراد به وجه الله فليس براغب »

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله : بأن تكون حركتك مقصورة على عبادة ، أوعلى مايعين على عبادة ولا يستغنى عنـه العباد : كالأكل وقضاء الحاجة مثلا ؛ فإنهما معينان على العبادة ، وهما أبعد الحركات عن العبادة ، وعند هذا يكون الكامل النفس فى تناول الدنيا كالراقى الحاذق فى مس الحية متقيا سمها ومستخرجا جوهرها ، والعامى إذا تشبه به ونظر إليـه ظن أنه أخـذها مستحسنا شكلها وصورتها مستلينا مسها مستصحبا إياها ، فإذا ظن ذلك أخذها وتقلدها ، فقتلته . وقد شبهت الدنيا بها فقيل :

الدنيا كحية تنفث السموم النواقع ، وإن لان ملمسها . وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير فى تخطى قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة ـ فمحال أن يتشبه العـامى بالـكامل فى تناول الدنيـا . وإذا تؤمل ملك سليمان وما أوتى مع رتبة النبوة علم أن الزهد زهد النفس ، لا خلو اليد . وكيف تضر الدنيا بالأنبياء والأولياء ، وهم يعرفون ضرها ونفعها ورتبتها فى الوجود ، ويعلمون أن للإنسان فى وجوده ثلاث منازل : منزلة فى بطن أمه ، ومنزلة فى فضاء العالم ، ومنزلة بعد الموت . والدنيا فى مثال نزل بُنى ، وينتهى إليه المسافر فى المنزل الأوسط ، وقد هيئت فيه أسباب وأوان وأقوات ؛ ليستعين بها المسافر ، وينتفع بها انتفاعه بالعارية والمنحة ، ويخليها لمن يلتحق بعده ، فيأخذها بشكر ، ويتركها بانشراح صدر ، وقد انتهى إلى النزل جماعة من الحمقى ،

فظنوا أن هـــذا المنزل وطن وأن هذه الأسباب ليست عارية وإنما هى هبة مؤبدة ، فصاروا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليـد ونزع الروح . وقيـل : إن مَثَلَ الناس فيما أعطوا من الدنيا كمثل رجـل هيأ دارا ، وهو يدعو أقواما إلى داره على الترتيب واحدا بعد واحد ، فأدخل واحدا داره ، فقدم إليـه طبق ذهب عليـه بخور ورياحين ؛ ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ، فجهل رسمه ، فظن أنه وهب له ، فلما استرجع منه ضجر وتفجع . ومن كان عالما برسمه انتفع به ورده بانشراح صدر .

السبب السادس من اسباب السعادة

القناعـــة

حقيقتها :

عناصر القناعة خمسة : الرضا بالكفاف ، والإجمال فى الطلب ، والاطمئنان إلى القدَر ، والتوكل على الله ، والزهد فى الدنيا . هـــذه هى القناعة وهى الغنى الحقيقى الذى أشرنا إلى شىء منه سابقا : قال عليه الصلاة والسلام : « لَيسَ الغِنَي عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » أى أن الغنى غنى النفس وشبعها وقلة حرصها ، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة ؛ لأن من كان طالبا للزيادة لم يستغن بما معـه ، فليس له غنى : ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الْقَنَاعَةُ كَنزٌ لَا يَنْفَدُ » إذ الانفاق منها لا ينقطع ؛ لأن صاحبها قد حصر رغباته فيما تحت يده ، وكلما تعذر عليه شىء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى . وهذه هى السعادة التامة :

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تـكن ... على حالة إلا رضيت بدونها
ومن طلب العليا من العيش لم يزل ... حقيرا وفى الدنيا أسير غبونها

لذلك يجب على من رزق الكفاية ، ووجد القصد من السعادة الخارجة ألا يشتغل بفضول العيش ؛ فإنهـا بلا نهاية ، ومن طلبها أوقعتـه فى مهالك

لانهاية لها ؛ إذ الغرض الصحيح من الكفاف والقصد مداواة الآلام ، والتحرز من الوقوع فيها ، لا التمتع وطلب اللذة ؛ فإن ذلك يأتى عرضا لاقصدا ، ومن عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان مؤلمان حادان لاينبغى له ان يقصد لذة البدن بل صحته ؛ فالعاقل يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل ، ومع ذلك فالذى يقصد صحة البدن سيلتذ لامحالة . وأما من طلب بالعلاج اللذة لا الصحة فلا تحصل له الصحة ، ولا تبق له اللذة . وأما من لم يرزق الكفاية ، واحتاج إلى السعى والاضطراب فى تحصيلها - فيجب ألا يتجاوز القصد وقدر حاجته منها إلى مايضطره إلى السعى الحثيث والحرص الشديد والتعرض لقبيح المكاسب أوضروب المهالك والمعاطب ، بل يجمل فى طلبها إجمال العارف بخساستها العالم بأنه يضطر إليها لنقصانه ، فيطلب منها القدر الضرورى ،

فالاقتصار على الكفاف والسعى إلى القوت لحفظ النفس والبدن أمر لابدمنه ، وأما الإيغال فى ذلك والإفراط فيه فمشغلة لاحد لها وعناء لاغاية له ومدعاة إلى الخروج عن جادة الشريعة : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خطب الناس فكان من خطبته قوله : « والله ماأخشى عليكم أيها الناس إلا مايُخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، فقال رجل : يارسول الله أيأتى الخير بالشر ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم قال : كيف قلت ؟ قال : قلت يارسول الله : أيأتى الخير بالشر ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَوَ خَيْرٌ هُوَ ؟ إِنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا (١) أَوْ يُلِمُّ (٢) إِلَّا آكِلَةَ الْخُضَرِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ ثَلَطَتْ (٣) أَوْ بَالَتْ ،

---

(١) الحبط بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة : التخمة وأن تأكل الماشية فتكثر ، حتى تنتفخ لذلك بطونها ، ولا يخرج عنها ما فيها . (٢) أويلم : يقارب القتل

(٣) الثلط : الرجيع الرقيق . وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة ، ويقال :

ثُمَّ اجْتَرَّتْ(١) فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ : فَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ » ومعنى هذا الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم حذرهم من زهرة الدنيا ، وخاف عليهم منها ، فقال هذا الرجل : إنما يحصل ذلك لنا من جهة مباحة كغنيمة وغيرها ،وذلك خير ، وهل يأتى الخير بالشر ؟ وهو استفهام إنكار واستبعاد ، أى يبعد أن يكون الشىء خيراً ، ثم يترتب عليه شر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أما الخير الحقيقى فلا يأتى إلا بخير ، أى لا يترتب عليه إلا خير . ثم قال : أو خَيْرٌ هُوَ ؟ معناه أن هذا الذى يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير ، وإنما هو فتنة . وتقديره : الخير لا يأتى إلا بخير ، ولكن ليست هذه الزهرة بخير ؛ لما تؤدى إليه : من الفتنة ، والمنافسة ، والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة . ثم ضرب لذلك مثلا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن كُلَّ ما يُنبِتُ الربيع يقتلُ حَبَطاً أو يُلم إلا آكلةَ الخُضَرِ إلى آخره ، ومعناه أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطاً بالتخمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل ، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذى تدعو إليه الحاجة ، وتحصل به الكفاية المقتصدة ؛ فإنه لا يضر . وهكذا المال : هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس ، وتميل إليه : فمنهم من يستكثر منه ، ويستغرق فيه غير صارف له فى وجوهه ، فهذا يهلكه ، أو يقارب إهلاكه . ومنهم من يقتصد فيه ، فلا يأخذ إلا يسيراً ، وإن أخذ كثيراً فرقه فى وجوهه ، كما تَثْلِطه الدابة ، فهذا لا يضره . قال الأزهرى : « فيه مثلان » أحدهما للمكثر من الجمع المانع من الحق ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل » ؛ لأن الربيع ينبت أحرار(٢) البقول ،فتستكثر

ثلط البعير : إذا ألقى بعره رقيقا . (١) اجترت : مضغت جرتها ، والجرة : ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه . (٢) أحرار البقول : الجيد منها

منه الدابة حتى تهلك . والثانى للمقتصد ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «إلا آكلة الخضر، لأن الخضر ليس من أحرار البقول» وقال القاضى عياض: «ضرب صلى الله عليه وسلم لهم مثلا بحالتى المقتصد والمكثر : فقال صلى الله عليه وسلم : أنتم تقولون : إن نبات الربيع خير ، وبه قوام الحيوان . وليس هو كذلك مطلقاً ، بل منه ما يقتل أو يقارب القتل : فحالة المبطون المتخوم كحالة من يجمع المال ، ولا يصرفه فى وجوهه ، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن الاعتدال والتوسط فى الجمع أحسن ، ثم ضرب مثلا لمن ينفعه إكثاره ، وهو التشبيه بآكلة الخضر ، وهذا التشبيه لمن صرفه فى وجوهه الشرعية . ووجه الشبه أن هذه الدابة تأكل من الخضر حتى تمتلىء خاصرتها ، ثم تثلط ، وهكذا من يجمعه ثم يصرفه ، والله أعلم»

القناعة والعمل :

يظن بعض المتعالين الذين لم ينشئوا نشأة دينية فلم يتذوقوا طعم الدين ، ولم يتغذوا بلبانه — أن القناعة ، والرضا ، والقضاء ، والقدر ، والتوكل ، والزهد أمور تدعو إلى الجمود والخمول والكسل والتأخر . اعتقاد فاسد ، ووهم خاطىء يدل على جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ؛ فإن الشرع أمر بالسعى إلى العيش وحث على الجد فى تحصيل الرزق ، وكانت دعوته إلى هذه الأمور ؛ ليكون المرء فى عمله غير مروع القلب ، ولا مشتت الفكر ، بل رابط الجأش ، ثابت الجنان ، معتمدا على الله فى عمله ، مستمدا منه المعونة ، ثم هو بعد ذلك لا يحزنه فوت المطلوب ، ولا يبطله نيل المرغوب ؛ إذ النتيجة من تقدير الملك القادر ، وما عمله هذا إلا سبب ظاهر : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

وقد جمع الله تعالى القناعة والرضا والقضاء والقدر والتوكل والزهد فى قوله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ

قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

فأنت ترى بهذا أن الدين قد دعا إلى هذه الأمور لغاية سامية ، وحكمة عالية يتوقف عليها النجح فى الأعمال بإتقانها ، وبلوغ الآمال بإحكام وسائلها : هذه الحكمة وتلك الغاية هى غرس الاطمئنان فى النفوس وقت القيام بالعمل ، وإنزال السكينة على القلوب عند ظهور نتيجته . ولو كانت على غير المنتظر من حيث يعلم العامل أن ما وقع قد سبق تقديره من الحكيم الخبير ، وأنه ليس له قوة على دفعه ، بل مما يزيد اطمئنانه ، ويثبت جنانه - اعتقاده أن الخير فى الواقع ، وأنه لو اطلع على الغيب لاختار ذلك الواقع ، كما أخبر بذلك سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وأنه إنما سعى جهده لما كان يظنه خيرا ، ولكن الخير الحقيقى هو ما أراده الله له .

فخير علاج لمن تجرى الرياح بما لا يشتهى هو الرضا بالقدر . وأما من لم يعتقد ذلك فيكون فى عمله قلق الخاطر خوف الإخفاق ، مشتت الفكر خشية الزلل ، متوتر الأعصاب خيفة السقوط ، ومن فرقه تتفرق قواه ، فيكون عن الإتقان والإجادة بمنحاة ، ويؤتى من ناحية معتقده ، فيقع فيما يخشاه ، فيرغى ويزبد ، ويبرق ويرعد ، ويبخع نفسه حزنا ، وينتحر غما وكمدا .

فأين هذا ممن يسير فى عمله مرتكنا على جانب ربه ، راضيا بقضائه ، وأن ما سيكون وعلى أى وجه يكون هو من آلائه ونعمائه ، فيشكره على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، اللهم إن الفرق بينهما لهو الفرق بين الاطمئنان والقلق ، والأمن والفرق ، والنجاة والغرق ، واليأس والأمل ، والنجاح والخيبة .

انتصار الإسلام بهذه العقائد :

ولا غرابة فيما قدمناه من أثر هذه الصفات فى سعادة الإنسان ونجاحه ؛ فقد انتصر الإسلام بالسلف على قلة عددهم وعدتهم ؛ لإشراب هذه العقائد

فى قلوبهم بقوة إيمانهم ، وامتزاجها بلحمهم ودمهم ، وتغلغلها فى نفوسهم إلى مدى بعيد ، وتأثرهم بها إلى أقصى غاية ، يزكى الواحد منهم نفسه بالخروج لله عن كل أمواله ، بل الجود بالنفس فى إعلاء كلمة الله كان أحب آماله :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ✻ والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وإليك مُثُلا تبين مبلغ أثر هذه العقيدة فى تقدم المسلمين :

الأول : لما حصر المسلمون فى فتح مصر حصن بابليون أرسل المقوقس إلى عمرو ابن العاص : « إنكم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم ، نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ، ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على مانرضى نحن وهم به من شىء »

فلما أتت عمرا رسلُ المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : « أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ، ويستحلون ذلك فى دينهم !! »

وإنما أراد عمرو بذلك انهم يرون حال المسلمين ، ثم رد عليهم عمرو مع رسلهم : « إنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم فى الإسلام ، فكنتم إخواننا فى الإسلام وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين » .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه ، قال : « كيف رأيتموهم ؟ » قالوا : « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من

الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم . فقال المقوقس : « والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد »

ومما قاله عبادة بن الصامت للمقوقس : « إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدواً ممن حارب الله لرغبة الدنيا ، ولا طلبا للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعل ماغنمنا من ذلك حلالا ، ومايبالى أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ؟ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها . وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله ، واقتصر على هذا ؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة . بذلك أمرنا الله ، وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا فى الدنيا إلا مايمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضا ربه وجهاد عدوه »

وبينما عبادة بن الصامت يصلى فى ناحية ، وفرسه عنده ـ رآه قوم من الروم ، فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزّة ، وتحرشوا به ، فلما دنوا منه سلم من الصلاة ، ووثب على فرسه ، ثم حمل عليهم ، فلما رأوه ولوا هاربين ، وتبعهم ، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم ، فصار لا يلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن ، ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشىء مما طرحوه من متاعهم ، حتى رجع إلى موضعه الذى كان فيه ، فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه .

هؤلاء هم المسلمون قد انتصروا بالعقيدة ، وأتوا بالأعمال المجيدة ،

فخضعت لهم الأمم القوية العنيدة . ويوم أقفرت النفوس من هذه العقائد وذهب أثرها ـ ضعفت الهمم ، وفسدت الأخلاق ، وانحطت النفوس ، وزال مجد الدين ، وخنعت الأمة للمغيرين ، وطأطأت رقابها لنير الاحتلال . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الإسلام الذى انتصر بالقناعة قد حث على السعى :

إن الإسلام الذى انتصر بالقناعة على النحو الذى ضربنا لك مثلا منه من أمثال لا تحصى ولا تستقصى ـ ليبرهن لك على أن دعوته إلى القناعة وما يندرج تحتها ليست دعوة إلى الخمول والخيبة والتقهقر ، بل بالعكس هى دعوة إلى النجاح والتقدم : إن الإسلام الذى دعا إلى ذلك هو الذى حث على السعى والأخذ بالأسباب الظاهرة : قال تعالى للسيدة مريم لما جاءها المخاض إلى جذع النخلة : (وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا) ولو شاء الله أن ينزله عليها من غير أن تسعى فى هز النخلة لفعل . وقال : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وَقَالَ : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ، وقال : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة .

ولما أقبل النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك استقبله معاذ فصافحه فوجد فى يده أثر العمل ، فسأله عن ذلك فقال : « أحترث بالمسحاة وأنفقه على عيالى » فقبله النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لا تمسها النار » وكان عمر رضى الله عنه إذا نظر إلى فتى وأعجبه سأل : هل له حرفة ؟ فإذا قالوا : لا ـ سقط من عينه . وقال ابن عباس رضى الله عنه : « قدم قوم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : « أيكم كان يكفى طعامه وشرابه ؟ » فقالوا : كلنا ،

فقال: «كلكم خير منه». وللمحافظة على الطمأنينة التى تلزم القناعة وراحة البال التى ترمى إليها، ولتحاشى الانهماك فى طلب الدنيا، وحصر كل الهم فى ذلك، واشتغال الفكر به - أمرنا الإسلام بالقصد فى الطلب، والإجمال فى السعى: قال النبى صلى الله عليه وسلم: «اقْتَصِدُوا فِى الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ مَا رُزِقْتُمُوهُ أَشَدُّ طَلَباً مِنْكُمْ لَهُ، وَمَا حُرِمْتُمُوهُ فَلَنْ تَنَالُوهُ، وَلَوْ حَرَصْتُمْ»

لامنافاة بين القناعة وكثرة المال:

مما يجدر التنبيه عليه هنا أنه لاتنافر بين القناعة وبين المال الوفير، مادام هذا المال الوفير لايذهب بالطمأنينة التى هى حكمة الدعوة إلى القناعة، ولا يمس هدوء البال الذى هو غاية السعادة، وما دام هذا المال الوفير لايقصد به إلا سد الخلة وستر العورة والتقوية على العبادة، ثم التصدق بالزيادة.

ومن هذا يتضح جليا - كما تقدم - أنه ليس الزاهد من لامال له، بل الزاهد من ليس مشغولا بالمال، وإن كان له أموال العالمين: ولذلك قال على رضى الله عنه: «لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض، وأراد به وجه الله فليس براغب» وقال: من عمل بقوله: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) - فقد ملك الزهد بطرفيه.

القناعة والادخار:

من حيث ثبت أن كثرة المال لاتنافى صفات القناعة أرى أن لا منافاة أيضاً بين هذه الصفات والادخار، متى توافرت الثقة واليقين والتوكل والاطمئنان، وقصد بالادخار الأخذ بوجه من وجوه الأسباب الظاهرة، بل قد يكون الادخار أولى إذا كان المرء بدونه يستشعر فى نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر، حتى لو كان لايتفرغ قلبه إلا بإمساك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته لكان ذلك له أولى؛ لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله؛ ورب شخص يشغله وجود المال؛ ورب

شخص يشغله عدمه ، والمحذور مايشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا فى عينها غير محذورة ، لاوجودها ولا عدمها : ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى . وعمدة الاشتغال بالله عز وجل - القلب : فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، أما من يعول غيره فلا يخرج عن حد القناعة بادخار قوت سنة لعياله ؛ جبراً لضعفهم وتسكينا لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للقناعة . وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ؛ لا لضعف قلب فيه وفى عياله ، ولكن ليشرع ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه تطييباً لقلوب الضعفاء ، حتى لاينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركوا الميسور عليهم من الخير بعجزهم عن منتهى الدرجات . فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم .

دفع الضرر والوقاية منه :

لاينافى التوكل ولا الرضا أن يسعى المرء فى دفع ضرر متوقع حصوله لنفس أو مال قطعاً أو ظناً لاوهماً :

أما فى النفس : فكالنوم فى مسبعة أو مجرى سيل أو تحت جدار مائل أو سقف منكسر : فكل ذلك منهى عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . وإذا كان سيناله الضرر من إنسان فإنه إذاأمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فالصبر أولى : قال تعالى : (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) وقال تعالى : (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ) وقال عز وجل: (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) إلى آخر الآيات الكثيرة التي وردت في ذلك .

هذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب مثلا فترك دفعها ليس من الرضا والتوكل في شيء .

وأما في المال : فلا ينقص الرضا والتوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، ولا بنحو ذلك ؛ لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى قطعاً أو ظناً : ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أهمل ناقته وقال : توكلت على الله :- « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » وقال تعالى : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) وقال في كيفية صلاة الخوف : (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ) وقال سبحانه : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) وقال تعالى لموسى عليه السلام « فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً » والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعاً قطعاً - كقتل الحية والعقرب - ولكنه سبب مظنون ، والمظنون كالمقطوع كما أسلفنا .

كيف يكون الآخذ بهذه الأسباب راضياً متوكلا ؟ :

من أخذ سلاحه حذراً من العدو ، وأغلق بابه خوفاً من اللص ، وعقل بعيره خشية أن ينطلق - فهو متوكل راض علماً ، وحالا :

فأما العلم : فأن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ، وكذلك عقل البعير وحمل السلاح : فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يُقتل أو يُغلب . فلا اعتماد على هذه الأسباب بل على من سببها .

وأما الحال : فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو سبيلك ، وأنا راض

بحكمك ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك فى ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك ياموجد الأسباب .

الوقاية من المرض :

إن الوقاية من المرض نوع من الوقاية من الضرر الذى تقدم أنه لا ينافى الرضا والتوكل : فقد أمرنا بالفرار من المجذوم ، كما نفر من الأسد : ويدل على ذلك أيضاً ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون : فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية (١) - بلغهم أن به موتا عظيما ووباء ذريعا ، فافترق الناس فرقتين : فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء ، فنلقى بأيدينا إلى التهلكة . وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت ، فنكون كمن قال الله تعالى فيهم : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ) فرجعوا إلى عمر ، فسألوه عن رأيه ، فقال : « نرجع ولا ندخل على الوباء » فقال له المخالفون فى رأيه : « أنفرّ من قدر الله تعالى ؟ » قال عمر : « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم ، فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ، وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن ، فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه ياأمير المؤمنين شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : « الله أكبر » فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ » ففرح عمر رضى الله عنه

(١) قرية من أعمال دمشق

بذلك ، وحمد الله إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فهذا إجماع من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على أن الأخذ بأسباب الوقاية من الأمراض لا ينافى التوكل على الله ولا الرضا بقضائه ، كما أنه لا يقدح فى الرضا والتوكل الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى .

علاج المرض :

يدل على أن التداوى غير مناقض للرضا والتوكل فعلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره : أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إِلاَّ السَّامُّ » يعنى الموت ، وقال عليه السلام : « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ »

وسئل عن الدواء والرقى : هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ » وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية ، فبعث إلى أبى بن كعب طبيبا قطع له عرقا وكواه عليه (أى فصده وكواه) وقال لعلى رضى الله عنه ، وكان رمد العين : « لا تأكل من هذا » يعنى الرطب « وكل من هذا ؛ فإنه أوفق لك » يعنى سِلْقاً قد طبخ بدقيق شعير .

وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى أنه كان يكتحل ويحتجم ويشرب الدواء ، وتداوى صلى الله عليه وسلم من العقرب وغيرها ، وما روى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن حد الحصر ، وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى : طب النبى صلى الله عليه وسلم .

فموجد الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب . والله تعالى أعلم .

كيف يرضى القانع بالبلايا والمحن ؟ :

قدمنا أن الابتلاء لايخرج المؤمن الكامل عن كمال إيمانه ، كما أسلفنا أيضاً أن المصائب والمحن لاتخرج السعيد عن سعادته ؛ لأن كلا منهما يكون راضياً بحالته قانعاً بها ، بل مسروراً بما هو فيه ، فكيف يتصور ذلك :

يتصور ذلك من ناحية حب الله تعالى واستغراق الهم به ؛ إذ لايخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب : قال حجة الإسلام الإمام الغزالى : يكون ذلك من وجهين :

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولايحس به . وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، ومثاله :

(ا) الرجل المحارب : فإنه فى حال غضبه ، أو فى حال خوفه - قد تصيبه جراحة ، وهو لايحس بها ، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة .

(ب) الذى يغدو فى عمل هام قد يصيبه أذى فى بدنه ، ولا يحس ألماً لشغل قلبه ؛ لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر لم يدرك ماعداه .

وكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له ، لولا عشقه ، ثم لايدرك غمه وألمه ؛ لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه ، فكيف إذا أصابه من حبيبه ، وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم : فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة ، كما يتصور تضاعف الألم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر - كذلك يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة . وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال : فمن ينكشف له شىء منها فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه : فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت ، فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : « إن لذة ثوابه

أزالت عن قلبي مرارة وجعه » وكان سهل رحمه الله تعالى به علة ، يعالج غيره منها ، ولا يعالج نفسه ، فقيل له في ذلك : فقال : « ضرب الحبيب لا يوجع »

ثانيهما : أن يحس بالألم ويدركه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا فيه ، مريدا له ، أعنى بعقله ، وإن كان كارها بطبعه :

(ا) كالذى يلتمس من الطبيب بتر عضو يخشى منه على سائر الجسم ؛ فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الطبيب منة بفعله . فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم .

(ب) وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح : يدرك مشقة السفر ، ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر ، وجعله راضيا بها .

ومهما أصابته بلية من الله تعالى ، وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق ما فاته رضى به ، ورغب فيه ، وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذى يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا . وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق ، وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم . ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر : فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم ، وإن نظر إلى المدرك للجمال فهى العين التى تغلط فيما ترى كثيرا : فترى الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبا ، والقبيح جميلا . فإذا تُصُوِّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك فى حب الجمال الأزلى الأبدى الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعتريها الغلط ، ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزقه تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود ، وحكاية أحوال المحبين وأقوالهم ، وهى كثيرة لا تحصى ، فلنكتف بذلك ، والله الموفق .

السعادة هى القناعة

أعتقد ـ بعد ماتقدم ـ أن السعادة فى القناعة ، بل لا أكون مغاليا إذا قلت : إن السعادة هى القناعة ، والقناعة هى السعادة ؛ لأن الغاية من القناعة غرس الطمأنينة فى النفس فى كل شىء : فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء. وهذه الطمأنينة هى عين السعادة ؛ لأننا عرفنا السعادة بأنها : راحة البال : قال جعفر بن محمد : « ثمرة القناعة الراحة » وذلك أن النفس المطمئنة يكون سرورها بالمصيبة مثل سرورها بالنعمة ، فيستوى عندها الغنى والفقر، والنفع والضر ، والمنع والعطاء ، لاتحزن على مافات ، ولا تفرح بما هو آت ؛ فهى ممتلئة رضا ، مفعمة سروراً ، وصاحبها فى غبطة دائمة ، وسعادة خالدة :

قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِى الرِّضَا وَالْيَقِينِ ، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِى الشَّكِّ وَالسُّخْطِ » ونفس شأنها اليقين ، وحالها الرضا ـ لاتدع صاحبها يفكر إلا فى صالح ، ولا يقول إلا صالحا ، ولا يعمل إلا صالحا ، فتعيش فى سعادة حقيقية ، ويوم القيامة يقال لها : (يٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

وقد روى عن ابن عباس والحسن رضى الله عنهم فى تفسير قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) ـ أن المراد بالحياة الطيبة القناعة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا يُرِيحُ الْبَدَنَ ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ » : وقال رجل لمحمد بن واسع : « أوصنى » فقال له : « كن ملكا فى الدنيا ملكا فى الآخرة » فقال : « وكيف لى هذا ؟ » قال : « ازهد فى الدنيا واقنع » ومن كلام على رضى الله عنه : « كفى بالقناعة مُلكا ، وبحسن الخلق نعيما » : وبينما فتح الموصلى فى أصحابه إذا بصبيين معهما رغيفان : على رغيف أحدهما كامَخ ، وعلى رغيف الآخر

عسل . فقال صاحب الكامخ لصاحب العسل : « أطعمنى من عسلك » فقال : أطعمك على أن تكون لى كلبا ، فقال : « أنا كلبك » فجعل فى فمه خرقة يجره بها ، فالتفت فتح إلى أصحابه وقال : « لو قنع هذا بكامخه لم يصر كلبا لصاحب العسل »

وقال على بن موسى : « القناعة تجمع إلى صيانة النفس وعز القدرة طرح مئونة الاستكثار والتعبد لأهل الدنيا ، ولا يملك طريق القناعة إلا رجلان : إما متقلل يريد أجر الآخرة ، أو كريم يتنزه عن آثام الدنيا ، » وقال الراضى : « القانع يعيش آمناً مطمئناً مستريحاً مريحاً ، والشره لا يعيش إلا تعباً نصباً فى خوف وأذى » وقال وهب : « خرج العز والغنى يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا » والله الهادى إلى سواء السبيل .

محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل فى القناعة :

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله : لم لا فعلته ؟ ولا قال فى شىء كان : ليته لم يكن ، ولا فى شىء لم يكن : ليته كان . وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول : « دعوه ؛ لو قضى شىء لكان »

فمن أراد أن يعرف حقيقة الرضا عن الله عز وجل فى أفعاله ، وأن يدرى من أين نشأ الرضا - فليفكر فى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللمالك التصرف فى مملوكه ، ورآه حكيما لا يصنع شيئاً عبثا ، فسلم تسليم مملوك لحكيم ، فكانت العجائب تجرى عليه ، ولا يوجد منه تغير ، ولا من طبعه تأفف ، ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .

هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم ، بعث إلى الخلق وحده ، والكفر قد ملأ الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان ، واستتر فى دار الخيزران ، وهم يضربونه إذا خرج ، ويدمون عقبه ، وشُق السّلى على ظهره ، وهو ساكت

ساكن ، ويخرج كل موسم ، فيقول : من يؤوينى من ينصرنى ؟ ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا فى جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع استنكاف ، ولا من الباطن اعتراض ؛ إذ لو كان غيره لقال : يارب ، أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر فلِمَ أذل ؟ كما قال عمر رضى الله عنه يوم صلح الحديبية : « ألسنا على الحق ؟ فلِمَ نعطى الدنية فى ديننا ! ! » ولما قال هذا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنى عبد الله ولن يضيعنى » فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما : فقوله : إنى عبد الله إقرار بالملك ، وكأنه قال :

أنا مملوك يفعل بى مايشاء . وقوله : لن يضيعنى : بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر ، ولله خزائن السموات والأرض ، وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثل بعمه ، وهو راض . ثم يرزق ابنا ، ويسلب منه ، فيتعلل بالحسن والحسين ، فَيُخبر بما سيجرى عليهما ، ويسكن بالطبع إلى عائشة رضى الله عنها ، فَينَغَّص عيشه بقذفها ، ويوالى إظهار دلائل نبوته ، فيقام فى وجهه مسيلمة والعنسى وابن صياد . وينشر لواء الأمانة والصدق فيقال : كذاب ساحر ، ثم يعلقه المرض الشديد وهو ساكن ساكت . فإن أخبر بحاله فليُعَلِّمَ الصبر . ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريف وهو مضجع فى كساء ملبد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلتئذ ! ! . كما فاق فى صبره جميع من سبقه من الأنبياء : فهذا نوح عليه السلام يضج مما لاقى ، فيصيح من كمد وجده : (لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : (اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِى فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) ، وهذا الكليم موسى صلى الله عليه وسلم يستغيث على القدر عند عبادة قومه العجل : (إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ)

وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول : (إن صرفت الموت عن أحد فاصرفه عنى) ، ونبينا صلى الله عليه وسلم يخير بين البقاء والموت ، فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى . وهذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول : (هَبْ لِى مُلْكاً)

ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً » هذا فعل من عرف الوجود والموجد، فماتت أغراضه، وسكنت اعتراضاته، فصار هواه فيما يجرى . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

الرضا وجمال العالم :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

قرن الله تعالى الفرح بالرضا، كما قرن الغم بالسخط : فالراضى يرى فى كل ماتقع عليه عينه باعثاً لسروره وسبباً لسعادته، إذا نظر إلى الشىء فبصره عن كل قبيح فيه كليل، وإلى كل حسن حديد، بل الناحية القبيحة عنده مليحة : وليس ذلك عن بله أو جنون أو سوء تقدير، ولكنه الرضا يستوى عنده قبح الأشياء وحسنها، كما تستوى عنده الصحة والمرض والغنى والفقر والسراء والضراء والشدة والرخاء والراحة والعناء : ومعنى تساوى هذه الأمور عنده أنه لا يبالى على أيها كانت حالته، فهو فى غبطة دائمة، وسعادة مقيمة

والساخط بضد ذلك : نظره حسير عن كل حسن، حديد إلى كل قبيح، بل الناحية المليحة عنده جد قبيحة، لاتراه إلا متبرما، ولا يقع نظرك عليه إلا ساخطاً : سواء فى ذلك غناه وفقره، ومرضه وصحته، وعنته وراحته . فهو فى همّ دائم وشقاء ملازم .

ولسنا الآن بصدد السخط والساخطين ؛ لأن السخط من أسباب الشقاء، ونحن الآن نتكلم فى أسباب السعادة التى من أعظمها وأهمها الرضا :

الرضا يجعل كل منظر من مناظر هذا العالم سبباً من أسباب الابتهاج والغبطة والسعادة : فإشراق الشمس مشهد عجيب، يغرى بإمتاع النظر به، وكذلك الغروب : منظر يأخذ بمجامع القلوب، وصحو السماء يدعو إلى التأمل والابتهاج، وكذلك تلبدها بالغيوم ونزول الأمطار، وهكذا قل فى مناظر القمر وضوئه الفضى اللطيف : فى منظر الأفق المترامى الأطراف، والسماء الضاحكة، والكواكب المتلألئة، ومافى القبة الزرقاء من المناظر المتنوعة

والمشاهد المختلفة المبتدعة - كل ذلك يقيد الأنظار ، ويجلب المسرة ، ويدعو إلى الفكرة والعبرة . بل مهما اختلفت مراتب الناس فى الأذواق والمعرفة ، ومهما تباينت ميولهم ومشاربهم وأفكارهم - فإن مرأى السماء يؤثر فى نفوسهم أثرا خفيف الروح لطيف الوقع ، يحدوهم إلى السرور والإعجاب والتأمل.

إن الإنسان يعجب بما تجمله يد الصناعة الراقية والفن الجميل ، فكيف لا يعجب بما يدل على الإبداع والإعجاز ؟ إنه يعجب بما ترسمه اليد من المناظر ، ويلونه الذوق السليم بالألوان التى تقربه من صور الحقائق ، فعجيب ألا يرتاح نظره إلى ما فى العالم من المناظر الصادقة والجمال الثابت .

من البداهة أنه ليس بين كل من نبغوا من المصورين ، وبين كل ذوى المواهب والقدرة من يستطيع محاكاة الخليقة فى إحكام الصنع وإبداع المصنوع ، بل وليس منهم من يدانى الحقيقة عند نسخ صورها عن لوحة الكون ومناظرها الفتانة .

إن الإنسان يكبر ما يراه من الهندسة العجيبة والبنايات الفخمة ونسقها الشائق ، ويعظم شأن المنسق الماهر ، وينسب إليه القدرة والنبوغ ، ويشعر معهما نحوه بالإجلال . ومن الواضح أن ما فى الكون من النظام المحكم والنسق البديع عمل القدرة والحكمة الإلهية ، وكله يشير إلى قصور الإنسان مهما ارتقى ، وإلى عظمة القدرة الإلهية فى التكوين والإبداع ، فلا مكان للموازنة بين رافع السماء وباسط الأرض ، وبين منشىء القصور ومزخرف البنايات ، وليس هنالك تناسب فى الإحكام بين نظام الأكوان والأفلاك وحركة السيارات مثلا ، وبين نظام الآلات الميكانيكية وحركة الطواحين !! ألا إن لله وحده العظمة والقدرة ، وله الانفراد بالإبداع والخلق . فتبارك الله أحسن الخالقين . وكم يشعر المرء بعظيم الحبور فى مرأى البحار المضطربة أو الساكنة ، وفى مشاهد الجبال الراسيات ، والقمم الشاهقات ، والوديان والوهاد ، والمرتفعات والأنجاد ، والسهل والصعب ، والحزن والوعر ، والأشجار المورقة ، والأزهار

المونقة ذات الروائح العطرة التى إذا تضوعت أنعشت الإنسان ، وطيبت مايستنشقه من هواء .

وما أظن سرورا يشمل النفس ويؤثر فيها الأثر الجميل يعادل سرورها بالزهر ومرآه ، وشمه وتمعن تركيبه ؛ فإن الزهرة الواحدة التى تنظرها العين ، فلا يستوقفها منظرها الرائع – فيها من الأسرار والبدائع ومدهشات الصناعة مالا يتصوره العقل ، أو يحصيه العلم . وإن الوردة الذابلة التى تلقيها اليد إلى الأرض ، فتهدم تركيبها ، وتبدد أوراقها – فيها من دقة النظام ، وإحكام التركيب ، وإتقان الصناعة والإبداع ماليس فى جسم الإنسان نفسه على ماعرف من نظامه وإحكامه ، وفيها من الشعور الرقيق والحس ماليس للإنسان مثله ، ولا يتفق إلا للنادر من أنواع الحيوان .

الحس ينكر ما لا يتحقق بالرؤية أو اللمس ، ولكن العلم وقف على هذه الأسرار الدقيقة ، فكشف للعقول ما غابت عنها معرفته ، وتعذر عليها إدراكه ، فأثبت تمتع النبات بالشعور والحركة والحياة ، حتى بالإدراك :

انظر إلى الزهرة إذا وجدت بين ضوءين ترها تتحول إلى ناحية الأشد منهما حرارة وسطوعا . وما حصل هذا اعتباطاً ، وإنما لتدخر منه شيئا من الحرارة تنتفع به وقت الحاجة . وهذا وحده دليل محس على وجود الحياة والشعور والإدراك ، بل والحس أيضاً . وقد حضر إلى مصر منذ عدة سنوات فيلسوف هندى كبير أقام عدة تجارب فى الجمعية الجغرافية تؤيد ما تقدم . فما أبدع الأزهار ، وما أجمل ألوانها الزاهية ، وروائحها الزكية ، وما ألطف تأثيرها فى نفس الإنسان ! ! إنها بما لها من المنظر الفتان ، والثوب الزاهى ، والنضارة الأخاذة ، وبما لها من الوداعة واللطف ، حتى فى ذبولها – بما لها من كل ذلك تحرك العواطف ، وتهز النفس حركات وهزات تبعث على الانشراح والسرور .

كذلك يشعر الإنسان بكثير من الغبطة فى تأمله عالم الحيوان : فاللذة

التى تشعر بها النفس من مشاهدة صوره واجتلاء حقائقه لا تكون مقصورة على علماء هذا النوع ، وإنما يشعر بها كل من تدفعه الرغبة ، ويبعثه على درس أحوالها الشوق ، وحب الاطلاع . ولو عنى الإنسان بمطالعة سفر مما كتب عن الكلب مثلا ، وعما عرف عنه من الأمانة والإخلاص ، ومن تنبه الحواس فيه إلى درجة يصعب تصديقها ، ومن الغرائز التى تلصقه بالأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة – لو عنى المرء بمطالعة هذا لوجده شائقاً جميلا ، يحقق رغبة النفس فى الانشراح والنشاط ، والعقل فى الاطلاع والمعرفة ، بل ويجلو له سراً من أسرار الوجود ، وقوة من القوى التى أوجدتها الحكمة ، وسخرتها لنفع الإنسان ، وتحقيق أسباب سروره وهناءته .

وكذلك مما يبعث السرور تأمل ذات الإنسان وتكوينها من مملكة تضارع تمام المضارعة المملكة الظاهرة فى كل هيئاتها وفى جميع مرافقها ، وكذلك مما يشرح الصدر ويدعو إلى الاعجاب الوقوف على التغيير والتبدل الذى يعترى الإنسان من طفولته إلى شيخوخته فى جسمه وصفاته ، وقوة عقله وتهذيب نفسه إلى غير ذلك مما لا يشعر به فى حينه

كل هذه المشاهد المتنوعة وغيرها مما لا يدخل تحت حصر تؤثر فى النفس أثراً لطيفاً منعشا وتنشط بالعقل إلى التصور البديع والخيال الراقى فينشرح القلب ، ويشعر بالراحة والسرور ، ويتعرف لذة الهناءة التى ينشدها الإنسان من غير طريقها

ذهب أفلاطون إلى أن استجلاء الجمال الرائع يضاعف قيمة الحياة ، وذهب آخر إلى أنه عزاء الروح وتسليته عن آلام سجنه فى الجسد ، وقال الأستاذ المنفلوطى رحمه الله تعالى :

« اطلب السعادة فى الحقول والغابات ، والسهول والجبال ، والأغراس والأشجار ، والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ، وفى منظر الشمس طالعة وغاربة ، والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم

ثابتة وسارية . واطلبها فى تعهد حديقتك وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفى وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفى إصغائك فى سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، ونقيق الضفادع . واطلبها فى مودة الإخوان ، وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف ، وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ؛ ففى كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف – جمال شريف طاهر يستوقف النظر ، ويستلهم الفكر ، ويستغرق الشعور ، ويحيى ميت النفس والوجدان ، ويملأ فضاء الحياة هناء ورغدا »

يقولون : إن الحياة مدرسة تجارب عملية آخر دروسها الموت . فإذا كان هذا حقيقة فلماذا لا يجرب الإنسان اعتياد النظر إلى المرئيات لاستجلاء محاسنها بدل البحث عن عيوبها ؟ ولماذا لا ينزل إلى نفسه ليتعرفها ، بدلا من أن ينشط إلى التعرف بمن يشكو خبث نياتهم ، وقلة وفائهم ؟ إن تحقيق هذه الأمور ينهض الإنسان إلى حال جديدة تيسر لها الهناءة ، وتدنيه من السعادة .

والنفس التى تسكن إلى الحسن ترق عواطفها وتتطهر ، ويصقل جوهرها صقلا ، فتنفر من القبيح وتترفع عن الصغائر ، وعن كل مالا يتفق مع جوهرها الكريم ، وتكون حساسة إلى حد يكفل ارتقاء الفكر وسعة المدارك وسمو الخيال : فالشعر الذى يتم به انتعاش النفس وسرورها ليس فى الحقيقة إلا من الصروح التى يشيدها الخيال ، وما هذه الصروح إلا لسكنى النفس وترويحها ، وتسليتها بالخيال عن الحقائق المؤلمة .

وكم فى العالم من أنواع المحسنات والحسن غير ماذكر !! ، وكم بين المناظر والمستحدثات من آيات الجمال التى تجلو عن الصدور صدأ الهموم ، فتبعث

النفوس على الابتهاج عند تعرفها ، فهل للإنسان أن يسكن إلى مناظر الحسن ليرتاح إلى الحياة ، وإلى الرضا !! بالحال ؟

أسباب أخرى للسعادة يأتى ذكرها فى بحوث الأخلاق العملية :

هذه الأسباب هى : العلم ، والعمل ، والعدالة ، والمحبة ، والصداقة ، والأسرة ، والوطن ، والتعاون .

أسباب السعادة

فى رأى الفيلسوف الإنجليزى بِرْتِرَند رَسِل فى كتابه : « الظفر بالسعادة »

السعادة نوعان رئيسان : أولهما مصدره الشعور ، والآخر مصدره الفكر . وجميع الناس سواء فى الأول ، وينفرد بالآخر طبقات المتعلمين دون غيرهم . وعلى حرارة الشعور ، وقوة الميل إلى العمل – تتوقف السعادة فى كلتا الحالتين : فالهمجى الأسترالى الذى يطارد الأرانب البرية يشعر بشىء من سعادته فى حياته ؛ لقيامه بعمله هذا برغبة وحماسة عظيمتين ، وكذلك الحال عند العالم (البكتريولوجى) الذى يعمل على طرد الجراثيم من خلال منظاره ؛ ليكون جو بحوثه صحوا .

ولقد يختلف الإقبال على العمل باختلاف طبائع الأشخاص وسجاياهم : فمنهم من يزاوله بكبر وغرور ، ومنهم من يقدم عليه متواضعاً واثقاً من نفسه ثقة لا تذهب به إلى حد الغرور :

فالذين يقومون بأعمالهم مغرورين لا يشعرون بسعادة ، حتى فى أوقات نجاحهم ؛ لأن غرورهم لا يجعل لهم من نجاحهم هذا وقعاً من المفاجآة الحسنة الأثر ؛ إذ يضعون نفوسهم فى مكانة أكبر مما تستحقه فى الواقع ، فيصبح نجاحهم – مهما عُظم – شيئاً غير مذكور بالقياس إلى عبقريتهم الفذة الموهومة ، ويتألمون جد الألم إذا أخفقوا ؛ لأنهم يرون فيه حالة لا تتلاءم ، وما زعموه فى نفوسهم من كبر وغرور .

أما المتواضعون فإنهم يجدون فى كل نجاح تصل إليه أيديهم هزة نفسية

جميلة الأثر من جراء تلك المفاجأة الجميلة عند نجاحهم .

وقوة الإقبال على الأعمال تنشأ من شدة الاهتمام وقوة اليقين اللذين يقابلان عدم المغالاة وضعف الإيمان : فأسباب السعادة بين شبان أوربة قليلة ؛ لضعف إيمانهم بعالمهم ومبادئهم ، على عكس ما نرى بين شبان روسيا ؛ إذ لا يزال ذلك الإيمان فيهم قوياً . وما نسمعه الآن من أن حياة العمال لتشابهها قد سلبت الناس شيئا من تلك السعادة الناشئة عن اختلاف ألوان الحياة الزراعية ، وسلبتهم لذة الدقة فى الأعمال اليدوية - كل هذا غير صحيح ؛ فلا نزال نرى عمالا يقومون بأعمال يدوية غاية فى الدقة ، ولا تنس أن الحياة الزراعية تخلق فى نفس المرء الاستسلام للفواعل الكونية والرضا بقضاء الله وقدره ؛ لما يراه من التقلبات الجوية التى يتقلب لها عمله الزراعى . أما الآلة فتبعث فى النفس كبير الثقة بعدم تأثرها بهذه الفواعل .

إن سر السعادة هو الإكثار فى هذه الحياة من كل أمر يجذب النفس له ، ويرغبها فيه ، ويجعل الصلة بينه وبين المرء صلة حب وصداقة ، لا صلة بغض ولا نزاع :

السبب الأول - مبلغ الشعور بلذة الحياة : تتخذ الحالات النفسية التى يتقدم بها بعض الناس إلى تناول الطعام أساسا لشرح ما نعنيه من تعبيرنا هذا :

ا - فمن الناس من يقبل على الطعام إقباله على شىء لا لذة له فيه ، مهما كان جيد الصنف والطهى ، وهؤلاء لم يجربوا الجوع ، ولم يحسوا إلحاح المعدة فى طلب القوت إذا عسر الحصول عليه .

ب - ومنهم المرضى الذين يتناولون من الطعام المقدار المحدود وفقا لأمر الطبيب .

ج - ومنهم الأبيقوريون الذين يقبلون على الطعام بشغف ، فلا يكادون يصيبون شيئا منه حتى يشرعوا فى التبرم والنقد .

د - ومنهم النهمون الذين يقبلون عليه بشره ، ولا يزالون يأكلون حتى يتخموا .

هـ ـ ومنهم أصحاب المعد السليمة والمزاج المعتدل ، يقبلون على الطعام ، ويأكلون بميل عظيم ، حتى إذا اكتفوا قاموا قانعين ، ورغبوا عن ملء معدهم بالطعام . والإنسان السعيد يشبه تلك الطبقة الأخيرة من هؤلاء الآكلين ، وعلاقة الجوع عندهم بالطعام تشبه تماما علاقة الشعور بلذة الحياة .

إن أسباب سعادة المرء ترتبط ارتباطا وثيقا بأسباب جاذبية الحياة ، وكلما زادت وسائل تلك الجاذبية زادت وسائل السعادة وأسبابها ، وخلص من أسباب الانقباض والتواكل : فالمرء الذى يجد فى كثير من شئون حياته المختلفة مايجذب نفسه لايجد الانقباض والتواكل إليه سبيلا ، وكل إنسان كهذا المرء له فى كل شىء أمامه سبب من أسباب المتعة والسرور .

إن عقل الإنسان آلة ثمينة حقا ، تتناول المواد الأولية من العالم الخارجى ، ثم تحيلها لذة للنفس ، ولا تصلح للعمل إلا بتلك المواد : فالذين يُشغَلون بأنفسهم عن العالم الخارجى ومافيه ، يعطلون عقولهم ، ويحرمونها المواد اللازمة للعمل ، فتصدأ شر صدأ .

ولكن ماسبيل العقل إلى جاذبية الحياة ؟ وماسبيله إلى المواد الصالحة للإنتاج ؟ ذلك هو إقباله بقوة على الحياة . وفقدان تلك القوة فى حياة الفرد يرجع إلى القيود الثقيلة التى تفرضها عليه نظم الحياة المدنية .

إن الهمجى يهم بصيد مايقتات به تلبية لنداء الجوع الذى شعر به ودفعه إلى العمل ، والإنسان المتحضر لايقوم بالحصول على القوت إجابة لداعى الجوع المباشر : فأنت مثلا لاتذهب إلى عملك أو مكتبك ، لأنك جائع ، بل لتضمن قوتك ، وفى هذا فرق عظيم بين باعث المتحضر وباعث الهمجى .

الثانى ـ العطف : من أهم مايجعل الإنسان فقيرا إلى قوة الحياة شعوره

بأنه غير محبوب ، يقابل ذلك أن شعوره بأنه محبوب يذكى فيه قوة الحياة وحماستها .

وأسباب شعور المرء بأنه غير محبوب كثيرة ، والذى يشعر بذلك يتجه

فى حياته اتجاهات كثيرة متنوعة ، هى نتيجة مباشرة لذلك الشعور : فقد يجهد نفسه فى إرضاء غيره واكتساب عطفه ، فيبوء بالإخفاق المؤلم؛ وذلك لأن الإنسان بطبعه ميال إلى عدم العطف على من يستجدى عطفه ، ولأن المرء الذى يجهد نفسه فى اكتساب عطف الناس يسيئه أقل جحود يناله منهم ، وقد يحمله الشعور بكراهيتهم له على الانتقام منهم ، فيشعل نار الثورة ، أو يقيم الحروب ، أو يلجأ إلى قلمه ، فيملأ أسماع التاريخ أساليب التهكم والسخرية بهم ، غير ان القادرين على هذه الألوان من الانتقام قليلون .

ومعظم الذين يتولاهم الشعور ببغض الناس لهم منعزلون فى أنفسهم ، مشغولون عن العالم وما فيه ، مقيمون داخل نفوسهم فى جو من التشاؤم والسخط ، وشعورهم بحاجتهم إلى عطف غيرهم المحرومين منه يولد فيهم القلق وعدم الاطمئنان فى حياتهم ، فيحرمون الجرأة والإقدام حرمانا يسبب لهم الإخفاق فى كل مايعملون ؛ فالعطف المتبادل من أقوى العوامل التى تقوم عليها الجرأة والإقدام . ولنزيد المسألة وضوحا نستعمل كلمة إعجاب مكان كلمة عطف ونقول :

جميع الذين يظهرون فى الحياة من رجال السياسة والصحافة وغيرهم تظل حمية الحياة قوية فيهم مادام إعجاب الجمهور بهم قويا ، ولا نعنى بالعطف ذلك العطف الشائن الذى تغمر به الأمهات أولادهن فينشئون على الاعتقاد بأن عالم عطف أمهاتهم عالمهم الذى لا حياة لهم فى جو غير جوه ، فإن خرجوا منه ضاعوا فى لجج الحياة ، فليعرف الوالدان ذلك ، وليُعنَوا كثيرا بمواضع العطف والإعجاب ، ومتى وكيف يعجبون أو يعطفون !!

الثالث ـ الأسرة : هى أكثر مخلفات الإنسانية اضطرابا ، وأمسها إلى الإصلاح والتنظيم ، وهذا الشعور المتبادل بين الآباء وأبنائهم ، والذى هو أغزر مصادر السعادة ـ يجف معينه شيئاً فشيئاً . وعجز الأسرة عن توفير

أسباب السعادة للمرء سبب بعيد الأثر فى اضطراب العصر وقلقه الدائم ، وشقاء الأسرة اليوم يرجع إلى عوامل نفسية ، واقتصادية واجتماعية ، وغيرها مما لا يتسع ذلك البحث له ، ولكن نكتفى بشىء يسير فنقول : نفور المرأة من مسئولية الأسرة بين الجماعة الذين توافرت لديها أسباب الرزق يرجع إلى أمرين :

أولا - انفتاح ميدان العمل أمامها ، ومساواتها فى ذلك بالرجل .

ثانيا - اشمئزاز المرأة العصرية من خدمة البيت . وهناك مشكلة المسكن ؛ فإن ازدحام المدن بدافع التجمع فى المراكز الصناعية لم يمكن المرء من مسكن يضمن له حريته ، فهو فى مسكنه الضيق يحس بنقص فى راحته . وكذلك فترة الانتقال ، وانتشار الديمقراطية - ضيعت شعور الطاعة الماضية ، فاضطربت الرابطة بين الآباء وأبنائهم ، فأصبح كل منهم جاهلا بما يجب له وما يجب عليه ، فلا غرابة بعد هذا أن يقل التناسل فى ذلك العصر قلة كثيرة بدافع الامتناع عن الزواج .

لا يمكن أن تدوم هذه المدنية إذا انقطع حبل التناسل ، واضطرب الاضطراب الحالى ، فكيف يتحاشى الناس أسباب الانقطاع ؟ يتحاشونه بمعالجة الأسرة وجعلها صالحة لبعث السعادة فى نفوس الناس من طريق نظامها ، وإقامتها على أسس جديدة مثمرة .

إن غريزة الأمومة والأبوة هى أقصى ما يبعث السعادة فى النفس ، والذين لا يتذوقون تلك الغريزة تظل نفوسهم تحس نقصا لا تعرف سببه . وليكون الإنسان سعيدا - ولا سيما بعد الشباب - لا بد أن يشعر أنه ليس بالفرد المنقطع الصلة بالحياة الدائمة ، والأولاد صلة الفرد بتلك الحياة : فإذا كان الإنسان غير متصل بالمستقبل بسبب أو نسب ظلت حياته جافة ، وظل مستقبله شيئا لا خطر له عنده ، فإذا ما اتصل بذلك المستقبل بطريق الأولاد امتدت أمامه أطراف السلوى ، كما تعزى إبراهيم عليه السلام حين علم أن

نسله سوف يملأ الأرض

الرابع - آلعمل من أسباب السعادة أو من أسباب الشقاء ؟ :

كثير من الأعمال يضنى الجسم ، ويؤذى النفس ، ولكن من ذا الذى ينكر السعادة التى يحسها المرء فى العمل المعتدل المثمر ؟ إن غاية ما أثمرته المدنية الحديثة من الإبداع هو كيف يشغل المرء أوقات فراغه بما يفيده . والتبرم الذى يحسه الرازح تحت أعباء العمل لا يعد شيئا أمام الضجر الذى يحسه الرازح تحت أثقال الفراغ الذى لا يعرف كيف يستخدمه . والعمل طريق الإنسان إلى النجاح ، ومهما خلا من أسباب الجاذبية فإنه يظل محتملا مرغوبا فيه ، مادام هو طريق المرء إلى الشهرة ، وعلى ذلك فالغاية ودوام السير فى طريقها من ضروريات السعادة . وهناك عاملان رءيسان يجعلان العمل جذابا : هما المهارة والإنشاء :

كل إنسان يحذق عملا يميل إلى الدأب على ممارسته ، ويظهر هذا الميل فى أيام الإنسان الأولى : فالولد الذى يحسن الوقوف على رأسه يميل إلى عدم الوقوف على رجليه ، والطيار الماهر فى الألعاب البهلوانية يظهر من ضروب مهارته ما يعرض حياته لخطر الموت ، ولكنه يشعر فى ذلك بسعادة كبرى ، وكل الأعمال التى تتطلب المهارة تسبب سرور النفس للإنسان الماهر بشرط أن يكون ميدان المهارة متسعاً للتلوين والاختلاف الدائمين : فالمسابق الذى ينتصر فى سباق مائة (ياردة) لا يشعر بالسرور إن هو جمد عند هذا الحد ولم يسبق فى شىء آخر ، ومن حسن الحظ أن الأعمال التى تحتاج إلى مهارة متنوعة أسباب التغيير والتبديل ، وهى مفتوحة الأبواب للإنسان حتى نهاية العمر : فالرجل لا ينضج فى السياسة قبل الستين أو السبعين من العمر ، ولهذا كان السياسيون ورجال الأعمال والمشروعات العظيمة أسعدَ فى شيخوختهم منهم فى صباهم .

والإنشاء عنصر من عناصر السعادة ، فمن الأعمال ما ينتهى بأثر دائم ، يبعث فى نفس منشئه أكبر العزاء .

ومن ألوان الهدم ما يبعث فى النفس الراحة ، ولكن هناك فرقا بين شعور الهدم وشعور الإنشاء : فالهدم ينتهى عند حد معلوم ، فى حين أن فكرة الإنشاء لا تنتهى إلى حد معروف . وأغزر مصادر السعادة هى تلك التى تنبعث من عملٍ أسبابُ نجاحه غير محدودة : فرجال العلم ورجال الفن يعملون أعمالا تكثر لهم بطبعها ، ولكن فى الغالب نرى رجال الفن يميل بهم مزاجهم إلى التشاؤم والشقاء ، ولولا ما يحسونه من عزاء فى أعمالهم لانتحر معظمهم ، على غير ما نرى فى رجال العلم : فمعظمهم يسعدون بأعمالهم ، وبطبيعة أمزجتهم . وما ينقص رجال الفكر من أرباب القلم هذا العصر راجع إلى شعورهم أنهم مستعبدون للصحافة التجارية التى يديرها أصحاب الأموال ، فهم يشعرون أنهم يسيئون إلى أقلامهم وأنفسهم بما يكتبون ، ولكنهم مضطرون إلى ذلك ، وإلا ماتوا جوعا . والإنسان الذى يشعر أنه يحتقر نفسه تستحيل عليه السعادة .

الخامس ـ الجهاد ـ ليست السعادة منحة ، إلا فى أحوال نادرة ، ولكنها حق مكتسب :

كل امرىء يحتاج إلى الجهاد ، وهذه الحقيقة ثابتة فى الغرب أكثر منها فى الشرق ، وخاصة فإن جو الغرب يجعل العمل أحب إلى النفس من الكسل ، وعلى هذا فالتسليم فى الغرب لا يؤدى إلى أية سعادة ، ومعظم الناس فى الغرب يحتاجون فى الحصول على سعادتهم إلى شىء أكثر من القوت الضرورى ؛ لأن النجاح عندهم أهم عوامل السعادة ، غير أن هذا النجاح يقاس اليوم بمقياس مادى ، هو مبلغ ما يربحه المرء من أعماله . ولما كانت الأرباح تتفاوت فى مقاديرها ووسائلها فالغرب مضطر إلى شىء من التسليم فى تقدير مراتب النجاح ، وسعادة الزواج تتعلق بالزوجين ، ولكن ما قولك فى هذا العصر الذى اتسعت فيه

حرية الفرد ، واضطربت نسبة الرجال إلى النساء ، فكل من الجنسين فى إنجلترة يعلن عن نفسه أنه زاد عن الآخر . ولذلك فهما فى هذا السبيل فى حاجة إلى شيء من التسليم ، والعناية بالأولاد والجهاد فى سبيلهم له خطره : فالغرب يجاهد فى سبيل قوت الأولاد ، والمحافظة على صحتهم ، وتربيتهم وتعليمهم ، وتوفير أسباب السعادة لهم فى حياتهم ، ولكن فى الشرق العناية بالأولاد قليلة ، ولذلك كانت نسبة الوفيات عندهم عالية جداً .

وفى الإنسان ميل إلى طلب القوة ، وهذه تختلف أشكالها وألوانها : فمن الناس من ينشد النفوذ والسلطان على عقول غيره أو نفوسهم ، أو يطلب ذلك لتغيير نظم الاجتماع إلى غير ذلك ، وكل هذا محتاج إلى الجهاد .

والغرض من ذلك أن الإنسان الذى لا يطلب القوة فى الحياة هو الإنسان الذى لا يشعر بأية مسئولية تجب عليه للإنسانية ، ولعل فى هذا التقدير خير ما أستطيع توجيهه من النقد لإقبال الغرب على ما يسمونه : «حكمة الشرق» فى حين أن الشرق نفسه قد رغب عن هذه الحكمة نفسها (١) .

السادس ـ التسليم : للتسليم شأن فى تحصيل السعادة . . . ومن الناس من يضطربون لأقل عثرة ، فعلى هؤلاء أن يوفروا قواهم النفسية ، ولا يسرفوا فى بعثرتها عند كل صدمة فى العمل . والحذق فى العمل لا يتعادل مع اندفاع العاطفة نحوه ، بل كثيراً ما تكون شدتها مما يعرقل حذق الإنسان ومهارته ، والأديان تنصح بالخضوع لإرادة الله ، وليس من شك فى أن الإنسان مضطر إلى أن يستسلم إلى شيء من هذا القبيل فى كل أعماله وما يتعثر فيه ، وعلى المرء أن يعمل أقصى جهده ، ثم يسلم الأمور بعد ذلك لمدير الكون ، والتسليم

---

(١) يظهر من كلام « رسل » أنه لم يدرس الحكمة الشرقية دراسة تمكنه من فهمها ؛ فليست تدعو إلى الخمود والجمود كما فهم ، وكما يفهم أمثاله من فلاسفة الغربيين الذين يكتفون بالقشور عن اللباب ، بل هى تحث على العمل لسعادة الدارين . والشقاء الذى حل بالشرق يرجع إلى إهماله هذا التراث العلمى الخلقى العظيم ! !

نوعان : نوع يتصل أكبر الاتصال باليأس ، ونوع يتصل بالأمل الذى لا يقهر : فالذين يندحرون اندحارا يفقدهم كل أمل فى الأعمال العظيمة يلجئون إلى تسليم اليأس ، ويشرعون يعزون أنفسهم بترديد عبارات السلوى ، ولكن نفوسهم تظل غير سعيدة ، وأصحاب الأمل الذى لا يقهر مهما أصابهم من خيبة يظلون سعداء :

وذلك لأن الأمل العظيم هو الذى يتعدى حدود الشخص ، و يمتد إلى حدود الإنسانية جميعها ، والعالم مهما خاب فى مساعيه العلمية لا يشقى ؛ لأن أمله غير شخصى ، وإنما هو أمل السعى فى سبيل الحقائق العلمية ، ومثل هذه الحالات لا دخل للتسليم فيها ، وإن صح شىء منه فهو تسليم الأمل ، والذين يفزعون لكل شىء يجب أن يتعلموا شيئا من سجية تسليم الأمل فتبعث إلى نفوسهم بشىء من الراحة والهدوء .

السعيد :

يستمد الإنسان سعادته من مصدرين : عالمه الداخلى ، وعالمه الخارجى . وقد دار بحثنا بوجه عام على اختصاص العالم الداخلى بسعادة الإنسان ، وإذا توافرت للمرء أسباب القوت والسكن ،والصحة والنجاح فى الأعمال ، واحترام بيئته له ــ فليس ما يحول بينه وبين السعادة إلا مرض نفسى تجب معالجته بالطرق التحليلية النفسية الحديثة ، وإذا كانت ظروف العالم الخارجى ليست تعسة تعسا شاملا فليس ما يمنع الإنسان أن يكون سعيداً ، وعلى ذلك فالتعليم يجب أن يرمى إلى التوفيق بين عالم الإنسان الداخلى وعالمه الخارجى . إن الإنسان السعيد هو الذى يحيا للعالم لا لنفسه ، ويجد فى كل شىء من أشياء العالم سببا من أسباب المتعة ، ويشعر فى ذاته أنه هو نفسه متعة لغيره وسبب مسرة له . ولعلّى لا أتهم بالتحامل حين أنكر على بعض علماء الأخلاق إسرافهم فى الكلام على نكران الذات حتى أصبح بموجب

التعاليم الخلقية المعروفة أكبر سبب من أسباب الاشتغال بالنفس ، وحين أنكر عليهم أيضا القول بأن الحب يجب أن يكون بعيدا عن المصلحة الشخصية ، فما قولك فى أن تدعو سيدة إلى الزواج منك ؛ لأنك تريد إسعادها وشقاءك !! الحق أن شخصية الفرد جزء من الشخصية الإنسانية العامة : فمصلحة المجموع لاتعنى إنكار مصلحة الفرد ؛ لأن الفرد والمجموع شىء واحد ، وسعادة الإنسان فى هذا التوافق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، وفى المساوقة بين عقل الإنسان الظاهر وعقله الباطن ، والإنسان السعيد هو الذى لايشعر بأى تنافر بينه بوصفه فردا ، وبين غيره بوصفه مجموعا ؛ لأن الفرد والمجموع وحدة لاتتجزأ إلا للشقاء وضياع السعادة .

أسباب الشقاء



خطأ العقل وفساد حكمه

قد يخطىء العقل فى تقدير السعادة ، أو فى السبيل الموصل إليها ، أوفى طول ذلك السبيل وقصره ، ومايعترضه من عقبات وعوائق : فقد يقدر العقل أن السعادة كل السعادة فى أمر معين فيحفز صاحبه على أن يجد ويكد ، ويجالد العقبات التى تعترضه فى سبيله إلى ماظن فيه السعادة ، ويغالب العوائق التى تنجم فى أثناء سلوكه إلى مبتغاه ، ثم لايزال كذلك فى عناء وشقاء حتى تتجلى له الحقيقة المؤلمة من أن ماسعى إليه لم يكن إلا سرابا خداعا حسبه عقله الواهم سعادة ، وماهو من السعادة فى شىء ، بل بينه وبين السعادة التى ينشدها مابين السراب والماء ، أومابين الثرى والثريا ، أو على الأقل مابين الحقيقة والخيال من الملاصقة والقرب . هنالك يتضح له أنه أنفق العمر فى طلب مالاينال ولايدرك ، فيُسقط فى يده ، ويناله من الشقاء والحزن أضعاف ماكان يريد أن يناله من السعادة الموهومة ؛ إذ ليس أصعب على النفس من

الاندحار عند الانتصار ومن الخيبة فى مقام الفوز ، وأصعب منهما عليها أن تقضى الحياة فى طلب السعادة ، فتضيع الحياة ولا تنال السعادة .

ومن الناس من يقصد إليها من طريق يختاره بعد طول الإمعان والتفكر ، فيقطع فيه شوطا طويلا ، ثم يلوح له أنه على غير الدرب ، فيعود أدراجه ، ويختار سبيلا آخر ، وقد يبدو له بعد أن يبلغ فيه شأوا بعيدا مابداله فيما سبقه من السبيل التى حاد عنها ، أو تنتهى حياته قبل أن ينتهى إلى آخره .

يقولون : إن الشقاء يطرد مع تقدم العمران والمدنية ومع توافر أسباب الهناءة ، ويؤكدون أنه يتضاعف مع كر الأيام وتوالى الحقب . أفلا يكون مرد هذا أن حركة سير العالم إلى غير وجهة السعادة ، أو أنه سائر نحوها إلا أنه لم يدن من أفقها ؟

هذا مايجب أن يتناوله البحث ؛ فإن من المؤلم أن تلقى النفوس الخيبة واليأس عند نهاية شوطها فى الحياة بدلا من السعادة التى تتوق وتجد إليها . ومن الناس من يتحقق الغاية ويتعرف سبيلها ، ولكن البعد الذى يحول دونها كثير العقبات جم الحوائل ، لايسهل على الإنسان اجتيازه ، ولا الدنو من نهايته . وكم من طامع فى الوصول إلى هذه الغاية تألم من بعدها ومن طول المزار ، فأعيته الحيلة ، ولم يبلغ ماقصد إليه . وهذا هو حظ الكثيرين ، ويقل بل يندر بلوغ الإنسان إلى الحد الذى يظن عنده السعادة

من مثل هذه الحال وماتقدمها ، ومن خيبة الآمال ، وعدم نيل الأمانى ـ تكثر الأنات ، وتتوالى الزفرات ، ويسمع الإنسان من كل جوانب الأرض الدائرة صدى الشقاء والتعس ، فيؤثران فى نفسه أثرهما المشجى ، وما خفى من الأحزان أعظم ، وما استتر فى الصدور أنكى ؛ إذ أعظم الحزن ماتجمد معه العين ، وأبلغ الألم مالا يقوى معه المرء على إظهاره .

يستنبط من ذلك كله أن ضروب الشقاء من خطأ العقل وفساد حكمه : فكل ماتقع عليه العين من أسباب السعادة والشقاء بحسب تقدير العقل ،

وقد يخطىء هذا ، وقد يصيب فى حكمه . فلو عرف الإنسان حقيقة ذاته ، وماتحتاج إليه ، وحقيقة السعادة وأسبابها ـ لقصر بحثه على الأسباب التى تتفق وحاجة النفس ، وتؤدى إلى سعادتها ، ولتمكن العقل من تقدير حقيقة الأشياء بصورة صحيحة ، فيكون مايراه سببا للسعادة موصلا إليها على الحقيقة .

٢
السخط

عرفنا مما سبق أن الأفكار تختلف باختلاف النظر والغاية : فمن ينظر فى شىء بقصد إظهار عيوبه لا تبحث عينه عن غير العيوب ، بل لا تبصر سواها ، بخلاف من يتأمل الشىء بقصد المدح ؛ فإنه يوجه نظره إلى كل المحاسن التى فيه ، ويقصره على ذلك . وبسبب هذا الاختلاف فى النظر وفى الغاية يختلف حكم الناظرين : فمن يدخل حديقة غناء فى فصل الربيع ـ فصل حياة الأزهار ـ لا لاجتلاء محاسن الحديقة ، وإنما يدخلها للبحث عما استترفيها من العيوب ـ لا يصعب عليه أن يجد بين الأزهار العطرة المفتحة الأكمام وردة لفحتها حرارة الشمس فذبلت ، وأخرى تفجرت منها ينابيع الحياة تفجرا ، فانفرطت أوراقها وتهدم بنيانها . ولا يتعذر عليه أن يرى بين الزنابق النضرة زهرة وقفت نحلة بين جفنيها تمتص منها ماء الحياة ، وما أكثر مايجد من شقوق النمل فى سيقان الشجيرات والأشجار ، ومن البعوض على الأوراق الخضراء تفسد نضرتها وتودى ببهجتها !! كل هذا يراه الباحث ، ولا ينكر وجوده أحد ، ولا يستطيع منعه إنسان ، وإن كان من العيوب التى لا تتفق مع كمال الحسن ، ولكن الواقع أن هذه العيوب مع وجودها لم تمح محاسن الحديقة ، ولم تقلل من بهاء منظرها ، ولم تحل دون تأثير رونقها الجذاب ، إلا فى نظر الذى قصر بحثه عليها : فالناس ينتعشون ويبتهجون بمحاسن الحديقة وجمالها ، والآخر يتألم ويحزن من مساويها وعيوبها .

وليست الحياة إلا على هذا المثال : تتمثل لمن ينعم النظر فيها على مثال الصورة التى يريد أن يصور الحياة على شكلها ، وتتنوع فى نظره مناظرها باختلاف المسافات التى يطل عليها منها ، وباختلاف الغاية التى يريد النظر إليها من أجلها والأوقات التى يختارها لرؤيتها فيها ، كما يختلف منظر الحديقة باختلاف الفصول : فبينما نجد إنساناً ينظر إلى الخليقة نظر المظلوم إلى الظالم نرى الآخر يشكر الله تعالى على رحمته ، ونرى واحداً يشكو من ظلام الليل وطوله ، وثانياً يقول : « ياليل طل » ويلتذ من منظره الرهيب وثوبه الحالك ، ويرتاح إلى سكونه الشامل . فالخليقة والليل لا يتبدلان ، ولكن آراء الناس عنهما قد اختلفت بسبب اختلاف نوع النظر والغاية منه .

ومن يكون أمامه الحسن والقبيح ويختار الثانى ، ثم يشكو قبح ماأخذ ، ويندب حظه - فهو أحمق . وليس أدنى إلى هذا المثال من حقيقة حال الإنسان فى الحياة : أمامه وجوهها المتنوعة ، وصورها الكثيرة الحسنة منها والقبيحة ، ثم لا يختار منها مايتفق مع رغبته ، ويبعث فى نفسه الرضا والاغتباط ، بل يقصر نظره على مايراه غاية فى القبح ، ثم يشكو من قبح الحياة وشناعتها ، وسوء حظه فيها وانقباض صدره وسآمته . وهو لو ميز بين الحسن والقبيح واختار النظر إلى الأول لأنعش نفسه ، ولبعثها على الاغتباط والهناءة .



التطرف أو الشذوذ

إن شذوذ أفكار بعض الناس يؤثر فى غيرهم وفى الجماعات البشرية تأثيراً سيئاً يبقى طويلا ، وينتقل بالعدوى والوراثة . ولما كانت مصادر شقاء النوع الإنسانى كثيرة متفاوتة كان التطرف أو الشذوذ فى المرتبة الأولى منها ، وكانت الشكاية منه عظيمة دائمة . إن من يكون دليل قافلة تجهل الطريق قد يصل بها إلى وجهتها ، أو يضل الطريق ، فتضل معه ، وتهلك جميعها . ومن

بين من يتصدون للكتابة والفلسفة كثيرون شأنهم مع الناس شأن الدليل الذى يضل الطريق ، فينفسون فى العقول مايعقمها ، وفى الأفكار مايطيشها عن بهجة الحياة ، كأنما قضى على ذلك النفر ألا يروا من الأحوال إلا مافيها من أسباب التعس وانقباض الصدر ، وما يدعو إلى التذمر والسخط على العيش ، فيطبعون الأفكار على مثالهم ، وينغصون على الناس الحياة .

الاستياء من الحياة عام إلا أنه فى الحقيقة ناشىء من تأثير الأفكار الشاذة فى العقول ، ولولاها ماوصل السخط إلى حد تشويه الحسن وعدم الرضا به ، والناس يقبلون الآراء المتطرفة أو الشاذة : إما لاتفاقها مع مايرون ، وإما للثقة بأصالة رأى الكاتب أو الحكيم . والفيلسوف لايرى الحقيقة دائماً بل يكون مايراه ويحكم به مماثلا للصورة التى يتمثلها فكره عند تأثر نفسه بعوامل الحياة المؤثرة فيها .

ولو كانت آراء المستائين جميعا مرتكزة على أسباب واحدة لكانت متحدة فى جواهرها ، لكنها تختلف باختلاف العوامل المؤثرة فى نفس كل مفكر ، ولذلك لا تتماثل ، وكثيرا ما تتناقض : إن العين المتأثرة لاتبصر الأشياء على صورها الصحيحة ، بل بعيدة عن الحقيقة بعد العين عن حالتها الطبعية . فكل أولئك الذين نقرأ كتاباتهم ، ونطبع فى عقولنا صور آرائهم - ما نظروا إلى الحياة إلا بعيون حولاء ، وهم متأثرون بعوامل عارضة أثرت فى أفكارهم ، فصور كل منهم الحياة على ما تمثلها فى تلك اللحظة ، لاعلى صورتها الحقيقية وشكلها البهيج . ولكن الناس ينظرون إلى القول كأنه الحقيقة ولا يعنون بالبواعث على النطق به ، فيؤثر فيهم ، ويمتزج بأفكارهم ، ثم يبرز منها كأنه حكمها الخاص ، فيؤيدونه بماشاءوا من الأدلة ، ولا يرجعون عنه ولو ظهر خطؤه

كل ما يلقى فى الماء النقى من المواد العكرة يعكره ويمنع صفاءه ، كذلك ما يحشر فى الفكر من الآراء الفاسدة يعكر صفاء النفس ، ويمنعها

اجتلاء جمال الحياة وبهجة العيش ، ويحزنها الفكر بتصوراته المشجية ، ويمثل لها الموت فى كل لحظة ، وسيفه مسلولا على الرأس ، والقبر مفتوحا على مصراعيه ، وهوامه وحشراته تدب على الأرض جشعة متربصة لالتهام الجسد ، فتنفر النفس من الحياة ، وتتألم من الوجود ، ويلازمها الخمول ، ويضعفها اليأس . ولما كان الاستياء ناشئاً فى الغالب من تأثير الآراء الفاسدة فى فكر الإنسان وفى نفسه ـ كان اطراح هذه الآراء حائلا دون تأثيرها وداعياً الإنسان إلى اجتلاء جمال العالم وأسباب الغبطة .

أسباب الشقاء

فى نظر (برترند رسل) الفيلسوف الإنجليزى فى كتابه : « الظفر بالسعادة »

الأول — الأثرة : الاشتغال بالنفس ، وحصر الإنسان إياها فى دائرة ذاتيته ـ يفسد جو الحياة : كالمصباح حين تضعه فى غرفة ثم تغلق نوافذها ؛ فإنه يفسد الهواء . والمشتغل بنفسه يجد فى أقل صدمة يصطدم بها فى حياته طعنة مقصودة موجهة إليه من القدر المشتغل عن العالم بمحاربة هذا الفرد الواهم . وفى هذا الاعتقاد الخاطىء كثير من أسباب الشقاء . وأول خطوة فى سبيل سعادة المرء هى خروجه من سجن ذاته ، واهتمامه بالحياة العامة للجماعة .

حقاً إن الاهتمام بالجماعة لا يخلو من عثرات للفرد ، ولكن ليس لهذه العثرات فى النفس الأثر الذى لها فى نفس المشتغل بذاته : فعثرة الرجل المهتم بسعادة المجموع لا تفسد عليه حركة نفسه ، كما تفسد أقل صدمة حركة نفس المشتغل بذاته : فالحرب العالمية مثلا لا تعرقل حركة حياة المرء الخاصة ، كما يعرقلها فكر ضئيل يطرأ عليه بإيحاء من سلطان أثرته ، واشتغاله بنفسه عن العالم .

الثانى — الإسراف فى التنافس: سل الناس اليوم فى أوربة وفى أمريكة عما يشغلهم فى الحياة يجيبوك فوراً : « يشغلنا فيها الكفاح للرزق » والحق

أن هذا الجواب غير صحيح : ذلك أن حقيقة ما يسعى إليه الناس هناك التغلب لا الرزق . وما أكثر الناس الذين يعيشون حياة يفضلها الموت ألف مرة بسبب التنافس والتطاحن فى سبيل الفوز !! والنجاح عند أولئك الناس شيء مادى لا يكاد يعدو المال ، فالمال عندهم هو كل شيء فى الحياة ، وقد بلغت شهوة الاندفاع وراء النجاح المادى مبلغا خطرا حتى إن المرء يندفع اليوم فى ألوان من المضاربات والمغامرات تجعل حياة أصحابها قلقا مستمرا ، واضطرابا غير منقطع .

ولا أنكر أن الرغبة فى النجاح عامل خير فى حياة الناس ، ولكننى أنكر جعلها عنصر السعادة الوحيد . فلتكن رغبة النجاح عنصراً من عناصر السعادة فى الحياة ، لا خلاصة عناصرها مجتمعة .

الثالث الملل : لا ينشأ الملل من فقدان وسائل السعادة ، بل من فقدان

مايثير الرغبة ، وإثارة الرغبة فى الإنسان غريزة بعيدة الغور فى نفسه ، وأحسب أن هذه الرغبة كانت تجد كفايتها من الإثارة فى العصور الأولى التى كان يقتات فيها الإنسان بما يصيد ، فلما انتقل إلى عصر الزراعة أخذت أسباب الملل تتسرب إليه ، ونحن مازلنا نشعر بلذة بعيدة الأثر فى النفس حين نخرج للصيد ، فالميل إلى إثارة الرغبة ظاهرة قوية الوضوح بين الهمج ، وكثيراً ما نسمع عن ملل الحياة فى هذا العصر الآلى ، ولكننا نرى أن هذا العصر الآلى أزال كثيراً من أسباب ملل الحياة الزراعية :

فساعات العمل بين العمال ليست ساعات وحدة وانفراد كساعات الزارعين ، أما ساعات فراغهم فيمكن أن تصرف فى كثير من أسباب إثارة الرغبة بفضل الآلة . فأين ساعات الليل المظلمة بالأمس الزراعى من ساعات الليل فى هذا العصر الآلى ؟ : كانت الأسرة فى الماضى تجتمع ليلا فى غرفة أو فى منزل ضئيل النور ليتحدث الأب وليصغى الأبناء ، ولم يكن الخروج من شارع إلى آخر ميسوراً لرداءة الطرق وقلة الأنوار ، بله العادات : فقد كانت

للزوم المنزل أوجب ، أما اليوم فالليل نهار ، والآلة التى أحدثت تلك الثورة الاقتصادية كسرت قيود الماضى ، فخرجت المرأة تعمل وترتزق ، ولم تعد الأسرة محصورة فى المنزل ، بل خرجت إلى ميدان فسيح الجوانب بفضل الآلة : فهناك دور الخيالة والمذيع ، والمرسح ، وما إلى ذلك ، تمهد سبيلها طرق مرصوفة مضاءة وسيارات . . . ، وعادات جديدة لا تعرف تزمتا ولا شبه تزمت .

والهروب من الملل إذا لم تتوافر أسباب إثارة الرغبة قد يكون سبباً فى شرور كثيرة : فالاندفاع وراء المخدرات ، وأسباب الخلاعة – سببه نشدان الخلاص من الملل وبواعثه .

الرابع – الغيرة : الغيرة سجية أولية فى الإنسان ، يبدى الطفل مظاهر قوية منها قبل أن يتم السنة الأولى من حياته ، وليست الغيرة شرا كلها : فالعامل الحيوى فى إيجاد المساواة وازدهارها مرده الغيرة ، وهل ترى أن السواد من الناس كانوا يتطلعون إلى المساواة لولا ما يحسونه من أسباب الغيرة من الطبقات الأخرى ؟ وآفة الإنسان فى سجية الغيرة اعتياد المرء أن ينظر إلى الحياة نظرة موازنة ومفاضلة : فالواحد لا يقنع بما عنده ويسعد به ، ثم يحاول أن يزيده ، ويوازن بين ما يملك من أسباب السعادة ، وما يملك غيره منها ، فينفس عليه ويشقى بنفسه . والأجدى على الناس ألا يتجهوا فى حياتهم إلى المفاضلة إذا هم نشدوا الهناءة وراحة البال . والغيرة خدن المنافسة : فالتاجر الصغير مثلا لا ينفس على صاحب (الملايين) ولكنه ينفس على أمثاله . وهذا عصر اتسع فيه نطاق المنافسة والغيرة ؛ لأن المواصلات العصرية المختلفة ، وربط أنحاء العالم بعضها ببعض بشتى الوسائل : كالصحف ، والخيالة ، والمذيع وما إلى ذلك – تعرض على الناس مختلف ألوان الحياة الإنسانية عرضاً أخاذا ، يوقد جذوة المنافسة والغيرة . وما حياة العصر إلا تنافس وتشاح بين الطبقات والأمم والشعوب ، وفى هذا يكمن الخطر الذى قد يودى بالمدنية ، أو يسرع إلى زوالها .

الخامس — الإجهاد : من المفيد للجسم أن يتعب بعض التعب ، ولكن ليس من الفائدة فى شىء أن يرهق بالعمل ، وقد كان العمال قبل العصر الآلى يرهقون أشد الإرهاق ، فلما جاءت الآلة رفعت عنهم كابوس الإجهاد ، إلا أن هذا التعب الزائل حلّ مكانه آخر لا يقل عنه خطراً ، وهو إجهاد الأعصاب وإرهاقها :

يترك عامل اليوم منزله إلى المصنع ، فتتلقف أذناه أصوات السيارات والعجلات الكهربائية والقاطرات البخارية ، وما شئت من جلبة الآلات ، فإذا وصل إلى المصنع استقبلته عاصفة هوجاء من الصخب والضوضاء ترهق الأعصاب شرّ إرهاق ، وهو فى هذا كله فى قلق نفسى مستمر : فهناك خشية الطرد ، وعنت الرؤساء ، وخوف الاصطدام بآلة من الآلات . كل هذا وأمثاله يثير فى نفس العامل شتى الاضطرابات مما يرهق النفس والأعصاب معاً .

هذه حياة العمال ، أما أصحاب العمل ففى شر آخر : فى قلق مستمر من التنافس والمقامرات والمضاربات ، وما قد تؤدى إليه من خراب ودمار .

لا ينكر أحد أن حياة اليوم جهاد مستمر فى سبيل النجاح ، وهذا الجهاد العملى النفسى يفضى إلى الإعياء ، ومعظم هذا الإعياء من قلق النفس ، وليس أجدى على المرء من انتهاج محجة نفسية صحيحة تجعله متزن التفكير فى أعماله ، متزن النفس ، سديد الحكم . وهناك عامل خفى شديد الأثر فى تضاعف التعب فى العصر الحالى : هو الحاجة إلى ما يثير العاطفة ويشحذها ، حتى تتذوق السعادة : فالأحوال الاقتصادية الحاضرة ترجىء الزواج ، فلا يتمكن الرجل منه إلا فيما بين الثلاثين والأربعين ، وكذلك الزوجة تكون قد جاهدت جهاده ، وبلغت من السن ما بلغه ، فتجىء حياتهما الزوجية فاترة أشد ما تكون حاجة إلى إثارة العاطفة ، وفى هذا إرهاق مضن للأعصاب .

السادس — وخز الضمير : لاشك فى أن وخزات الضمير لها أكبر الأثر فى سعادة الإنسان وشقاوته ، والضمير عند الناس مصدر وحى يتعرف به المرء الخير من الشر ، ولكن أترى أن العلوم النفسية الحديثة تقبل هذا القول ؟ وهل الضمير إلا مجموعة المواد التى يتألف منها العقل الباطن ؟ إن أقوى نوازع هذا العقل الميل إلى التستر : فالإنسان مايزال يحتفظ بسجية الاختباء التى كانت أم وسائل دفاعه عن نفسه فى عصوره الأولى ، وماتزال هذه السجية قوية الأثر فى نفسه : فمن الناس من لايشعر بتأنيب الضمير من فعلة شنعاء إلا إذا افتضح أمره ، فإذا استتر الأمر فالأغلب أنه لايشعر بشىء من التأنيب والتبكيت .

والضمير لايوحى بخير ولا بشر ، وإنما ينضح بما رسب فى العقل الباطن من عادات ونوازع . والخوف من الاصطدام بهذه النوازع أو التساوق معها هو ما نعرفه نحن باسم الخير والشر . وهذه المواد التى تتألف منها عقولنا الباطنة مجموعة مااستقر فيها من وراثات ، وما نكتسبه من البيئة التى ننشأ فيها ، وتكون ضمائرنا .

نخلص من هذا كله بنتيجة خطيرة : هى خروج قوانيننا الخلقية من سلطان العقل . والناس يتناولونها كما يتناولون المخدرات ، وواجب المرء أن يبتعد عنها . أنا لاأقول باطراح الناس القوانين الخلقية ، ولكنى أصر على وجوب اصطناع قوانين من وحى العقل ، لامن وحى الوراثة (١) والبيئة .

السابع — توهم عداء الناس : من ألوان الجنون أن يتوهم المرء وجود مطاردين له ، يقتفون خطاه لإيقاع الأذى به ، وكثيراً ماتنتهى هذه الأوهام إلى ضرورة حفظ المصاب بها فى إحدى المصحات ، ولكننا لسنا

(١) صريح أن المؤلف أراد بالقوانين الخلقية ماتكون من الوراثة والبيئة دون عقل وروية ، وجلى أن ذلك لايسرى على قوانين الأخلاق الإسلامية ؛ فهى تساوق العقل ، ولا تناقضه .

نبحث فى هذه الحالات الشاذة ، بل هناك كثير من الناس فريسة هذه الأوهام ، فتراهم بها فى كدر مقيم : يتوهمون أنهم يحسنون إلى غيرهم فيسىء إليهم ، وأنهم يُصفونه النية والإرشاد ، فينالهم منه الجحود والنكران ، ويبذلون فى سبيل الإحسان إليه كل مشقة ، فيسرف هو فى الإساءة والشر . فهؤلاء يجب أن يذكروا أن كثيراً مما يتخيلون مرض نفسى تسهل معالجته بقليل من العناية ، ونصيحتى أن يذكروا الأمور الآتية :

١ ـ ليست أعمالهم التى يتوهمونها مثالا لنكران النفس فى سبيل غيرهم كما يظنون

٢ ـ ليجتهدوا فى تعرف حقيقتهم ، وفى تعرف هذه الحقيقة تخفيف لآلامهم : فمنهم من يقدر مواهبه مثلا فوق قدرها ، فيتوهم أن غيره يسىء إليه حين لا يعطيه حقه من التقدير لتلك المواهب الفذة .

٣ ـ ليذكروا أن الناس لهم ما يشغلهم فى الحياة غير انقطاعهم لنكران صنائع هؤلاء الأفراد والإساءة إليهم

٤ ـ ليذكروا أن الناس ليسوا دائما على استعداد لقبول كل ما يقدم إليهم من المعروف والإرشاد ، وما إلى ذلك .

الثامن — الخوف من الرأى العام : قل من يستطيع أن يسعد فى الحياة إذا تنافرت آراؤه وتقاليد الجماعة التى يعيش معها ، ومن أقوى مظاهر العصر الحاضر اختلاف الناس اختلافا بينا فى معتقداتهم المدنية والسياسية والدينية وغيرها . وإذن فأسباب عدم السعادة كثيرة كثرة هذه الاختلافات فى المعتقدات ، وحضارة اليوم تذب وثبات واسعة لا اتزان فيها ، وهذا من شأنه أن يوسع رقعة تباين المشارب واختلاف الآراء وتضاربها . وليس أثقل على النفس من التضييق على المرء فيما يعتقد أحقيته .

ومن أشد الأخطاء الشائعة القول : بأن العبقرية لا يعوق ظهورها عائق ما ، وأن المرء الصحيح النزعة والآراء لابد أن تتغلب نزعته على الرأى العام . هذا خطأ سقيم : فكم من عبقرى نابغ دفن حياًهو وعبقريته دون أن يعرف الناس شيئا عنه : دفنه فى الحياة جهل الناس وغباؤهم .

وليس من الإنصاف أن نكلف العبقرى وحده تحدى الرأى العام ، بل الأحرى أن تفسح الجماهير المكان لكل فرد ، حتى يظهر ما عنده خيرا كان أو شرا .

وليذكر الأفراد الموهوبون أن الدهماء والكلاب سواء : فأنت حين تلتفت إلى الكلب يزداد نباحا وصراخا ، وإذا أهملته التزم الصمت ، وعاد كلباً بعد أن كان قد استأسد .

قلنا : إن المدنية حملت معها أسباب التباين والاختلاف ، فنقصت أسباب السعادة عند بعض الناس من جراء التصادم والتنافر . ويجدر بنا أن نقرر أن هذه المدنية عينها حملت معها علاج هذا الأمر إن أحسن الناس الاستفادة منه : ذلك بأنه كان المرء بالأمس إذا تنافر فى آرائه مع أفراد أسرته أو عشيرته من أهل القرية أو المدينة لم يكن من السهل أن يجد له بيئة أخرى فيها جو يتساوق وما يأخذ به من الآراء والمعتقدات ، أما اليوم فحين أجد عشيرتى متنافرة أفكارها مع أفكارى يسهل علىّ أن أجد لنفسى بيئة أخرى أطمئن إليها وتطمئن إلىّ دون تجشم المشقات ؛ فالمواصلات ربطت أنحاء العالم بعضها ببعض . ومن هذا يتبين أن البيئة الاجتماعية اليوم تعدت حدود الأسرة وحدود القرية أو المدينة ، فأصبحت أوسع من ذلك ، وإذا كان الفرد قد تخلص بذلك من سلطان الأقلية الظالمة فهل تخلص من سلطان الصحافة ؟ لا ؛ لأن ما كانت عليه الأسرة بالأمس والمدينة والقرية من السلطان وشدة التحكم بالأفراد والجماعات — انتقل اليوم إلى الصحافة . فليتق رجال القلم ربهم فى كل ما يكتبون .

أهم أسباب الشقاء

فى رأى فضيلة العلامة الشيخ الدجوى

الأول — الترف الذى أمات خلق المروءة ، وألجأ ذويه إلى اكتساب المال من غير وجوهه المشروعة ، واضطرهم إلى الذل فى تحصيله حتى يصلوا إلى مايريدون من زخرف باطل ، ونعيم كاذب .

الثانى — الإسراف وهو نتيجة الترف ، ولكنه قد يكون ناشئاً من ضعف الرأى وعدم الحكمة فى التصرف ، فيكون بلا شرف ولا فائدة أصلا ، ويلحق بالعبث الصرف .

الثالث — عدم تنظيم الأوقات وصرف الكثير منها فى غير ماينفع : فعلى الإنسان أن يعمل لنفسه نظاماً يتبعه ، ولا يحيد عنه فى كل شىء ، ولا يصدق نفسه فى أنها غنية عن النظام ، وليست تفعل إلا اللائق أو اللازم ؛ فإنها جاهلة أو خداعة تهوى الإطلاق وتفر من التقييد ، وإن كان فيه صلاح حالها .

والإنسان طويل العمر جداً إذا كان من العاملين ، وما أظهر له أنه قصير العمر ، وأذهب حياته بلا فائدة — إلا عدم إلزام نفسه قانوناً مخصوصاً حتى ضاعت أوقاته ، واختلت أعماله .

الرابع — الاكتفاء بالعلم فى تهذيب النفوس ، وعدم تعويدها الفضائل .

الخامس — عدم غرس الدين فى نفوس النشء على مايجب ، وعدم تمرينهم على ماجاء فيه ، وتركهم للتعاليم المدرسية ، أو ترك ولاة الأمور الاهتمام

بذلك . وليس مثل الدين شىء يردع النفوس عن القبيح ، ويأخذ بها عن شهواتها ، ويصل بها إلى كمالها .

السادس — عدم رياضة النفس وإشعارها بالفضائل : بالمطالعة فى كتب الدين والأخلاق آنا فآنا ؛ (فإن النفوس تحتاج فى حفظ صحتها إلى الرياضة بذلك العلم ، كما تحتاج الأبدان إلى الرياضة « المعروفة ») ، وعدم تحريك الإحساس الدينى فيها من وقت إلى وقت ، حتى ضعف فى أغلب الناس ، أو كاد يقضى — عليه بالكلية ، « والغفلة والنسيان من طبع الإنسان »)

وإذا استمر القلب على التوجه إلى جهة واحدة كاد يجهل ماعداها ، أو يعلمه علما لايترتب عليه أثر . وتعهد النفوس فى رياضتها يجب أن يكون قبل تعهد الأجسام .

السابع — إنكار الروحانيات وقصور النظر على الطبيعيات ، وهو أساس الشقاء ، وسبب البلاء ، وقد جاء ذلك من البعد عن علوم الدين وما ورد فيه ، ومن تقليد الغربيين الذين لا يعرفون غير علوم الأجسام ؛ لأنها وجهتهم : (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

الثامن — عدم ملاحظة استعداد النشء : فكثيرا ما يكون الولد قوى البنية ميالا للحركة تتعبه الأعمال الفكرية (لأنه لم يخلق لها) ويرتاح للأعمال البدنية ، ولو اشتغل بها لكان له نتيجة حسنة تعود عليه وعلى الناس ، فيسعد فى نفسه وتسعد به أمته ، ولكن والده تحمله الأنفة أو المحافظة على أن يكون مثله ، بل الجهل وعدم التبصر — ألا يعلمه ماهو مستعد له من الصناعات والأعمال : فتراه يرسله إلى الأزهر أو المدارس طمعاً فى الشرف الرفيع والمستقبل الباهر ، فيقهره على غير ماخلق له ، فلا يزال يعانى مشاق الحياة الجلوسية ومتاعب الأعمال العقلية ، حتى يغلبه استعداده أخيراً (وقد فات زمن التعليم) فيشقى شقاء طويلا ، وتفقد الأمة عضوا من أعضائها كانت تنتفع به لولم

يكن أشل أو مجذوماً يخاف على جسمها منه . ولو تبصر الناس ، ولاحظوا ذلك ، وهو أصل كبير فى التربية ، وأرسلوا إلى التجارة من يصلح لها ، وإلى الصناعة من يميل إليها على اختلاف أنواعها ، وإلى العلم من خلق له — لأتوا الرقى من بابه ، والسعادة من أقرب طرقها :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

***

والحمد لله الذى هدانا لهذا : (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ) والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسل لإسعاد الإنسان فى دنياه وأخراه ، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه ، فسلكوا سبيل السعادة ، وفازوا بالحسنى وزيادة .

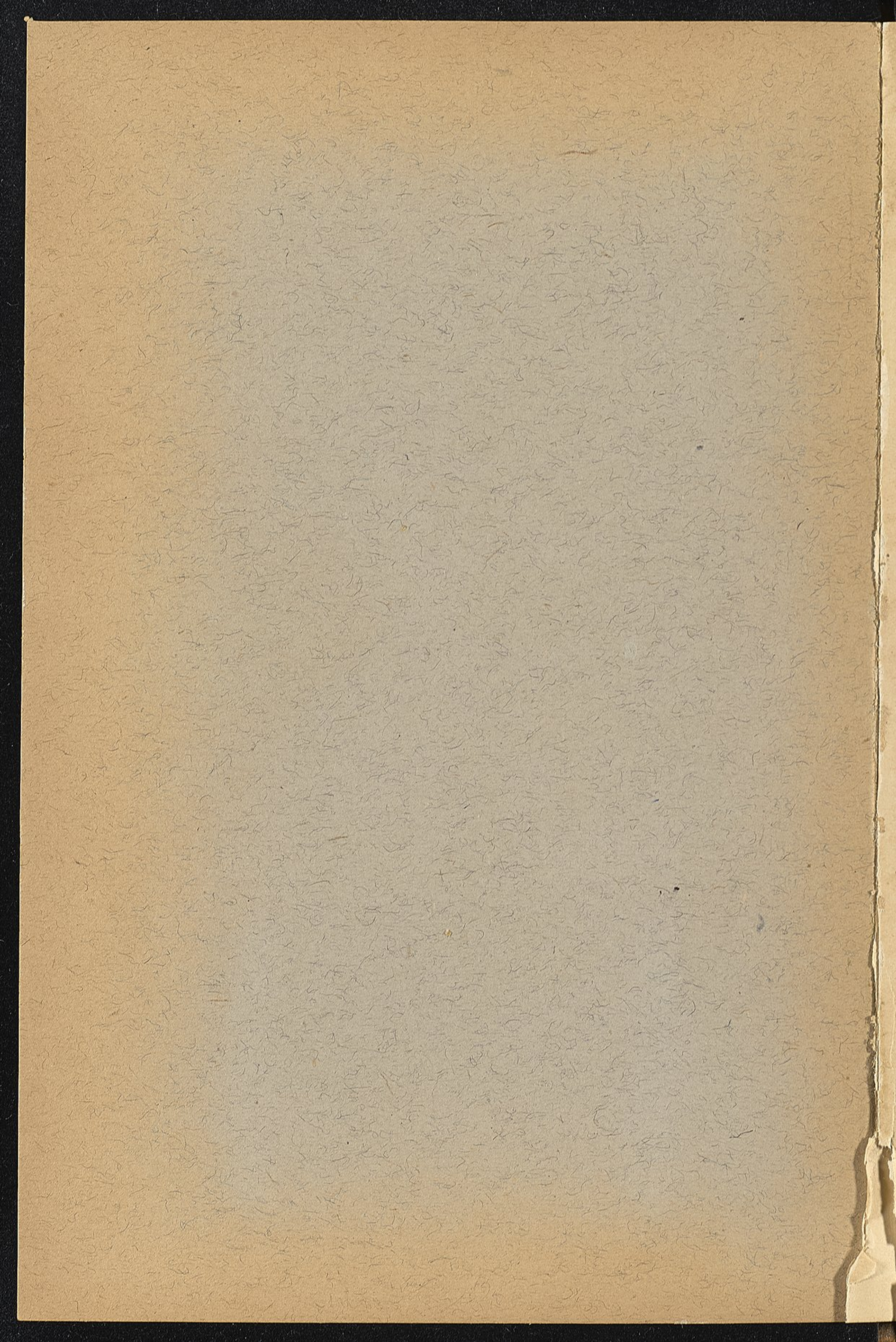
بعون الله تعالى تم الجزء الأول

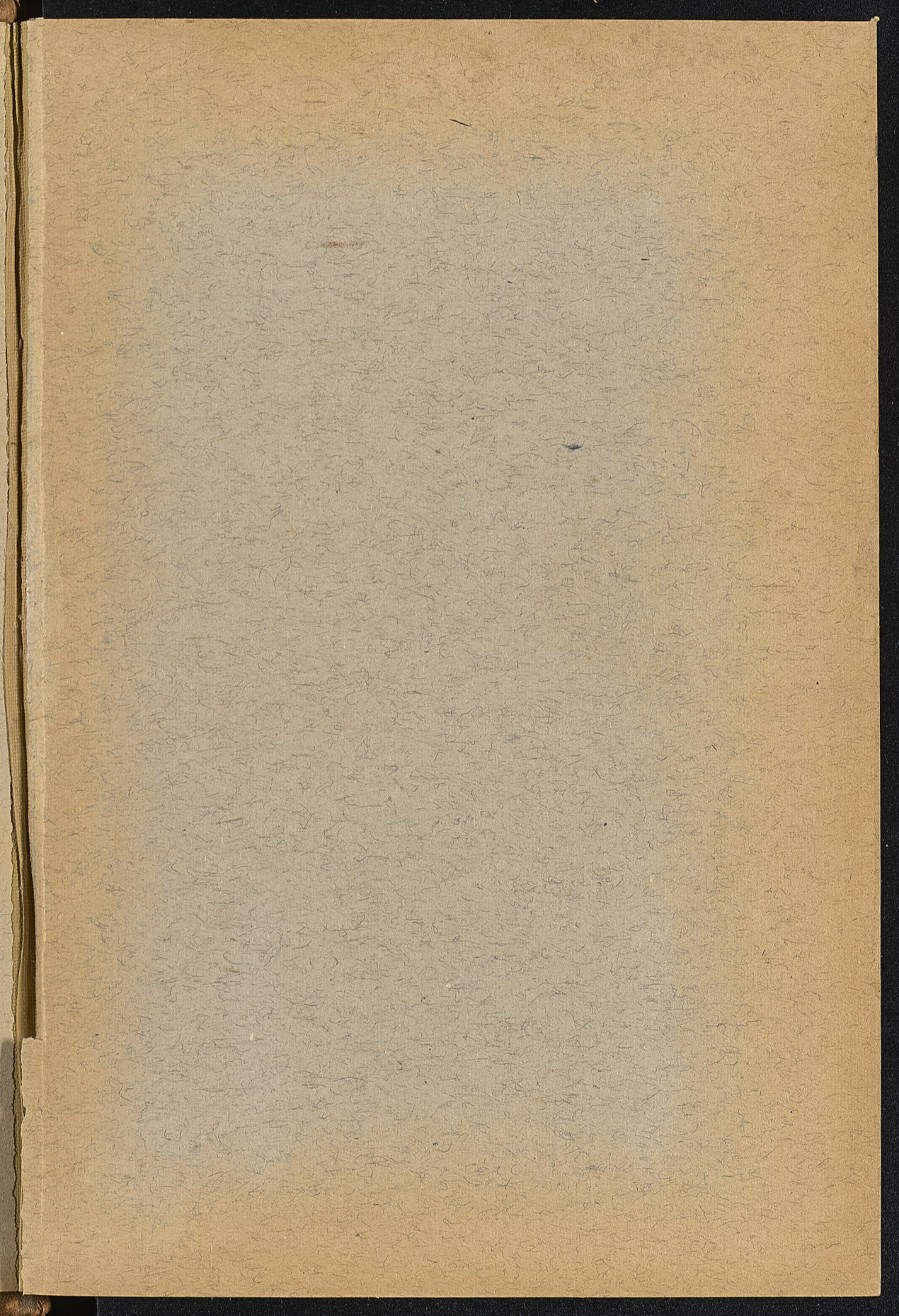
ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثانى وأوله : الخير :

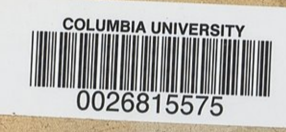
تنبيه

نسترعى نظر القارىء الكريم إلى أن جدول الخطأ والصواب لم يتضمن إلا الأخطاء الهامة التى أمكن إصلاحها ، وهناك أخطاء لا خطر لها مثل: همزات قطع متروكة ، ونقط لم تظهر ، ورءوس حروف لم تتبين ، وأواخر حروف لم تتضح ، ولهذا السبب لم نستطع إصلاح هذه الأخطاء ، ولأنها لا تخفى على فطنة القارىء اللبيب .

المؤلف






COLUMBIA UNIVERSITY
0026815575

